

## المحتويات

### إنكسالية اللغة العربية

صفحة

- ٩ فرضية المحتية القوية واللغة العربية ..... د. عبد الله حامد سعد
- ٦٩ اللغة ودلائلها: تقريب تداولي للمصطلح البلاغي ..... محمد سورياني
- ٨٥ مفهوم المجاز عند جيرار - ونظيره في البلاغة المعاصرة ..... د. محمد سالم ولد محمد الأمين
- المصطلح الأنثوي: بين إلغاء بالعرفنة وإنشاء بالتاريخ
- ٩٩ بعض مصطلحات الشعر العربي لدى النقاد - نبينا ..... صالح غرم الله زك
- ١٢٧ تعريف الناثر القوي في تنبؤ لنا الفخر ..... د. أسماء عبدالمحسن المنصور
- ١٩٢ تعريب النظم الجامعي: الضوابط على تجربة ..... د. تغريد نصر أصغر
- ٢٢٢ في طور التفتيش: معجم جديد للترجمة من العربية إلى الإنجليزية ..... محمد محمد علي خليل

### أفان نقدية

- ٢٤٢ العرولة الآثار البشرية ..... نائلة: زاهي مونت باومن
- عروض وتقييم: د. خليفة بستيكي
- ٢٦٩ بين التاريخ واللغة السريحي: دراسة تحليلية لجدليات النص السريحي ..... د. أحمد صابر
- ٢٩٥ علم النفس والتحكم: نظرة للحرب الجارية ..... د. عمر خليفة

## تقديم

إن اللغة العربية لتصل مباشرة بهوية وثقافة وحضارة الأمة كما أن تقدمها هائلا في علم اللغة يشكل عام نتيجة للتطور العلمي المعاصر قد تم ويبدو أننا بعيدون عنه عقودا كاملة، فلا تعليمنا للغة العربية قد تطور في مدارسنا وجامعاتنا، ولأني إعلامنا وكثافتها، بل أننا نشهد العكس من ذلك حيث تواجه اللغة العربية - وعلى جميع المستويات - تراجعا ملحوظا هو في حقيقة الأمر جزء من وضع حضاري عام يعيش أزمة خانقة في النصف الثاني من القرن العشرين. إن هناك إشكالية في اللغة العربية وفي الترجمة والتعريب، وفي تدريس اللغة وعلاقتها باللهجات المحلية، وفي مدى استخدام التقنيات المعاصرة في علم اللغة واللغة والثقافة وغيرها من الموضوعات.

وعلى سبيل المثال فإن أزمة اللغة واللهجة العربيةين قد أنتجت مصطلح اللغة الثالثة، أو ما يسمى باللغة الوسيطة، وهي لغة المثقفين العرب عموما، كما أن سؤالاً يثار بين الحين والآخر: ما دور مجامع اللغة العربية في ترقية وتحديث العملية اللغوية، وما دورها في ربط المفردة اللغوية بحركة الحياة؟ ثم ما دور المؤسسات التربوية والتعليمية والثقافية والإعلامية بالارتقاء باللغة العربية فولا وكتابة؟

وعندما يتعرض البحث الأول في هذا العدد لفرضية الحتمية اللغوية واللغة العربية فإن الباحث هنا يعتقد بأن هناك دوراً أساسياً للغة في تشكيل الفكر، أي أنها الوعاء الذي يتشكل فيه الفكر، ولذلك هناك حتمية للعلاقة بين الفكر واللغة. وينتقل بنا البحث الثاني إلى موضوع اللغة ودلالاتها، ويغوص بنا الباحث في البلاغة اللغوية وطرح قضية مهمة اهتم بها النحاة والبلاغيون وغيرهم، وهي معارضة المنهج التداولي في اللغة فهو رؤية ومنهج للبلاغة والنحو والمنطق النقدي، تقوم جدليته بين الواقع والاعتقاد.

وتتتابع الدراسات في هذا العدد لنتناول مفهوم الصياح عند «بيرلمان» وتطوره في البلاغة المعاصرة، والمصطلح الأدبي بين غناء بالعرفاء وغناء بالتاريخ، والمناظر الأولى في تنمية لغة الطفل، وتعميق التعليم الجامعي، ومعجم جديد للترجمة، يضاف إلى تلك الدراسات عرض لكتاب العولمة، الآثار البشرية، ودراسات تناوالت التلوث والنقد المسرحي، وعلم النفس والتحكم.

إن مجلة «عالم الفكر» تحرص على طرح الموضوعات الجديدة والمهمة في حياتنا العربية، وهي تقوم بإعادة إنتاج الماضي من أجل التجديد والإضافة الفكرية والتراكم المعرفي.

نتمنى أن تكون موضوعات هذا العدد مقدمة لفتح حوار بناء وكتابة متطورة حول هذه القضية التي أسميناها إشكالية اللغة العربية، فاللغة العربية أساس فكرنا العربي، وأهم مقومات ثقافتنا.

رئيس التحرير

mrumahi@koms.net

## إشكالية اللغة العربية

- فرضية الحتمية اللغوية واللغة العربية
- اللغة ودلالاتها
- مفهوم الحجج : هل هي حجة أم لا وتطورها في البلاغة المعاصرة
- المصطلح الأدبي بين غناه بالمعرفة وغناه بالتاريخ
- المأثور القولي في تنمية لغة الطفل
- تعريب التعليم الجامعي
- في طور التنفيذ : معجم جديد للترجمة



# فرضية الحتمية اللغوية واللغة العربية

د. محمد الله حايه حيد \*



ARCHIVE

أولاً: المقدمة

تعتبر فرضية الحتمية اللغوية *Linguistic Determinism* إحدى القضايا الفكرية المثيرة للجدل في علم اللغة والعلوم الأخرى التي تهتم فيها اللغة دوراً مهماً مثل الفلسفة وعلم النفس وخاصة نوعه المعرفي *Cognitive* وعلم الأنثروبولوجيا *Anthropology* والإستيمولوجي أو علم المعرفة *Epistemology*. فالعلاقة بين اللغة والفكر، والتي تشكل محور دراسة هذه الفرضية، كانت وما زالت تستقطب الكثير من الباحثين والدارسين منذ عشرات السنين. ينصب البحث عادة عند تناول هذه العلاقة تحديداً على دور اللغة في تشكيل الفكر *Thought* أو في عملية التفكير. أي هل هناك فكر أو تفكير من دون اللغة؟ أو هل اللغة هي التي تحدد إطار الفكر؟ هذا ولقد تبأينت الآراء حول هذه المسألة، وذلك تبعاً للمنهج المتبع في معالجة هذه المسألة، وكذلك تبعاً لتأويل المؤلف في المعالجة نفسها.

أحد التيارات اللغوية والفلسفية الذي تناول مناقشة هذه المسألة، والذي يعود بجذوره إلى القوائم اللغوية الفلسفية الألمانية التي ظهرت في القرنين السابع والثامن عشر، ثم القوائم اللغوية الأمريكية التي ظهرت في هذا القرن، يدعي أن الفكر غير متيسر من دون اللغة، وأن اللغة هي الرءاء الذي يتشكل فيه الفكر، وعليه فإنه لا يوجد فكر من دون لغة. وقد أثبت على هذا الأمر حتمية العلاقة بين اللغة والفكر، والادعاء بأن اللغة هي التي تحدد طريقة التفكير لدى الناطقين باللغة الإنسانية، فتركيبية اللغة ونظامها، واسمها المكونات النحوي والمعنوي والدلالي، يفرضان خطاً معيناً من طريقة التفكير على الناطقين باللغة، أي بعبارة أخرى: إن الشخص هو السير للغة، ولا يقدر على الانفكاك منها.

تختلف عدد من الباحثين معيماً وحرماً هذه الفرضية، أي الحتمية اللغوية، تحت إلقاء البحث العلمي وموضوعيته المنجز على اللغة العربية، وإثباتها بالقصور والفقر اللغوي، لأن نظامها اللغوي- وحسب زعمهم- يخلو من الفئات التركيبية النموية Grammatical Categories الموجودة في اللغات الأخرى، واسمها الأوروبية منها، ويمنع هذا الاتهام بطبيعة الحال- وهم ما يرجعون إليه، وطبقاً لادعاءات الفرضية- أنها فكرية ومعرفية وقانونية- برفع بهذه الفراسة من أجل الرد على ادعاء هذه الفرضية بأنكل علم، وتبيان الأسس البهية والبسطة التي تقوم عليها هذه الفرضية، ورسم حلقة أن ما أرادته البعض من دراساتهم للمنطقة باللغة العربية لا يمكن أن يكون حلقة أخرى من الحلقات المتتابعة التي توالف بين فترة وأخرى، والتي تستهدف التشكيك الفكري والحضاري في مقومات هذه الأمة العربية الإسلامية. إن محور هذه الدراسة ينطلق ابتداءً، ليس من دفع تهمة في نظام الأول- بل بتسليط الضوء، أولاً وأخيراً على مدى صحة هذه الفرضية، والكشف عن ثمراتها على الصمود أمام التطورات الفكرية الحديثة الكلاسيكية لغوية كانت أو معرفية.

### ثانياً: فرضية الحتمية اللغوية

تمثل فرضية الحتمية اللغوية الجانب المتطرف لفرضية النسبية اللغوية Linguistic Relativity Hypothesis. أما الجانب المعتدل لهذه الفرضية فيقوم على أساس أن اللغة دوراً ما في عملية التفكير أو المعرفة<sup>(١)</sup>، أما الجانب المتطرف- فكما أسلفنا - فيقوم على أساس أن اللغة هي الرءاء الذي يتشكل فيه الفكر، وأن هناك علاقة عضوية بين اللغة والفكر. وهذا الجانب الأخير

هو الذي يلاحظ في كتابات دعاة هذه الفرضية، أي أنهم دراسة الجانب المتطرف للتسمية اللغوية أي العنصرية اللغوية حتى وإن اتصفت بعض عباراتهم بنوع من الاعتدال أحياناً.

يرجع تاريخ فرضية التسمية اللغوية بشكل عام إلى كتابات المفكرين الألمان وتبعيداً لكتابات كل من هيردر Herder في القرن الثامن عشر، وفسيولت Humboldt في القرن التاسع عشر، ثم كتابات المفكرين الأمريكيين في هذا القرن أمثال سابير Sapir وورف Whorf، إن ما يجدر ذكره بهذه المناسبة هو أن البحث في العلاقة بين اللغة والفكر يرجع إلى زمن الحضارة اليونانية القديمة وكتابات الفلاسفة اليونان من أمثال أفلاطون وأرسطو وغيرهم، على أي حال فإن الفرضية، والتي توصف بأنها جديدة-شديدة، قد أعيد طرحها من جديد في النصف الأول لهذا القرن من خلال كتابات سابير وورف حتى إن الفرضية ذاتها عُدت تُعرف بفرضية سابير وورف Sapir-Whorf Hypothesis.

يرى هوبولد أن اللغة هي التي تحدد الفكر وأن الاثنين متلازمان، بل إنه يذهب إلى حد الادعاء بأن اللغة هي الفكر، يقول هوبولد بهذا الشأن: «إن العنصر الأساسي للفكر... فالفكر واللغة هما شيء واحد وهو تابعان للاعتقاد»<sup>(١)</sup> وفي مقابلة أخرى يقول: «نحن أسيون ليس بسبب أننا نملك اللغة، ولكن بسبب أننا نحن اللغة»<sup>(٢)</sup> يرى سابير أن حيثه شيئاً متعلقاً إلى حد كبير مدعياً أن التماثل بين اللغة هم في الحقيقة والتعاون نجد رحمة لك اللغة<sup>(٣)</sup>. ويقول في مناسبة أخرى: إن تشكيل الفكر من نون اللغة أمر مستحيل مطلقاً لأن «الشعور الذي يمتلئ بالكثيرين والفاسي بأنه يمكن التفكير أو التحليل من نون اللغة هو أمر وهمي»<sup>(٤)</sup>، ثم يأتي وورف وي طرح وجهة نظره في موضوع العلاقة بين اللغة والفكر، أو بمعنى آخر سلطة اللغة على الفكر على النحو التالي: «إن النظام اللغوي (بمعارة أخرى الشعور) لكل لغة ليس مجرد أداة تستخدم لإعادة التعبير عن الأفكار، بل إنه يشكل للأفكار والبرنامج والمرشد للنشاط الذهني للفرد»<sup>(٥)</sup> ولتحليل الطابعات والتركيب العنصري الذهني... إن صياغة الأفكار ليست عملية مستقلة، هي عملية عقلية بالمعنى القديم، بل إنها جزء من نحو معين، وتتمايز بصورة بسيطة أو كبيرة بين الانتماء المنطقة، نحن نشرح الطبيعة إلى أنماط طبقاً لما تحدده لغاتنا الأم. تقسم الطبيعة وننظفها إلى مفاهيم، ونثبت لها المعاني بصورة كبيرة، لأننا أطراف في اتفاق يرسي إلى تنظيم الطبيعة بهذه الطريقة. هو اتفاق مشترك في المجتمع اللغوي ومركز في أنماط لغتنا»<sup>(٦)</sup>، فالألاحظ أن وورف قد

انضاف إلى فرضية العلاقة بين اللغة والفكر بعداً معرفياً جديداً يعرف بعلم المعرفة التجريبي Empiricist Epistemology<sup>(١٧)</sup>.

على ضوء عدد من الدراسات الميدانية التي نفذها كل من ساير و ويرف على اللغتين الهندية الأمريكية خلصا إلى نتائج قائلتهما إلى طرح فرضية الحتمية اللغوية. فقد لاحظ ويرف- على سبيل المثال- أن لغة الهوبي Hopi لا تفريق ظاهرياً بخصوص الزمن بين الفعلين الماضي والضارع على الرغم من وجود صيغة الأفعال الثلاثة، الماضي والضارع والمستقبل، في هذه اللغة<sup>(١٨)</sup>. فالعبر عن الزمن في هذه اللغة يختلف عن مثيله فيما أسماه «المستوى المتوسط للنظام اللغوي الأوروبي، Standard Average European» حيث يعبر عن الزمن في هذا النظام بدقة حسب زعمه. هذه لغة موجزة عن تاريخ فرضية الحتمية اللغوية ومبادئها.

### ثالثاً : اتهام اللغة العربية بنظامها

في هذا الجزء من الدراسة نتوقف عند بعض التهم التي تلقت بها اللغة العربية ونظامها من فكر وقصور. سيتضمن هذا الجزء عرضاً لبعض التهم، ثم بدأ أولاً ومبدئياً على هذه التهم تاركين الرد الأساسي والتجليل للجزء التالي من الدراسة حيث سيتم العمل على إبراز أدلة نرجو أن تكون كافية وشافية لرد على اتهام اللغة العربية وغيرها من اللغات بشكل عام. إلا أننا نود القول سلفاً إن الدراسات التي حوت هذه التهم والمزاعم بخصوص اللغة العربية وغيرها من اللغات لم تنسب في ذاتها بالمفهوم المنهجي والفكر الفكري، نظراً لامتدادها مرجعياً على فرضية مغلقة نظرياً وتقليدية، وبعداً عن النهج الموضوعي في البحث والتحقيق كما سيتبين لاحقاً.

في هجومه على اللغة العربية يرى شويبي Shwaby<sup>(١٩)</sup> أن اللغة العربية غير قادرة على استيعاب الأفكار الجديدة، وإن هي فعلت ذلك فمن الصعب استخدام اللغة للتعبير عن ذلك نظراً للطبيعة الصارمة للنحو العربي. فوجود مئات المترادفات، ومعتبين لغويين، والمفوض، يؤدي إلى الحد من القوة أو الحيوية اللغوية. ثم الفكرة في عملية التعبير والمصاغة، أما رداً فهو كالتالي هل قرأ هذا الباحث تاريخ العربية، وما حملته من عقيدة وأدب وفكر وفلسفة وكذلك من نظائيات وشروحات ومراجعات ومناظرات وغيرها؟ ألم تصلنا الثقافة العربية والإسلامية، وما أخذت من

غيرها من الثقافات. وهذا التحيز العظيم من المعرفة التي هي بين أيدينا هذه الأيام عبر هذه اللغة، فمعالجة هذا الباحث لهذه المسألة تكشف كما يرى إيمورد سعيد اللغة عن مساهمة عقلية مريضة على الأظلم إلى عدم وجود فكرة واضحة حول طبيعة اللغة وكيفية عملها<sup>(14)</sup>. فهذا الباحث لم يأت بعقول واحد فقط من الأدب العربي للتحليل على صحة مزاعمه. وأخيراً يجب سعيد سائراً حول سؤال قد يطرح من مكان وجود تأثير اللغة العربية على العقل العربي قائلًا: «إنه يتمحور بالتكيد في العالم الخرافي الذي نسجه الاستشراق»<sup>(15)</sup>.

أما باتي هاتش<sup>(16)</sup> التي يركز على بعض الصفات البلاغية والتي يعدها قبيحة هي في الواقع موجودة في اللغات الأوروبية كذلك<sup>(17)</sup>. على أي حال فإن هذا الباحث يعطي أهمية أكثر لموسم الزمان في اللغة العربية. وذلك بادعائه أن اللغة العربية تنظر إلى نظام تقصيلي الزمان في الفعل العربي متأخر الزمان في اللغات الأوروبية. وهذا بدوره يؤدي إلى نتائج سلبية كالاتفاق إلى الثقة والوضوح في الكلام العربي. إننا نرى أن هذا الباحث جهل وتجاهل حقيقة أن لكل لغة نظامها الخاص من حيث التركيب والتعبير. وهذا الأمر لا يعني طبيعة الحال وجود التكرار اللغوي. على أي حال فإن موضوع الزمان في اللغة العربية والعلاقات السامية الأخرى قد استبعد على اعتماد المستشرقين الذين اتخذوا واقع الزمان في هذه اللغات<sup>(18)</sup>. فالعالم اللغوي إبراهيم المسامري يرفض ما يزعمه المستشرقون بخصوص الزمان قائلًا: «إنه ليس صحيحاً ما يقوله جماعة من الباحثين الأعاجم من أن الزمان ليس شيئاً أصيلاً. وأن القتران الفعل العربي به حديث التشاك»<sup>(19)</sup>. فظنرة مثالية إلى نتائج أبحاث المستشرقين تكشف عن أن نظرتهم كانت متأثرة بعظمهم الوصفية<sup>(20)</sup> التزامني Synchronic والتعاقبي Diachronic. فإنه من الثابت أن الزمان في اللغة العربية على علاقة وثيقة بالسياق، وأن هناك وسائل متنوعة وطرقاً مختلفة للتعبير عن الزمان في اللغة العربية<sup>(21)</sup>. إن ما يراه باتي من نقص في اللغة هو في الواقع نقص في التخصيص والانحلال عند هذا الباحث. فاللغات البشرية جميعها تنظر إليها على أنها لغات كاملة. فهل يعني أن الإنجليزية، على سبيل المثال، التي تستعمل مفردة واحدة هي the، للدلالة على مستطلي القرابة، هم وخلا، ناقصة لعدم وجود مفردتين، كما هو موجود في اللغة العربية. ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن مفردة nice. هل يجوز أن نطفي صفة صيغة المجهول عن العمل الإنجليزية التي تعبر الفاعل Agent. عند قولنا ... by لأن هذا يتناقض تماماً مع مفهوم صيغة

للجوهية كما هي في اللغة العربية التي تحتم حذف الفاعل في مثل هذه الحالة؟ ولقد اصاب مالك النطقي بكد المطوية عندما أكد أن: «وجود نفس في اللغة هو متعلق بغير صائب، إذ لا يوجد أبداً نفس لغوي أو لغوي لغوي- بل لنظم لغوي»<sup>(١٤)</sup> هذه واحدة من الحقائق التي يقرها علم اللغة الحديث.

وأخيراً فإن لاثنين «الأكاديمية»<sup>(١٥)</sup> يشكك في قدرة اللغة العربية في أن تكون أداة لإقامة التفكير المنطقي نظراً - على حد زعمه - إلى طبيعة نظامها اللغوي. ثم يذهب هذا الباحث إلى اتهام اللغة العربية بعدم قدرتها على استيعاب الكلمات الأجنبية نظراً لإصرارها على استخدام النظام الصرفي العربي على حد زعمه. الناظر في الكلام العربي المسموع والخطوب، يشك هذا الزعم. فاللغة العربية وسعت الكثير من المصطلحات الأجنبية شيئاً بحديثاً بعريتها أو إيجاز المصطلحات المرافقة للمصطلحات الأجنبية. فالنظام الصرفي العربي بعد مصدرها مهماً من مصادر إثراء اللغة العربية إذا استخدم بطريقة فاعلة وتوليدية. وهذا ما يقوم به ويدور له عدد من الباحثين من خلال الدعوة إلى تعريب اللغة من الداخل عن طريق التوليد والاشتقاق والتعريب الفكري<sup>(١٦)</sup>. أما بخصوص حديثه عن التثقل العربي فإن الباحث لم يأت بمثلاً واحد لإثبات زعمه وهو- في هذه الحالة- لا يدعو أن يكون من قبيل التوراة البحت<sup>(١٧)</sup>، فلماذا كان هذا الزعم صحيحاً لرمي بآثاره السلبية على حياة الأمة، وللمسئدة ذلك من خلال فوضى فكرية، وتعرر معرفي يفترض أن يكون قد تجبر في القرون الماضية، ومعاناة من القليل نفسه بواقع أن نجاحها في هذا الزمان.

وعندما المفكرون والفلاسفة العرب الذين تأثروا كثيراً بفرضية المتمية اللغوية كما طرحها الفريزيون، يستأنفون هذا آراء اثنين من المفكرين البارزين وهذا محمد عبد الجابري وركي نجيب محمود. يرى الجابري<sup>(١٨)</sup> أن اللغة العربية لتصف بصفتين اثنتين وهما لا تاريخيتها وطبيعتها الحسية. فهي بولاية «محتقة» منذ العصور الأولى، وجامدة لا تواكب الجديد في العصور التالية. فاللغة العربية عقلت على تصوير ونقل حياة أهل البادية والصحراء، وبهذه الفاسية يطرح سؤالاً كالتالي: كيف يحصل هذا القول على لغة عادية تيارات مركزاً مهماً ومرموقاً في الثقافي والحاضر، وحملت فكراً وأدباً وطباً وفلسفة على مدى قرون طويلة؟ هذا من ناحية، أما من ناحية أخرى فهل اللغة العربية التي نستعملها اليوم هي نفسها التي كانت في الجاهلية؟ قلن تلك اللغة بالراحل التاريخية التي عطلت المرحلة الجاهلية وحتى اليوم. فالأصوات والقواعد النحوية لم يطرأ عليها

شيء. ولكن ماذا عن اللطرات وأما اللب التعبير؟ إنها وملائك، والكوت كل عنصر عاشته اللغة العربية ووسعت نطاقها ووسعها بكل مميزات وتكرره عن غيره. هذا هو الأمر الطبيعي الذي يتوقع أن تسلكه كل لغة إنسانية سواء كانت موجودة في الأقاليم حيث الحياة البدائية أو في المجتمعات الصناعية المتقدمة حيث الحياة المعاصرة التي تعجزها ثورة الكمبيوتر والعلمانية. أما عن العلاقة بين اللغة والفكر بشكل عام فيقول الجابري إن اللغة «لا تعكس الظروف الطبيعية وحسب بل تجعل معها هذا الانعكاس نفسه لتشره على إمكانية والزمنة مستقلة، فتكون بذلك عاملاً أساسياً وأحياناً حاسماً في تحديد وتطور نظرة أصحابها إلى الأشياء»<sup>(٣٢)</sup>

أما رأي محمود<sup>(٣٣)</sup> والذي وقع تحت تأثير آراء المفكرين الفرنسيين فملخصه أن اللغة هي الفكر، وأن التغيير في أي فكر لابد أن يسبقه تغيير مهم في طبيعة اللغة التي يستعملها أهل ذلك المجتمع حيث يوجد الفكر. فإيجاد ثورة فكرية يستلزم إيجاد ثورة لغوية أولاً. أما الرد على هذه البعوضة المتسرفة فيكون بتذكير صاحبها **حول** واقع اللغة العربية قبل الثورة الفكرية الإسلامية التي عصت جزيرة العرب مع ظهور الإسلام. وكذلك واقع اللغة الروسية قبل تفجير الثورة الشيوعية في روسيا. وكذلك انزياحها عن اللغات وأهلها من الفكر قبل الحرب العرب والروس فالتين اللغتين أولاً لإيجاد التحويلات الفكرية المعروفة

## رابعاً : تقويم فرضية الحتمية اللغوية

هذا الجزء من الدراسة سيتناول النظر في جوانب فرضية الحتمية اللغوية بهدف تبيان وتعدد مواطن الضعف في هذه الفرضية، فإذا تبين أن هذه الفرضية مطلقة الأسس والزايم، فإن ذلك كافٍ للرد على الاتهامات الصالحة الذكر لغة العربية وغيرها. وكذلك الاتهامات الأخرى التي قد تبرز مستقبلاً.

### ١ - حقيقة ونص الفرضية

من أهم الأمور المتعلقة بالفرضية هي النص أو التوضيح الذي لخصه ونعبر عن حقيقة الفرضية. فلا يوجد نص محدد ونقيل وصريح يمكن أن يرجع إليه على أنه يحدد واقع الفرضية سواء في كتابات سابير أو بورف. فالعبارات الصادرة من هنا وهناك حول الفرضية ليست جميعها دقيقة وقطعية الدلالة، بل إنها غامضة أحياناً وحتى غامضة. فهناك بعض العبارات

الواضحة كذلك التي استشهدنا بها سابقاً، وهناك أخرى تشتم بالعمومية. تقول بن Penn بهذا الصدد إنه ليس من البعش أن المصادر المحددة للفرضية تشير إلى اختلاف بخصوصيات ماهية فرضية ويرف.<sup>(33)</sup> أما ويلز Wells فيصرح بأن الفرضية هي في الواقع «وهي»<sup>(34)</sup>، وأخيراً واسن وشريكه جونسون- ليرد Wason and Johnson-Laird يبرهان أن الفرضية يتكاتفها «الغرض»<sup>(35)</sup>.

## ٢- أهمية وتعاملية دليل الفرضية

من الواضح أن ساير و ويرف قد اتفعا بشكل أساسي على املة محدودة مأخوذة من لغة الهندود، وهو النظر في بعض اللغات الهندوية ومحاولة مقارنتها بما يعرف بالمستوى المتوسط اللغوي الأوروبي. فوجود الاختلاف التي بدت عميقة في بعض اللغات قد ينظر إليها على أنها املة بسيطة وغير كافية لإثبات نظرية كاملة وإطلاق من أهم كبيرة. صحيح أن البحث العلمي يقوم بالدرجة الأولى على إقامة الدليل، إلا أن طبيعة الدليل وقوته هي الأخرى مهمة، وبخاصة إذا كان الأمر يتعلق بمعالجة لغوية معقدة ذات أبعاد كبيرة ومشتتة كما هو متبعى حدود أكثر من علم اكتسبية ملاقة اللغة والفكر.

http://Archivebeta.Sakhril.com

فمن الثابت أن ويرف نفسه قد أطلق في إقامة وصف سليم للمستوى المتوسط لنظام اللغوي والأوروبي نصيغة المساقيل المتخلف. عن صيغتي الماضي والاضارع باستخدامها أحد الأفعال المساعدة<sup>(36)</sup>. هذا من جهة، أما من جهة أخرى فإن الدراسات ويرف وحتى ساير قد انحصرت في النطاق النظري. فمقارنة نظام لغة الهومي مثلاً مع النظام اللغوي الأوروبي على المستوى الشكلي Formal وهذه لا تكلف عن طريقة اختلاف في التفكير واللغة بشكل حاسم<sup>(37)</sup>.

بالإضافة إلى ذلك فإن الدراسات التي أقامها عدد من الباحثين على مصطلحات الألوان في اللغات المختلفة للدليل على صحة الفرضية ليست كافية بل على العكس ثم تفسير نتائج هذه الدراسات أحياناً بما يتعد فرضية مقابلة وهي فرضية الفكر وتأثيره على اللغة. وأن هناك عوامل بيولوجية مهمة في هذا المجال. يرى هارلي Harley أن القراءة الصحيحة لنتائج هذه الدراسات للألوان بينت كيف أن «الفهم مرتبط بعوامل بيولوجية وليس بعوامل لغوية»<sup>(38)</sup>.

وهذا ما أشار إليه في وقت سابق كل من كي وساندانيال Kay and McDaniel من أن



## عالم الفكر

الفلسفية يجب أن تفسر على مستوى «عصبي» Neurological كنتاج لتمثيل فطري دماغي Cortical<sup>(30)</sup>.

أما موضوع الزمن والذي أثار زوبعة كبيرة حبيت الرؤية الصعبة من دقائق الأمور المتعلقة بهذه القضية فإن دعاء فرضية الحتمية اللغوية جعلها حيلة مبهمة وهي أن هناك ما يسمى بالزمن اللغوي Linguistic Time والزمن الثقافي Cultural Time وهما أيضاً سواء. ومن علاقة الزمن والفعل في لغة الهوبي يؤكد غروالي Prowley، أن النظرة غير الأكاديمية- العارية- لغة الهوبي تظهر أن هذه اللغة تفتقر إلى فكرة الصيغة الفعلية Tenseless وكذلك إلى فكرة الزمن Timeless... فهذه الأفكار صعبة فيما يتعلق بعالم الهوبيين، إلا أنه ليس لها صلة بالطرق التركيبية لإيصال الزمن في لغة الهوبي<sup>(31)</sup>. هذه هي إحدى نقاط الضعف الأساسية في فرضية الحتمية اللغوية، وهي خلط عناصر الثقافة وعناصر اللغة وعدم التفريق بين ما هو ثقافي وبين ما هو لغوي<sup>(32)</sup>. أما ما لو تبنى تلك النظرة<sup>(33)</sup>، والذي أجري تحريفاً على نظام صيغة الفعل في لغة الهوبي فالحال أن بها نظاماً تقليدياً للتعبير عن صيغة الفعل ويمكن القول إنها الصيغة المستعملة للتعبير عن الزمن ولا تختلف عن باقي اللغات الإنسانية إن سمعنا توفير دليل مقبول لا يتعلق بالجانب المتطرف لفرضية الحتمية اللغوية، بل إن الأمر يشبه كذلك الحال للعقل من الفرضية حيث من الصعب توفير دليل منظم ومنطوق لهذه، وذلك لأن ذلك الدليل حسب ما يعتقد كود Code، يجب أن يؤخذ كمرجعياً من التركيبية الخارجية لجميع اللغات الإنسانية واللهجات واللغات التي هي من ضمن اللغات التي تستعمل في جميع الأماكن والأزمان<sup>(34)</sup>. وأخيراً وعلى الرغم مما كتب عن هذه الفرضية شيئاً وخديتاً، ومحاولات اختبار صحتها فإنه من الغريب أن يصرح أحد الباحثين زاعماً أنه لم يتم حتى الآن اختبار الفرضية الأصلية بصورة شاملة<sup>(35)</sup>.

### 3- عالم واحد

طبقاً لأزمع فرضية الحتمية اللغوية، فإن الإنسان يعيش في أكثر من عالم مادي أو فزيقي نظراً لوجود لغات عدة منتشرة في العالم. فكل لغة تعطي صورة معينة لهذا العالم تبعاً لنظامها اللغوي. فهناك عالم حسب ما تصيغه اللغات السامية، وعالم آخر حسب ما تشكله اللغات الأوروبية، وعالم ثالث حسب ما تصوره اللغات الأفريقية وهناك عوالم أخرى ضمن هذه المجموعات اللغوية. فهي ليست واحدة في نظامها اللغوي وهكذا. وهذا في واقع الأمر لا يتسجم مع ما يقرره العلم من أن هناك عالماً واحداً<sup>(36)</sup>.

## ٤ - رؤية واحدة

إن الفرد الذي يتلقن أكثر من لغة يمتلك هذه الأنظمة لغوية، وهذه الأنظمة تعمل - بحسب ادعاءات فرضية الحتمية اللغوية - على تحديد الإطار الفكري لذلك الفرد. فمن المتوقع أن يكون لذلك الفرد عدة رؤى للعالم الواسع المحيط به، وذلك أن اللغات تزود الفرد بصفات نوعية متعددة. فلو افترضنا أن هناك شخصاً عربياً يتقن بالإضافة إلى لغته الأم اللغات الإنجليزية والصينية فإنه من المتوقع أن يكون لدى ذلك الشخص أنظمة فكرية متعددة نظراً لسلطة هذه اللغات عليه. وعليه فإنه سيتعامل مع العالم المحيط به على أكثر من مستوى، فالزمن - على سبيل المثال - في هذه اللغات ليس متشابهاً، ولكل لغة نظامها الزمني. إنه من المتوقع أيضاً أن يحصل تشوش وإرباك سلوكي عند هذا الشخص. الواقع يشير إلى أنه لا يوجد هناك أي دليل يؤيد مزاعم هذه الفرضية حول وجود أكثر من رؤية للعالم.<sup>(٣٧)</sup>

وإذا هذا وبغية حول السبب الحقيقي وراء عدم وجود خلط وتشوش لدى هذا النوع من الأشخاص فنقول: إنه الخلق البشري وتكوينه وفطرته على التعامل مع الواقع بطريقة عجيبة وفائقة. وهو أمر يدعو أن ندعم فرضية الحتمية اللغوية. وعلى رأسهم منظروها الأوائل لم يعطوه حظه في هذه المسألة وانصرفوا للنظر في المشكلات اللغوية فقط.

## ٥ - النعم يفكرون من دون لغة

من المعروف أن النعم الذين لا يتقنون على استعمال اللغة المنطوقة يستطيعون القيام بمهمات ذهنية كثيرة تتطلب أنواعاً مختلفة من العمليات الذهنية البسيطة منها والمقدة. وهم في هذه الحالة لا يختلفون من الأفراد العاديين الذين يستعملون اللغة المنطوقة في التواصل. فعلة هيلز كبلر Helen Keller المعروفة تعد مثالاً صارخاً على أنه ربما لا حاجة للغة في عملية التفكير.<sup>(٣٨)</sup>

من جهة أخرى فإنه من المتوقع عند تعطل الجانب الاتي Performance لغة تعطلاً جزئياً أو كاملاً بسبب الحسية اللغوية Aphasia أن ينعكس ذلك سلباً، وبحسب مزاعم فرضية الحتمية اللغوية على طريقة التفكير لدى المريض الذي يعاني من هذا المرض. إلا أن الواقع لا يستند إلى هذا المتوقع. وأن الدراسات أثبتت أن هناك استقلالية إلى حد كبير بين اللغة والفهم أو المعرفة.<sup>(٣٩)</sup>

## ٦- تغير اللغة

هل يترتب على تغير اللغة تغير في الفكر؟ الواضح من مضمون فرضية الحتمية اللغوية أن ذلك أمر وارد، ماذا لو قلنا: صيغة معينة كانت تستخدم للتعبير عن فكرة معينة، واستعملت بدلاً من تلك صيغة أخرى لذات الفرضية، فكما يورد فروني (Froeny<sup>117</sup>) فإن صيغة الشرطية الافتراضية Subjunctive mood في اللغة الإنجليزية المستعملة في الولايات المتحدة يعبر عنها هذه الأيام بصيغة الضمنية Indicative Mood، فبدلاً من أن يستخدم الأمريكيون صيغة If this be the case للتعبير عن الشرطية الافتراضية فإنهم يستخدمون صيغة الضمنية كما في If this is the case، ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: هل سيقتل الأمريكيون في التفكير بطريقة الشرطية الافتراضية بسبب فقدان هذه الصيغة من اللغة؟ المشكلة كما يصورها فروني تكمن في الحاجة إلى تعديد ماهية الشكل اللغوي من زاوية معرفية وثقافية.

## ٧- الترجمة بين اللغات ممكنة

يعتبر هذا الدليل دليلاً قوياً لإزاع فرضية الحتمية اللغوية بل إنه كفيلاً بأن ينسفها بالكامل من أساسها. فطبقاً لإزاع هذه الفرضية فإن الترجمة من لغة إلى أخرى غير ممكنة بل هي مستحيلة، وذلك لأن الأفكار مرتبطة ارتباطاً عضوياً مع التركيب اللغوي، فالفكرة للمشكلة بتركيبة اللغة الإنجليزية، مثلاً، هي جزء من تلك التركيبة، وعليه لا يمكن إعادة تشكيل الفكرة في تركيبة لغة أخرى، لأن التركيبين مستقلتان، وإنه إن لم تكن فإنه سيقتضي على الفكرة المراد ترجمتها، وكما أشار فيور (Fior<sup>118</sup>) فإن هذه الفرضية أي الحتمية هي في الواقع فكرة عدم القدرة على الترجمة بقناع نصري.

ولكن كما هو واضح وبلي فإن الترجمة من لغة إلى أخرى هي أمر متصور أمس واليوم وأبداً. فالمعاني التي تشكل محتوى الترجمة يمكن أن تعاد بهذا التركيب، أو ذلك، انظر إلى اللغة العربية فاضياً وحائضاً، فقد استعملت هذه اللغة وأعيد تأويلها الطويل، ومن خلال احتكاكها وتفاعلها مع اللغات الأخرى المجاورة وغير المجاورة أن تقترب الكثير من الاصطلاحات والمعاني، وتستوعب نظامها اللغوي، فقد ترجمت كتب كثيرة من اللغات الفارسية واليونانية واللاتينية والهندية والقطبية، وكذلك من اللغات الأوروبية الحديثة كالإنجليزية والفرنسية وغيرها إلى العربية، لقد

حفظت اللغة العربية المعارف الكثيرة في الفلك والرياضيات والفلسفة وغيرها. وبالقابل ترجم الكثير من علوم العرب والمسلمين التي سطرت في اللغة العربية إلى اللغات الأخرى. انظر إلى الفكر الإسلامي الذي نقل بدقة وشمولية إلى لغات عدة وأهم شئى ولم ينقص منه شئى.

يبد أنه وفي الوقت ذاته لا يمكن إغفال حقيقة مهمة متعلقة بالترجمة وهي أنه ليس من اليسير ترجمة كل شئى من لغة إلى أخرى بالدرجة نفسها من السهولة. أي أن هناك أموراً يمكن ترجمتها بسهولة كالأشور اللغرافية وأخرى بصعوبة كالأشور الثقافية. فهذه لغات تعوي عدداً كبيراً من المفردات الدالة على شئى واحد وأنواعه وصفاته كما في لغة الإسكيمو التي تعوي العدد الكبير من أسماء الثلج واللغة العربية التي تعوي عدداً كبيراً من المفردات التي تدل على اسم الجمل وحياة البادية. بالقابل فإن اللغات الإفريقية التي تستخدم في منطقة خط الاستواء لا تعوي كلمة واحدة تدل على الثلج. وكذلك الأمر بالنسبة لغة الإسكيمو. والتي نشأ في أنها تعوي أي كلمة عن حياة البحر والصحراء. إذن النسبة نسبية بالدرجة الأولى. لقد أصاب فريكيت Hockett عندما أكد على حقيقة: «أن اللغات تختلف كثيراً فيما بينها ليس حول ما يمكن أن يعبر عنه في هذه اللغات، بل حول ما هو سهل نسبياً التعبير في هذه اللغات»<sup>11</sup> وفي هذا الصدد يذكر ويريفر Wierzbicka: «لأنه من الممكن أن نتحدث عن أي شئى في أي لغة شريطة أن يكون التكلم مستعداً لاستخدام درجة من الإطناب»<sup>12</sup>. وأخيراً ألم ينجح يورف في نقل وجهة نظر التوهيمي إلى اللغة الإنجليزية واستطاعت اللغات التركيبية لغة الإنجليزية أن تصور واقع الحياة اللامتناهين بالتوهيمي على الوجه الصحيح؟ إن هذا دليل كاف على مرونة اللغات الإنسانية وقدرتها على التعبير عن وجهات النظر المختلفة.

## 8- الجراماتيكا الكلية متشابهة

يعتبر هذا النوع من الجراماتيكا، أي الجراماتيكا الكلية Universal Grammar أحد الإنجازات المهمة التي توصل إليها علم اللغة الحديث فقد أصبح يحظ اهتمام الكثير من اللغويين. وتركز معظم الدراسات اللغوية حالياً على الكشف عن مبادئه وطبيعته. فقد استطاع نوبل تشومسكي Noam Chomsky<sup>13</sup> أن يحدد اتجاه الكثيرين من الباحثين والدارسين منذ أن ظهر ثوره في علم اللغة. وطرح فكرة الكليات اللغوية Linguistic Universals في مؤلفه «مظاهر

النظرية النحوية *Aspects of The Theory of Syntax*، ثم طرح فكرة اللبادىء والباراميترات *Principles and Parameters* كمكونين للجراماتيكا الكلية.

طبقاً لنظرية تشومسكي اللغوية فإن اللغات متشابهة في التركيبة الداخلية *Deep Structure* حيث تحتوي على القواعد التوليدية والقواعد النحوية، وهي كذلك متشابهة على مستوى المكون الأساسي *Base Component*، أما التركيبة الخارجية *Surface Structure* فهي مختلفة ومشوهة، وهي غالباً لا تعكس حقيقة التركيبة الداخلية، وهناك أمثلة كثيرة استشهد بها تشومسكي وغيره، ولا مجال لتوسيع بديهية في علم اللغة هنا.

فبعد حديثه عن التركيبة الخارجية أكد تشومسكي أنها لا تقود إلى حقيقة المعنى، وهي غير معلنة عن ضرواح<sup>(14)</sup>، على ضوء هذه الحقيقة وطبيعة الجراماتيكا الكلية بشكل عام فإنه يمكن القول إن التشابه في التركيبة الداخلية للغات الإنسانية يجعل بالإمكان التعهيد عن أي فكرة في أي لغة أمراً متوهماً، أما دعاء فرضية المنتمية للنظرية فقد خدعوا بطبيعة التركيبة الخارجية ذات التنوع الكبير، وانظروا احتسباً لفرضيتهم والقول إن طائفتها إليه من مقالات.

## ٩- الفكر أولاً

لمنحست التفاسات والمسايلات حول فرضية المنتمية اللغوية عن أمر مشير وهو قلب ومسايلة حيثيات محور التفاس. فعدا الحديث حول دور الفكر في تشكيل اللغة، هذا ما يراه وأسن وشروكة جونسون-ليرد من أن الفكر يحدد اللغة، وهذه الفرضية يرايها أكثر معقولة<sup>(15)</sup>، فاللغة تطعب دور القراء العاكسة للخبرة والنجربة، وليست حرة في تأسيس أو إقامة التصنفات أو الفئات اللغوية حسب ما يراه براون *Brown*<sup>(16)</sup>، يقول فوس وهيكس *Foss and Hakes* بهذا الصند: «إن هناك شيئاً مهماً على أن النظام اللغوي لأي لغة لا يملك حرية تنظيم نظام الألوان بل أي طريقة متخيلة، فعلى الرغم من وجود حدود مرفة بين مناطق الألوان الأساسية، فإن متكمي جميع اللغات يتفقون على ماهية الألوان الأساسية»<sup>(17)</sup>، وهذا ما ذهب إليه كني ومكندلليال بناء على نتائج الأبحاث التي أجريها على الألوان الموجودة في ثقافات مشوهة وخلصت إلى نتيجة مفادها أنه: «بدلاً من القول إن اللغة هي التي تحدد الفهم فيجدر القول إن الفهم هو الذي يحدد اللغة»<sup>(18)</sup>.

لقد كان لدراسات العالم النفسي اللغوي جان بياجي *Jean Piaget* أثر كبير في توسيع فكرة

الفكر أو المعرفة أولاً، وبالتالي إقامة ما يعرف بالكليات المعرفية (Cognitive universals)<sup>(١١)</sup> هذه الكليات تلعب بأن الأفراد يستخدمون عمليات ذهنية متشابهة بغض النظر عن نوعية اللغات التي يتكلمها هؤلاء الأفراد. يرى بياجيه<sup>(١٢)</sup> أن المعرفة أو الإدراك يسبق تشكيل اللغة، وهذا ما تبناه وطوره لاحقاً عدد من الباحثين في هذا المجال أمثال ماكنتاير Macnamara وسلوبين Slobin وغيرهما. لقد قام بياجيه بتتبع العلاقة بين اللغة والفكر من خلال تقسيم النمو المعرفي لدى الطفل إلى أربع مراحل<sup>(١٣)</sup>، ففي المرحلة الأولى تكون اللغة نتاجاً للنمو المعرفي، ثم تقوم اللغة بلعب دور متعدد في المراحل التالية منها مرحلة ما قبل العمليات، ثم لعب دوراً حورياً في مرحلة العمليات المادية وهو دور لا يرقى إلى مستوى تشكيلي أو تطوري للفكر، ثم يأتي دور اللغة في مرحلة العمليات المنطقية والفرضية حيث لعب اللغة دوراً حاسماً ومهماً. ولكنه ليس دوراً تشكيمياً أو تطورياً للفكر أيضاً، فاللاحظ طبعا لنظرية بياجيه أن اللغة لا تحدد ولا تفرض نظاماً معيناً من التفكير، فهي أداة تستخدم في العمليات الذهنية وليست هي المتحكم والهيمنة على طريق التفكير. فاللغة شيء، والفكر شيء آخر، إن ما نطرحه نظرية بياجيه يعد خطأ تشخيصياً دقيقاً ورتاعاً لعلاقة اللغة بالفكر.

### خاصة: الفرضية الحديثة اللغوية على ضوء الفكاريتين الحديثتين اللغوية والمعرفية

من اللغات التي تنظر أن فرضية المحتمة اللغوية اكتسبت زخفاً كبيراً خلال النصف الأول من القرن الماضي. فمن المعروف أن هذه الفترة هي فترة نمو وإزدهار علم اللغة البنيوي Structural Linguistics والذي عمل على تأسيسه العالم اللغوي المعروف بوسوسير De Saussure<sup>(١٤)</sup>، ثم اكتسبت زخفاً كبيراً خلال كتابات كل من ساهير وبلومفيلد Bloomfield<sup>(١٥)</sup> إذ وظف الأخير النظرية السلوكية Behaviorism في دراسة ووصف اللغة، فقد استعان ببلومفيلد بهذه النظرية ليعمل دراسة اللغة إلى دراسة مسئلة ويعلقها من نطاق الفلسفة والفكر الفلسفي الموزون. فعدت دراسة اللغة والغة تحت تأثير علم النفس السلوكي الذي يهمن على البحث النفسي والمعرفي حتى فترة قريبة، أي إلى بداية الستينيات من هذا القرن.

يقرر علم اللغة البنيوي أن اللغات الإنسانية مختلفة اختلافاً كبيراً، وهذا واضح من خلال مقارنة اللغات بعضها ببعض، فالأنظمة الصوتية والصرفية والتركيبية والنحوية والدلالة مختلفة من لغة إلى أخرى. وعليه فلا توجد تشابهات بين اللغات، وإن وجدت مثل هذه التشابهات فهي

يراي البنويون محدودة وغير جذيرة بالدراسة والتحليل والوصف. بل إنها في الواقع لم تستوعب اعتماد اللغويين ومن ثم أعملت. هذا التفرع في اللغات له صلة مباشرة بالتنوع الثقافي في المجتمعات الإنسانية، وبإزامن استخدام البنيوية في وصف الإنسانية مع استخدامها في وصف الثقافات الإنسانية كما يوضح ذلك من خلال الدراسات الأنثروبولوجية. ويروز علم الأنثروبولوجيا البنيوية Structural Anthropology أدنى هذا التفاعل البنيوي في الدراسات الإنسانية على هذا النحو إلى إعادة طرح فرضية الحتمية اللغوية بطرق جديد من خلال كتابات سايبر وويرف.

فالواضح ان فرضية الحتمية اللغوية الحديثة قد نمت وترعرعت في ظل هذه الظروف الفكرية من بنيوية وسلوكية. بالإضافة إلى ذلك فإن الحتمية الفكرية نفسها أي طريقة التفكير في علم النفس كان ينظر إليها على أنها ذات طبيعة موحدة في العقل البشري<sup>(13)</sup>. هذا المناخ الفكري والعرفي واللغوي شكل المرجع الأساسي لكثير من المعارف الإنسانية إلى فترة ليست قصيرة.

بدأت الغيوم المعلقة لتلبد في السماء الصافية لهذا المناخ الفكري مع نهاية الخمسينيات<sup>(14)</sup> وبداية الستينيات من هذا القرن وبدأت أركانها تهتز على أثر كتابات شومسكي التي فجرت ثورة في علم اللغة أدت إلى تقويض البنية البنيوية كمنهج تحليلي صلب في هذا العلم شملت موضوع دراسته ومنهجه وأطره الفكري. لقد أصبح علم اللغة أرحباً من علم النفس العرفي Cognitive Psychology وحلت فكرة العقلانية Rationalism محل فكرة التجريبية Empiricism. وكذلك حلت فكرة الاستنتاج Deduction محل فكرة الاستقراء Induction في المنهج البحثي اللغوي.

تراكمت هذه التطورات في دراسة اللغة الإنسانية مع تطورات مشابهة في علم النفس. فاصبح هذا العلم الذي سيطرت عليه السلوكية لفترة طويلة علماً معرفياً Cognitive. حصل هذا التحول تحت تأثير كتابات بياجيه وإيهلدر Inhelder<sup>(15)</sup> وغيرهما ممن تأثروا بهذا التوجه الجديد أمثال أوزيل Asensel ومن تبعه<sup>(16)</sup>. ومن ثم لم يعد علم النفس والعلماً تحت تأثير النظرية السلوكية وتصورها الفكري.

فصنح أمام ثورتين فكريتين واحدة في علم اللغة إذ تمسخت عنها أفكار ومفاهيم جديدة عن اللغة فيما يتعلق بتعريفها وتنظيم مكوناتها واكتسابها ومعرفتها. وبدر العوامل الفطرية في ذلك. وعلاقات اللغات ببعضها البعض. وثورة أخرى في علم النفس تمخض عنها هجر أفكار ومفاهيم قديمة ومطرحات أخرى جديدة متعلقة بالمعرفة Cognition. وكذلك برز العوامل الذهنية الداخلية

والخارجية في عملية التفكير. هناك التوربان عزنا أركان فرضية الحتمية اللغوية. فاللغة التي تحدث عنها ويرف ذات الفهم الضيق والسطحي لم تعد هكذا اليوم. فهناك اليوم ما يعرف باللغة الداخلية Internalized<sup>149</sup> بالإضافة إلى ذلك فإن التفكير بتعريفه التقليدي والسلوكي لم يعد قائماً. بل ما نؤكد الدراسات اللغوية والمعرفية هو أن العقل البشري مبني على وحدات مستقلة Modules or Faculties.

وكل وحدة متخصصة بمعلومات لغوية معينة. فكل منبول المثال يرى فورر<sup>150</sup>، وهو أحد الداعين لهذه النظرية، أن جوهر العملية الفكرية يتضم بصغات كلية Universal متجسدة بلغة داخلية. وهي واحدة عند جميع الناس ولا علاقة لها بالتنوع الحاصل في اللغات نفسها. ليس هذا فقط بالإضافة إلى الكليات اللغوية والكليات المعرفية فإن هناك اتجاهاً فكرياً مماثلاً بدأ منذ فترة ليست بالقصيرة في علم الأنثروبولوجيا القائمة ما يعرف بالكليات الثقافية Cultural Universals<sup>151</sup> ليست كل هذه التطورات كافية لإحياء النظر جذرياً بالأدوات المنطقية أو المستوحاة من فرضية الحتمية اللغوية حول علاقة اللغة والفكر؛ وانتم بمباراة رسمها فبرولي في معرض انتقاده الشديد لفرضية الحتمية اللغوية وهي قوله: «إن الطريقة الوحيدة حتى نتمكن فيها فرضية ماير وورف صهيمة هي ألا تكون صهيمة»<sup>152</sup>

http://Archivebeta.Sakhril.com

### سائلاً: الخاتمة

يتضح من العرض السابق كيف أن فرضية الحتمية اللغوية لا تقوم على أسس متينة وقوية. بل تتخذ من الاختلافات التركيبية الظاهرية بين اللغات الإنسانية سبباً لزعزعة حول دور اللغة في تحديد الفكر أو عملية التفكير. إن سقوط النموذج البنيوي اللغوي، والذي ترعرعت فيه هذه الفرضية وطرح فكرة الكليات اللغوية كانت لأن يلقي كثيراً من التشكيك حول صحة الفرضية. بالإضافة إلى ذلك فإن التحول نحو النموذج المعرفي بدلاً من السلوكي في علم النفس، وبرز الكليات المعرفية كان هو الآخر عاملاً مهماً في خلخلة أسس هذه الفرضية. وهناك عامل آخر يساهم في التشكيك في صحة هذه الفرضية وهو بروز الكليات الثقافية. وعليه فإن انقلاب هذه الفرضية إطاراً ومرجعاً للهجوم على اللغات الإنسانية ومنها اللغة العربية واتهام هذه اللغات والتقصير والفقر التركيبي وكشف عن سذاجة عقلية وسطحية فكرية ومعرفية. إنه ومما لا شك فيه أن اللغة تلعب أحياناً دوراً ما في صياغة الفكر، إلا أن هذا الدور لا يعني أن يكون دور الأداة في الصياغة وليس الإطار أو المرجع الذي على ضوءه يصاغ الفكر.



# اللفة ودلالاتها : تقريب تداولي لمصطلح البلاغي

محمد مبروك\*



انصب الاهتمام في دراسة اللغة (الكلمات، العبارات، الجمل، النصوص الأدبية وغيرها، الأنواع الأدبية) على التركيبية (*La syntaxique*) التي تعنى بالعلاقة الوظيفية والتحويلية والتوليفية الحاصلة بين مقدرات اللغة في العبارة أو الجملة المعبرة تعبيراً منطقياً. ولأن هذا التعبير خاضع للشروط والضوابط والقوانين والمعايير فضلاً عن المقاييس والقواعد والنواثيق العرفية التي أطلق عليها ما عرف بعلم النحو، فينبغي للمعبر أن يكون قادراً وماهراً، عارفاً وممارساً. كما انصب الاهتمام على الدليلي (مصطلح أبدعه سيبويه<sup>(١)</sup>، وذكره صاحب لسان العرب<sup>(٢)</sup>) فجعلناه مقابلاً للمصطلح الفرنسي (*La sémantique*). فالدليلي (علم الدلالة) يدرس علاقة الدلالة بمرجعها. والباحث على العناية بالتداولية رؤية ومنهجاً هو إغناء وإثراء وتخصيب التركيبية والدليلي. فقد تمت

صياغة المشروع التداولي حيث لم يعد الأمر متعلقاً البتة بفهم اللغة بصفتها موضوعاً مستقلاً عن الممارسة، اللغة التي يمكن أن نعرّف لها بخصائص تون الإشارة إلى كونها صالحة لإنجاز عدد معين من المعاملات، بل تتميزها وفقاً لتحديدات الاستعمال اللساني<sup>(١٠)</sup>. يقول فرانسوا لاترافيرس (François Latraverse): «استعمال اللغة - من منظور التداولية- غاشي. فالتكلم يتم لتحقيق غاية ما، أو هدف معين، أو إشباع حاجة محددة، أو الحصول على فائدة. فلذا تستعمل اللغة للأغراض والمقاصد والمآرب ذاتها بصفة فعلية وعملية في سياقات مختلفة ومقامات متباينة. ويضفي المتحاورون - بصفة مباشرة وغير مباشرة - على دلالات الملفوظات والمقامات دلالات أخرى. ولم تغفل البلاغة العربية مستعملي اللغة وسياقات الاستعمال. فتحت عنوان فرعي هو بكل مقام مقال، يقول السكاكي: «لا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة، لمقام التشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنية يباين مقام التعمية، ومقام المدح يباين مقام الذم، ومقام التواخي يباين مقام الترهيب، ومقام الجد في جميع ذلك يباين مقام الهزل، وكذا مقام الكلام ابتداء يغير مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار، ومقام البناء على السؤال يغير مقام البناء على الإنكار، وجميع ذلك معلوم لكل لبيب. وكذا مقام الكلام مع الذكي يغير مقام الكلام مع الغبي، وإنك من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر»<sup>(١١)</sup>. (التأكيد مني).

بل هذا على أن النحلة والبلاغيين والفكرين والفلاسفة الإسلاميين قد مارسوا النهج التداولي قبل أن يبلج حينه بصفته فلسفة وعلماً، رؤية واتجاهاً أمريكياً وأوروبياً. فغدو وظف النهج التداولي يوعي في تحليل الظواهر والعلامات المتنوعة (الأيقونات، والرموز النصورية والمعارية والتشكيلية والقوية...)، فإذا كان «المسلمون التداوليون العرب» قد درموا «الدلالات التنظيمية والائتمانية» التي عرفت عند المسلمين التداوليين الغربيين به الدلالات المخترعة والظاهرة المتفرقة عما عرف عند طائفتنا به دلالة المطابقة، التي عرفت عند العلماء الغربيين به الدلالة للظروحة» فقد

## عالم الفكر

أثقل بعض القوميين العرب الدلالات البلاغية التداولية، ولم يلامسوها إلا قليلاً. فعلى نظرية البلاغة ونظرية النحر والنسطق التقدي نهضت التداولية، وعليه فسيكون محور نظريتنا للدلالات اللغوية التداولية من خلال المصطلح البلاغي نفسه. فالبلاغة تشكل - إلى جانب النحر والأسلوبية والشعرية- سيميائية اللغة، والسيميائية تعني التداولية.

وسيتم هذا التقريب الذي نحن بصددته بالتطرق إلى المواضيع التالية:

أ- المصطلح البلاغي الخاص بالمفردة.

ب- المصطلح البلاغي المحدد للعبارة أو الجملة.

ج- المصطلح البلاغي الذي أطلق على النص.

د- المصطلح البلاغي المتعلق بالذوق الأدبي.

أ- المصطلح البلاغي الخاص بالمفردة

أ- المجاز ودلالته التداولية

قول المحدث عن المصطلح البلاغي الذي عرفه بالمجاز، أتيد من التحدث عما اعتبره البلاغيون نظرياً له، ألا وهو مصطلح «الحقيقة». فإذا رجعنا إلى كتاب المصطلحي نجد فيه التعريف التالي: «الحقيقة هي الكلمة المستعملة فيما هي موضوعاً له من غير تأويل في الوضع (...)» (وإن أن نقول: الحقيقة هي الكلمة المستعملة فيما دل عليه بنفسها دالة ظاهرة) (...) (وإن أن نقول: «الحقيقة هي الكلمة المستعملة في معناها بالتحقيق، والحقيقة تنظم عند العلماء، إلى: لغوية وشعرية وعرفية. والسبب في انقسامها هذا، هو ما عرفت، أن القلطة تنطج أن دل على معنى من غير وضع، فعلى رأيها دالة لم تشكل في أن لها وضعاً، وإن لوضعها صاحباً. فالحقيقة، لادلتها على معنى، تستلعي صاحب وضع قطعة، فعلى تعين هناك، نسبت الحقيقة إليه، فقلت: لغوية، إن كان صاحب وضعها وأصبح اللغة. وقلت: شعرية، إن كان صاحب وضعها الشاعر، وعلى لم يمتنع قلت: عرفية. وهذا التأخذ بعرفك أن انقسام الحقيقة إلى أكثر مما هي منقسمة إليه غير ممتنع في الأمر نفسه»<sup>(١)</sup>. فلفظ «الحقيقة» يعني الحق أو كنه الشيء، وجوهره، أو ثبوت الشيء، بكونه وحقه.

برغم صعوبة لفظ «الحقيقة» مصطلحا بلغيا، أي مجازا أولا، فهو لا يقابل ولا يناقض في الواقع، حتى ولم استبدل لفظ «التطبيق» لفظ «المجاز» لغة واصطلاحا. فمعنى الحقيقة مرتبط بصفة منطقية وحقيقة ومبهما يرمج الكلمة لا يدلالتها. فما العول؟ ومن أحاط بها فكأنه وجوهه وشيئونه وتحقق أي شيء؟ فلو كان الشيء أن يكون والعيا أو خيالها، وما دام أن الحقيقة تقابل الكتب، فكيف فاد جل البلاغيين أن لا معنى للكلمة إلا في السياق الذي استعملت فيه، وأنها تستعمل الصدوق والكتاب كلما وردت في سياق إخبار أو إنشاء وكيف تصوير دلالتها ظاهرة ولحقيقية بغير تأويل، وهي تتغير من سياق إلى سياق ودلالتها التضمنية ودلالاتها الألفاظية تزول دلالتها الطائفة، للترجيح الحال عليه في سياق معين؟

المعاني عامة أن تكون دلالة المصطلح متصلة بالشيء الذي الكلمة. فإني كلمة يفصل مصطلح «الحقيقة» ليتصل به الحقيقة، الدالة على ما يفهمونها عند ذكرها، أي ما نجتمع على إنراكه كذا، أم به الحقيقة، التي تعني الراية أو العلم الذي كان يدل مر كذا، على الجدل، ولنا لتصل إلى أن يكون المصطلح البلاغي ما حده بعض العلم لغة، علامة تراجم على جدل لبراء الناس، وبما أن معنى كلمة يصور إلى معنى أخرى للعلاقة الوجودية والتراجدية بين مرجعيتها حيث تدل كلمة واحدة على معنيين أو أكثر، فإن الكلمة- وبخصوصا إذا اعتبرت علامة كما تفعل ذلك بها السيميائية أو التداولية- تقع على العلم كما يقع العلم على الجدل، وأما حقيقة الشيء، فهي ائمن إلى الاختلاف حولها لأسباب ذاتية وموضوعية، فالذات المدركة للعصاة، وتطوعها حواسها وأحوالها كلما وجدت إزاء موضوع ما، والموضوع مجهول الحقيقة ولا تشارك سوى مظاهرها وبعض شبيها رغم تقدم العلم والفلسفة، فإن جدانة مولانا الفلسفي هي اقتناع مجهول من طرف جميع العصور السابقة، اقتناع بعدم امثاله الحقيقة<sup>1</sup>، يقول نيتشه (Nietzsche) مزمكا، وحتى حينما تحيل العلامة حقا إلى شيء، فهي مغايرة لذلك الشيء، ذاته، فدلالة الحقيقة، فاعلمة وعرضة للاختلاف، فلذا لا يمكن الاستمرار في التمسك به الحقيقة، مصطلحا بلغيا في عصر يعرف تقدما كبيرا في العلم وطورا عظيما في الفلسفة، ومن وجهة نظر فلسفة اللغة، تستدل على لغرض دلالة لفظ «الحقيقة» بالانقسام التداولية الأربعة للمناقضة التي وضعها لها الخراسي ومنها

١- ما يطابق الواقع والاعتقاد.

٢- ما يطابق الواقع دون الاعتقاد.

٢- ما يطابق الاعتقاد دون الواقع

٤- ما لا يطابق الواقع والاعتقاد<sup>(٢)</sup>

تقوم الجدلية أولاً بين الواقع والاعتقاد. وبين ما يطابق ولا يطابق الواقع والاعتقاد ثانياً. وبين ما يطابق أحدهما دون الآخر. والجدلية أو الجدلية تؤكد نسبية الحقيقة. فلا وجود لحقيقة مطابقة أو غير مطابقة للواقع والاعتقاد. فالاعتقاد نفسه والقي. والواقع اعتقادي بصفة نسبية. ذلك أن الاعتقاد يحتاج إلى كثير من الفلسفة ليذهب الواقع المتغير دوماً. ويتغير كلاًهما بتغير الآخر. وإذا لم يطابق الاعتقاد الواقع. يندمجرد أيديولوجيا. والأيديولوجيا ذاتية للجدلية بكتماثلها للفوضى. ويغني الجدلي الأيديولوجي. ذلك أن الأيديولوجي غير جنلي وغير واقعي. والواقعي جنلي وتداولي. ويصير الأيديولوجي تداولي وجنلياً كلما طابق الواقعي. ويتطور الواقعي بتطور التداولي. على نحو ما يتطور التداولي بتطور الواقعي. **يقول القديس**. ولأنه. أن الواقع متعدد ومتعارض العناصر كاللغة. فوال لغة حسية ومتعارضة بينما دلالات دوالها لغوية ومتخلفة وإذا كان الدال اجتماعياً. فالدالة لغوية. وبقي الحقيقة نسبية. وهم الجدلية التي تحكم الاجتماعي والفردية. الدال والدالة. بيد أن التمسك أو الاعتقاد بمصطلح. الحقيقة. لا يفسح المجال لمزج ما يتناقض مصطلح «الجزء» الذي يعد مدعواً من مصطلح «الكل». ويستقيم القول عن «الجزء» وما يشبهه من الأوجه البلاغية إلى التخييل الذي يقيم علاقة جدلية مع الواقع

«الجزء» لغة من جزأ. أي صار فيه وسلطه. والجزأ كذلك الموضع الأصمعي. جزأ الموضع سرأ فيه. وأجزأه خلفته وقطعته<sup>(٣)</sup>. بمعنى التعبير عن هذا الموضع إلى موضع مغاير. فكانت القطرارة أو الجسر. وبالإضافة إلى ذلك. فالجزأ مصدر جزأ. وأما من حيث الدلالة الاصطلاحية فيقول عنها يحيى بن حمزة: «أعلم أن إطلاق لفظ الجزأ على ما يفيد. ليس على جهة الحقيقة. وإنما يطلق على جهة المجاز. لأمرين: أولاً فلأن الحقيقة في هذا اللفظ. إنما هو التعدي والتعبير. وحقيقة ذلك إنما تحصل في انتقال الجسم من حيز إلى حيز آخر. فأما في الألفاظ فلا يجوز ذلك في حقيقتها. وإنما تكون على جهة التشبيه. وهذا هو فائدة الجزأ ومعناه ثانياً فلأن الجزأ وزنه (مفعول).<sup>(٤)</sup> ويتقدم الجزأ إلى مفرد ومركب. فما هو عبد القاهر الجرجاني يضيف إلى ثنائية الحقيقة والجزأ وثالثية المفرد والمركب. ثنائية العقلي واللغوي. فكان العقلي غير لغوي واللغوي غير عقلي. ذلك أنه يجعل الجزأ العقلي في الإثبات والجزأ اللغوي في النفي. فبالنسبة إلى

الجرجاني، فالجزء متلقى من الكل إذا وقع في الإثبات، ومن اللغة إذا ورد في مثبت، وطء ذلك أنه إذا كان من شرط الإثبات أن يقيد مرتين كقولنا إثبات شيء، لشيء، وأزيم من ذلك عدم حصوله إلا بالجملة، أي تكليف بين حدوث ومحدث عنه، ومستند ومستند إليه، فمأخذ العقل وهو القاضي فيه دون اللغة، ذلك أنه لا حكم ولا إثبات ولا نفي ولا نقيض ولا تقرير للغة، في هذه الحال<sup>10</sup>، وأيا كان الأمر، فبالفعل توجد اليوم، إذا كنا نريد تطويرها هناك، بين خيارين: إما أن نكتسب بمصطلح «الحقيقة» فنكون - إن ذلك - مجبرة على إيجاد مصطلح يقابلها غير مصطلح «الجزء»، وإما أن نحتفظ بمصطلح «الجزء» فنكون - حيلة - ملزمة بالبحث عن مصطلح يناقضه فيشكل بذلك نقيضه الجملي لغة واسطلاحاً.

نستغل كل لغة بذاتها العريق والبعيد الأصول، فلذا يلتزم على لغة اللغة في معظم الأحيان معرفة مصادر الألفاظ، وأن اختلف التطوير والنماء في الأصول الكلمات فإن البلاغيين لم يتفقوا على مفهوم واحد للحقيقة، فلذا استعصى عليهم العثور على ما يناقضها فالحقيتهاهم يستعملون عبارات «المعنى الأول»، أو «المعنى الحقيقي» أو «المعنى الحقيقي»، وكان ما يباينه معنى ثان أو غير وضعي أو زائف. وقد استعمل البلاغيون معانيهم الضوابط التي هي أن للكلمة الواحدة معاني عدة والمفرد الواحد أسماء عدة، تجاوزوا الأفراد الدقة على الزيف واليهتان والكتب إلى لفظ «الجزء»، مثله نعلم سمعي لدى فهم الكلية، فتعالب وإن استعمل استعمالاً مجازياً، فهو يتضمن نسبة ما من الحقيقة (حيوانية الإنسان، بشعة، خيول، كبد...)، ولا يعتبر ابن حزم «الجزء» كذا في قوله: أخرج من صنع الجاز بأن قال: «إن الجاز كذب» والله تعالى ورسوله على أنه عليه وسلم يعدان عن الكذب<sup>11</sup>، فإذا كان «الجزء» لا يشكل - من وجهة نظر جدلية - نقيض «الحقيقة»، كما لا تشكل «الحقيقة» نقيض «الجزء»، فما يمكن أن يعد نقيضاً للـ «جزء» للإجابة على هذا السؤال، نقترح مصطلح «الجزء» فهو «مصدر» من «جزل» - تحول أو يَـزْجُل، أي وقع في الوحل فلم يستطع السير والتقدم وتجاوز الوحل وهو مكان الوحل، هذا لغة، وأما اصطلاحاً، فهو استعمال الكلمة التحول على مرجعها الذي سمي بها فصار اسماء له صفة مباشرة، ولا يجرى هذا التحديد دلالتها السالبة الطائفة من دلالتها التضمنية ودلالاتها الانترامية التي يعتبرها ج.ل. أوستان (J.L. Austin) بيانته. وبهذا 1. يذكر (O. Ducrot) بلاغة لفظي حين يدل مصطلح «الجزء» على التجاوز والافتات والتحول والتغير فضلاً عن التجديد والإبداع

والتحديث، يدل المرحل على التلايد والمحاكاة والثبات، فلا تأثير للمعنى المرحلي إلا بدلالة التضمنية والانتزاعية. فهذه التأثير الأولي تضمنت هذه الدلالات تداولية، والسبب في ذلك أنها تثار في ذهن السامع، فهي سائلة في ذلك الدلالة «الجزء» و«التورية».

## ٢- التورية ودلالاتها التداولية

لا تختلف «التورية» عن «الجزء» من حيث الغاية من استعمالها، فالغاية هي التأثير في السامع ليمدح بفكرة ما يترادف أمراً مشابهاً أو معاكساً في سامع آخر. فالتورية لغة من يرى التعبير تورية، أي أراد فاشغاه وسطره وأظهر غيره. ومعنى المتحدث مكان إذا أراد سطره وروى بغيره، بمعنى أنه كفى عنه موقفاً وإرادة غيره<sup>(١٨)</sup>. فإذا روى التكم معنى بغيره، فيتوجب على السامع اكتشاف أو استشفاف المعنى المورى. واستطلاحاً، تعني التورية ذكر كلمة مفردة بمعنيين أحدهما ظاهر وآخر مراد، والثاني موري ومراد<sup>(١٩)</sup>. فالتورية إذن هي إطلاق الكلمة الواحدة بمعنيين أحدهما عامي (قريب) يحول على مرجع الكلمة المباشر وليس بالمراد، ومعنى قريب (بعد) هو المراد. وهذا الأخير تداولي لأن استنباطه خاص بالمتكلم أو من الظاهر بغيره، والقيم بداية الحوار. يقول باختين: وإن يكن مع الذات المتفاعلة، ولا يكتمل فهم إلا في السياق الذي أدرك في اللفظ والمعيار أو الجملة التي تتضمن التورية. والسياق أنواع ثلاثة: السياق اللفظي التركيبية، والسياق غير اللفظي الظرفي، والسياق الحيثاني العام، والتكم باللغة المعيارية ظاهر وباطن، باد ومتوار. ومقال التورية نسوقه على شكل حوار ذي سورين فقط.

- التواش يد على غيره

- ولا راحة من وشايت؟

إن كلمة «يد» في السؤال سجال، بينما كلمة «راحة» تورية، فلو تكررت كلمة «يد» في عبارة واحدة بحيث يصور لها معنيان (معنى يدل على التراجع المباشر كالمعنى الموحلي، أي عضو الإنسان، ومعنى مجازي، أي التعمد) لكنا إزاء التلافة.

## ٣- المماثلة ودلالاتها التداولية

المماثلة لغة المماثلة والمماثلة، فالمشكل الشبه والمثل. ومن الممكن أن يتشاكل الشيئان فهماكل أحدهما الآخر. ويقال للطفل شبه من والديه أو من أحدهما، أي شكل واشكلة وشكلة وشاكل.

ومشاكلته. والمشكلة الواقعة<sup>(١١)</sup> ولكن البلاغيين قد اختلفوا في شأن المشكلة. فربما قولهم في تحديد مصطلحها، أي ذكر الشيء، بلفظ غيره أو لفظه معه أو بصحبته، فمنهم من يعتبرها مجازاً، ومنهم من لا يعتبرها مجازاً ولا موحلاً، ومنهم من يعدّها واسطة بين الموحل والمجاز<sup>(١٢)</sup>. وحجة الفقه الثانية غياب العلاقة بين المعنيين. ولكن المشكلة انشأها عند<sup>(١٣)</sup> ويجمع أحد أنواعها بين المعنى الموحلي والمعنى المجازي كمن يقول بعضهم مثلاً: مد إلي يده بعد ما كانت له ملي يده. فهذه الأخيرة دلالات تداولية كثيرة (التضير، الإحسان، النعمة...).

تقتضي التداولية من المشكلة أن يكون فائدها السامع وسامعها القائل على إدراية كبيرة بخصوصائص اللغة ومميزات الظاهرها واطراف معانيها وديالتي دلالاتها، كما تقتضي منهما خبرة واسعة بتشكلات أساليبها وتغيرات صيغها وتلون تعابيرها التي تتكون من الظاهرات المختلفة والمتنوعة والتهجئة والمتحدة. ويمكن أن تعدّ دلالاتها عظاماً فتتحوّل إلى رمز.

#### 4- الرمز ودلالته التداولية

الرمز أصلاً قسم من أقسام الكلامية وهذه الأقسام الأخرى هي الترميز والتلويح والأيحاء والإشارة. ويعني الرمز لغة الإشارة إلى قريب نظير ما يظن أن الإشارة معبرة... واصطلاحاً هو عبارة يرد فيها مفرد يفهم منه السامع معنى مغايراً لمعناه المألوف. وهذا المعنى هو ما يكتسبه الرمز تداوليته. وإذا كان الرمز مقارباً لباقى أقسام الكلامية، فإننا نلاحظ تمويلاً لها في تقريب دلالاتها التداولية. وإذا كان هذا مدلول الرمز في البلاغة القديمة، فما هي مداليله التشريعية والرمزية الواقعة في البلاغة الحديثة؟

«الرمز شيء، أو موضوع (ملموس)، أو كائن حي يعتبر بسبب شكله وطبيعته وظاهره تمثيلاً لشيء مجرد. وفي اللسانيات يلمز الرمز: ككل علامة، علاقت بين أي شكل (صورة، رسم، إلخ...) ومرجع (...) فهذا المعنى، تقتضي العلامة اللسانية إلى فئة الرموز. ومع ذلك، يوافق مصطلح الرمز أيضاً (...) للتمييز، داخل العلامات الاصطلاحية، بين ما يحتفظ منها برابط طبيعي بين الدال والمؤول، وما هو غير مميز بصفة كلية. ويختص أولها بمصطلح الرمز (مثل: الميزان رمز العدالة). والرمز علامة، اختصار يدل بصفة اصطلاحية على مفهوم أو شيء ما<sup>(١٤)</sup>.

هل الرمز، عند الغربيين، كلمة أو مصطلح بلاغي ككلامي كما هو الشأن لدينا ؟



لا يبرر على أنه مصطلح بلاغي كثنائي من التوحيد الألف الذكر. ومع ذلك، يقدم تودوروف (Todorov) للرمز الذي يوازن بين وبين الأسطورة تعاريف يستعنها من كتابات الرومانسيين والمعتدلين الإبداعية مثل: قولته، وشيللر (Schiller)، وشيللجيبيل (Schlegel)، وشيللج (Schelling)، وكلا كانت (Kant)، وهينريك مير (H. Meyer)، وهامبولد (Humboldt)، وكرويز (Crozner)، وسولجير (Solger)، وعلية، يحدد تودوروف الرمز بقوله: إن دلالة غير مباشرة ولثوية، وأنه يوجد لذاته ولا تكتشف دلالة إلا في زمن ثان، فإنشارته تأتي في الفترة الثانية، وتبقى ممكن وإنشارته احتمالية، وتكون لطبيعة العلاقة في حالة وجود الرمز طابع لنق. وبعد ذلك، عبوراً من الخاص إلى العام، من الواقعي إلى المثالي، وبالضرورة، فإن الدلالة الرمزية من نوع المثال، فمن خلاله تتم، بصفة خاصة وبطريقة تقريبية، رؤية قانون عام عنه يصدر. فما هو رمزي نموذجي ونسقي؟<sup>(14)</sup>

تتمثل تداولية الرمز فيما يحدث من انزياح دلالة في متلقيه الذي يخلد إلى التجويز أو التمايز مع التغير. فدلالة الرمزية أسرع إلى التغير من قبل المتلقي، الذي له اتجاه إلى أو دلالة من خلال ذاته فقط فهو شيء، دون أن يكون -أرغم كونه- إلهام، فهو دلالة كما أنه لا شيء. ففي حالة الرمز، تصير اللزمية جنباً إلى جنب مع التركيبية (Bühler) (2). والموضوع الرمزي مؤلف ومختلف مع/من ذاته في الوقت نفسه، فهو صورة ويصير من الطبيعي. ويتم اكتشاف طبيعته الهندسية كما كانت له علاقة غير انعكاسية مع الزمن. فالرمز ذو طابع متضارب ومكثف.<sup>(15)</sup>

يتجلى الاتجاه التداولي في قول تودوروف وأيجاز معلقاً على دلالة الرمز التي تقضي بالانتقال إلى ممارسة التأويل: ففي الرمز، التطوير المصورة بذاتها إلى أن لها معنى لغير، فليس إلا (فيما بعد) أو بصفة لا وأعية يتم الانتقال إلى عملية إعادة التأويل. وما نحن نمر من سيورة الإنجاز، بواسطة العمل الأدبي نفسه، إلى سيورة التقني<sup>(16)</sup>. ويقوم تقني الرمز على التأويل لأنه يحول الظاهرة إلى فكرة، والفكرة إلى صورة غير قابلة للقول للأنهائية الدلالات الرمزية التي لا تنضب معيها. فالرمز حي وتنشيط دوماً، وما لغير تأويله سواحل. فما يعبر عنه الرمز دائماً انقطاعات من قيد النقط. وأتى له الانتقال وهو صاهر الأنداد (العام والخاص، الفكري والعادي، الكونية والدالة)<sup>(17)</sup>. فالرمز، كالأسطورة، موجود ودال، فليه يصير القول دالاً. وهذا يذكر بسميثانية بروس (Péroux)، فبالنسبة لمؤسس السميثانية يكون للعلامة في زمن متلقيها منزل.

(Interpretable) يصير بدوره علامة قابلة للتأويل، فإن كان الرمز جزءاً من فروع الكتابة، فإن كرويز يجعل من الاستعارة أحد فروع الرمز<sup>(٣٠)</sup>. ولا تخفى العلاقة القائمة بين الاستعارة والكتابة في بلاغتها، ومصطلح «الاستعارة المكتبة» دليل على هذه العلاقة. كما هو واضح، فإن للميزان والرمز النكتاني والتورية والمناكفة علاقة بباقي الكلمات التي تسبقها أو تلحق بها في سياق العبارة أو الجملة.

## ب- المصطلح البلاغي المحدد للعبارة أو الجملة

### ١- الخير ودلالاته التداولية

الخير عند البلاغيين نأياً بمشعل الصديق والكذب باستثناء الضار الله ورسوله، ولأبد الخير من طير ومطر به، والعصفران الأولان من عناصره التداولية عما الخير به والخير به، وأما العنصر الثالث فهو مطابقة للواقع أو حسنة، بينما عنصره التداولي الرابع هو كون الطير غالباً، فحمة غايات التصل بالخير وأخرى بالخير، ويخفى الخير حسب أحوال وقروء وأغراض ومواقف كل متباداً، فهو علامة على وجهة نظر الخير، ويعتمد الذي يتكيف أو لا يتكيف مع موقف الخير وحسنه. ودلالاته التداولية (التكسبية والأثرية) متشعبة بدلالة المطابقة وسريكة من قبل الخير به. وهذه هي الدلالات التي ذكرها كلها المفكرين والفلاسفة والبلاغيون العرب مثل محمد بن عبد الله بن العربي، وأبو حامد الغزالي، وعلي بن أبي علي بن محمد الأعرجي. وينقسم هذا الأخير الدلالة إلى قسمين وهما: الدلالة اللغوية والغير اللغوية. وتعتبر اللغوية بالنسبة إلى كلمة المعنى الذي يوسع اللفظ له أو إلى بعضه، خلافاً لدلالة المطابقة كدلالة لفظ الإيمان على معناه، والثاني دالة تتضمن كدلالة لفظ الإيمان على ما في معناه من الحيوان، أو الناطق، والناطقة أهم من تتضمن، ليجوز أن يكون للقول بسيطاً لا جزء له.

وأما غير اللغوية، فهي دالة الالتزام، وهي أن يكون اللفظ له معنى، وذلك المعنى له لازم من خارج، فعند فهم مدلول اللفظ من اللفظ ينتقل المعنى من مدلول اللفظ إلى لازم، ولو قدر عدم هذا الانتقال المعنوي، لما كان ذلك اللازم مفهوماً<sup>(٣١)</sup>.

إن دالة المطابقة سواء في الخير أو الإثماء أقل تداولية من دالة تتضمن ودلالات الالتزام، ذلك أن الأولى تصغر عن ملق ما لغرض معين لأبد لتعطية من ملق يستتشف من خلال ما يثار في

لأنه من دلالة تفسيمية ودلالات التزامية في سياق مصاحب للكلام فيشارفاً في ذهن المتلقي اعترفت تداولية، وترقى هذه التداولية إلى أعلى مستوياتها كلما أثر الثقافي في الثقافي تأثيراً يحول ويبدل موقعيهما. وبذا يصير الثقافي مطلقاً واللفظي متلفياً، ويشرعان في التقليل، ويتبادلان الكلام ويتداولان عليه، أي يتحاوران. وهذا يعني أنهما يحترمان الأدوار ومبادئ التواصل والتحاور أو ما عرف في اللغة أو الفكر الإسلامي أو الفلسفة الإسلامية بالجدل والمناظرة والحجاج. وقد شاع تلك في الفكر العربي المعاصر بالتداولية/الموازية، أو التداولية/الجدلية، وفي انعدام تداول الآراء تبقى الدلالة المطروحة (posed) بغير ما يدعج بها من دلالة مفترضة (presupposed) ودلالات مضمرة (non-extended)، فالتداولية لا تهتم بفهم اللفظي في غياب فهم الثقافي ورد فعله الثقافي و/أو غير الثقافي، ففهم الثقافي يشترط التجريب أو الفجأة والاستعداد للتجاوز مع الغير، فغير خاف أن الدلالة لمطابقة أو المطروحة «دلالة وضعية»، بينما دلالة التضمن أو المفترضة ودلالات الالتزام أو المضمرة مطلقة في نظر بعض الفلاسفة، وسواء اعترفت «الدلالة الوضعية» الاجتماعية والدلالة العقلية فردية، فقد انهار صرح هذه الثنائية بمبدئية الفردية والاجتماعية، والنتيجة هي أن كل دلالة وضعية وعقلية، فحين نؤمن بقول: «إن الاصطلاح على وضع لغة لا يكون ضرورة إلا بكلام متقدم بين المتكلمين على وضعها، أو إشارات أو النطق على فهمها، وتلك الاتفاق على فهم تلك الإشارات لا يكون إلا بكلام ضروري، ومعرفة حدود الأشياء، وطبائعها التي عبر عنها بالفاظ اللغات لا تكون إلا بكلام وفهمهم، لا بد من ذلك، فقد بطل الاصطلاح على إهداء الكلام» (١).

إلا أننا لا ننكر اصطلاح الناس على إحداث لغات شتى بعد أن كانت لغة واحدة ولفظاً عليها، بها طموحاً بلغية الأشياء، وكيفيةها وحدودها، ولا تحري أي لغة هي التي وقف اسم عليه السلام عليها أولاً، (٢).

حتى إن أريد بالوضع النطق أو الإلقاء، أو الطرح أو الأصل الأول، فهذا مجهول، كما يتضح ذلك من قول ابن حزم: وجهلنا إياه لا يمكنه أبداً مزينة صدوره عن عقل ومنطق ونسق وسباق، فاللفظي عديم الفائدة، وهي أحد شروط التداولية، ويشترط التجريبي حصول الفائدة بمراعاة العرف الثقافي والنطق أثناء التحدث، وذلك بقوله عن الكلام المفرد: «إن الكثير منه فراء في عداد من يشترك فيه أجيال الناس ويجري به العرف» (٣). ومع ذلك، يميز التجريبي بين الاستعارات العامة والاستعارات الخاصة (٤) التي تعتبر تداولية لأن اليدج يتجاوز بها ما هو عامي ووضعي

وعرفي واجتماعي، أي ما هو متداول ومألوف وميثل بابتكاره الجديد والحديث، العجيب والغريب، الطاريق والغش. فالمتكرر يتفعل بالأوجه البلاغية ويغلبها سواء أكانت سجارا أو استعارة أو كتابة. فالبلاغة نفسها تقوم من مقومات التداولية.

## ٢- الكتابة ودلالاتها التداولية

تخطي، يوما الدلالات التداولية بولف الدلالة العرفية للعبارة أو الجملة، وخصوصا إذا تضمنت سجارا أو تحريفا أو مشاكلة أو كتابة. فاللفظي الذي يتفادى التصريح ويقل على التلميح يبتدع الكتابة ويراعى في الآن ذاته على ذلك، وفطنة ونبذة اللغوي وحده ذهنة وسرعة فهمه لدلالات الكتابة الباطنية المختلفة وراء دالاتها الظاهرة. فالكتابة لغة أن للكلم بشيء، وأنت تريد به غيره أو أن للكلم بلفظ وبجانبه جانباً عطيلة وسجراً<sup>(١٢٥)</sup>. وفي اصطلاحها، يندج يعنى من حمزة دلالات الكتابة البلاغية التداولية بدلالاتها البهائية التداولية. وذلك ليس لكون البيان فرعاً من فروع البلاغة فحسب، بل لأن دلالات الكتابة بدلالات أي عبارة مع اختلاف من اتجاه ابتدع مصطلح الكتابة فهي دلالات مخرصة أو تصفية، حسية أو التزامية ووجداني. ذلك من تعريف صاحب كتاب الطراز للكتابة الذي يذكر بتعدد اسم الدلالة: «إنها، إذا أطلقت، فالمعنيان: فهي الحقيقة والجزء، مفهومين معا عند إطلاقها، ومثلها قولنا فلان كثير رماة القوس، فإنه قد استعملت هذه الألفاظ في معانيها الأصلية، والمفهومة إعادة كونه كثير رماة القوس إعادة معنى آخر يلزمه، وهو القوم»<sup>(١٢٦)</sup>.

لنراى التداولية من خلال دمج ابن حمزة الدلالة الالتزامية (المعاني اللازمة) بالدلالة الخطابية (المعاني الأصلية). ورغم عدم تكرر للمصطلح الذي تقع على عاتقه مسؤولية فهم المعنى اللازم للمعنى العرفي، فقد ذكر صفة مفهومين، وألفظ «إفادة» مرتين. والفهم والاستفادة يرجعان سوية إلى المصطلح، فالمصطلح لاغير هو من شئهم ويستفيد من المعنى المصطلحي الذي يطرحه اللغوي المعاني المعجلة، فالكتابة غائية أي تكمن غايتها في قصدتها وفائدتها. وكل تعبير غائي تداولي، وتتعلق تداولية الكتابة بواسطة التعريف والتوضيح والإيماء والرمز. ومثالها: «هذا أفعوان لرقط، كتابة عين بيت السعوم يفساه ممارسها الصنمية. والكتابة علاقة بالاستعارة كما سبقنا الإشارة.

## ٣- الاستعارة ودلالاتها التداولية

الاستعارة من حيث اللغة من أعلر فلان الشيء من فلان وأعاره أحدهما من الآخر وأعاره

ثانيهما إيهاء. ومثله المعلومة والشعار كالمداولة. ويكون التداول في الشيء بين اثنين. وتكون الاستعارة من تعوير واستعار. واستعار الشيء أو استعارته منه طلب منه إعارته أي أن يعيره إياه (٢٩).

تتعلق فئة من البلاغيين في تعريف الاستعارة من المصطلح نفسه فيقول إن الاستعارة من استعار فلان الشيء من غيره. أي افترضه واستطغ منه فصار الشيء عبارة لابد أن ترد يوماً ما إلى صاحبها. فكان اللفظ يستعير من كلام غيره عبارة كلفه تعير عن معنى عادي لتعبري للتعبير عن دلالة تخيلية جديدة. فاللفظ يعترف من تخيله القوية ليدع عبارة تتطوق فيها الاستعارة بضم كلمة تنتمي إلى نسق مغاير لا على سبيل تحقيق التجاير الفلوف والتشكيل المنطقي أو العظمي للتداول بل على سبيل خلق هذا التجاير اعتماداً والتشكيل للتداول. وأما الفئة الأخرى فتتعلق في تعديد الاستعارة من أصلها أي من التشبيه والجان. والجرجاني من هذه الفئة فهو يقول عن هذا الوجه البلاغي الذي يعد علامة من علامات الإبداع التداولي :

«اعلم أن الاستعارة في الجملة أن يحكى لفظ الأصل (أي الشيء) به (أي الوضع اللغوي) معروفاً (أي في معنى معينه) مثل الشاهد على أنه المضحى به حين وضع. ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل. وينقله إليه فلا غير لازم (فكر نقله نقلاً إلزاماً صار تطبيقاً عريضة لا استعارة) فيكون هناك كالمعربة»<sup>٣٠</sup>. (أخذ ما بين الأقواس من هامش الصفحة نفسها).

إن العناصر التداولية للاستعارة شبيهة بالعناصر التداولية للمكتابة. ومثال الاستعارة «شاعر الحياة كل إنسي». وأنواع الاستعارة هي: الاستعارة العنانية والوظيفية والداخلية والطارجية. العنانية والخاصة المصححة والتحقيقية والتخييلية) والمكتبة. الأصلية والتعبية. المرشحة والجرمة والمطلقة. المعصية والقيحة. ولن نعرض في هذا المجال الطيق لجميع أنواع الاستعارة بقدر ما سنقرر للاستعارة التشيلية عيزاً خاصاً للأسباب التالية :

- كونها نموذجاً لبلاغي أنواع الاستعارة.
- ترجمتها بين كونها عبارة أو جملة. وكونها نصاً قصيراً أو طويلاً.
- كونها تنهيداً للعديد من المثل والمثيل والأمثلة.

تكتسب الاستعارة تداوليتها من التأثير الذي تحدثه في المتلقي في سياق معين. حتى وإن

صدرت عن موقف إقليمي وموقعه ووضعها الاجتماعي والشمالي الأيديولوجي. فهي تفهمي والمفهمي إلى الوعي. والحصول على التجربة المعلقة للسلوك. والمحولة من الانفعال إلى الفعل. ومواصلة السيرورة النظرية. فإحداث الاستعارات المطة والتميزة والشبكة لتطور اللغة ودلالاتها التداولية المخراتية من خلال أساليب الاستعارة وأنواعها. وتطور اللغة علامة على تطور الحياة. والتطور مبدأ من مبادئ التداولية. والحياة المتطورة قائمة على التكلم والتداول والتخاطب والتواصل بالتموير أو التناوب. فمبدأ معاني التناوب هو الإبداع والتغيير والتحويل. وكذا التزييح والتخريف والانتهاك والخلق... وإبداع الاستعارات تداولي ومن مهام التفسير والتفصيل والتصور. وينبع التصور الاستعاري من التجربة التي تتفاعل مع اللغة. وهذه التفاعل نفسه تداولي. وتبرز تداولية دلالات الاستعارة في قول جورج لايكوف (Georges Lakoff) ومارك جونسن (Mark John) (1980): «التوجه إلى أن الاستعارة حاضرة في كل مجالات حياتنا اليومية. إنها ليست مقتصرة على اللغة. بل توجد في تفكيرنا. وفي الأعمال التي نقوم بها أيضاً. إن النسق التصوري العادي الذي يُشير تفكيرنا وسلوكنا إلى <sup>(1)</sup> طبيعة استعارية بالأشياء <sup>(2)</sup>، وتلبي التداولية في تعامل التفكير الاستعاري والعمل. وبعبارة أخرى: يتفاعل النظر الاستعاري بالدراسة الفعلية. كما تمثل التداولية في تأكيد المؤلفين لخصيهما على أهمية السياق في فهم الدلالات التداولية للاستعارة. ويتضح ذلك من قولهما: «في عدد كبير من الحالات يكون السياق مهماً» <sup>(3)</sup>. وفي أحد فصول كتابهما القيم الحامل لعنوان «الاستعارة والصديق والعمل» يربط المؤلفان الاستعارة بالتجربة الإنسانية والحقيقة الاجتماعية والعمل والمستقبل. وهذا لا يدع مجالاً للشك في أن تداولية دلالات الاستعارة ناجمة عن ظروف معينة وأحوال محددة مثل الأزمات. مما يلقي إلى البحث عن مداخل للظهور منها. ويمكن أن يعترض البعض علينا بقوله إن هذا الإجراء خاص باللغة كلها لا بالاستعارة وحدها. ونرد على هذا الاعتراض بأن للاستعارة تأثيراً قوياً يفقد التعبير النظري العادي. ذلك أنها تشخيصية وتراوية. وتداولية الاستعارة أوسع مجالاً من تداولية الجاز. فإذا كان الجاز ينحصر في الاسم فقط، فإن الاستعارة تنطلق في الاسم والفعل والحرف. وهذا سبب لعدم أنواعها. كما أنه إذا كان الجاز كلمة في عبارة، فإن الاستعارة عبارة في جملة. أو جملة في نص. أو نص (ثلاث جمل بسيطة أو مركبة) في نص مثل الاستعارة التعليلية.

تعدو تداولية دلالات الاستعارة- مثلاً- من «الافتراضات» التي يضعها لايكوف وجونسن

ونضمها إلى أربعة أقسام نذكر منها ثلاثة لأن الافتراض الأول تكرر للثاني. ونبدو هذه الأقسام الثلاثة على الشكل التالي:

« يمكن أن تكون استعارة معينة الوسيلة الوحيدة لتسلط الضوء على بعض مظاهر تجربتنا وتطويعها بشكل مشجع.

— قد تدع الاستعارات بعض حقائقنا، وبخصوصها المطلق الاجتماعي.

— ويهذا قد ترشدنا استعارة معينة في عمل قليل. وهذه الأعمال القليلة مستقلق— طبعاً— مع هذه الاستعارة. وهذا يدعم قوة الاستعارة في جعل التجربة متسجمة. وبهذا المعنى يمكن للاستعارات أن تكون (تومات) تضمن لحقتها بنفسها»<sup>(37)</sup>.

إن قولنا: متحارب النظر إلى الأشخاص لننمي النظر إلى الأعمال، يتضمن استعارتين تشوير أولهما إلى ما هو كائن (النظر إلى الأشخاص) بينما تشوير تأنيدهما إلى ما ينبغي أن يكون (النظر إلى الأعمال). فإلهامية أو سلبية الممارسة الجديدة تضمنون الاستعارة الأولى بالعناية من صواب الاستعارة أو باطلها (الفرق بين منطق كاري— بما بعد الاستعارة من غايات والغرض ومقاصد، فبطلاً عن الأعمال والأعمال، والكاسب، فإذا أدت الاستعارة إلى تصورات واستراتيجيات وقرائن ومواقف— فإنها تفضي— لا محالة— إلى الإلتزام والتطبيق والممارسة لتطبيق ما تم تصويره ورسمه والاتفاق عليه بواسطة هذه الاستعارة في مسافات مختلفة. وفي هذا السياق يقول المؤلفان: «في أغلب الحالات، ما فيه نظر ليس هو صطل الاستعارة أو كذاها، بل الإبرازات والاستدلالات التي تستتبع الاستعارة والأعمال التي تقرأها. ففي كل تفاصيل حياتنا اليومية، بصرف النظر عن السياسة والحب، نحدد الحقيقة من خلال الاستعارات. ويتصرف بموجبها، إننا نرسم استنتاجات، ونرمي إلى أهداف، وتقوم بتعهدات، ونلقد مخططات»<sup>(38)</sup>.

سنرصد الآن يوفق الشخطة الرسومية في القدمة الدلالات التداولية للاستعارة التمثيلية. وهي جملة قابلة لأن تصير مثلاً، أو هي نص يطرح إلى أن يفصح أمثلة. ومثال الاستعارة التمثيلية «لا تعطي السيارة في البحر» ودلالاتها التداولية التي يستنتجها المتلقي هي أنه لا يمكن تركيب الحال للوصول إلى المبتغى. بل لابد من العبور من الطريق الممكنة ويمكن لهذه الاستعارة التمثيلية أن تصير مثلاً، ولتكننا سندرس تداولية أسلوب الانتقادات قبل دراسة الدلالات التداولية للمثل.

## 1- الإنشادات ودلالاتها التداولية

كانت الأسطورة تنوع بتروح أساليبها، وتكتسب تداوليتها من تواجد اللقي والمظني والسياق، بينما يكتسب الإنشاد تداوليته من تغيير الأساليب والصيغ الزمنية والمكانية والقصص. أضف إلى ذلك التجنيس في الكلمات والتلوين في الألفاظ والحروف فدائفة المظني والتأثير فيه بنقله من قضية إلى قضية. والإنشادات في اللغة أن تنظر إلى الجهة للغايرة للجهة التي كانت تنظر إليها. أي أن تصرف وجهك إليها وتكلمت إليها إنشاداً. وفي حديث الرسول صلى الله عليه وسلم يصف الإنشادات: فإذا تكلمت، تكلمت جميعاً، بمعنى لا تتسابق النظر أو لا تلوي عطفك يمنة ويسرة كما نظرت إلى الشيء<sup>(١)</sup>. كما يعني أن تصرف الفرد أو الجماعة عن وضع أو طرف أو تقليد أو حالة أو حضارة أو ثقافة إلى غيرها. ففي القرآن الكريم: نجد هذه الآية الدقة على التحويل والنقل من اعتقاد إلى آخر وقد وردت على لسان الكفار الذين سلكوا موسى عليه السلام مستنكرين الحق الذي جاء به من عند الله: «أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا» (سورة يونس: الآية رقم ٧٨). فالإنشادات من القصة، ومن حيث أن القصة التطبيقية والظاهرة، وبأساطيرها يعني الانتقال من أسلوب إلى أسلوب، ومن موضوع إلى موضوع، ومن حقيقة إلى أخرى... وهذا الصمد يقول فدائفة بن جعفر: «من تعبدت للمعاني الإنشادات، وهو أن يكون الشاعر أحدًا في معنى فكأنه يعترضه إما شك فيه، أو ظن بأن واداً يرد عليه قوله، أو سئلاً يسأله عن سببه، فيعود وأجابه على ماقدسه قبلًا أن يؤكده أو يذكر سببه أو يحل الشك فيه»<sup>(٢)</sup>.

تكمن تداولية الإنشادات، كما يتجلى ذلك من هذا التعريف، في مناجاة المظني نفسه مستنلاً ومجيباً، ومن الطبع أن لاستجابة لأتلبية الحوار. فهي: قبل أن تحير ما هي طبع حوار مع الغير. كما تكمن تداولية الإنشادات في مراعاة المظني للمظني. فهذا الأخير هو السبب الأول في اجراء اللقي إلى إصدارات الإنشادات في الأساليب والصيغ والضمائر والمجموع... وكما سبقته الإشارة، فإن الإنشادات وجه يلاقي تابع من تجارئة الكلامية، ومعارفنا حول أنفسنا التي ترفض التكرار المتصل، وتجنح نحو التبدل والتغيير والتلوين في أساليب الكلام وصيغه وأشكاله. كما تنظر نفوسنا والولفنا وأحاسيسنا الجمالية المتطورة يوماً من اليوم ذاتها، والنعمة نفسها، والأفراح هذه، والقول المأدب. هذا، وتعزف مشاعرنا عن الطرائق والأشكال والدلالات التي نحس «نحن تلقاها» بالرقابة الضميرة. والمظني هو الباحث الأول على ابتكار اللقي للإنشادات، وذلك للاستجابة لأفق



النظر المنطقي أو التغيير، أو إبعاده أو مغايته بالانتقال من حال إلى حال، أو من معنى إلى آخر، أو من طريقة إلى أخرى. والانتقال أو التغيير أساس من أساس التداولية مثل تشكيل أفعال الكلام بحسب المنطق وطاقته. وفي هذا السياق، يقول الزمخشري: «إن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب، كان ذلك أحسن نظرية نشاط السامع، وإضافة للإصغاء إليه من إبعاده على أسلوب واحد، ولتخلف موافقه بطوره»<sup>(١٢٤)</sup>. فبرغم وجود «قوائد» الاكتفاء نكرة في كلام الزمخشري، فهي تعني التأثير المنطقي إلى التجديد والتحديث والتطوير في فنون القول وبسبب الكلام وانماط الحديث وأنواع الأدب القائمة على التمثيل زيادة على التقدم في الأفعال والأفعال والممارسات والمجرات الفكرية والمادية.

يتفاعل اللغوي والفكري، الواقعي والأدبي مثلما تتفاعل التجربة والبلاغة. فإذا كان بعض البلاغيين يعتبرون الالتفات من الوجه البلاغي الجسد لمطابقة العربية- فإنهم يقصرون بذلك شجاعة المنطق الذي يبدع في التعبير بما يحمله فيه من تشكيلات وأما من زاوية المنطق، وجب أن المنطق منطق والمنطق منطق. فليس هناك الالتفات بل المنطق المنطق والفصل والوصل. فحين جنى لا يدرج هذا الوجه البلاغي ضمن الأوجه البلاغية الأخرى التي تؤدي إلى أن يتجوأ مكانة الزيادة في وضع مبحث في «كتاب سماء» أبياب في «شجاعة العربية» يقول فيه: «أعلم أن معظم ذلك إنما هو الحذف، والزيادة، والتقديم، والتأخير، والوصل على المعنى، والتمثيل»<sup>(١٢٥)</sup>. فلا انحراف في القول بأن «الفصل والوصل، أقرب إلى الاكتفاء، أو الوصل إحدى أحوال الفصل أن تختلف جملتان متصلتان- مثلاً- خيراً وإنشاء»

## ٥- النقل ودلالاته التداولية

لا حرية أن النقل من الاستعارة التعليلية، ويؤكد استنباط معناه المنطقي من معناه الجلي إلى المنطقي. والنقل عبارة أو جملة قصيرة مبتذلة لكثرة ما ردها الناس، وصيغتها لا تتغير أبداً رغم تغير السياقات التي يرد فيها باعتبارها حجة وإليلاً وبرهاناً. فتداولية النقل اضيق مجالاً كلما بدا في صورة أطروحة لا تقبل لها، فالنقل تداولي لأنه يحقق التركيب الجدلي، والجدلية تداولية والتداولية جدلية، ويحقق الجدلي الدينامي والتغير الجزئي، أي بالقلب، أو بالتغيير النسبي، أي بالنقل. فالحال السابق: «إذا كان الكلام من فضة فالمسكوت من ذهب» يتيح تحقيق تداولية بالقلب، فنقول: «إذا كان الصمت من فضة فالكلام من ذهب». ويتجلى تداولية النقل «الصمت حكمة» أولاً

في كون ذاته نفسه لم يترجم الصمت. فلو التزم به لما عرفت هذه الحقيقة دلالتها. وبالتفكير النسبي لهذا المثل، يصير متضمنًا للتركيب الجدلي. وهكذا يبدو على النحو التالي: «إن في الكلام والصمت حكماء». فالملاقة جدلية بين الكلام والصمت. كما أن الكلام يوجد على حدود الصمت، ويقع الصمت على تقويم الكلام. وكلاهما يتضمن نظيفه. وبناء على ذلك، فكلما كان المثل جدلياً، أي تركيباً جدلياً للأطروحة والنقيض، كلما كانت تدابيره أرحب. بمعنى أن المثل الجدلي أبلغ برهنة وحجية واستدلالاً، واقنع مطلقاً، وأوقع في نفسه، وأشفى لعليله. ويمكن أن يوسع بذلك دائرة التمثيل (La représentation) الذي يشمل:

- مثل الجدلي وغير الجدلي.
- التمثيل البلاغي الذي يأتي على شكل نص سردي، أو سردي حوارية.
- الأمثلة التي تتخذ شكل أسطورة أو حكاية أو قصة أو رواية حوارية.

«المثل يطلق على نوعين: أحدهما ما قصد به المبالغة بلفظة أفضل، كقولهم: «المثل من ذات النعمين»، والثاني كل كلام وجيز مبين أو أسلوب جميل في واقعة منسوبة تضمن معنى وحكمة. وقد نهى بلطيمته ذلك لأن يستشهد به في نقاشه، والواقعة»<sup>(17)</sup>. يقول ابن الأثير: «والأثير عند البلاغيين: الطعاسي والمحدثين منهم على السواء، الجمع بين الاستعارة التمثيلية والمثل والتمثيل. فمع أن المثل من الاستعارة التمثيلية فإنها تتميز عنه بقابلتها للتغيير. وأما المثل، إذا لم يجد له دارساً يتوصل بالجدلية منهجا في القراءة، ثبت على حال الأطروحة العديمة النقيض الجدلي. وفي هذا الاتجاه يقول أحمد الهاشمي: «إذا غشت وشاعت الاستعارة التمثيلية وكثر استعمالها، تكون مثلاً لا يغير مثلاً»<sup>(18)</sup>. فحكم أحمد الهاشمي لا تعدد النسبية لأنه توجد أمثال قابلة للتغيير. فلذا لا تدابيره لكل حكم مطلق. وتكون التدابيره التي يهرم منها ما لا يتغير، لتروى بعدم تغيره. ففي حين يثبت المثل لمحاذاة على حال، واحدة فإن الاستعارة التمثيلية قابلة للتغيير في معظم الأحوال أيضاً. فلذا تشبه الاستعارة التمثيلية المثل وتختلف عنه. وبهذا الصدد يقول عبد الغافر الجرجاني: «لو كان مراداً بالاستعارة وهو المراد بالتمثيل لوجب أن يصبح إطلاقها في كل شيء» يقال فيه تمثيل ومثل»<sup>(19)</sup>. وليس الفرق بين الاستعارة التمثيلية والتمثيل هو كون أحدهما شبيهاً بعد التجاز، بل لكون التمثيل يتجاوز العبارة والجملة اللغوية والتمثيلية التي لا تتحول إلى نص متعدد الدلالات وقابل للتغيير والتأويل. فالجرجاني يعرف التمثيل بقوله: «الأصل في كونه مثلاً وتمثيلاً

هو التشبيه المتفرع من مجموع أمور، والذي لا يحصل له إلا جملة من الكلام أو أكثر<sup>(1)</sup> ويمكن للتشبيه الزيد والظول أن يصير أمثلة، فما الأمثلة؟

## ٦- الأمثلة ودلالاتها التداولية

تدل الأمثلة بصفة مباشرة دالة أولى. وتجدو تداولية دلالاتها الثانية والافتراسية من كونها ملقات أو متفائلة ووظيفية وبنغية ومتعدية فهي نتيجة لمحور المعرفة أو الثقافة. وهي اصطلاحية واعتباطية وغير مطلقة وبلا قيمة معينة. كما أنها مقلاتية أي مصدرها العقل فهي تتضمن أفكارا، بمعنى أنها ترتبط الخاص للتعبير عن العام ورأى العكس. فبذلك تفرض التداول. والتأويل أساسي في التداولية طالما أن الثقافي هو من يشكل بالإنجاز. فهو الذي يستلخ دلالاتها التداولية ويبلغ دلالاتها الطاعرة بالكمالها، حد التلاشي. ومن خلال الطاعرة يتلقى الثقافي المفهوم، ويعبر هذا المفهوم يستقبل الصورة فالأمثلة تصير عن فكر بواسطة الصور الواقعية والافتراضية. كما تغير عما يغيرها الكائن وراء ما نعيه. ولا يتلقى منها الثقافي سوى ما يمكن تداوله قولاً وفعلاً. ذلك أنها غائبة لا تنصها الأمثالي فبسبب بل يراها هذا الأمثلة كذلك فالقراءة الأمثالية مغايرة للأمثلة ذاتها. وبصفة تأويلية فالأمثلة تصير والتأويل تمتع هو محور التشكيل الصور للتعبير عن واقعة معينة أو حدث محدد، أي أنها تستخدم المراتي للتعبير عن اللاهوتي، فهي تتضمن أسطورة وتأيول صورة. أي مجازاً أو استعارة، وهي استعارة مزينة ومطورة وموسعة ومبتدعة. كما أنها تتخذ شكل تركيب جملي يجسد نفي النفي فالأمثلة في صيرورة دائمة<sup>(2)</sup> فإن كان الرمز شاملاً للاستعارة وكلمة في سرد. فإن الأمثلة نص قابل للتقديم إلى حد تشكيل نوع أدبي سردي أو حواري يشبه «الثل الخرافي» (أو prosopopoeia). فعبير الأمثلة التي ترتبط اللغة الدالة على الكائنات غير الإنسانية يدرك الثقافي القضايا الإنسانية (المواقف المتصارعة، المشاعر المتضاربة، الإراد المتناقضة، وجهات النظر المتعارضة) ويلتخذ - من ثم - موقفه التداولي الناتج عن موقفه التأويلي. فحين حزم يحدد التأويل بقوله عنه بأنه «نقل اللفظ عما القضاة طاعره» (...) إلى معنى آخر<sup>(3)</sup>. والتأويل انماط تتنوع بتنوع الأقوال والتصوص، وتتعدد بلعدد الأنواع الأدبية. ومن بين هذه الانماط التأويلية نذكر:

- تأويل اللفظي / المعنوي الذي يتم به تطوير الكلام باستعمال الكلمة نفسها بمعنى، وإعادتها بالمعنى ذاته لتعبير عن دلالات مغايرة للمعنى التداولي. ويتجلى ذلك بوضوح في المصطلحات البلاغية الخاصة بمفردة التعبير.

- التناوب التعبيري/ الدلالي الذي يشتمل فيه الانتقال من معنى العبارة المطابق لها إلى دلالات تداولية لتعابير مغايرة للعبارة نفسها ومعناها المطابق لها. وهو تناوب عياري أو جملي، مثلي ومثلي.

- التناوب النصي/الدلالي الذي فيه يقع الانتقال من دلالات النص إلى دلالات نصوص أخرى مختلفة وعسقة تروى بها الدلالات المطابقة للنص الأول. فهو تناوب مثلي أو أسلوب، أي استوري أو حرافي أو حكائي أو قصصي أو زواني أو زواني حواري.

تتعدى هذه الأنماط التداولية الدافعة إلى التفكير والتخيل وتجاوز الاتصال التعبيرية التي تلف دون العقل والخيال وممارسة التناوب، وتحرير تصوراتنا الاستعراري والتمثيلي والامتثالي، واكتسابه تداولية (إدراعية) أرحب. فإذا كانت التداولية تتحرر نحو تفعيل التقدير الخارج عن تلقى اللغة البلاغية الموسعة وبغيرها، فإنها لا تفعل التفعيل التلقائي في إبداع أوجه بلاغية جديدة، وما أن انتقل مبدع الأوجه البلاغية، فإن جيلبير دوراند (Gilbert Durand) يقول عن هذه الملكية الدينامية الابتكارية: «مبدأ من كون الخيال من وحيه، فإنه قد بدأ القاء (...) كتابات للفرقة الأرثوذكسية، ومبدأ من كونه ظاهرة تاريخية وسطية تمثل عتبة ما يبعد أو تلامس عتبة له. فلهذا ظهر التفعيل ليس فقط كعمل بلور العالم، كشلال مبدع، بل، على الأخص، كتعبير تطبيقي للعالم، كجزء. ذهني، كتشويق للكاتن ضمن أنظمة الأبطال»<sup>(17)</sup>

## الخصيلة

من فضائل التداولية الممتدة في التركيبية والقياسي أنها تلقت نظرتها بعد اللغوي ومعنى ما يلقيه من الكلام- إلى المثلي والدلالات التداولية (الافتراضية والتضمرة) التي تحصل في ذهنه وفي سياق معين. وإلى العاية العدية والقائمة العملية والنتيجة الفعلية من إلقاء الكلام في الجدل القصدي أو القصدي. ولما تعذر علينا تناول اللغة بجمع مكوناتها، ارتأينا تقريب دلالاتها التداولية من خلال بعض المصطلحات البلاغية ومعانيها القفوية وحسب. وبما ذلك إلا لتجنب البحث- لضيق الظلم- في كل المعاجم والكتب النحوية والنصوص المختلفة التي لا تحصى. وهكذا نعر علينا ذكر التشبيه ومباحثه الذي يكون فيه وجه الشبه تداوليا، أي مرتبطا بفهم المثلي. كما نعر ذكر بعض العصبانيات الوجدانية التي تتعلق فهمها كذلك، بالمثلي. ومعتبر ما ذكرنا، مثل الجواز والمناقلة

والتورية والرمز فضلاً عن الكناية والاستعارة والمثل والمثيل ثم الأمثلة، نموذجاً لما لم يتناوله ذكره. فالدلالات التداولية لهذه المصطلحات البلاغية تختصم وراء معانيها الظاهرية. ولابد لها من متلقٍ يفهمها في سياقها، ويتصرف وفق هذا الفهم.

في هذا السياق، اقترحنا ونحن نتحدث عن النجاء، ما يناقضه حتى المناقضة. وذلك لاختلاف الحاصل بين البلاغيين حول مفهوم الحقيقة الذي حصل فيه تطور. فالحقيقة في نظر الفلسفة الحديثة منسجمة، ولا يمكن التنبؤ سوى على بعض نسيبها. ذلك أن الحقيقة تعدد صلة جدلية مع الباطل. وعليه، فقد اقترحنا مصطلح التوحيّل كمقابل للمجاز الذي لا يعني الكذب أو الباطل، وقال مثل ذلك على المشكلة التي يكون أحد أجزاء عبارتها موحلاً والثاني مجازاً. فلذا تكون الدلالات التجارية دلالات تداولية. فالمتلقي هو المكلف بفهم هذه الدلالات الإيحائية. وكذا الأمر في التورية التي يقال لها الإيهام والتورية والتخيير. والتورية الأولى في التسمية أقربها من مطابقة للمعنى، لأنه مصدر وزيت الطور تورية إذا سترته وأظهرت غيره، كقول النكلم بجعله وراء بحيث لا يظهر. وهي في الاصطلاح، أن يذكر النكلم لفظاً مبرداً له معنيان خفيان، أو خفية ومجازاً، أحدهما قريب ودلالة اللفظ عليه ظاهراً والأخر بعيد ودلالة التفسير عليه خفية. فربد النكلم للمعنى البعيد ويوري عنه بالمعنى القريب. فيقوم المصاح أول وفلما: أنه يريد القريب، وليس كذلك، ولأجل هذا سمى هذا النوع إيهاماً<sup>(14)</sup>. يقول ابن حجة العمري: صحيح أن هذا التعريف شبيه بالتعاريف الموجودة في الكتب البلاغية، ولكن وراء الاستشهاد به غاية تداولية. فقد ذكر صاحبه الملقب (النكلم)، والملقى من الكلام تتضمن للتورية، والمتلقي (المصاح) التوهم. ويمكن أن يكون المتلقي فطناً وغير متوهم لأن المعنى القريب يوجه نحو «المعنى البعيد» فـ«يفتكره» لحسنه وسخفه وجملته. فهو يفتح للمتلقي التوفيل إلى أبعد مدى في التوفيل. وفس على تلك الرمز الذي يتفرد بدلالات عميقة وجوهرية وشديدة الوقع على المتلقي. وهذا الصدد يقول جيلبير دوراند: «إن الرمز لا يتنمي لبدان الأعراس، بل لبدان دلالة من نوع خاص، أي أنه يعد أكثر من معنى اصطفاً»<sup>(15)</sup>. ولكنه يصحح بقدرة أساسية وفورية على التدوير والتمييز<sup>(16)</sup>.

بعد تقديم الدلالات التداولية المتسيرة للمفردة التي ترد في سياقات التعبير، والتي تم تمهيدها بمصطلحات خاصة بها، انتقلنا تدريجياً إلى الدلالات التداولية التي تخص العبارة أو الجملة كلها، ونقصده الطور (لم تذكر الإنشاء، الذي تظهر دلالاته التداولية بعبارة، في النداء، والسؤال والطلب... إلخ) والكناية التي ترتبط بالرمز والاستعارة سواء في بلاغتنا العربية أو البلاغة الغربية.

فإذا كنا قد استعملنا عبارة «الرمز الشكلي» فإن الغربيون يستعملون عبارة «الكتابة الرمزية» فلايكوف وجونسن يقولان: الكتابات الرمزية تعد روابط حاسمة بين التجربة البوعية والأنساق الاستعارية المنسجمة التي تسم الفيلات والقلل<sup>11</sup>. ويبدو المظهر التداولي في ربط المؤلفين بين هذه الأوجه البلاغية المتلاحمة والخبرة العادية، كما أبرزنا الدلالات التداولية للاستعارة التمثيلية التي تحتم على المتلقي التحويل مثل المثل والتمثيل والأسطورة. ويتم التحويل قولاً أو فعلاً. فمثل كان القول فعلاً، فالمراد بالفعل الذي يشبه العمل البيوي كالكتابة على الورق أو بأحداث تغيير في الأشياء بأحداث معينة. وتوضح تداولية الاستعارة من ربط المؤلفين المتكويين إياها بالعمل والزمن في قولهما: «إن ما نحقيه استعارتنا الثابتة في العمل والزمن هو كيف يؤثر تصويرا الزمن والعمل في تصورنا لوقت الفراغ فيحاولته إلى شيء، يشبه كثيراً العمل»<sup>12</sup>. وبالإضافة إلى ذلك، صلتنا على إبراز تداولية الانفعالات الذي يشمل معجمه كل الألفاظ الدالة على التحويل والتغيير والتحديث فإذا كانت العناية بالمتلقي قليلة في الأوجه البلاغية الأخرى، فإنها في الانفعالات كثيرة. ولا تغفل الجمالية القائمة بين اللغة والكثرة فمن أجل المتلقي لتغير الأساليب والصيغ وطرائق التعبير، وكذا الضمائر وبغية التلقا والابتهاج بالمتلقي جريماً وجسوراً، فالتلقي في الانفعالات ناطق حاسم، بهذا يستحضر المتلقي سؤال هذه اللغة فوجدية عنه، وهذا يتحقق المحاج الذي يكون فيه المتلقي حاضراً بالقوة والتلقي حاضراً بالفعل. مراعاة لنفسية المتلقي ونوعه، تعدد الشوابع والظواهر والتحويلات والتحويلات في أشكال التعبير وبناء دلالته. والمثل وحده هو ما لا يتغير إلا إذا فُهم له مثلي ذو رؤية تداولية جدلية للعالم بها يمارس النقد مثلاً. وأما التمثيل أو الأسطورة، فهما فابان المتعدد من قبل المتلقي، بل المتلقي الذي من أجله قيل أحدهما، والذي يتكفل بفهم دلالاته التداولية وتحويلها، فالتحويل بالمعنى اللغوية والجمالية والتعبيرية بصير التمثيل والأسطورة نوعين أصيين قابلين بتورهما التحويل اللاتحائي واللاتحائي. ذلك أن المتلقي يفهم من الكلام ما لا يفهمه المتلقي. فإذا يخطف الفهم من فرد إلى فرد. وليسست الأسطورة - كالتمثيل - اعطاطية ما دامت لتخرج من أجل تحقيق غاية. وفي النهاية تخطف التمثيلات والأساطولات باختلاف الطائيات القربية والجماعية.

# مفهوم الحجاج عند «بيرلمان» وتطوره في البلاغة المعاصرة

د. محمد سالم ولد محمد الأمين\*



تمهيد

يتناول هذا المقال مبحثاً من مباحث البلاغة المعاصرة هو الحجاج  
الـ ARGUMENTATION، وسنناقشه أولاً من منظور مدرسة «البلاغة  
البرهانية»، ممثلة في أحد روادها البارزين هو «شارل بيرلمان». لكن قبل أن  
نفتتح الموضوع لابد من الإشارة إلى التطور الذي عرفته البحوث البلاغية  
في كل الثورة اللسانية الحديثة. صحيح أن البلاغة -وحتى عهد قريب-  
كان ينظر إليها على أنها علم قديم مرتبط بالانضباط من جهة، وبالكتب  
المدرسية من جهة أخرى. ولهذا التثنية سببان أحدهما سياسي والآخر  
تربوي.

\* باحث موريتاني

يشكل الأساسي في ارتباط البلاغة بمظهر معقد، الهدف إقناعه ببعض البرامج السياسية لا غير، ومن هنا بدأت... تفلد وتطيفها بوصفها فنا خطابيا لتتحول إلى فن القمصاحة، أي أن وتطيفها تحت أكثر مغزلا في اللغة نفسها. وهكذا إذن ففدت معناها النصي- العام وصارت فنا للمواعة بين الموضوع والشكل أو بين المضمون والشعير<sup>١٦</sup>.

أما السبب التاريخي فتمثل في التبسيط الذي مورس على المادة البلاغية كي تلائم الطرح الفكري والاهتمام التلاميذ الذين يتركون يوما بعد يوم. وقد أدى هذا الترويض إلى أن أصبحت البلاغة جزءا من علوم تدوين الشط والنظ.

هذا إضافة إلى ظهوري «القاعدة والتقليد» اللذين ارتبطا بالبلاغة، ومعددا حركاتها وتطبيقاتها. ومن هنا صارت البلاغة في نظر العديدين «معرفة متجاوزة» وظل هذا الشعور يتوارث، حتى في لوميط الأدياء، والفقهاء الذين غالب عن تصورهم أنهم يستطيعون البلاغة بنهم في الوقت نفسه الذي يهينون فيه عليها.

هذا المحذور المكتوب للبلاغة في مصورفا مستقل وصاحبه التعديرية المكتوبة- الرقية- المسورة... لفت النظر إلى ضرورة مراجعة التعديرات القديمة عنها (أي البلاغة).

حتى إن بعض الدارسين عرف الإنسان بأنه (حيوان بلاغي) في إشارة إلى الأبعاد الاجتماعية الجديدة للبلاغة. وإذا كان تراجع البلاغة يعود في الأساس إلى اغترافها في «نظرية الصياغة» التي حصرتها في البحث عن الصور والوجود البلاغي والزخارف والصنع، وإجمالا في «الأسلوب» فإن تجديد الاهتمام بالجوانب التداولية المرتبطة به نظرية الصحاح، القلبي، كلف عن جوانب صلبة من البلاغة بوصفها «تأسلا في اللغة والفكر» وأنها لسانيات (لغوية) عامة فهي تشعل (بشكل اللغة) كما أنها (لغة الكل)<sup>١٧</sup>. بالتالي فإن ما يحصل للبلاغة اليوم هو نوع من تجديد الجسد، وتوسيع الدائرة وفتحها كذلك، لتستوعب عديداً من العلوم الجارية إلى درجة صارت معها أحد البعض أفضل تعبير عن العدالة.

ومن نتائج هذا التطور ١٠- تحول البلاغة إلى علم مستقبلي، حيث صارت تنزع إلى أن تصبح علما واسعا للبحث، فهي لم تعد علما خاصا به «الخطاب» وإنما صارت علما عاما (للفطابات) كافة، وهو ما يعبر عنه بمصطلح البلاغة (العامة) أو البلاغة (المعصية) كما سميت أول مرة ٢- الانتقال من الرقية في إنتاج الخطاب إلى دراسة طبعوصياتته، أي أنها قد تغلّت عن تزعمها



## عالم الفكر

المعيارية المقتطة في فرض الفوائد تكادهم يرصد الفواتح فقط فهي تتحول من لغة موضوع إلى لغة واصفة، وهو ما يجعلها تتغلب مع مجموعة من المستلزمات المعينة لتحليل الخطاب، والأسلوبية، والقرائن<sup>(1)</sup>. هذا التحول من المعيارية في المنهج البلاغي المعاصر كان من أسبابه التغير العام الذي حصل في مناهج العلوم الإنسانية بصفة عامة، والبعود اللغوية والأسلوبية بصفة خاصة. وهو التحول الذي رافقه انقلاب جاري، في العديد من الأسس المعرفية المتصلة بالتحديد العلمي والإنساني، حيث طلت الأختبارية محل المثلية، والفلسفة الوجودية محل فلسفة الناقية. من هنا كان انتقال البلاغة من المعيارية إلى الوصفية ومن القاعدة إلى الظاهرة، لا يتبع النموذج العلمي الاعتراف به في الدراسات الإنسانية كلها فحسب، وإنما يتبع أيضا نوعا من الضرورة المعرفية التي تتسق مع طبيعة التحول الحضاري في العصر الحديث فلم يعد يوسع أحد أن يفرض قانونا يعتمد على إيديولوجية طبقية أو تاريخية تنتهي إلى أي معلنة خارجية، وأصبح المبدعون هم المشرعون لقوانينهم الجبريين لقوانينهم. وكان حشا على البلاغة المعيارية أن تختصر حينئذ<sup>(2)</sup>.

لقد توجب للمعاصرين أن إعادة قراءة البلاغة الكلاسيكية تعتبر خطارا إنسانيا أخشى ملحا نظرا إلى ما تسببه هذه البلاغة وأهل طبقاتها من فناء، وأكثر. وقد تبين أن تطعيمهما بالمستجدات المنهجية في المجال اللساني خصوصيا، من شأنه أن يطور الفرس البلاغي بصفة عامة، ويكتفب من العديد من خصوصياته الكلاسيكية.

وأهل من أهم التصورات التي قدمتها المنهجية اللسانية التأكيد على ضرورة اللجوء إلى «اللغة» والإصغاء إليها، ومحاولة لتجربتها لمعرفة أبعادها وكوائنها. فبهذه الطريقة وحدها تم تجاوز مناهج الدائرة التاريخية في البحث اللغوي، والاستعانة عليها بمناهج الدائرتين البنوية وما بعد البنوية.

هذه المناهج المعاصرة جعلت من اللغة الأداة والغاية في آن. ومن أن تعمل هذه الثنائية الفلسفية إما من أحوال اللغة خاصة التواصلية والتماثلية.

ولقد رافق هذا التطور في الفرس اللغوي سعي حثيث إلى مراجعة جميع الأدبيات البلاغية، ومحاولة رسم طريقة جديدة للبلاغة الكلاسيكية. من هنا اعتبرت قراءة الموروث البلاغي على أنها تمثل مولد اتجاه إنساني جديد من شأنه أن يعيد ترميم أزمة الثقافة الكلاسيكية بصفة عامة، والبلاغية خاصة.

ولكن هذا التّيمّم كما يقول بارت<sup>١٠</sup> لا يعني أنه توجد اليوم بلاغة جديدة، فالبلاغة القديمة تغالب بالأحرى هذا الجديد الذي لم ينجو بعد، إن العالم مليء، وبشكل عجيب، بالبلاغة القديمة<sup>١١</sup>. انصب إلى ذلك أن البلاغة القديمة قد قدمت للنظرية الأدبية المعاصرة منظورات جديدة للدراسة الخطابية الخطي والأدبي، الأمر الذي انجب بلاغة عامة خاصة بالفن، ولدت في التّماثلات مرتبطة بأسباب يلتصقها، بـب. إيفا تكوس<sup>١٢</sup> في أرميا:

١- نظرا لأن البلاغة، في نضجها ذاتها، كانت تعني وجود مركب من علوم الجدل والأخلاق والشعر... إلخ، فإن البعض رأى ضرورة الإسراع في استعادة الجانِب الإنساني والعالمي والشامل الذي تمثل البلاغة بالنسبة إليه (حلقة وصل مركزية) يربطها «طما الخطابات» بهدف وإعادة فواحة اللوروت البلاغي على أساس أن ذلك يمثل موك اتجاه إنساني جديد سيحدث على الاهتمام باللغة وتركيب الخطاب.

ب- تطور الدراسات النظرية والانتقال من لغويات اللسان إلى لغويات الكلام، وإبراز طواغيع العلاقة بين المرسل والمستقبل في إطار بحوث لغويات جديدة

ج- لزمة الإنتاج التّرجيع في النقد والتّكليف، إذ تبيّن أن تطور البحوث البلاغية سيحقق شمولية نظرية، بعيدا عن القاعب ذات الطابع الخاص التي سادت النقد في السبعينات.

د- نهج البلاغة الحالي يرجع إلى الاهتمام بوسائل الإقناع التي فرضتها طبيعة المجتمع الإعلامي المعاصر. ويستلزم هذا التّرجيع حتما بعيد من العلوم الإنسانية الحافة، وذلك على اعتبار أن اللغة قادرة على استيعاب الصّالح بها، ثم الاستيلاء، على طعنات هذه أيتها تعولها إلى تكوين جديد يستدعيه نظام العين النّجيب.

هذه الثّورة البلاغية المعاصرة لا تزال متواصلة، لأنها تمت جذورها- كما قلنا- إلى العديد من المجالات التّرجيع الحافة بها مستلزمة منها الجديد على التّوام.

لقد ارتبطت البلاغة المعاصرة، وبخصوصها منها نظرية المجاج -THÉORIE DE L'ARGUMENTATION وما تعلق بها من بحوث- بمختلف الباحثين الإسلاميين المعاصرة سواء منها السّمعي أو البصري أو هما معا.

لذا أصبح مفهوم الإقناع مطلقا أساسيا في كل عملية فكرية معينة، سواء كانت هذه العملية

«فكرة أو مقالة أو حركة... وهذا ما جعل هذه النظرية في استقراء مطاوع، مسئلة الجند من كل المحفل الجارية لها، على اعتبار أن الجند المعاصر أصبح متجسج صورة» وبقائي لقايد من تغيير الشكل والأسلوب والنشط المجابية في كل مرة تبعاً لفرع المقام وطبيعة المطايع.

إن الصور الذي أصبحت نظرية الحجاج تطوع، أو من المفروض أن للعبه جعل «بيرلمان» يعتبر أن «البلاغة مطابقة لنظرية الحجاج» فقد حصر الأولى في الأخيرة. وسنوضح لاحقاً معنى هذا الحصر اعتماداً على كتابه<sup>19</sup> الذي ألفه بالتعاون مع زميله OLBRECHTS, TYLECA. وهو الصنف الذي سيكون محور دراستنا هذه. وثق أنه يعتبر في نظرية أهم محفل البلاغة البرهان (الحجاج). ونحن إذ نتخذ هذا الكتاب محوراً للدراسة فإن هدفنا ليس عرضه أو ترجمته، بل إن هدفنا هو قراءة أهم أفكار هذه الدراسة البلاغية التي سبقت لتاريخها الفرنسيين اللامعتين: (البنيوية والشارلية).

إن إسهام هذه النظرية المجابية لا يقتصر فقط على المجالات الإسلامية، وما يتعلق بها من إشهار ودعاية وتعرّض وترويج... إلخ وإنما يتجاوز ذلك كله إلى المجالات التي لا يكون فيها التكلم حاضراً بقصد أو بسوء، إنما هو الحال في الكتابة مثلاً. إذ أثبت التحليلات إمكانية أن يقدم الكاتب بتشكيل عناصره ويصور تجربة انطلاقاً من وجهة وخلق انتظار المعطون. وهي عناصر يتم تشكيلها من إمكانات المقام لتقوم في الدراسة المكتوبة مقام المحضور العيني للتكلم.

هذا التصور يمكن أن يفسر لنا حركتها المطابقة الصالحة الفكر بين البلاغة والحجاج، لأن كل خطاب معاصر يسعى إلى تغيير وضع معين، أو تدعيم آخر، أو اتخاذ موقف تجاه قضية ما. وكل هذه الاعتبارات تتطلب خطوات خالصة من الوجهة إليهم الخطاب، أي أن التكلم ينتظر منهم حركة تتسم مع القاصد القولية التي انجبتا المقام.

الحجاج إذن في مفهومه العام وثيق الارتباط بالفعل. وقد البحت على هذا التزام الأديبات البلاغية الكلاسيكية لكن البلاغة المعاصرة عرفت هذا التزام الصلبي بين نظام الخطاب وحدث التغيير بوصف هذا الظاهر الدامل على حصول الاندفاع الفعلي لدى السامعين بالظهار القديم. فالصالح يبعث من أجل ترجيح خيار من بين خيارات قائمة وممكنة بهدف دفع قاطعين معينين في مقام خاص إلى القيام بأفعال إزاء الوضع الذي كان قائماً.

وتعد نظرية افعال الكلام العامة التي صاغها الفيلسوف (جون أوستن)، ولطورت على يد (جون سيرل) من أهم الطروحات التي تناولت علاقة الفعل بالكلام. وقد انتهى أوستن في كتابه «كيف تتجهز افعالا بالألفاظ» الصادر سنة ١٩٦٢ إلى مجموعة من التمييزات مستعرضا أهمها عندما تتناول «البلغة التداولية».

لهم أنه اعتبر كلا من بنية اللغة وبنية الفكر عبارة عن بنية واحدة. ومن ثم فاللغة هذه ليست أداة للتواصل والتخاطب فحسب وإنما اللغة وسيلة للتأثير في العالم وتغيير السلوك الإنساني من خلال مواقف كبرى<sup>(٢٩)</sup>. كما اقترح أن ينظر إلى الفعل التخوي من ثلاث زوايا «التلفظ والنطق والخطابة» إذ يختص فعل التلفظ بمخارج الحروف المادية، ويتعلق فعل النطق بمقاصد العبارة. أما فعل الخطاب فيهتم بمقاصد التكلم الخارجية عن العبارة، والفهم من السياق. وعلى ذلك فالأوستن يرجع افعال الكلام إلى ثلاثة أنواع: فعل الكلام، وفرد فعل الكلام، ولزام فعل الكلام<sup>(٣٠)</sup>. وقد كان الهدف من هذا التقسيم توضيح الفرق بين الشيء كما هو، وكما يدرك، وكما يعبر عنه.

وعلى الرغم من استرجاع هذه النظرية في حقل التداولية، إلا أنها انبثقت أولا من حقل البلاغة الفلسفية التي كانت تنبذ عن التراث اللغوي العربي بوصفه قويا<sup>(٣١)</sup>.

بهذا الفهم تتلاقى البلاغة المعاصرة في تأصيلها لهذه النظرية من تعاضد فكرتين أساسيتين: أولاها وجودية طاعراتية في أن وعيها ملوثة بعبء التي اعتبر فيها اللغة هي الوجود، وأنها هي الذاتي والحاضر والمستقبل، فهي طبقاتها بشئ كل شيء، وفي رحمتها تتصارع عوامل التأثير والتأثير معاً.

أما الفكرة الثانية فهي هرميوطيقية تداولية مفادها ضرورة الانطلاق من هذه اللغة الرسلة في مقام معين، ثم تفكيكها والفرس في باطنها بهدف الوصول إلى الأنساق الجامعة المؤسسة للأنسجة الدلغية المقول من جهة، ثم التعرف على طبيعة الخيارات الأخرى التي كان من الممكن تبنيها على اعتبار الأسلوب هو ذاته ليس سوى خيار (عدول) لغوي من بين خيارات لغوية أخرى جديدة من جهة ثانية، ثم أخيرا بهدف دراسة البناء الخطاب في علاقة مكوناته النصية المعينة بالأهداف الرسومة من قبل التكلم (الخطيب الكاتب) وعلاقة هذه الأهداف بالوسايع المعطيين بالخطاب، ولهذا الخطوة الهرميوطيقية الأخيرة أبعاد وروايات سيكولوجية تلتصق في السؤال عن:

الكيفية التي تدفع بها الكلمات المخاطبين إلى الفعل والتغيير؟

وهذا البعد النفسي وثيل الارتباط بأبعاد أخرى اجتماعية واقتصادية وأيديولوجية وحضارية شاملة لا بد من معرفتها معرفة دقيقة في أيديها الزمنية الثلاثة سواء بالنسبة للخطيب (الكاتب)، أو بالنسبة للجمهور المستهدف.

ونحن في هذا الجزء من البحث سنقتصر على تناول «البلاغة المحاجية»<sup>(١)</sup> متطرقين إلى معانيها التي شكلتها الدراسة البلجيكية. أما في الجزء الثاني فسنتناول كلا من البلاغة البنيوية والبلاغة التداولية لنرى الإسهامات التي قدمتها كل منهما إلى نظرية الحجاج وأطره الخاصة متناولين أخيراً إضافة البلاغة العربية المعاصرة ويعود النص من هذه التيارات الثلاثة. ولما كانت مساحة البحث الحالية لا تسمح بتناول الفرستين الآخرين فإننا سنشير إلى أهم ملامحهما في هذه الدراسة متطرقين إلى أهم ما يمكن أن نستفيد به لاحقاً العربية من هذه التصورات على أمل أن تقوم بتوسيع تلك أبعاد.

### I - البلاغة المحاجية Rhetorique Argumentative

تهدف: تعتبر نظرية الحجاج التي طورها جورج لكان مع زميله «فريديك» من أهم الطروحات الحديثة من ما يعرف اليوم بمحور البلاغة المعاصرة، وهي تبحث لتعلم أساساً بأساليب إجراء اللغة، وتصورات الخطاب ومقاصده، وشبائع الناس المعنويين بكل قول معين. وقد غرض هذا الاهتمام المتنوع على أصحاب نظرية الحجاج التوصل في بحوثهم النظرية والتطبيقية بمزيد من الأدوات المستمدة من حقل معرفية مجاورة للبلاغة واللغة، لذا كان لفهم «الداخل المعرفي» (inter) دور أساسي في هذه النظرية، لأن أي إقناع يتوصل حتماً بإليات متعددة يتفاوت (disciplinaires) إيرادها والوعي بها من قبل المعنويين. بل قد يستعين المتكلم بعناصر يعلمها المخاطبون لتكتمل لا يتوقعون حضورها في مفاهيم الخاص. من هنا كان نقاد الخطاب مرتبطاً بتوصل التكلم إلى إقامة علاقات صحيحة ووهيفة بين البوت وعناصر لم يكن من المتوقع حصول تلك العلاقات بينها، وبالتالي بعناصر المفاجأة الطريفة تعد من أبرز النقط المحاجية في مجالتي الفقه والخطب على سواء. فالمحدث في توظيف الأدوات التواصلية واستغلالها بالطرق التي لم تكن معروفة بعد أمراً مهماً به تتجلى براعة مرسل الخطاب.

كل هذه التقنيات الجديدة في علاقة المتكلمين بالمخاطبين وباللغات تعد من نتائج توسل البلاغة

بالبحوث اللسانية التي أثبتت أن اللغة ليست أداة للتواصل فحسب إذ فيها تتلوى أبعاد الوجود وحقائقه. كما أنها أقدر على استيعاب الناحج الإيديولوجية والاستفادة من بحوثها التقنية في التعبير عن الراهن ووسطه بالسالف واللاحق في أن. فلكم اليقظة لنا تاريخ اللغة أنها الأداة الأولى في تغيير العالم وتحويل السلوك البشري. كما أكد التنظير البلاغي للعناصر هذه الرؤية. عندما أصبحت «بلاغة الخطاب» هي ناشئة الزور إلى دوائر القراءة المتكثفة مهما كان نوع النص أو جلته.

لكن قبل التطرق إلى ملامح الحجاج لابد من الإشارة ولو قليلا إلى تعريف البلاغة في التراث النطية المعاصرة. على اعتبار أن ذلك يعد نوبة منهجية لابد منها.

نحن إن نظرنا إلى البلاغة من وجهة النظر الكلاسيكية وجدنا أن لها سبعة ملامح أساسية هي: ١- الإقناع، أي إبداء الاقتناع. ٢- الإصجاب، الإقواء، أو التلاعب والتحويل وتحويل وتلاعب. ٣- الأفكار قصد تميزها بها كان التنزيه. ٤- تزيين الرأي أو ما هو رأي محفل بصيغ طيبة. ٥- اقتراح الضميمة من خلال التصريح. ٦- تأييد المعنى المجازي على المعنى الظاهري. ٧- استعمال اللغة المجازية والأسلوبية والأدبية. ٨- التنزيه في الكلام أو الكاتب ومنها جميعها الثلاث بها<sup>(١)</sup> لكن التطور الذي حصل في مناهج الترميز اللغوي. وما أسفر عنه من انتشار للبلاغة في مختلف أوجه حياتنا جعل الدارسين يراجعون جميع الملامح المذكورة للبلاغة ويطورونها بما يلائم واقع الخطابات والخصوص. ومن أهم ما نتطرق فيه هذه الدراسات المعاصرة هو اعتبارها «البلاغة دراسة للخطاب ولتقنيات الإقناع والتلاعب والذرائع. ولتحقيق هذه الأغراض لابد لها من حجاج ذلك أن الأقسام الأربعة للبلاغة هي الخطوات الأساسية في تحقيق ذلك الحجاج فالقسم الأول يتعلق بمعالجة السؤال، *Question*، والثاني يعرف *Dispositio*، ثم الثالث ببسطة ويعرفه عبر الكلام والمحدث *Locutio*، وأخيراً الفعل أو الحركات. وتتفصل هذه الأقسام على طرح السؤال، سرده، بثله، حجيجه، ومطابقتها مع السؤال<sup>(٢)</sup>.

أضف إلى ذلك أن ثمة تعريفات أخرى تنطلق من منظور نوعية معينة. كان تهمل علاقة البلاغة بالإقناع وبالحجاج معاً، أو أن تعتبرها دراسة لعناصر الأدبية والشعرية في الخطاب أو كاسة في الآليات الفنية التي يتوصل بها المتكلم (خطيباً، كاتباً) إلى تزيين خطابه، وإكسابه الطغنية المرجية أو الفعل، الترويج.

لكن أصحاب هذا الطرح يواجهون في النهاية مشكلا كبيرا يتمثل في طغيان الجوانب البراجماتية- بالتحديد التقني لا التقدير- السلبية على الخطاب. الشيء الذي يجعل لزاما على المثقبي لهذه الرؤية التوسعية ببعض أهدافه القولية على حساب الفهم والاستيعاب، وهو امر سينجم عنه حتما تشويه الرسالة المراد توصيلها.

أما الاستناد ببرلمان فإنه يطابق بين البلاغة والحجاج. معبرا أن كل المكونات الأسلوبية الموجودة في رسالة ما (مكتوبة أو مطروحة أو مشافهة أو حتى إشارية) هي عبارة عن مستويات معينة من مستويات الحجاج. بما في ذلك الضممن والشواهد والأسئلة، حتى السخرية والفارقة فهي عبارة عن ... حجة في ذاتها وكذلك الاستعارة. إنها استدلال ظاهري على الحقيقة المتكفئة... وبالتالي فالبلاغة لم تعد لباسا خارجيا للحجاج، بل إنها تنتمي إلى بنية الخاصة<sup>(37)</sup>.

### أولا: ملامح الحجاج والبيان عند بيرلمان

يتميز الحجاج في تصور بيرلمان بنمسا ملامح رئيسية: ١- أن يتوجه إلى مستمع ٢- أن يعبر عنه بلغة طبيعية ٣- استدلالات لا تدور أن تكون استدلالية ٤- لا يفتقر لقسمه- تنامي- إلى ضرورة منطقية بمعنى الكلمة ٥- ليست متشابهة طرزها ٦- فهو إذن عبارة عن تصور معين لقراء الواقع اعتمادا على بعض المعلومات الخاصة بكل من الحجاج والنظام الذي ينسب هذا الخطاب. بالتالي فالحجاج عرضة للتغير والتطوير في بنية وانساقه التي يقوم عليها، وذلك تبعاً لتغير النظام وتغير ظروف الحجاج حتى وإن ظل موضوع النقاش هو ذاته.

إن مجال الحجاج في نظر بيرلمان يتعلق أساسا بالبحث في المعاني والمغزى والمضمون. وذلك في حال ما إذا كان هذا الأخير يقلد من كل المسلمات المعتمدة<sup>(38)</sup>، أو على الأصح من كل التوفيقات الراجحة.

لذا فإن إقامة نظرية فلسفية للحجاج مرتبطة بكون المواضيع الطريقة والدراسة غير بنائية. أي تتطلب إقامة الدليل عليها جهدا عقليا، ومن ناحية ثانية على المعنى وهذا الحجاج أن يكون مؤهلا لاستيعاب هذا الطرح ثم تنميته. لأن هذا المسامح هو السبب الفعلي الذي لولاه لما كان "حجاج" أصلا. فهو يساهم بصفة فعلية في تشكيل العالم الكبري للمادة الحجاجية المقدمة من

قيل الخطيب (أو أي منكم) يعمل رسالة بلوقف إنجازها على الآخرين). وتعد هذه النقطة بالذات من بين النقاط الجوهرية التي ألفت البلاغة المعاصرة إليها النظر، حيث تلغفلها عنها نظريات القراءات والتأويل، ثم طورها كل مدرسة بعد ذلك بما يلائم فروسها النظرية. فالاعتماد والسماع (الغنى بالخطاب) في البلاغتين الكلاسيكية والمعاصرة قد ألفت مناهج النظر المعاصرة إلى ضرورة الاعتماد بدور «القارئ» في إعادة كل من الكتابة والإنتاج، مما جعله يصير محور النظرية النظرية المعاصرة.

ومن أهم من ألفت النظر إلى الدور الحضوري للقارئ في النص قول أرنولد وبعده مذكر (إيكو) الذي رأى أن النص - اللغوي والمكتوب - «إن هو إلا نتاج يرتبط بسببه الشاويشي (أو التعبيري) بأهية تكوينه ارتباطاً لازماً. فإن يكون المرء نصاً يعني أن يضع هذين الفعل استراتيجيتين ناجزة لتد في اعتبارها توقعات حركة الآخر... وبالتالي فإن النص إذ يحيل إلى قراء (أو سامعين) لم يكن يفرض ويؤثرهم ولا سلطهم في إنتاجهم، يصير نصاً على القراءة (أكثر مما هو طوطم) أو يصير نصاً آخر مختلفاً»<sup>(١٩)</sup>.

وبسبب هذه النقطة أكثر، بدأ تطوراً آخر - اللغوي - من منظور البلاغة التداولية.

إن المنكلم (وكذا الكاتب) مطالب بأن يضع تقاضات متقاطعة أبنسواياتهم المختلفة الاجتماعية منها والفكرية والسياسية... لكن «بيرلمان» يؤكد في بداية طرحه أن تراسته تهتم أساساً «ببنية الحجاج» وأنها لا تركز على الطريقة التي يتم بها التواصل مع المجتمع»<sup>(٢٠)</sup>. من هنا كانت هذه النظرية الفلسفية الحجاجية التي يهتم بها كتاب «بحث في الحجاج» - تصويراً يظهر لأشواج البراهين والصحيح المتنوعة بحسب القامات والسماعين المعنويين، كما أنها تقدم تصوراً دقيقاً لتسويات حضور الكاتب في مكتوبه، ودرجات ذلك الحضور بوصفه حركة حجاجية يفصح بها مخاطب آخر ليس حاضراً بالفعل لحظة الكتابة، لكن جميع أبعاده متصورة من لدن المؤلف - أو هكذا ينبغي أن تكون. وبالتالي فهذا الكتاب يعمل فكرة «السماعين» الواردة في البلاغة الكلاسيكية، لكنه يركز على (أبوابهم) المادي فقط، لأن هذا الغياب سيعمل على تضييق الخطاب لتلبية الحجاج بعدها من وسائل الضغط والمصالح الآنية والتمريض.

بهذا التوجه يؤكد بيرلمان أن تصويره نابج من «المعاصرة» فهو يحاول دراسة كل أنواع البراهين والصحيح التي يمكن إقامتها سواء أمام العلنيين (المشاهدين) فهذا كانت طبيعة هؤلاء.



(حزب معارضة- هيئة قضائية - مجلة ديمالتي- مناصرون- إشهار نظري- جماعة دينية...) أو بالدرجة الأولى أمام القراء، أي في الصفحات الكتابية (الروايات، التدرجات، القطب المرسل)، ومن هنا يمكن ثراء النظرية خصوصاً إذا ما تم تدعيمها ببعض المعطيات الميديولوجية والهيمنولوجية المعاصرة. فمن شأن ذلك أن ينير لنا سبلاً عدة من اتزان استغلال الفضاء الكتابي وتوظيف الآليات النوعية في التعبير عن جدليتي الحضور والغياب (الغفاء، والتجلي).

وإن أمراً كهذا لتكثيف إبداعنا بمناهج للتعامل مع تصوراتنا المعاصرة التي لاتزال التقاليد النظرية راسخة فيها رغم لقيتنا أشرافاً في عصور الكتابة، هذا فضلاً عما سبغت به من آليات لرأسه قرائنا الأبوي القديم، ولانسيان الرسائل الشعرية التي كان من أهم عوامل خلق الدلالة فيها توظيف جميع عناصر الحضور والغياب، وإعادة قراءة المكتوبات القرينة، وتحليل جل شفراتها النصية، على اعتبار أن تلك التكوينات والوحدات هي التي ستشكل مدى النص الجديد.

لكن لابد من التنبيه إلى أن نظرية «بورغاز» أو على الأصح التصور الذي حاول تقديمه في كتابه هذا لا يولي اهتماماً كبيراً للآليات التفاضل التي التواضع والتواضع، أي ذلك التواضع الذي يجر في إطار الديهي والمعاد، ولكنه يهتم بالآخر، بخاصة من التواصل والتجاوب (هي المكتوب، والتطور، والإنشائي)، ويكون فيها الهدف تأسيس بناء فكري عميق تدعم فيه أبعاد المتكلم والمصاحف والمقام معاً بحيث يحصل الفتح الجديد للخصائص الجوهرية لهذه التكوينات الثلاثة.

وبالتالي فعلى العملية النقدية اللاحقة في تعاملها مع هذه النصوص التجربة أن تصغي جيداً إلى حوار هذه الأبعاد الثلاثة لم نحاول ترجمته، وتكميلها، أي النصوص، انطلاقاً من أبعادها الجديدة في الآخر.

ولئن كان لبلافة المكتوب وجود فعلي في هذا الطرح البيرلغاني، إلا أن الاعتماد الفعلي ظل مركزاً على ما يمكن أن نسميه «مقابلة الخطاب»، أي التقنيات المعرفية الفكرية، وكذا الاجتماعية التي يسعى من خلالها إلى سرور الخطاب وإشعاره الأطر القولية والمسموعة إلى الفعل والحدث والتغيير. ولأن بلاغة الكتاب تتطلب استشاراً وتحليلاً للآليات الجوهريّة والعناصر البنيوية الرئيسية في النص التحليلي، وحواراً من خلاله يتم تعويض الغياب وملء انقاص مكوناته القائم الأول «المعز» الذي تحمل النصوص البعثة في الغالب أهم مكوناته وخصائصه، لكن أيضاً تنبه إلى أن الاعتماد إلى تلك النصية التي منها تتنازل الدلالة يتطلب معرفة مصفاة بالآليات القول من

جهة، وبالنسبة للفرع من جهة ثانية. فإن لغاتية الخطاب المتحدث عنها إنما لذلك بمصنوع الفعل اللبني الذي هو لازم لفعل الكلام.

ونشير إلى أن مفهوم «لازم فعل الكلام» Perlocution مستحدث من قبل «أوسلين» في الصورة الذي قدمه تحت عنوان «نظرية أفعال الكلام العامة»<sup>(37)</sup> حيث اعتبر هذا المفهوم دالا على مقاصد التكلم الخارجية عن «العبارة» والمفهومة من السياق. بيد أننا هنا سنستخدم «الفعل» و«الآراء» بمعناها «الفوري» على اعتبار أن معنى «الفعل» في اللغة العربية ليس انشائيا، بل يؤكد دور اللغة في تغيير العالم وتغيير السلوك.

أما هذه الأعمال المطلوبة إيجابا من السامعين بالخطاب فلا بد أن يتم التمييز عنها بطرق مجالية ترمي فيها خصائص نظامية معينة. لعل أهمها وهي التكلم بأحوال مخاطبية ومقاصاتهم الفعلية والتوقعية. وهذه الأمور سبق أن أشرت عليها أدبيات البلاغة الكلاسيكية العربية في مواطن متعددة، حيث إنهم صنّفوا أنواع الخطاب، وخصصوا لكل منهم مستوى خطابيا معينا: فما يحل في خطاب التصديق أو التوبيخ غير لائق بخطاب التماس أو التلميح فيه، أو التوقيف منه، وخطاب التسليم غير خطاب الحرب... إلخ. هذا عموما من جهة، ومن جهة أخرى فإن مقاصد الكلام وطرقه المنقولة لكل قسم من الأقسام، وقد عرفت أن ذلك ضرورة المنالقي بقوله: «لا يخفى عليك أن مقاصد الكلام متفاوتة، فمقام الشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنية يباين مقام التعزية، وكذا مقام التكاليم ابتدأ يباين مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار... وكذا مقام الكلام مع الغني يباين مقام الكلام مع الفبي» ولكل من ذلك مقتضى غير مقتضى آخر»<sup>(38)</sup>.

وبيرقان نفسه لم تخل هذه الملاحظة فعلى الخطيب، في نظره، إذا أراد أن يكون خطابه منسجما مع مستوى مخاطبيه أن يلهم أولا نظام التكلم فيه، ثم أحوال السامعين ومستوياتهم اللغوية والإبراهيمية، لأن بناء الحجاج مرتبط أساسا بتنوع المعنيين به، فهم القاصيون بلحاظ المظالم وإنجاز مصلوكتهم، المشاركون في صياغته وإخراجها، وبالتالي فكل من يستند هذا الخطاب لغايات المطلوب عليه أن يتضح في الحسيان مستوى العقل الذي يهدف إلى إنشائها، ثم نوهتها<sup>(39)</sup>. الاهتمام هنا إذن مركز على الجوانب الاستدلالية البرهانية التي تعمل على انسجام العقل وتعضدها مع الطرح المقدم بعد استجابتها له. ومعلوم أن هذه الاستجابية المرحبة إنما يتم البحث عنها في الأمور غير الجولية التي يتطلب الإصباح عنها. جهودا فكريا وإشراء معرفيا مقنونا.

لذا فلا يركز في الحجاج (إلقاء، ونحيطاً وكثافة...) إلا على الأمور الداخلة في بنيتها الموصلة إلى الإنتاج، فالأفكار الجاهزة والجمال الوضعية أو القرصانية وغيرها لا يتم التطرق إليها إلا إذا كانت داخلة في بنية قولية خطابية، وتؤدي هدفاً في خطة حجاجية معينة.

وإضافة إلى البنى القولية الداخلة في تصميم الحجاج ثمة أمور أخرى غير لغوية لكنها داخلة هي الأخرى في صفة وبنية، من أهمها ما عرفه عند المنظرين القدماء، بهيكل الهيئة، التي يكون عليها المتكلم، أي كل الأمور الداخلة في تحديد مظهره الخارجي. وهي أمور يسميها بـ (تكييف الخطاب) Le conditionnement de l'orateur أي «توسيعه» بصفة غير مباشرة بفعل الشكل، وما يلحقه من متعلقات. على الخطيب العرص والهيئة في تشكيلها وإعدادها على نمط مفروض ملائم لل مقام.

وقد أدى اعتماد نظرية الحجاج بهذه الأمور الخارجية إلى فتح النظرة على الجوانب النفسية لما لها من أدوار فاعلة في إيصال الفرضيات، وهي التهيئة للإنتاج، بداء والرفع إلى تطبيقها عليها، فمعالجة الحجة، والخطاب التي تقترحها تتم تلاقيها بتقبلها من الحجاج الداخلة معها في الحوار - على سبيل الاستعداد أو الصراع - كل ذلك إنما يتم بتوسيع انطلاقاً من وهي تحسب بالحوار المعنوي من جهة، وبمجموع الشروط الخارجية المؤثرة لعملية إنتاج الخطاب من جهة ثانية. سواء كانت هذه الشروط خاصة بالخطاب وظروفه في لحظة محددة معروفة من أدب الخطيب (أو الكاتب)، أو كانت خاصة بالإطار السوسيوثقافي المشترك بين المجموعة البشرية الواحدة على اعتبار أن هذا الإطار هو المعنى بتجليل... طبيعة العلاقة الموجودة بين أنماط الإنتاج الفكري، ومعطيات الهوية الاجتماعية، وتحديد وظائف هذا الإنتاج<sup>(17)</sup>، الشروط الأولى داخلة فيما يسمي بالمقام الخطابي أو الخاص. أما الشروط الثقافية فنسمى «مقاماً عاماً» وذلك بوصفها مشتركة بين الخطابة والشعر.

وأجل هذا التعاضد الإيماني هو سر «وجود بلاغتين متمايزتين ومتكاملتين في تراثنا العربي هذا: بلاغة الخطابة وبلاغة الشعر»<sup>(18)</sup> حيث بلاغة الخطابة قائمة على القوانين التي سعى الجاهل إلى تحديد معالقه في حياته وتبيينه، أما بلاغة الشعر فقائمة على تلميق البديع أساساً، وإعطاء الصنعة والتشويق دورها على حساب العود من الآليات القولية، ويستضاف إليهما لاحقاً بلاغة «مقامية» يمكن أن نسميها (إدارية)، وأساسها «العالي».

ونحن إن نظرنا إلى الفرق بين هذه المستويات الثلاثة من بلاغة الخطاب في قرآنا العربي سنجد أن كلا منهم كان له خصائصه الخاصة والمنهجية. وظروف نشأته الذاتية.

بلاغة الخطابة ثالثة على «علم البيان» الذي أرسى الجاهظ دعائمه في فترة كانت فيها الجدالات الكلامية، والبحث عن «العلم» من القرآن والسنة والماوراء والنفائسات، مستمدة من الفرق الإسلامية، التي بمعنى كل منها إلى إنتاج (خطاب) تكون «بلاغته» كغاية يكسب الكثير من التأييد. لذا فلا غرو أن نجد الجاهظ يطابق بين المعنيين «الخطابي» و«البلاغي» (إنما مثل مطابقة بولان بين البلاغة والمجادلة، ويهتم بوسائل الإقناع الشكلية والضمونية (على مستوى الهيئة والخطاب). تلك اعتمد بالقلم وبمحدثاته وإمكاناته، هذا علاوة على تركيزه على الجوانب البراجماتية، فالتعليق ليس يشرف وأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يلمح بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب، وإقرار اللغة مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من الكلام»<sup>(١٣)</sup>

أما بلاغة الشعر فتعتمد على «علم البيان» وكذلك فإن لغة الفن المنزلي، الذي لم يهتم بالمقام، ولا بالمدار السامع، هذه إضافة على تأكيد لغة لم يجد في النظر أصلاً بجمعية، لأنها من شأن لغة الشعر القائمة على التزيين والأندراج وعدم مراعاة «الخطبة» في القول. وبالتالي فإن البلاغة الأولى تتركز النظرية الحوارية التي تسعى إلى كسب الآخر، في حين ترتبط البلاغة الشعرية بالصراع بين القسما، والمحدثين حول الإبداع وتوظيف اللغة. هذا في حين تقوم بلاغة «المقاصد» على علم «العلمي» الذي يلوذ السكائفي في مقايضه. وبهذه البلاغة نجد الاعتبار للبيان على حساب التزيين، واعتمد «بالطام» وإمكاناته ومكوناته. وقد قدم السكائفي في تلك الفترة تصوراً دقيقاً لا سيما لاحقاً، التلوين، وذلك من خلال اهتمامه بشروط التواصل، ومن مظاهر ذلك تصميمه للظهور بحسب مقامات المعنيين بالكلام، وهي التقسيمات التي كانت محورا أساسيا من نظرية أفعال الكلام المعاصرة عند (أوستين) وبزملاته.

ونحن هنا إذ تشير إلى البلاغة العربية الكلاسيكية فإننا نذكر بقصد الإبداع إلى أن تراثنا البلاغي قد أشار في لغة وطرافة إلى العديد من التقنيات الخطابية والنصية الجديرة بالدراسة والتحليل. قبل أن نطرح في ضرورة تجاوزها أو توسيعها. ونحن أشار الفرسان الساسي والبلاغي المعاصران إلى العديد من هذه الآليات الفكرية لهما فإن مدار التمييز كان في ربط الطرح الجديد

بالفروع العرفية المعاصرة الحافلة باللغة خاصة فيما يتعلق بلغة الصورة، لأن التداخل العرفي أصحى السمة اللازمة للمعرفة الراهنة بعد أن أصبح العالم يعيد مفهوم «القرية التكنوية» التداخل إعلاميا وثقافيا ولغويا.

هذا التداخل الرهيب والتواضع انرا بصفة باللغة على مفهوم القام. حيث إن الخطيب صار ملزما بأن يكون أكثر مراية من غيره بالعديد من الآليات والمعارف وطرق إجراء القول في مختلف الظروف وأمام تغير الخطيبين. هذا علاوة على ما يلزمه من ذكاء وعلفة.

### ثانيا: التهيئة للإقناع من خلال الشكل والموقع (الخطاب- المتكلم)

هذه الأفاق التي فتحتها البلاغة المعاصرة ساعدت على تناول العديد من الأسطة الكلامية المتعلقة بالإقناع ووسائله الخارجية. ويرلان إذ يتناول هذه الأسطة يربطها بالعديد من الحقول العرفية: القانونية والأدبية والنسائية والفارسية.

وأي بعد تحليل دراسة في سمات الحجاج يقوم بالتمييز بين طريقتين كبيرتين من الخطابات: أولهما الخطاب الفلسفي الذي يمارس مخاطبا كونيّا، ويأخذ على غرار خطاب بركز على الجنس البشري والجنس والوضوح والبداهة بوصفها فيما أساسية لتلوية هذا النوع من القول. لذا كان الهدف من هذا الخطاب هو الإقناع Conviction، أما الخطاب الموجه إلى مخاطبين محددين فهو الخطاب العلمي الخاص، بوصفه يفترض مجموعة من الجاهل، والأمور المتفرقة بين مفتعين في حقل معين أو مجموعة تشترك في العديد من القواسم المتشعبة، وبالتالي كان الهدف من هذا الخطاب هو الإقناع Persuasion. وقد اعتمدنا في هذا التمييز بين التمييزين على ما اقترحه أستاذنا محمد العربي في مقاله التحال إنه انفا في مجلة سيميائية.

من هنا يكون الإقناع هو مجال البحث الحجاجي نظرا إلى كونه محدد القام والمخاطب والخطاب القولوي. أما أهم وظيفة حجاجية في هذا التحال، بعد الاعتماد لقبول الأطروحة أو الفرعية فهي الدفع إلى الفعل، وهي خطوة تتطلب وعيا محكما بالوسائل والآليات التي من شأنها، إذا ما اندرجت باعتدال في الخطاب، أن تحرك العلويين بالكلام صوب الفعل والتغيير، بما يتسجم مع انقلاب وتطبيق مقاصد النص وطروحات الخطيب (المتكلم أو الكاتب) بوصفه متطرا حاملا لروية معينة يسعى إلى إرسائها، أو جعلها راجحة في واجهة حجج أخرى متوافقة. هذا الهدف يتطلب قدرأ من الوضوح في الأسلوب، ويمتدحى طموسا من التواضع والاحترام للشخص المتكلم.

فالمفوض والإكراه (القمع) من أشد الأمور تضرراً للمخاطبين. وبالتالي فهي تعوق كل السبل المبدئية لنقد الخطاب ووضوئه. من هنا يربط بيرلمان البنية الجوابية Structure de gementative ، ومن بعدها L'expression du discours بالضرورة اللازمة لنقد الخطاب الموضوع غير السلف. وعدم التفكير والتخلاق. ثم التمكن من ناصية اللغة. وحقوق ثقافة المخاطبين. والوعي بأهم ما يعتمد في مختلف الأصعدة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية من أمور ملهاً وحدرة المعرفة. كما أن على الخطيب أن يكون على علم بطرق إجراء المصنوع للجهتهم. وأساليبهم في تكوين الصور. وتمثل الأمور شديدة المساس بمختلف جوانب حياتهم. إلى أطر ذلك من العوامل الاجتماعية المساعدة على نقد الخطاب.

إننا عندما نقدم في «بحث الحاج» نجد أنه يولي اهتماماً خاصاً لعلاقة البرهنة والأطر النفسية Les cadres psychologiques. يشرح البنية النفسية للفرضيات. وما يحفز بها. ثم أساليب الدفع إلى العمل. كلها في جوهرها أمور نفسية منها ما يتعلق بعلم النفس الفردي. ومنها ما يتعلق فسيما ما يستلزم بعضاً من البنية النفسية العامة الناطقة في صميم سلوك مجموعة بشرية معينة الشريك في كل الممارسات المجتمعية. إنشائها وبنائها وقايتها وأيديولوجيا...  
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

وبالتالي «فليس الحاج في النهاية سوى دراسة لطبيعة العقل» ثم اختيار أحسن السبل لممارستها. والإسراع إليها. ثم محاولة حيازة لمتنوعاتها الإيجابية L'adhésion Positive والتعامل مع الطرح المقدم. فإذا لم يوضع هذه الأمور النفسية والاجتماعية في المصداق فإن الحاج يكون بلا غاية وبلا تأثير<sup>(1)</sup>.

إن حصول الإقناع في النهاية ليس سوى اتفاق لقمع. فكري معين من بين دكلم الفرضيات المطروحة. وهذا التقاط قد يكون متروكاً عند اتخاذ مواقف عقلية معينة. وقد يكون ضمنية عندما يجرد المنكلم (خطيباً أو كاتباً) من نفسه محتاجاً (مستاوراً) فخاصاً يتناول معه عموم المخاطبين. ويساعده على تبين هوافد الطرح. وأماكن الضغط فيه. كي لا يقع في بعض العيوب الخطابية أو الكتابية التي تدخل التناقض والفكر إلى التوضيح.

فالمخاطب المتقبل هو دائماً بالنسبة إلى محتاج عبارة عن «بنية مستهدفة»<sup>(2)</sup> نوعاً ما. أي أنه يوظف القول. ويوجهه ملائمة لظروفه الوارد فيها.

## عالم الفكر

والتكلم الخارج هو الذي يستعمل - خلقا وطواعية - على مدارك المعينين بقطابه أو بنصه طيلة فترة الاستماع في حالة الإلقاء (أو النظر النطيلي حالة القراءة).

وتعني بالخطاب هنا الغالبية العظمى من الجمهور، لأن التوصل إلى خطاب يتقاطع الجميع في كل مستوياته أمر بالغ الصعوبة إذ لابد من بعض الحالات الخارجية على النسق العام والتوجهات الأساسية للمجموعة، وبالتالي فالنتائج في هذا المعقل - وبغوره من العلوم الإنسانية - إنما تبني انطلاقا من الغالب لا المطلق.

ويؤكد هذا بناء الصياح ذاته، فالتكلم لا يعرض أمورا مسلما بها، أو أمورا بديهية لا تستدعي نقاشا، وإنما يقدم أمورا احتمالية متناوبة طلف سدف معينة، عليه هو امتدادا على بلاغته الخاصة أن يجعلها فرضيات راجعة على غيرها.

هذا الطوارىء الموقوم الذي قلنا أن على النطيلي تجزيته من نفسه، أو من التمام بعد خطة منهجية ضرورية من صنع الخطيب ذاته، وبالتالي يمكننا القول إنه داخل في إطار العلاقة بين الجوانب النفسية البحتة بالآخر الجماعية.

والتكلم (خطبيا أو كتابيا) لا يستطيع تحليل هذا الخطاب، عالم يكن على دراية عميقة بالحوال والمخاطبين الراية، ومصوراتهم الثقافي والمضاري، ويهيمون مستقلوهم.

ثم إن على التكلم الحذر في تحليل هذا الخطاب، لأن الخطأ في التقدير قد تنجم عنه ردة فعل عكسية تؤدي بحسار البناء الصياحي بكتابه.

فهذا الخطاب هو الحامل للخصائص الجماعية الكبرى التي يتقاطع فيها السواد الأعظم، إنه بعبارة أخرى: ثقافة والمضاربة والمنتج والنصوص الثقافية الثانوية في الأراضي الجماعية التوجهية للرعي والفهم والتعامل داخل الزمرة الاجتماعية الخاصة، وبالتالي يكون الخطأ في رسم صورته الفعلية مؤلدا حتما إلى نتائج عكسية لئاما.

وكما هو الحال بالنسبة لتجسي النص والخطاب فإن التحلل النقدي لهما أو لأحدهما مطلب هو الآخر يمثل عيق لهذا الخطاب، ثم محاولة تحديد موقعه لحظة ثقافية أو الإلقاء، وكذلك تلاعبه الفاعلة وبغير الفاعلة، مثلما أن عليه السعي إلى تمالك التمام المنجذب وإبراز أبعاده ومكوناته ورواقده، وإثراء كلها على شكل الخطاب، في علاقته بزمن النص من جهة، وبغوره من النصوص

الشيئية معه لامت جنس معين من جهة ثانية، هذا إذا أراد هذا الناقد أن يكون استنتاجه وقرائنه بعدة وإثراء، ويطلقاً لتأسيس فكرة جديدة لتحديد قطعة معروفة مع التصوُّص التوجيهي، وتفتح التحليل على أفاق قرائية أخرى متعددة.

يضاف إلى هذا أن الإزدام يبرز ملامح هذا الخطاب ومفاهيمه، بعد دالة على الوصول من طرف المحلل النقدي إلى مستوى معرفي معين حول حقبة بذاتها أو حول جنس أدبي معين، وهو أمر من شأنه أن يسمح لهذا الدارس ولكمال أبعاد النص وربطه بأطر فكرية جديدة تزيد فعالية وترتفع به، خاصة إذا كان هذا النص دليلاً في زمرة الأدب الشفوي، لأن جل تصوص هذا الأدب قد عرفت عبر المسيرة الطويلة التي قطعناها إلينا تغيرات جمة في مكوناتها، تسببت في الزيادة والنقص (في ومن) صلب النص الأصلي.

وبالتالي فإن وهي المحلل النقدي والمقدمات التوجيهية للتصوص معينة، أو بالتمام الفني الذي دأب مبدع معين على استنباط إمكاناته، لتكثيف بلن يكشف لهذا الناقد عن العديد من أسرار تلك التبدلات الأدبية والفنية التي انتقلت من علاقة من (في هذا الوعي) يمكن أن يوفر سملاً جيدة للتعلق من نسبة تلك التصوص إلى المسببة إليها، وأيضاً عن صحة وضع البدع ذاته، ولكن مهما كانت التحددات الفنية لهذا الخطاب التحليل فإن دورنا، بدرجه ضمن البنى النفسية الدخلة في إنتاج النص أو الخطاب، إذا هو عبارة عن كائن ينجزه للكلام<sup>(1)</sup>، إنه عبارة أخرى أجلى مظهر من مظاهر أقل انتظار البدع، هذا الأقل الذي ينبغي أن تنصهر فيه الأقل انتظار المتألمين الآخرين.

إن للخطاب المتطوّل الذي يحتويه التكلم فعلية، يؤدي أساساً وظيفتين: إعداداً حجاجية والأخرى حوارية. وأولاًها مشتقة من الثانية، لأنه انطلاقاً من الأجوبة المقطوعة التي يفترض أن تكون مطروحة في المقام، يكون مسار الكلام وطبيعة مكوناته البلاغية والفغوية، يظهر ذلك بصفة جلية في الخطاب الشفوي- البلاغي منه- فاعمال المنصّور العياني فيه يعد مصدر إلهام الصور، وأساس التفاعل مع المقام، ذلك التفاعل الذي يعمل على تشكيل الحوار الذي ينبغي أن تسفر عنه توافيق أعمال الكلام.

ونشير هنا إلى أن قضية التفاعل مع المقام تعد مسألة بلاغية مهمة، منها يتحدد الشكل النهائي للمطوّل، تلكه فعلى التكلم توافيقها وتوالتكم، فيها لأنها في الحقيقة مسألة نفسية بعدة



دائلاً في إطار «الجماس» L'indiscipline سواء كان هذا الجماس من أجل الترضيات المقدمة أو كان مبعثه تقابل المظالمين. وبالتالي فعلى المتكلم أن يحترز من الانتفاع الزائد على الضرر المعتاد (الوسط) لأن الجماس الزائد على التلويح يعد أمراً سلبياً على وضع المتكلم في المقام إزاء المظالمين وإزاء ما ينبغي توصيله.

### ثالثاً: المظاهر الحوارية في الحجاج

تعد عقلية الطرح وتنطقه من أهم الإضافات التي حظها ميرلان، بنظرية الحجاج. ومبعث تلك الكثافة التي رأى أن المنطق قد توارها حديثاً والتي مكنته من العدول عن متكرار الأشكال القديمة والأخذ في تطوير أدوات البرهان التي يستخدمها الرياضيون بالفعل. فالمنطق الشكلي الحديث قد تأسس بأخطاره دراسة وسائل البرهان الرياضي. ولكن مجاله ظل محدوداً بما دفع المنطقة إلى استكمال بنظرية برهانية. وهذا ما نجده في وضعه عبر تطوير أدوات الاستدلال الثلاثة لعلوم الإنسانية<sup>(34)</sup>. وهو في ذلك يستلج منهج «تشومسكي» الرياضي التعملي الذي أصبح عنه في يداه مشواراً.

هذا المول إلى نظرية حجاجة توسل بالآليات الرياضية المنطقية والتنسبية من شأنه أن ييسر التحليل الجلاهي للعناصر بطابع امبيوي. وذلك على غرار المداخل الفلسفية التي تشكلت أيضاً أساساً لهذه البلاغة.

وعلى الرغم مما يمكن أن ينتقد به هذا المنيل امبيوي في المجال الإنساني القوي، إلا أننا لا ينبغي أن نغفل عن كون هذا المول النهجي الجديد مساعداً على تقريب مجال التوقعات وحساب الاحتمالات في مقاسي الكلام والكثافة. لأن الإصاوية في توليد الإجابة (رد الفعل) من أذن التعلين تعد عاملاً فعالاً في تصاعد مؤشر نهاية الخطاب وبلاغة تأثيره. فالعلوم السليم لا ينضج إلا داخل الجوارب الخائض الذي يأنفد بالتكرار من احتمالات الإصاوية ويوم بهل جوانب التوسع. وهذا مبعث الارتباط الجدلي الإشكالي بين الفهم والإجابة.

فالفهم الإيجابي عندما يجعل التوقع- أي ما ينبغي أن يكون- حاضراً بالتسمية للمخاطب الذي ينبغي «ممارسة الفهم» فهو في هذه الحالة على حد عبارة باطنتين «إننا نقيم سلسلة من العلاقات المتبادلة المعقدة، ومن التناقضات والتناقضات مع ما هو مفهوم، كما يغلبه عناصر جديدة، وعلى هذا

الفهم يحول التلکلم. لهذا فإن توجيهه نحو محاوره هو توجيه نمو المنظور الخاص لهذا الأخير وعادة، وهو بذلك يدخل إلى خطابه عناصر جديدة تماماً، لأنه يحدد عدداً تقاملاً بين مختلف السياقات ووجهات النظر والمنظورات واتساق التعبير والتشوير ومختلف «النهجيات الاجتماعية» فالتلکلم يسعى إلى توجيه خطابه بوجهة نظره نحو منظور الشخص الذي يريد أن يفهم، ثم يحاول الفهم في علائق حوارية مع بعض مناهجه - أي النظر<sup>(74)</sup> - والنظر الخاص بالمخاطب بوجهة نظره وتنبير لهجته والغرض في عوالمه الخاصة هي كلها أمور داخلية في صميم العملية المعاجية، وهي أيضاً بطرق طبيعتها المعرفية أمور نفسية في أبرز جوانبها. ومن هنا لابد من اعتبارها ومراجعتها بمناهجها القردية والجماعية. لذا كان تصنيف التلکلم (خطبياً، كتابياً...) لأنواع مخاطبيه (التفليحي، والفعلبي) أمراً ضرورياً، من حيث طبيعتهم الشكلية والتجاربهم الفكرية وإدراكهم السلوكية والثقافية والمضاربة الشاملة... وهذا التصنيف ليس عاملاً تميزياً بل قد ما هو مساهمة في بناء إطار لتعامل بوضوح مسألة الطرح وتأثير الخطاب، كما أنه من جهة ثانية يعبر لغوام حوار تلقائي، ناجح، هو العلامة الثقافية التي لكل حجاج ناجح.

هذا الحوار الثقافي والمعرفي لا يمكن تولده إلا من خلال وهي تتميز لمفولة الفهم وما يحفل بها من مخزونات فلسفية خاصة بمقارنتي السؤال الأدل والجواب الأرجح. لأن المحاج كما قلنا هو ترجيح من بين خيارات بواسطة أسلوب هو في ذاته «مدول» من إمكانيات لغوية إلى أخرى، يتوقع أنها أكثر نجاعة في مقام معين. بالتالي كان حسن التصنيف والتوقع تابعين من «الفهم السليم» لأن الفهم الصحيح دائماً فعال ويحل جاذب الجواب والفهم الصحيح وحده الذي يستطيع إدراك معنى التلکلم... وكل فهم هو فهم حوارى الطابع. والفهم هو أيضاً بحث عن خطاب المثلث إن الفهم هو - في النهاية - إقامة علاقة مع نصوص أخرى وإعادة تأويلها في سياق جديد (السياق الخاص بي ومعتقدتي وبمستطلي)... فلاكتفاء بحلي بالكتابات<sup>(75)</sup> ولا يفهم الحوار كونه بين النصوس أو بين المخاطبين، فهؤلاء الآخرون أيمدوا في الحقيقة سوى نوات تتخللها الشفورات والنصوص والتركيبات الثقافية والمضاربة على السواء. وإقامة حوار معهم يتطلب تمكناً لا يأس به النصوس للشبكة لمخاطبهم الجمعي من جهة، ثم الفردي العام من جهة أخرى.

هذا الطابع الحوارى للمحاج خاصة، والبلغة المتحصرة عامة يتقاطع في الإيمان بضرورة جعل مدارس ما بعد الجينية، وذلك لأنها - أي الحوارية - هي مصدر العمليات الثقافية، من

توظيف واستفهام ومعارضة وتحويل. حتى إن بعض النقاد المعاصرين هو (ميشال مايرز) عرف البلاغة بأنها تلك الحوار حول المسافة بين النوات. أو هي تلك الحوار حول المسافة بين أناس يصعد مسألة أو مشكل ما... هذه المنهجية البلاغية تؤسسها بنية هدفية يستجيبها ميشال مايرز بنية الذات Ethos والآخر Patheos وبينهما التوافق Logos من حيث هو كلام وادعة قبل أن يكون عقلا. فالعقل لا يهتم بما هو إشكالي بقدر ما يتشغل بنظام الأشياء واعتقالاتها، وبما هو بدوي وما هو جنلي لينتقل إلى نتيجة أكيدة، في حين أن البنية الأساسية للبلاغة هي بنية إشكالية تعتمد ضرورة تساؤلية Questionnement تقضي من فضائها الأجوبة الضرورية والنهائية.<sup>(71)</sup> من هنا كانت ضرورة دراسة الصراع الجملي الباطني بين المبدأ المعرفي الذي يدخل به المتكلم مقام الإلقاء أو الكتابة، وبين التصورات الحاصلة له بعد المتحول. والتي بعد منطلها طبيعة المقام. وما يدخل فيه من تفاعلات وإشغاليات أو غيرها. سواء كانت متوقعة أو غير ذلك.

وسيطرة الخطيب على أقدام تلميذه هذا الصراع المعرفي المعرفية- على المستويين النفسي والفكري- في تثير مايرز في توجيه الإلقاء به لاحظنا. <http://Archivebeta.Sakhrn.com>  
هذا إضافة إلى ما تلخصه هذه السيطرة للخطاب ذاته من انسحاب وتمايق بين مكوناته، وهو ما بعد عاملا حجابيا بالغ الأهمية خصوصا في الخطابات الملقاة أمام السامعين (بإشارة أو غير وسائل الإعلام المسموعة والبرية).

#### رابعاً: حضور المعنيين في تحديد الشكل الخطابي للحجاج

إن التمايق بين الشكل والمضمون في الخطابات المدونة والنصوص المكتوبة يؤهلها للافتتاح على القرارات لاحقاً. ويمنحها مناعة نوعية في وجه بعض التحويلات ذات النزوع التقني الصرفة، التي قد تغاي بالبدع عن مسلماتها وأطره الداخلية والخارجية وأهدافه الأساسية. هذا التمايق المتصور إن «لا يمكن أن يتم إلا من خلال الاحتواء التام الذي يمارسه الخطيب على مخاطبه»<sup>(72)</sup> ولكن هذا الاحتواء مشروط ومقيد بمحددات مقامية أيد من مراعاتها حفاظاً على حيثاق التواصل بين المتكلمين والمعتبرين، وعلى ما سنبينل من هذا الحيثاق، فلا ينبغي مثلاً أن يؤسس الخطيب بنجاح العجائي بطريقة تصفية يداق من خلالها المعنى مخفية<sup>(73)</sup> إلى فرضيات أو عمليات بدئية

أو مراوغة يجد في النهاية نفسه أمامها غير مضى، ثم يتعدى تقويمه عنها إلى التخصمية التي وجهته إليها. وإن فطن مرسل الكلام أن يتحول مخاطبا مستكنا حائفا، ثم يعود إلى بناء فرضياته وطروحاته ومناقشاته على أساس احترام وهي هذا المخاطب وتقديره من دون أي مراوغة خبيثة أو تعرض ساذج manipulation naïve فالعرض عبارة عن عملية وجدانية بعيدة عن مجالتي العقل والفكر، إنه بمثابة أصبح نوع من الاستعداد العاطفي للبهن، لذا كل وجود مدمر لكل بناء عجاوي ينشد الذكوى، وبما ينضاف إلى التعريض (يوصله عينا بلأفيا يجب توبخه) ثلاثة عيوب أخرى: التقييد ترجمتها من استنادا محمد العسري، وهي على الترتيب: «الانتهاك apocrophe، والتجسيد prosopopee، والتساخر chloasme»<sup>(37)</sup> وهي كلها خاصة ببعض مظاهر الخطاب والمخاطب يوصله عنصران أساسيا جوهريا، ومحددا فعلا من محددات الشكل الذي ينبغي أن يكون عليه الخطاب وكذا الفعل في النهاية.

وهي الانتهاك شكلا من الشروع الخطابى، في الخطاب، يتم العدول فيه عن موضوع التوجيه إلى موضوع آخر ذي طبيعة خاصة، ويكون ذلك من دون استئذان المخاطب، الأمر الذي قد يحس معه هذا الأخير بأن فكره ووجهات نظره وكيفية طرح الكلام والتعبير.

من هنا كان على التكلم (خطيبا أو كاتبا...) التوازن على الأبعاد الثلاثة مخاطبة بانه غير أهل لكل الثقة. أما التجسيد فهو تلاعب، يقوم على محاكاة الجسادات والحيوانات والعائدين ومحاكاة استنظافهم في مقام الإلقاء. وذلك ضمن تدفق حوارى بين الاستمالة والغشوش.

في حين أن التضايف أو التمازج يعد نوعا من استمرار، لتعاطف التعيين كى يستبقوا على التكلم صفات خاصة، وهو يقوم بذلك السلوك عن طريق تعرض نفسه للسطرة تسارعا وتلويحا فيبدو... كمن يسطر من نفسه أو يلومها بهدف الحصول على رد إيجابي لتصلحه من طرف المستمع مثل: هل لنا مغفل إلى هذا الحد؟ أنا جذبت على نفسي... وبالتالى يكون كل من «الانتهاك والتضخيم والتساخر تقنيات متكاملة للتلاعب بالهدف والخروج من التوازن بين الخطاب والمستمع في الظاهر»<sup>(38)</sup>. وينضاف إلى هذه العيوب الخطابية قائمة طويلة جدا أسباب بلاغونا القدامى في الحديث عنها في تظهيرهم الخاص لبلاغي التذمر والخطابية، ولعل حديثهم عنها أدق من تناول البلاغة اليونانية لها. ولكن ليس هذا مجال الحديث عن هذه العيوب «المروعة» لهم في الخطاب الإقناعي إلا نذكر هنا سره إجراءات proceeds هدفها الوصول إلى أذهان

الخطابين بأي وسيلة أو بأي شيء، بل لابد من مراعاة الاستخدام النام بين شكل الخطاب ومصاديقه الفكرية والاجتماعية من جهة، وبين الأسلوب والعلامات النوعية بعقوبة الطرح وبراكته من جهة ثانية.

فمن شأن ذلك أن يخلق الخطاب غلاظة أكثر، لذا يصدر «ميرلن» في هذا الصدد من الإسراف في استعمال الأشكال البلاغية المعاصرة، لأن هذا الإسراف كان يوماً ما عائداً من عوامل انعطاف البلاغة والنظر إليها بوصفها آلية إغنائية حاضرة Babelism، وذلك مما جعل تلك الأشكال البلاغية هدفاً في حد ذاتها. وهو ما أفلح اللغة قدرتها على نقل الواقع ورسم المستقبل وأحداث الإثارة الفنية الكفيلة بخلق ثنائية: الانفتاح والفعل.

إن على التكتام السعي إلى جعل مفاهيمه في القوى حالات إرباعهم وانتقاهم، فهو في مقام الإثارة، بجابه «عقوب قلبي» هذا، عدم الالتواء والتسوية<sup>(34)</sup>، ولكن بطر يهما عليه التوسل ببعض مصطلحات الأسلوب القائمة في البلاغة، لكن عليه ألا يسرف في ذلك الأعضاء، إذ البلاغة فن قوامه الاستدلال، مع توفر أكثر مستلزمات الإثارة والإسراج، وتكونت من مجموعة الجود البهتات بأنه «الجزل السبيل» الذي يُهجم على ماقدنه من ظاهرة، يستدرك بهاته مع أقرب سلفه. ومن هنا جندويه بالسبيل المتبع.

ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى أن توظيف الأشكال البلاغية في الخطابة عامة وبيات المحتاج منها خاصة، قد عرف محاولات عدة وتغيراً في الاستراتيجيات.

فقدوما كان يتم الإسراف - جزئياً - في توظيف هذه الآليات نظراً إلى طبيعة الخطابين ومقائدهم الحافة بهم، أو تلك الحقوية لهم بوصفهم في الغالب مستحضات شعوية.

فلقد كان هذا التنام يفرض على التكتامين طرقاً خاصة في إجراء الكلام، لا يستطيع نحن «معرض «التكانيين» اليوم تمثلها بالصورة الفكرية التي كانت عليها.

فلقد الكتامي الذي عاش في حضارة الكتابة ووسائل الإعلام المعاصرة، لا يستطيع بشكل كامل أن يسترجع الإحساس بما ملته «كتابة للخطابين المخلص»<sup>(35)</sup>.

لهذا كان تمثل الخطيب التقليدي - اليوم - للنصوص القيمة الواقعة إيماناً من الأزمنة المنطوية يتطلب قدرة وتمكناً فائقين في الوعي بالسياقات المنهجية لهذه النصوص، ملما بتطلب معرفة

واسعة انطلاقاً تلك الحقبة وحضارتها. فذلك فقط تستطيع العظيمة الكتابية المعاصرة «أن تعود بدءاً الوعي الإنساني في نظام الأصل، ذلك الوعي الذي لم يكن كتابياً على الإطلاق، أو على الأقل تعود بدءاً الوعي بدرجة معقولة إن لم يكن بشكل كامل، (نحن لا نستطيع أبداً أن نتخطى بالتميز عن قدر من حضارتنا من أجل أن نعيد في حقولنا بناء أي ماضٍ في حالته الأصلية الكاملة)»<sup>(٣٦)</sup>. وعلى قدر التمثيل لطاقة حقبة معينة، ولأننا الانتظار المسألة فيها يكون ثراء التحليل، وعلى القراء وبعد هذا من الجوانب الجيدة التي أشارت إليها، ويركز عليها نظرية القراء والتلقي عند «هانز روبرت يوس» وجماعته، حين اعتبروا أن لتاريخ القراءات القديمة النصوص معينة في حقبة معينة يمكن أن تقدم من الجانب الآخر منهجاً معيناً لكتابة التاريخ الأدبي بطريقة وأسلوب معينين عن نظريتها في الدائرة التاريخية.

فعلى منبيل المثال كانت النصوص الخطافية وبعض الرسائل الكتابية القديمة تنسخ غالباً إن لم نقل دائماً - انطلاقاً من تراكم نسقي مسبق، تلاشي لبعض «المسبوق»<sup>(٣٧)</sup> وذلك على نحو «عقودي» بترابط من خلاله الكلام وتكامله العنصر نصفه القريب إلى القاصي، بحيث يكون ظهور جملة معينة أو صورة أو مثال أو تلميحاً - مرادفاً بالضرورة لظهور نمط قرائي آخر يتوقعه القاطب، ويظهر من التكمّل الإبداع والتفنن في إبراز أو التلاعب الجيد.

من هنا يكون إبداع التكمّلين وعين الاستجابة لاتفاق الانتظار والتمويل من جهة، ثم الإجابة في خلق علاقات معينة جديدة داخل اتفاق التوقع ذاتها.

وتمثل المحلل القنوي لهذه الاتفاق والأصداء المتعددة عامل أساسي في مثل هذه فترات النص والتطور معه وإثرائه على حد تعبير «أيزر».

وفي مقابل الأسفرتيبيات الشفافية في إجراء القول وجماليات اللغة نجد البلاغة المعاصرة في مجال الحجاج تتوصل بسبل قولية أخرى، باللغة الثابتة، فالتكلم المعاصر مغالط بالمعنى إلى امتلاك ثقافة اللغة الرحابة مثلاً هو مغالط بالانقضاء في تصدير مخزونه البلاغي وعدم التوازي خلفه.

أي أن تكون لغة دالة على مخططة القولية معبرة بجلاء عن أهداف النص وغاياته الراضية والمستقبلية على السواء.

هذا التصور الذي قيسه هذه البلاغة المفهوم «الحجاج» ساعدهم في تقوية من الأطر العامة Ste - . ولمحة خصوصية منطقة بالمخاطب والمقام من جهة واللغة من جهة ثانية. وقد تطورت هذه Vardic الفكرة عند البلاغيين الأسلوبيين الذين اهتموا بدراسة اللغة الأدبية. لا من أجل البحث عن «الأدبية».. وإنما بهدف وضع نظرية للنص تكوّن القرب إلى الطمية.

ومجال اهتمامهم بهذه الفكرة كان في أن خصوصية اللغة والمقام للمخاطب من المطلقين المنطوقين جداً متغيراً من أجل الوصول إلى بعض أسرار المطالبات والتصور.

فكما أن المعنى بالمخاطب أصلاً محدد سلفاً، فكذلك الحال التقدي الذي سويرسه لاحقاً هو بدوره ملزم، أو ينبغي أن يكون كذلك. فليس كل ذلك مؤهلاً لطرق أبواب النص، ومن هنا جاءت فكرة الطارىء التالي عند رطاشير، والطارىء التمزج عند أبرز، والطارىء المسموولوجي عند لومونويلوكو<sup>(31)</sup> وينتاطع هؤلاء جميعاً في أن الطارىء بمخاطب يثراء النص ويفتح لطاقته ويخلق التناقض والحوار اللذين بين النصوس المتضاربة في فهماته، وذلك الدافطة في تسجيده عبر مستويات التناقض التعويضية، خصوصية الاستشهاد أو التلميح أو التشبّه أو معارضة أو تمويلاً... وهذا ما جعل العلاقات التبادلية القائمة أصبحت منطقة الخيال كن النصوس لا تكشف عن أسرارها إلا للغة المستكنة، الشكّة بين «البيكرو» أن التلميح من اللغة أفسحت الطلاقة لقراءها. فطما يتكلم علماني بين المطلقين الأكفاء والنصوس التي تستحق الدراسة، ويشارك كل منهما بقسط في تكوين هذا التيكال ويأثريه انطلاقاً من تعاضد إمكانات نظامي التاليف الأصلي والقراءة اللاحقة.

لكن هذا الجانب التقدي التلميلي من علاقة النص بقراءه لم يخط بعناية كبيرة من «بيرلمان» إذ ظل اهتمامه مركزاً على علاقة النصوس بالمقام والإنتاج والفعل (الصداء). ثم على دور الأطر التعريفية العامة باللغة في بلورة نظرية للحجاج تولي اهتماماً لمجالات البوذية في الكتابة، وأطرق تعويضي الغياب في مقامات الكتابة، دون أن يهتم بالتنظير البلاغة الإلقاء (الخطابية). لذا يعود الفضل لبيرلمان في كونه قد ألقت الأنظار إلى ما يمكن أن تلعبه البلاغة إذا ما أعيدت قراءتها في ضوء المنافع القوية المقنونة من جهة، وإلى ضرورة مراعاة تطور علوم الاتصال والبيات في عصر «السماعات المفتوحة» من جهة ثانية. فالمقام الخطابي قد السخ والمخاطبون (العلميون) قد اتسعت دائرتهم وتفرعت نظريتهم وتعددت القيم المشتقة لوجههم ولوجهات نظريهم. وكل هذه أمور لابد من مراعاتها وأخذها في الاعتبار.

لأن الاهتمام بجعلية الفاري، والنص (أو الخطاب) سيتم تداركه بصفة كبيرة في البلاغة البهرية العامة والبلاغة التداولية، وذلك ما سنشير إليه لاحقاً.

أما صاحب (مبحث العجاج) فقد كان يهدف إلى أن يجعل من العجاج خاصة والبلاغة عامة مجازاً عاماً، يسعى من خلال شفافية اللغة إلى الاستعواء على وهي المخططين والمجهير تصورهم- بإرادتهم هم- ولا ينأى ذلك إلا إذا استطاع المتكلم أن يقلل الشعور لدى مخاطبه بأنه طرف فعال له رأيه وتوجهه، وأن لا فعل ولا تصرف من دون مشاركته، فالمخاطب عندما يستشعر هذا الإحساس يكون المتكلم- في الغالب- غير ملزم بتقديم الحول، والتتالي، والتبرير، لأن الطرح المقدم عندهم يكون قد بلغ لرونه الإقناعية، وهذا يتيح للمتكلم الانسحاب تاركاً للمخاطبين تحديد الحكم على القول.

وبالتالي يكون المسعى الأساسي للعجاج العاصر هو التهيئة للمحكم لا النطق به، لأن المهم في نظام العجاجي ليس قناعات المتكلمين، وإنما بالآخرى قناعات المخاطبين وزعماء، إذ هي التي عليها مدار النقاش.

والمتكلم الذي لا يتعامل مع واقع الحياة الخاصة بعد متكلماً عاماً، إذا فالخطاب الاتصالي لا يحرس بعد الحقيقة، وهو إن أثر في المخاطبين إلا أن تأثيره يقل، وأيضاً لأن العاطفة ليست من طبيعة العقل. من هنا كان العجاج العاصر مطالباً بالجمع بين خاسيتين أساسيتين هما: الفارقة والواقعية: المنطقة والجزء- فمدار الأمر في تلك كله: المخططين. وهذا ما جعل «ديورستون» في محاربه للديماغوجيين Demagogues، يطلب من المجتمع ألا يني أن يحسن ثقافته، ويطور ألياته التعرفية والعاطفة المضاربة، أي ذلك رفع مستويات خطبائه، وعامل من عوامل إجادتهم في القول والكتابة معاً. وبالتالي جعل المجتمع مساهماً بصفة ما في تشكيل خطبائه على النحو الذي يرغب فيه<sup>11</sup> وما دام المجتمع مساهماً بصفة ما في تشكيل خطبائه وكتابه فإنه أيضاً يكون مشاركاً في خلق الخطابات والنصوص الموجهة إليه، وبذلك في الأنسجة الضامة لتلك المدهات، ويخرج من هذا التداخل في «الخلق» أن النص وبكذا الخطاب يتلاقان بتورهما فراعدا الزايفين فكرياً ومعرفياً لتناول شفراتهما والارتباط بالأسانيد التعريفية المصاحبة لهم من تجاربهم الثقافية السابقة.

وبعد الاهتمام بفكرة «الخلق» نابعا من الفكر الظاهراتي، الذي يمتد من الأطر المعرفية المؤسسة لنظرية العجاج سواء عند بورمان أو من جاء بعده من البلاغيين البهريين أو التداوليين على السواء.



وقد أخذت هذه الفكرة لتجليات عدة عند بيرلمان بالتفحص. يظهر ذلك في محاولته إعداد تصور معين لأنواع الخطاب. فمثلاً لم يكن المطلوب كونها (من دون خصائص أو معالم محددة أي عاماً شاملاً) وقد يكون الخطاب محدداً نابهاً من مكونات مقام القول وإمكاناته التي على المتكلم- أيا كان- الإجابة في استغلاكها والاعتدال في توضيحها، هذا وقد يكون نابهاً من «الفاظ» أي الرسل للقول ذاته، وجزءاً من تجريداته وطموحاته، ولكن في هذه الحالة الأخيرة على المتكلم الفعلي ألا يفرض على مخاطبيه ملامح هذا المتكلم المتمركز، وإنما عليه أن يترك للمسموعين مهمة تحديد ملامحه ثم مكائده، ويحدد هذا الموقف غالباً حالاً يكون الرسل للخطاب قاصداً معينين. لا يستوعب بطريقة كافية العالم الكبير لآفاق انتقارهم. إن من السليم به تنوع الأساليب بتنوع المخاطبين، لكن من التقييدات المعاجية الفعالة في هذا المقام، ضرورة أن يتمكن الرسل للخطاب من حقق وتوقع ثم «امتصاص» جل الفرضيات والقيم والتصورات المتواردة الطريفة، وخاصة منها تلك التي لها مسماس كبير بوجدان المسموعين وأنها تطغىهم أو حياتهم العامة، فهذه الأنظر والتصورات المتواردة قد تكون دامية، وقد تكون تصورات مجربة نابغة من الطبيعة النفسية لبعض الخطابات السائدة في تلك الحقبة الزمنية، خاصة إذا كانت تلك التصورات دنية طائفة أو مذهبية.

وتصرف المتكلم إذاً، هذه الأنظر القولية التي قد تعوق التوضيحية الفعلي لمضمون فرضياته، لا بد أن يكون نكياً، لأن من شأن هجومه أو تهجمه عليها لتقويض فعالة الاتصال، لذلك فإن عليه أن يقوم بمعارضة تلك الأنظر بأخر أخرى من الطبيعة نفسها، ثم يعمل على تحويل تلك المتاراة التي تصور دافعة في تسيجه القول، وبالتالي تكون جزءاً من الخطوة المعاجية، بدلاً من أن تكون هدفاً يصاح من أجله الصراع. وهذه العملية التحويلية ليست باليسيرة لأنها تتطلب وعياً اجتماعياً بمقروء القول والقول، الفهم من جهة، وإبرازها للبطانة الأيديولوجية والفهمية لتلك الأنظر «المتواردة» من جهة ثانية. فالتكلم هدفه عزل تلك الأنظر على سياقاتها الأصلية، وبالتالي زرعها في التسلل لغوية معاجية جديدة، على شكل تبدو معه للمستقلين كما لو كانت جزءاً أصلياً من النسق القولاني الجديد، لا يمكن انبثاقها عنه، فبذلك وحده يستطيع هذا المتكلم أن يقدم فرضياته وأفكاره كبدل مقنع لا تعرض فيه، وهذا أمر ضروري لمجازة المسموعين، وانطراهم في الاقتناع بضرورة إتجاز المسموعين الفعلية للقول.

إن هذا النمط المعاجي بالغ الفعالة لم يغب عن وهي القدماء، فقد أشاروا إليه في باب الجدل

أن المصباح *dialectique* لها، ويقسمه من حيث الأولوية على الخطابة الجماعية *dialectique* La المقدمة إلى الفرد لتسليم بالتوصل والتفاجئة، وبالتالي فالحوار هو طابع العملية في هذا المقاب، إذ على المتكلم وخاصة الخطيب مراعاة تصرفات مخاطبيه وتقلبات مزاجه واعتراضاته مطلقا أن عليه أن يتوقع جل سلوكياته، وهذا ما جعل Quastelien ينسب رأي Zeron الذي رأى أن «الديالكتيك (الجدل) بوصفه تقنية حوارية يشبه في طابعه المجازي العارم الضيق القبيضة للعقل، في حين أن الخطابة في نظره تشبه الرأفة البسطة نظرا إلى ما يمنحها مخاطبها من اتساع في القول ومجرباته وسعي حر (نوعا ما) في التعليل والبرهنة والاستنتاجات»<sup>(1)</sup> وفقا لتوقع السليم المتأمل الانتظار المهيمة على المقام.

إن المتكلم في الفضاء الخطابي المعاصر، وكذا الكتاب بالدرجة الأولى، مطالبان بإعادة قراءة جمل الموضوع التي يمكن أن تسهل في السياق التولي الجديد، وهذه القراءة هي عملية نقدية انتقائية الهدف منها - كما قلنا - محاولة صوغ لغة متكامل يتم فيها تحويل خصائص الموضوع المتألف لتسهل في المر قراءة جديدة تشريها وتزيد من اتساعها وفاعليتها على كل من الموضوع والقراءات الثلاثة، مما يطور إلى القول أن الخطابة الجماعية في مظهرها الآخر هي معني إلى إعداد نتائج عملية من القراءة الابداعية انطلاقا مما يتلوه المقام الراهن لكل من الإلقاء أو الكتابة.

وفي إطار تنوع الخطاطين وتنوع الأساليب الخاصة بهم يركز «بولمان» على أهمية أن يعي المتكلمون أن «العمل المجازي، عبارة عن عمل جاد وليس نوعا من التسلية الكلاكية، وأنه يتطلب ثقافة ذاتية بولوقا نفسها وعضويتها به من ممارسته، وهذه ما جعل Boudreau يرى أن المصباح نفسها التي تلعب بها الآخرين عندما تصدهم بالخطاب هي ذاتها التي تستخدمها عندما تفكر وتحدث لنفسك. بالتالي فالخطباء هم القادرين على مواجهة الجمهور في حين أن أصعب الرأي الصمد هم أولئك الذين يستطيعون طرد اللماز معارضة أنفسهم بالأساليب الأكثر طلاقية وحكمة»<sup>(2)</sup>.

من هنا كان الانسجام مع الذات، والثقة في النفس، والتفهم للآخر المتكلم - خطابة وكثافة - من أهم المراحل الخاصة، الهيئة الانشغال مع الآخرين، هذا إضافة إلى «أن تعصيتنا - بوصفنا متكلمين - لمحبينا الوجهة إلى الآخرين، وتحليلنا إياها مما الكيفيان يجعلنا نعي جيدا كتيبة الحوار مع ذواتنا بشجاعة، وليس العكس»<sup>(3)</sup>.

هذا التصور لعلالة التدرج بذاته جعل Perelman يستلخدم مفهوم «المعلنة» بوصفه الجامع لأهم الأطر النفسية الباطنية Cadrès Psychologiques Profonds السائدة بعملية الحجاج. فالتكلم مطالب بالثبوت والتعلل إزاء الفرضيات التي يطرحها، والتأويلات التي يقترحها، وذلك حتى لا يجد نفسه أثناء خطابه (أو نصه) مضطرا إلى أخطاء الإلتحاق Pointes distribution كان يقدم طرحا معينا، ثم يستعمل في عرض الخطأ الحجاجية التي ادعها للخطاب، ثم يقع منه سبورا أو جهلا- بفعل الحماس أو بفعل أخطاء التفرع- إعمال لبعض التكوينات أو المساعدات الدافعة في صلب الطرح المقدم من جهة أو يقع منه تزويد لبعض الفروض فلما منه أنها تخدم الخطأ. وفي كلتا الحالتين يجد نفسه مطالبا بشكر تعليلات أو تعليلات لذلك، تكون متسجمة مع الخطأ العامة. هذا في حين أن ذكر تلك التعليلات «الأجنبية» يسبب في الغالب انسدادا للتفكير الحجاجي الذي تم طرحه في البداية. ومن المتكلمين من إذا أراد هذا «التقديد» حدد إلى التعليل على بعض مكونات النظام والخطأ معا أصلا في تبيينه كان قد جبرح. ولعلنا قد ننسب تلك الحيلة على بعض المعتندين من ذوي الأساليب المعرفية والخبرات المتواضعة. لكنها بالنسبة لغيرهم من المتمرسين إجراء واد.

ويحضر «بيرلان» في هذا الإطار من خطابي الإلتزام والتبرير أو التالفة والإعمال. فبما يتعلق بالأسائل موضوع النقاش والتحليل. أي أن على المتكلم تقديم تصوره في المساحة المتاحة له. ثم منحه الفكر المناسب من الصبح التي لا يشكل إيرادها لدعم الموضوع مطابقة أو تضادا. لأن تهويل الموضوع ومنحه مساحة أكبر من حجمه، ثم التوسل بعد ذلك بجمل الأطر المعرفية السائدة في بيئة معينة من أجل دعمه وإثباته هو أمر باعث على السخرية ومولد لنفاهات الحجاج. وبالمقابل فإن عرض الفرضيات والتعليلات في الهاتش- أو في الظل وعدم الانشغال إلى المعيشة في مقام الإقناع، هو بدوره دليل على عدم خيرة المتكلم وتلويش أفكاره. وهي كلها أمور يتركها جل المعنيين بالخطاب، كما نتركها بوجه الفصل الأطراف المعارضة للخطاب. بل قد تعدد هذه الأطراف إلى النقاط تلك الهفوات ويوظفها وإثرائها بما ترى أن المقام يستدعيه. وغالبا ما نكتسب بصليهما هذا مساعدات إضافية على حساب الأطراف المناهضة لها. ويتجلى هذا الجمل أساسا في كل من الخطابة والكتابة الميسيتين واليات بناء الحجاج فيها.

لكن ثمة ملاحظات لابد من الإثارة إليها فيما يتعلق بتصوير المدرسة البايوجينية للحجاج.

غيره فإن وإن لم يمدنا بضرورة التمييز بين أنواع الخطابات اللازمة لكل مقام فإنه يرى أن العديد من الأخطاء التي وقعت فيها البلاغة الكلاسيكية - خصوصاً في تصنيفها للمضامين والأجناس الخطابية - كانت ناجمة من تصور خاطئ للصياح وإثارة. إذ تم اعتبارها آلية جاذبة وتصوريا جزئياً يتم السعي إليه من أجل «قصر» للمعنيين على تبني آراء معينة، دون أن تؤخذ في عين الاعتبار رؤاهم المستقبلية وتوجهاتهم الراهنة. وكذلك المثيرات الداخلية (النفسيات) الاجتماعية (الأيديولوجية) التي تحكم سلوكهم الاجتماعي وتحركاتهم الفعلية.

فليس المهم أن يبرز التلكم أن فرضية ما هي التي يجب التحرك في ضوءها، ولكن المهم أن يتناغم الاقتناع مع الفعل، بمعنى أن تكون الفرضيات المقدمة من القاطنة بحيث تخترق الأساق الداخلية للمعنيين. وهذا ما قصدته عندما قلت: «إن القرار المأخوذ تجاه أمر ما يقع في مرحلة وسط بين الاستعداد للفعل والفعل ذاته. بين التماثل الداخلي والتصرف الخارجي»<sup>(27)</sup> وبالتالي فإن قوة الفعل التميز وأهميته لا تقاسان بمدى تماثل البناء الداخلي، ولكنهما بالأحرى تقاسان بمدى حساسية الضغوطات التي تثقل عتبة في مجرى إنجاز هذا الحدث. وما يتطلبه ذلك من تسهيلات من جهة، ثم التوافق والانسجام الذي يقتضيه هذا الفعل بعد إنجازه من جهة ثانية.

<http://ArchiveBeta.Sakhrn.com>

لذلك فقد اعتبر أن «الحجاج» هو النمط القوي الذي ينبثق عن «القوة الثانية» في تطبيق النتائج القموية *teogolias* التي كان رفض المعنيين لها سيخسر أصحاب «الفة» أو القديس على التوجه إلى القصر، إلى القوة من أجل الإقناع على إنجازها.

من هنا كان الحجاج عنده مطابقاً للبلاغة في أرق معانيها، في حين اقررت الجدول بحكم اعتناقه بالقضايا القموية المتنامية الفكرية.

«الحجاج إذن مظهر من مظاهر القوة الباطنية. إنه الحركة التي يسعى من خلالها دائماً إلى تغيير أحوال الأمور التي كانت قائمة»<sup>(28)</sup> وبما دام هذا التغيير يتم في عدد ورسائله والنتاج به من لحن المنجز له، فإن الصياح بوصفه الشكلي الأساسي للبلاغة المعنى غير آلية ويتسلسل بها المؤيدون والمعاصرين وأصحاب القنوايا المعاصرون من أجل تحرير مواقفهم وتبرير خطاباتهم في عصر «السمارات المتوحشة» حيث أصبح المعنيون - في الغالب - غائبين عن مسرح إلقاء الرسائل القموية الموجهة إليهم، لكن درجات حضورهم تظل مختلفة: فمنهم من يتصور حضوره في الكتابة.

ومنهم من يُنظِّف عبر التشابهات ووسائل الإسلام بمختلف أنواعها. لذا كان تركيز أصحاب هذه المدرسة على آليات تحويل الغياب إلى حضور، من أهم النقاط التي فيها وادعوا. وتكون أهمية هذه الفكرة أساساً في مجالَي الأدب والأسطورية، حيث أصبح المثل معنواً بطرق استغلال اللمعين للفضاء والفراغ على الماء، وتحويل الشطرات والصور التي تجسد الحضور.

### خاتمة: دور المقام في توظيف عناصر الحجاج

حظي المقام باهتمام كبير في التصور الجبروتاني باعتباره البؤرة التي تلتقي فيها جميع العناصر الحجاجية من مقدمات برهانية وحقائق قطعية وقرائن بلاغية ولهم يشي أنسابها وعلاقة هذه القيم بمراتب التكاملات والأشخاص المعطين بخطاب ما. وذلك بوصف هذه العناصر المذكورة اسماً حجاجية لابد من طرحها بصيغ مختلفة في المقام نظراً إلى أن الشاطئين يشتركون في الإقرار بأبرز سماتها. وإن كل ذلك الإقرار الشايد بحسب طبيعة الفحص وتكوينه.

بالنظر على الخطأ والكتاب (يرصدهم متكلمون) المثل في توظيف هذه السمات بوصفها «نقاط انطلاق للبرهان» *Probes de la preuve de l'argumentation* تكون هذه النقاط مسلماً بها في الغالب أمر قد يؤدي إلى إعمال التكلمين لا أنه نسبته هذه النقاط من تقويض لقبول الحجاجي عن طريق الوقوع في خطأ التعريض أو التناظر.

فالمتكلم مثلاً عندما يستخدم مفعولته العقلية في بداية طرحه فهو يسعى إلى بناء أول جسر التواصل للمقنع بينه وبين مخاطبيه الذين يرغب في إقناعهم معه في التسليم بذلك المقدمات *Pre-mises*، لكن عدم الحلق في طرحها بما يتسوم مع الموضوع والمقام معاً قد يتسبب في رفض *rejet* للمخاطبين لذلك الميثاق... إما أنهم لا يستمعون بما عرضه لهم الخطيب (المتكلم) بوصفه ثابتاً، وإما أنهم لا يرون إلا الطابع الأضائي البعيد لاختيلار المقدمات، وإما أنهم فوجئوا بالطابع الغرضي في عرض تلك المقدمات<sup>(17)</sup> لذلك فعلى المتكلم التركيز على معايير الأولوية فيما يتعلق بالعلاقة مع المقام والموضوع معاً. ويدخل في هذه المقدمات ما يرد ذكره من حقائق قطعية وأعداد معينة لا يشك المخاطبون في ثبوتيتها المرجعية. لكن ذكرها في الخطاب أو النص لابد أن يكون له طابع حجاجي، وإن يكون كذلك إلا إذا أحدث ذكر تلك الحقائق صراعاً جدياً مع أحداث أخرى كان الخطيب يتوقع ذكرها، لكن المتكلم يرغب عنها، لأجل خلق إطار منطقي للخطاب التي اختارها.

وبذلك لكي تسير فعلا هي اللامعة للمقام. ولا تدخل هذه الخطوة في عيوب «التعويض والفسر» بل تنعرج في عناصر الفارقة والمفارقة الطريقتين. ولأن «المقائق معقدة ويدخل فيها عدد الأساق»<sup>127</sup> فإن من شأن ارتباطها بملصق من ملامح الفارقة الطريقة أن يخلق إطارا تراصليا إحصائيا لم يكن ملوكها، وهو ما سمح (توفهم) للمتكلم (المبدع) قضايا في منطقها الصلحي، فضلا عن أنه سيهيء للمخاطبين أكثر للانخراط في الطرح. انطلاقا من الطرائق *Prescriptions* التي أطرت تلك «المقائق» في «المقام»، فالفراش لتحتاج - بخلاف المقائق- إلى أن تدخل في الأساق الضرورية لأن ذلك يزيد من فعاليتها. ويرسم علاقتها بالقامات الصادرة فيها والمواقف الفوقية من وراءها.<sup>128</sup>

إن تعدد المواقف والأساليب والمخاطبين بصلحيه تنوع آخر في مسئوليات القيم *Values* بوصفها عناصر حجاجية جامعة من جهة، ثم بوصفها موضع اتفاق وتسلوهم من جهة أخرى. إذ لأخلاف غالبا حول مضمونها ومكانتها، وبالتالي «فالمقيم» يختلف أنواعها دور فعال في بناء الثقة بين المتحاورين والمبدعين والفراء، فهي (إن) تلخص حجاجي أساسي في العلوم الإنسانية والاجتماعية (بخلاف المواضيع الطبيعية أن) ارتباطها تقع على فيها التحليل ومن ثم التفسير). أما القيم فتوظف في النظرية الحجاجية بوصفها «تراند حجاجية» *Règles argumentatives* فحين نستعملها لكي نحمل المطالب على القيام بالعمل معينة بدل أخرى؛ كما أننا نستعملها خصوصا من أجل تبرير تلك الأفعال بطريقة تجعل هذه الأفعال التي دعونا إليها مقبولة ومؤيدة من طرف الآخرين»<sup>129</sup>.

إن إقرار دور القيم في النظرية الحجاجية هو أول خطوة لنبدأ فكرة «المقف والفسر والصاصرة» وميلاد ميثل التوصل القائم على التفاضل الثغر. وإن كان «المقائقة» التي يتم ذكرها في المقام الخططي أو الكتابي تعد أساسا لولاي من أسس الإقناع وتعبيراً عن وجود فعلي أو متوقع فإن القيم في الأخرى على اعتبار أنها من الأسس نفسها إلا أنها تعبر عن موقف تجاه الوجود والكل على السواء.

فوالقيم نستطيع تشكيل الحقيقة النظرية على الوجه الذي يريد المبدع (خطيبا أو كاتباً). هذا في الواقع الذي نل في هذه القيم محافظة على نصاعتها بعد الاستفهام، مما يجعلها صالحة للاستعمال في مقامات أخرى»<sup>130</sup>. ودور القيم يبرز في حسن توظيفها، حيث تأتي منسجمة مع

إطارها الثقافي من جهة. ومع المقام الإبداعي من جهة ثانية. هذا فضلا عن أنها ينبغي أن تكون قيمة شاملة أو متخارطة في طبيعتها لتعبر القيم الأخرى من الجنس نفسه. لكن ذلك لا يعني أن الاستعانة بالقيم الأجنبية لتصويب الأبداع بالقياس، بل بالعكس قد يسبب استخدام هذه القيم دفعا للفساد الثقافي، شريطة أن يحسن البدع استغلالها وترهينها وتبويبها لنظام لها (يرككها العكس- أي تبويبها في النظام).

وبسواء كانت القيم مجردة أو واقعية فإن دورها في الحاجاج يرتبط بالطريقة التي ينظر بها المتابعون إليها. لأن ما يميز مخاطبها عن الآخر ليس القيم التي يسلم بها بقدر ما يتميز بالطريقة التي يرتب بها تلك القيم<sup>(1)</sup>. فمراعاة الترتيب أمر ضروري في أي بناء حجاجي. ولا تتبع تلك الترتيب إلا من تصور معلوم من قبل البدع لحظة الترتيب. كما لا يخفى ما لهذا الترتيب من دور، سواء عند امتداد ذلك الترتيب أو نشوء من أجل تقديم البديل. هذا ما لم ننتبه إليه البلاغة الكلاسيكية. وكذا جل الفلاسفة المتأخرين الذين امتدوا بالطوائف المشتركة لهذه القيم التي يشترك فيها معظم المتأخرين. وأغفلوا ما تشمله من اختلافات ولابسات تؤثر على سياق القاءات التي قد تستعمل فيها.

وقد قامت هذه الفكرة بحلج «مبحث الحاجاج» إلى تصور مهم في نظرية الحاجاج يمكن في عدم وجود منطق خاص للقيم، وإن استغنايتها نسبيا<sup>(2)</sup>. تتغير بطبيعة المقام والمشاركين فيه.

هذا الدور الذي يلعبه المقام في تشكيل عناصر الحاجاج وموقعه ومحتوياته جعل الممارسة اللبنيكية تولية مكانة خاصة في التصور الذي قدمه روادها هنا.

والمقام هو الذي يمتدج الكلمة الثقافية والأخرى المكتوبة بدورها ومكانتهما بعض النظر عما تعملانه من سمات دالة أو معنوية فنية. من هنا كان لزاما على المبدعين مراعاة شروط القام والالتزام بها. مهما كان هذا المقام مكتوبا لديهم بمعنى عام. لأن الإصرار في إبداع الألفة مع مقام معين قد «يسرف» عند المتأخرين والمتأخرين مما قد يكون فيها - المقامات - من أهمية بالغة وقيم حجاجية كبيرة. على كل من يروم إقناع الآخرين أن يقتبس منها «بعض» يرهقه<sup>(3)</sup>.

ونظم «ميراثان» تصورين أساسيين للمقام. فهو تارة يعتبر الإطار المحدد للخطاب المستهدف لكل مستويات العملية الإبداعية. وكلل المشاركون فيها. وتارة ثانية يعتبره تلك المقامات ذات النظام العام التي تساعد المبدعين في بناء الحجج وترتيب القيم.

والفهم في هذا التصور الأخير تجريدي لاسباس التماز والتشبيح لذا يمكن اعتباره قيمة بلاغية شكلية ذات وظائف أسلوبية مضافة في خلق الانسجام التام بين الشكل والمضمون<sup>(14)</sup>. ومع أن لكل من التصورين دوره المجازي إلا أن (بيرلان) يصر على ضرورة التماسهما، وعدم إمكانية دراسة أي منهما بمعزل عن الآخر.

وقد قام هذا التصور إلى الإسهام في توضيح العلاقة الجدلية بين الشكل والمضمون من جهة، والعرض والتقديم من جهة أخرى مؤكداً أن سبب شعور البلاغة القيمة كان التركيز على أنها لا تعدو كونها أسلوباً للعرض الشكلي المتغير. بالتالي دعا إلى تخط هذا التصور بإعطاء دور كبير للبلاغة في جميع مبادئ الحياة بوصفها أقصى علم يدرس جدلية الأشكال والمضامين. لكنه وإن ركز على تعاضد الشكل والمضمون، إلا أنه لم يهتم كما ينبغي، في تصوره للحجاج بالمحور الاقتصادي الذي يمكن أن يلعبه الأكلان، بالشكل، مع أن بعض النقاد اعتبره المعنى شكلاً وأنه لا يمكن أن يدرك إلا باعتباره كذلك<sup>(15)</sup>. حيث إن الشكل كما هو معلوم دوره في جذب الانتباه وفتح المستقبل له شعوراً معيناً وإحساساً خاصاً به، فالتألق من خلاله وتفاخيه. وبهذا التصور يمكن أن نقول إن بيرلان يربط المجهود بين العلاقات الشكلية والمضمونية.

لكنه مع ذلك يؤكد أن الأبنية البهرية والأشكال لا يمكن أن تتجلى بمعزل عن الأهداف الزلزالية التي تصاحبها وتتضمنها.

ولما كانت المقامات تعتمد بعدد الظروف المتغيرة لقول معين فإن هذا الباحث وإن حدد معطيين أساسيين للمقام إلا أنهما يشاركان داخلهما مقامات وأماكن متعددة يصلح كل منها دعامة مجازية في موقف معين. كما قد يتعاضد التماز أو ثلاثة من هذه المقامات في سياق نوعي معين لإبراز فكرة خاصة بالمقام الضام. فعلاً لدينا المقامات الكمية والأخرى النوعية والمقامات الخاصة بالتنظيم والترتيب، ومقامات الوجود (الكيونية) ومقامات التأقية ومقامات انبثاق إلى غير ذلك من المقامات المظفرة للجدلية المجازية برمتها.

إن المبدع (خطيباً أو كاتباً) مطالب اليوم - أكثر من ذي قبل - بمحسّن توظيف هذه المقامات، واحترام حدودها حرصاً على سلامة المسار المجازي والخطط الإقناعي. فشلاً في مقام تكون فيه القيم الواقعية (الشعرية) محور الدعوة وأساس الخطاب لا ينبغي الاستغناء كلياً إلى إمكانات المقام النوعية. وكذلك العكس، بمعنى أنه في الخطاب الذي محوره القيم المجردة لا ينبغي التركيز



في الخطوة المعاجابية على معطيات المقام الكمي، بل لابد من مراعاة طبيعة الهدف واختيار الأساليب الجسدية له، بحيث يجعل كل من الشكل والضمور بعضاً من عناصر الحجاج. لثمن جميعها في بؤرة الهدف المدمر إليه. فحسن استحضار المقام، أو عبارة أخرى، ضمن استغلال إمكانياته يتيح للممارس المعاجابي طاقة ذات تأثير دائم<sup>١٣٦</sup>. إما عن طريق عرض الفكرة الهدف على سبيل المحصر أو الاستثناء أو الفارقة أو التعطيل أو الألفية. إلخ. تلك من الصور التي تكون فيها «الفكرة الهدف» موجهة على ما سواها. لكن لا ينبغي أن ننسى أن هذا الرجوع المرجو إنما ينبع من حسن استغلال المبدع (الخطيب، أو كاتباً) للإمكانات المتاحة له- نصية كانت هذه الإمكانيات أو مقامية- في خدمة الفكرة المقعدة. ويلعب كل من القياس والاستنتاج دوراً أساسياً في عوامل الترويج. فالمحاج ليس كالناب في المقام محصوراً فيه بحيث يختص به، ولكنه مولد منه وفوقه. ثم إن الوضع الحجاجي الأساسي لتحديد المقام الذي يطبق الاستنتاج به وإمكاناته هو وضع يقدم مسألتين أساسيتين أولاً: الهدف الذي نرغب الوصول إليه. أما ثانيتهما فهي طية التبرهن التي قد تعول إقامة حجة. وهما مسألتان في غاية الترابط، فكل من كان المقصود من الهدف الذي نلتمه إيجاباً، أي أن نقول: «لقد تم تحقيق الأهداف والاعتقادات» كما أنه في الوقت نفسه أيضاً رفضاً لعدد التبرهن التي تعارضه طرحت. وبالتالي فإن وهي الخطوب (وكذا الكتاب) وهذه الشكافية (التطور والرفض) ضروري لتكوين أي برهنة ناجحة تعمل على الفعل والتغيير<sup>١٣٧</sup>.

وفي النهاية لا يمكننا إلا أن نقول إن «بيرلان» وإن اعتمد بأساليب الحجاج والإقناع، إلا أنه قدم تصوراً مفصلاً لدور المقام في الخطابات والنصوص المعاصرة على اختلاف أجناسها اللغوية وأساليبها في الأدب، والتوضيل.

فمنظريه لتغير بالدرجة الأولى نظرية مقامية، تلتخص في ضرورة مراعاة جملة من العلاقات المتداخلة بين المقام والمخاطبين والسامعين وأنواع القيم ومواقف الكهنة والثقافة والضمرة وأهل انتظار المعنويين، وتأثير ذلك على فكر التكلم (البدع). وعلاقة ذلك كله (بوصفه كالناب) بما ينبغي أن يكون. وقد أشرنا في البداية إلى الدور الذي أعطاه هذا الباحث للجوانب النفسية والمسابقات الاحتمال والتوقع وديورها مجتمعة في الدفع إلى الفعل.

لقد أصبحت ثنائية البلاغة الحجاج عند «بيرلان» عبارة عن نظرية عامة Savante شاملة

تطائر الممارسين الكفاء على غرار مانتشار النصوص الشربة قراها المثاليون على حد التعبير لومبرنو إيكو (المشار إليه سابقاً).

ولئن ظل اعتماد هذه البلاغة الحجاجية بالجوانب القنولية ضئيلاً، إلا أنه يمكن أن تشير إلى أن أبرز إنجازاتها تمثل في رد الاعتبار الفلسفي لكلمة بلاغة، ثم الإسهام في العودة إلى إثارة قضاياها الجوهرية من منظور أفاد من تطور معطيات المنطق الحديث. ولما رافق علوم الاتصال الجديدة<sup>(14)</sup>

## II - البلاغة البنيوية

إذا كان تيار البلاغة الحجاجية ينطلق من تاريخ البلاغة القديمة لإقامة قرائنه وعرضه من جديد فإن هذا التيار، الذي ابتثق في بداية السبعينات متأثراً بالتطورات البنيوية في مجال اللغة والقرائن، يعنى طبيعة اللامة مع الظواهر البلاغية القديمة، ويخصي من دائرته النقدية كل اعتماد بالتاريخ، لكنه بالمقابل يشتم بالعلامة الشعرية باعتبارها الأساس الثوري في كل عملية اتصال لغوي واعتماد بالعلامة يتركز على بحثين من أبعادهما: أولاً الظهور المنطوق Aspect Formel وبني هذا الظهور يتم تناول الوظائف الدافعية للخطاب التي تعمل على تولد دلالاته، وثانياً الظهور الشفوي Aspect Sonore الذي يتم من خلاله تحديد الخصائص الفنية للشكل في علاقته بالدلالة العامة للمنطوق. من هنا كان البحث الأساسي في هذه المدرسة ليس عن دلالات النص ولكن عن (كيف دل النص) على المعنى الذي يرى الطارى. أنه له بالتالي كان العمل التحليلي مؤسسا على الوحدات الصغرى في قوامها وتعلقها ودلالة بعضها على بعض حتى تصل إلى وحداتها الكبرى الضامة انصب إلى ذلك أن هذه المدرسة «تعود أولاً إلى وصف العمليات البلاغية في جملتها على أسس جديدة، باعتبارها تحولات أو التحويلات تتضمن تصورات عديدة وتتميز بين مجموعات كبرى من هذه التحولات: إحداهما اتصال بجزء المادة والأخرى بعلاقاتها، فالأولى تعاني فيها الوحدات ذاتها من التحول، والثانية نقل الوحدات كما هي، ولا يمس التحول سوى علاقاتها»<sup>(15)</sup>. العمليات الأولى الجوهرية تقوم على الاستغلال القوي للجوانب التركيبية كالخلف والإضافة والتعلق، وأيضاً التوظيف المميز للبلاغة (يتم ذلك على المستويين الإبداعي والنفسي، وإن كان ينبغي أن يكون الاعتماد به في الأخير بارزاً).

أما العمليات العقلية فهي قائمة على الروابط والاتساق السلافية، أي التناوب الذي يحصل على المستوى الأعلى، «الطبيعي»، وبتاء على ذلك نجد هؤلاء البلاغيين الجمود يقومون بتحليل مستفيضة التفكير على مصادر هذه التغيير اللغوي والتربكيمي والدلالي، مركزين على العلاقات القائمة بينها»<sup>(١٤)</sup>

ولم يهتم هؤلاء البلاغيون كثيراً بمفهوم الحجاج، لأن تركيزهم كان منصباً على النصوص التي تكون فيها الوظيفة الأدبية (الشعرية) مهيمنة، وبالتالي فهي نصوص، وإن كانت لها خطتها الإقناعية الخاصة النشطة من غية التكوين، إلا أنها تتباين والنصوص السياسية ذات الطابع النفعي البارز والمقاصد الإقناعية المهيمنة. وتولي هذه البلاغة أهمية لا بأس بها لدور الشكل الخطي المكتوب، وأيضاً لصورة النطق، وذلك فيما يتصل بالصورة التي يكونها الفعلي، عنه (أي المكتوب) وهم يسمون هذا الجانب بـ «ما تحت اللغوي»، أما الجانب الثاني فسموه «السطوي الأولي»، وهو المتعلق بالصوت، وسموها «الشكل» عناصر صرفية للعلامات، أو تشكل مقاطع تقوم بصورها في تكوين الكلمات، والمستوى الثالث هو «المستوى التركيب»، وهو الخاص بالتركيب، والمتعلقات المقاصد، أي تكون أصولها جملاً، وفقرات، فصولاً...<sup>(١٥)</sup>

وفي حين يهتم هؤلاء المستويين، ويتفكرون فقطراً نحوياً، لأنه في نظريهم هو الذي منه تنبثق جميع الخصائص، ولعله تفرج جميع المكونات النصية، إنه باختصار المنصور الأنطوني المهيمن على غيره، إذا فلا غرو أن نجد عند بعضهم المنبثق من «نحو الشعرية» و«نحو الصورة»، وذلك في معرض بحثهم عما يسمونه «علم الدلالة البنوي» *scientifique structurale*، لا هذا العلم في نظريهم هو العدد لفرجات النحوية واستويات الاستقانة مما يسمونه البلاغة المتفرقة (أي أقسام البلاغة القديمة)، وذلك في علاقتها (النحوية والبلاغية) والدلالات النصية.

لكن يلاحظ على هذه الدراسة عدم اعتمادها بالقاري، (إثباتي)، وما يتصل به من آخر حجاجية وأخرى تواصلية تداولية. هذا إضافة إلى إغترافها البلاغة في صور نحوية يصر من خلالها في أحسن الأحوال إلى الكشف عن بناء الجملة وتحديد وحداتها الكلية والجزيئية (أي طبقاتها) وكذلك أيضاً وظائفها. وهو ما يمكن أن نعبر عنه بالبحث عن: بناء اللغة والوظائف والأفعال... لا النحوية فقط ولكن أيضاً المحتوى، ثم التتابع الخطي للكلام وأخيراً أسلوب النص (أو نظامه).

لكن... لا يفلتوا أن تشير إلى أن كثيراً من ممثلي هذا الاتجاه قد خرجوا عليه واتهموه

بالقصص والنفس. والنموذج الواضح لذلك هو «جنيت» الذي أعلن عنه هذا الاتجاه المصري البلاغة، حيث ظلت في تقديره تدور حول «العبارة» فحسب، أو بلعبر أقل حول بعض أشكالها التصورية، مما كان أن يقضي بها إلى أن تنحصر في مجرد نظرية للاستعارة تقوم في صلبها على تحديد الانحرافات وطرائق تصويبها. وقد حدا هذا ببعض الباحثين الآخرين مثل (ريشكر) إلى الحديث عن المدحج الذي ينطوي عليه تقديمها باعتبارها بلاغة عامة تدعي أنها تريد من البلاغة البلاغي، ولكنه في الوقت الذي لا يتجاوز فيه إنجازها الفعلي مجرد مراجعة قوائم الأشكال البلاغية التقليدية وعلامتها مشكلات المعنى والأجزاء دون حلول جذرية لها<sup>(37)</sup>. وهذا ما جعل العديد من روادها يبحسون عن حلول لتلك المشكلات داخل إطار مايسمى أحيانا بالبلاغة التداولية، التي تستلهم العديد من التطورات اللغوية وغيرها من نتائج مدارس ما بعد البنيوية.

### III- البلاغة التداولية

انطلق هذا التيار أساسا من النقاشات التي دارت في مدارس ما بعد البنيوية. وقد احتفظ معه من التيار السابق، بالنقاشات التركيبية التقليدية. لكن هذه الأبحاث استكتسي هذا صبغة سيولوجية دالية براغماتية مقانية. لأن طم المشكلات سيبدو الإطار المنهجي العام للقرارات التي يقدمها المختصون إلى تيار البلاغة التداولية إذ لكل نص شفراته الخاصة المنقمة إلى طبيعته النوعية GENRE وهي التي يترجم إليها اهتمام المؤرخ البلاغي، لأنها المحددة للأنبيات الكبرى الجنس من جهة، وأهم توجهات النص من جهة ثانية.

وفي ظل هذا التحول البلاغي لم يعد الشفرة المعنى الذي كان مهيوتا لها في الدراسات اللغوية التقليدية، وإنما اكتسبت شحنة تواصلية فكرية. وهذا ما جعل (ريشكر) يعرفها بأنها «نظام من الإشكالات يتجاوز تكافؤ احتمال النظام في أصله ليسهل مجاله التواصل. أي أنه يستخدم ضمرا من نظام يوظفه ليرمز في مستوى آخر دلالة غير التي كانت له في نظامه الأصلي»<sup>(38)</sup>.

وإذا كانت البلاغة في نظر بيرلمان تكاد تراوفا الضجاج فإنها في هذا التيار أضحت مرابطة للتداول الاتصالي. إنها حسب تعبير ألبير «تداولية في صميمها. فهي ممارسة الاتصال بين المتكلم والسامع بحيث يخلان إشكالية علاقتهما مستخدمين وسائل محددة لتأثير على بعضهما، وإذا فإن البلاغة والتداولية (البرلمانية) تتغلغان في اعتادهما على اللغة كأداة لممارسة الفعل على

التفاني على أساس أن النص الشعري في جملته إنما هو نص في موقف مما يرتبط لا بالتعميمات التي يفرسها الشطرنج الرمزي والتفاني وموقعهما على معناه فحسب، وإنما يبالغ إلى تلك التعميمات التي تحدث في سلوكيهما أيضاً<sup>(1)</sup>. وعلى الرغم من تعدد النماذج الشعري للنص/ الخطاب بالتفاني الشعري/ التداولي لهما، إلا أن لهما صيغتهما الفنية الأساسية المنطقية في الحوارية (تعدد الأصوات) الناتجة عن توظيف مستويات لغوية متعددة، الأمر الذي يجعلهما معتمدين على تلافات القراء التي ينظر منها إعادة كتابتهما. لا لأنهما ناقصان - بالمعنى السليبي المظهر - وإنما لكونهما يرمزان بتكرار مما يقولان، لذا تظل سمة اللاانتمال ملازمة لهما، وهي دليل على رحابة أفق تولدهما.

بهذا المعنى سيكون الطرف الآخر في عملية الاتصال (القارئ/الصانع) مركز الثقل في هذه الدراسة البلاغية لأنه المعنى بالضرورة من جهة، والمثير لعملية الاستدعاء التي تستحصل له هو وللنص أيضاً من جهة ثانية، هذا خلافاً على أنه الذي يتطلب إنجاز الأعمال الكلامية. بالتالي يكون الوجدان عن صفات الحوارية ومضامينها من أهم مشاكل هذه الدراسة. ولا نريد أن نغيب الآن في تحليل الدورية ولكننا نكتفي بالإشارة إلى أنها تلعب كل ما يتعلق بتوظيف كلام الآخرين، مهما كانت طبيعته (المركبة- غير المركبة)؛ كما أنها تهتم بدراسة الانتماء المكاني، الزمني، اللغوي، والتفاني للشعراء.

وبهذه الصفات التماسية للعاطفية وغيرها، تجعل الخطط الحجاجية في النصوص والخطابات مؤسسة على البنى المعمارية التي يخلطها توارده هذه «الأصوات» القولات داخل المقتضات الدورية وتلك التلافة (من منظور البلاغة التداولية).

الأمر الذي يجعل بنية الحجاج حالة 2000 لا تنحصر على حقول معرفية متعددة.

يضاف إلى ذلك أن هذه البنية مترابطة بالقيام بمفهومه التامع الجديد الذي أكتسبه إراء البلاغة التداولية، وهو مفهوم ينظر إلى الظروف الاجتماعية والنفسية والمضاربية ومختلف السياقات الحافة بعملية التواصل (قراءة/كتابة - سماع/برؤية).

وقد أدى هذا التطور الجديد لمفهوم الحجاج إلى تغير في المنظورين اللغويين والمنهجية البلاغة التداولية. إذ أصبح علم النفس وعلم اجتماع المعرفة يحتلان مكانة بارزة في هذه الدراسة.

كما تاهرت مكانة (العلامة) Lévy وبشؤونها، حيث انحصرت ليجل مصلها (النص) بمفاهيمه البلاغية الاستدلالية.

من هنا لم يعد الحديث عن البلاغة التداولية مطروحة بوصفها جزءاً من السيميوطيقا النصية مهمته تعدد الاتصال وإخراجه، لأن هذه المرحلة قد انفتحت على التقريبات النصية والمفاهيمية. وتجلي حضور النظرية اللغوية في إسهامات أوستين وزملائه الذين اعترضوا بطرق واليات إنجاز الأشياء، بالكلام، ضمن ما سموه نظرية الأفعال للكلام العامة.

أما حضور النظرية الأولى فقد تم على يد (جان دابكر) الذي حول البلاغة إلى نظرية نصية توليدية تبعد في كيفيات تناقل النصوص (سواء بالتفاتها على غيرها أو بتألفها لذكراتها الداخلية) وأساليب كشطها عن أبنيتها الكبرى والصغرى، حيث تمثل الأولى الأبنية التجريدية للمفاهيم الدلالية الكبرى، وبالتالي فهي ذات طابع دلالي شعوري، أما الأخيرة فهي الوحدات الجزئية المسؤولة عن تلاحم عناصر البنية الكلية للمعد (نص/خطاب).

وربطت بمشديد فالتن البنية مخرجات سبغية والفرق بينية مهمة، يتم فيها تحليل البنيات ودالات ووظائف كلا من العناصر النورية والبلاغية في النصوص المروية، وذلك بتركيز على البنيات الانساق والإحالة والاستبدال والخلف والوصل والانساق المعجمي والترابط والانسجام هذا إضافة إلى السمات وبصانصة، وما يتصل بذلك من كشاف عن الأساليب المعرفية الطفلية والتخططات المجابية وسظاهر الاستدلال وأساليب توظيف البلاغة (مفروغها انتظيدية). وقد قدم الأستاذ محمد عطاي في مساهمات النص<sup>(٢٠)</sup> بحثاً متديراً حول هذه الأليات، لكن من منظور لساني صرف يتصور حول «الانسجام» ولايعير الجوانب البلاغية التداولية اهتماماً كبيراً، وإن ألب إلى بعض محاورها الأساسية لكن من منظور تركيبي.

كل هذه التطورات التي حصلت في البلاغة التداولية أثرت على مفهوم المقام وحيدونه. الأمر الذي أسفر عن تغير مواز في مفهوم الحجاج وبذلك وهو ما سيكون محور دراستنا القادمة.

### الحجاج في البلاغة العربية المعاصرة

يبدو هذا العنوان مغايراً في صياغته (وهو كذلك) لأن الحديث عن (بلاغة عربية معاصرة) أمر لايزال مطروحاً، فعلى الرغم من تعدد الدارس للغةوية البلاغية العربية التي أسفرت بمحورها عن

## عالم الفكر

نتائج مثبوتة. إلا أننا لم نستقد بعد الفكر اللازم لإثبات فرائض موروثنا البلاغي العربي الثري. وبإستلزام، بعض الجهود التي يقوم بها بالمختصين كل من د. محمد مفتاح، د صلاح فضل، د حمادي صمود، د جابر عصفور، د لطفي عبد الجبيل، د تمام حسان، د سعد مصلوح... حيث يهتم كل منهم بجانب من جوانب بلاغتنا القديمة. فباستثناء هذه الدراسات لانتكاد توجد اهتماماً ذا بال بهذا التراث.

إن السبب في عدم تطور نظرية بلاغية عربية معاصرة تكمن في أن العديد من الدراسات التي مورست في جلالتنا النقدية لم تراع في فرائضها الشروط البلاغية العربية. وإنما عمدت إلى النظرية النقدية الغربية مشطبة عليها عدسة واحدة للنظر إلى مختلف جوانب النص. الأمر الذي أسفر عن تعذيب العديد من خصوصياتنا في إجراء اللغة وفي توظيف البلاغة.

وطى الرغم من أن بلاغتنا القديمة تعرضت إلى انتقادات قوية نتيجة للمستوى الذي وصلت إليه عندما أقسمت لنا الترويض والإطراء، والمبالغة، التشويق بعد ذلك إلى المستويات الغربية القديمة. حيث تقدم في أسلوب تجريدي تقديدي. إلا أن مناهج الفراء المعاصرة كطيلة ما كان تكشف عن الجوانب المفقودة من هذا التراث.

ففي مجال المحتاج نجد حلة التماهي، الإنطواء، والخسبة إلى الترويض الكلام وسماته والمفاهيم التي ينبغي أن يرسل إليها التي نشاطية. كما أنهم انشأوا- نينديا- بالثقافي حيث تكلموا عن مضمون. وذلك في تناولهم للمعاني الأسلوبية الخاصة بكل كلام.

هذا إضافة إلى اهتمامهم بالوات الإقناع ويقتصرها الخارجية منها (المنطق بالأمور النفسية- والهيئة- والخلق- والصوت...).

وبالحالي فإننا عندما نستخلص هذه الأفكار من كتب (الجاحظ وابن طباطبا والعالميين والسكاكي والجرجاني... وغيرهم) لم نلتألمها أولاً انطلاقاً من الشروط الحضارية الشاملة التي أنتجتها. وإنما من منظور كل من الضالوية (البرجماتية) والسمعية، التركيبية، مركزين على العلاقات الكائنية والمشكلة-اليوم- بين عناصر العملية التواصلية (البات- المنقول- الرسالة- القناعة- الشفرة- السياق) فإننا لا نحالة منطرح بنتائج مبهرة تعيد لبلاغتنا دورها الاجتماعي والأكاديمي الغني الرادي من جهة، وتؤكد من جهة ثانية على سيقنا المعرفي إلى بعض الإنطارات التي تعد اليوم محور الترسين اللساني والبلاغي الغربيين. وذلك مثل علاقة الشكل بالمضمون ومكافئة كل من عناصر البيان والنبيع والمعاني في النظرية النقدية الأدبية. وفي البصيرة التواصلية (الهرمينوطيقية).

هذا إضافة إلى أن هذه الدراسات الجديدة- المنظرة- مطالبة بالكشف عن توافيق النظريتين البلاغية واللغوية، على اعتبار أن الأولى اثبتت من الأخيرة بعكس ما قد يظن البعض من أنها اثبتت من الداخل التقنية الأدبية ولهذا السبب نجد فضاء البلاغة بقرونها المختلفة فضاء لغوية الطابع في مجملها، فلا تقرب من الطابع التقني إلا في مواضيع محددة<sup>(٢٢)</sup>، وسبب ذلك يرجع (سابقاً) إلى الفتح السياسي المعاصر الذي كانت تعرفه المنطقة.

أما التحول (المعاصر) فيرجع إلى أسباب معرفية منهجية جعلت الحدود بين النظريات البلاغية والتقنية واللغوية متداخلة ومزقة إلى أبعد الحدود.

وقد لاین هذا التداخل عن خصوصية النظرية البلاغية «لأنه إذا كانت خواص العلم المنضبط تعمل في الموضوعية والشمول والتماسك والاقتصاد، فإن كل ذلك متوفر في البلاغة»<sup>(٢٣)</sup>.

لكن الكشف عن كل ذلك يتطلب معرفة مسقة بكل الخطابات التراثية المؤسسة والأخرى الخاصة بالبلاغة العربية، كما يستلزم دراسة والنظريات التقنية اللغوية البلاغية المعاصرة، ثم قراءتها في ضوء شروطها الحضارية المعاصرة- على غرار ما قرأ أسلافنا التراث اليوناني- وهي مهمة جلية ملغاة على عائق الغلاظة البارزة، ونرجو أن يفتح لنا الوقت بالإهتمام في هذه الحركة وأن يجرى بصير.

<http://Archivebeta.Sakhrn.com>

إلى هنا تكون قد ألمنا إلى أهم مظاهر الصراع عند المدرسة الجبجكية (الضاهجة). وقد رأينا إلى أي مدى كانت جهود «ميرزا» واقعة في الكشف عن الجوانب الشرقية من البلاغة الغربية الأمر الذي نلح عن هذا الجانب التعريفي اللغوي تلك السمعة السيئة التي لحقت به عقوما طويلة.

وقد تم ذلك بفضل مراعاة الجمع بين الجوانب التاريخية والاجتماعية والفلسفية في الدرس البلاغي المعاصر الذي كان اهتمامه في هذه المدرسة منصبا على مجالات الاقتناع والبرهنة والتأثير. وهي الاهتمامات التي رأت المدارس اللسطة (خاصة البنيوية والبنادولية) أن محصر البلاغة فيها سيؤدي بهذا الدرس إلى نوع من الاستهلاك الذاتي لقواته ومنهجه وبالتالي فإن خير منهج نقادي لذلك هو فتح البلاغة على العلوم التعريفية المعاصرة خاصة علوم الاتصال (الترقية السموية-).

ثم الاهتمام أكثر بالتقني، والجوانب النفسية والمعرفية الفلسفي منها والاجتماعي، لأن طبيعة التداخل التعريفي أصبحت ملحة.



# المصطلح الأدبي: بين غناه بالمعرفة وغناه بالتاريخ

بعض مصطلحات الشعر العربي لدى القدامى - نموذجاً

د/ صالح فرم الله زيد\*



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

أولاً: مقدمة

المصطلح بين المعرفة والتاريخ:

١- المعنى اللغوي للمصطلح:

نفهم من حديث معاجم اللغة عن الجذر «ص ل ج» الذي ترجع إليه لفظة «مصطلح» صراحةً، ما يدل على صلاح الشيء وصلوحيته، بمعنى أنه مناسب وتالف. ففي العجم الوسيط: «صَلَحَ الشيء: كان تالفاً أو مناسباً، يقال: هذا الشيء يصلح لك»<sup>(١)</sup>، كما نفهم ما يدل على المسألة والاتفاق، إذ يرد في لسان العرب أن «المصْلَحَ: مصالح القوم بينهم، والمصْلَحُ: المستقيم، وقد اصطَلَحُوا وصالَحُوا وامْتَصَلَحُوا واتصَلَحُوا، مشددة الصاد، فلبوا لقاء صَاداً وادْعَوْهَا في الصاد بمعنى واحد»<sup>(٢)</sup> أي اتفقوا وتوافقوا ... و«الاصطلاح: في العجم الوسيط، «الاتفاق طائفة على شيء مخصوص وتلك علم اصطلاحه»<sup>(٣)</sup>.

\* استاذ مساعد بقسم اللغة العربية - جامعة الملك خالد - المملكة العربية السعودية - أبها.

## ٢- من الاختلاف إلى الاتفاق

والاقتناع الذي تلهمه الفهم، من مداول «المصطلح» يقتضي هذا إلى التفكير في جوانب من حركة المصطلح والتفاهل ونفعا.

فالاقتناع حول ذلك ما يقتضي أن يسبقه اختلاف وهذا الاختلاف هو الذي يبرز أهمية بالاتفاق الحادث. ويشعرنا به فافتقارنا على أمر يلخصن زوال التفاهل والتعاريف في سياق من الضرورة والشمول. على أن هذا الاتفاق لا يعمو نهائياً، ولأن توقفات حركة الحدود والشمول اللازمة للوعي بالمصطلحات في حركة العلوم والمعارف والأنشطة الإنسانية. ومن ثم لا نجد مصطلحاً إنسانياً كاملاً، تلك- كما يقول عبد الله الغداسي- إن: «كل مصطلح هو بالضرورة مشروع مفتوح. يتغير مع كل تحول يمر عليه من فرد إلى فرد، ومن زمن إلى زمن، ومن لغة إلى لغة»<sup>(١)</sup>. والتغير هذا يعني تغيراً معرفياً واجتماعياً ونفسياً وأخيراً يقتضي الاصطلاح من جديد على مداول الحادث. لأن «الناس جميعاً يتساوون في فهم معاني الأشياء» ولتقوم لأشخاص في فهم معانيها من نفسها»<sup>(٢)</sup> أي أن الاختلافية الاصطلاحية ذات ارتباط وتعلق في الدلالة على حقلها المعرفي، أو على حقلها أو حقلها أو مكانها. وهو التعلق الذي يجعل لحقلها متفاداً للكشف عن الفاهيم والراي أو الطرق ذات الطبيعة، ولحقلها، ولحقلها.

ولهذا لا تغدو المصطلحات شيئاً ميسوراً لكل أحد في فهم مقتضياتها الدلالية. كما أن هذه المقتضيات الدلالية في انتسابها إلى سياق مخصوص قد انضمت من الوجهة الجمعية إلى النصوص بمرجعيات سيالها ذلك، فهي، لدى مجدي وفيه وكامل الهندس: «مجموع الكلمات والعبارات الاصطلاحية المنسلة بفرع من فروع المعرفة أو بفن ما، أو الكلمات والعبارات الخاصة بعالم معين في بسطة وعرفته لنظرية من النظريات الفنية أو الأدبية أو العلمية. كل تقول مصطلحات الغزالي في التصوف كالمرشد والطبيب والإكتراف»<sup>(٣)</sup>. كما أنها «الفاظ خاصة» عند جبرور عبد الطور، «لكل علم من العلوم أو فن من الفنون، أو حرفة من الحرف... تدل على أمور معينة» يطلق على مجموعها اسم: مصطلح، مثل: مصطلح التاريخ، مصطلح الأدب، مصطلح الفلسفة... إلخ»<sup>(٤)</sup>.

فالالاتفاق على مداول المصطلح يحمل في الآن ذاته اختلافاً على المستوى اللفظي، هو اختلاف مصطلحات الحقل المعرفي عن مصطلحات غيره من الحقول المعرفية، واختلاف مصطلحات هذا الاتهام عن انتهاء آخر. أو هذا العالم عن الآخرين في الحقل المعرفي ذاته، كما يأتي الاختلاف على

المستوى الرسمي وفي الحقل المعرفي ذاته بين القديم والحديث فُتسكت مصطلحات جديدة أو تُخصص القديمة بالقدس إلى مدلول مغاير أو ينسب المدلول إلى اسم مغاير... بما يجلي عن أصالة الأطروحات الفكرية وتبنيها.

## 2- المصطلح وسعات العلمية المنهجية

وبطبيعة ذلك إلى مسألة الوضوح في معنى «المصطلح»، وهو صفة متباينة من «الاتفاق»، فالعنى التقل على فهمه هو معنى واضح بالضرورة لدى أولئك المتفقين عليه. والتقصود بالوضوح هنا الخلو من التباس والاختلاف، ومن ثم كانت المصطلحات سمة علمية في حقل المعرفة المختلفة، لأنها من خلال صفة الوضوح والدقة تقضي إلى التعميد لمجولاتها. وهو التعميد الذي تتم من خلاله عملية الاتصال التقوي لتتعلق للعلماء والمعرفة والرأي بين المتعاملين لكلا بين عوائل. وعلى هذا كان المعنى الاصطلاحي للمصطلح، عند جميع هذه التور أكثر تأكيداً على طهارة التواصل والمفاهيمي الذي للمصطلح به الدقة في خطابه العلمي الدقيق. فهو - كما يقول - «لفظ موسوعي يؤدي معنى معيناً بوضوح، بحيث لا يقع أي لبس في ذهن القارئ، أو السامع»، ويضيف: «وتشيع المصطلحات خصوصاً في العلوم الطبيعية، والفلسفة، والفن، والمفرد حيث تُعدّ مدلول اللفظة بعناية قصوى»<sup>14</sup>.

<http://Archivebeta.Sakhras.com>

هذا التعميد الدقيق للمعنى في المصطلح يعني انحصار سلطة الذات عليه، ويبرز استقلاليته بين الموضوع والذات. بما يجعله شغيفاً عن مدلوله ومطابقاً لموضوعه. كاصطلاح «الثقة» والخط المستقيم» و«أنواع الزوايا»... إلخ، في عرف الهندسة والمساحة. حيث يتخذ المصطلح هنا صفة موضوعية، هي نتاج منظور منهجي «إپستمولوجي» Epistemological<sup>15</sup>. تتعلق به عملية العلم، ومن غير المألوف في العلم - كما يقول فزاد زكريا - «أن تترك عبارة واحدة دون تعديد دقيق، أو استخدام تقنية يشوبها الغموض أو الالتباس»<sup>16</sup>.

بيد أن هذه العلمية في العمل وألق صفاتها الحديثة لا تنقسم بالإطلاق بقدر ما تنقسم به (النسبية) فالمحاكية العلمية - عبارة التكرار فزاد زكريا - «لا تكاف عن التطوير، ومنها بدا في أي

<sup>14</sup> «الإپستمولوجيا هي النظرية المتعلقة بمنهج المعرفة والأساس الذي بُني عليه (الفكر). The methodological foundations of research and the epistemological foundations of research. دراسة منهجية، المعتمد وبمقدماتها وبنتائجها دراسة عقلانية لتوصل إلى إبراز أصالتها المنطقية، وبطبيعتها الموضوعية، وبغير د. جميل صليبا إلى الاختلاف في ذلك هذا المصطلح بين اللغتين الإنجليزية والعربية، حيث برز في الأولى (نظرية المعرفة) في حين يقاب إطلاقه في الثانية على تاريخ العلوم وأصالتها (الفكر). التعميد المنطقي (1972)، ويحسب استثناءاً عربياً، في ذلك على الصلة العلمية العربية عربياً.

وقد أن العلم قد وصل في موضوع معين إلى رأي نهائي مستقر، فإن التطور سريعاً ما يتجاوز هذا الرأي، ويستلخص منه برأي جديد.<sup>(١١)</sup>

كما أنها لا تتصف بالثبات، بل بالتغير، ومن الخطأ الفاحش كما يضيف الدكتور زكريا أن «تفترض... أن العلم الكامل لابد أن يكون ثابتاً، مع أن ثبات العلم في أي لحظة، واعتباره أنه وصل إلى حد الاكتمال، لا يعني إلا نهايته وموته». ومن ثم فإن الثبات في هذا المجال هو الذي ينبغي أن يعد علامة نقص. إن العلم حركة دائمة، واستمرار حيويته إنما هو مظهر من مظاهر حيوية الإنسان الذي أبدعه، وإن يتوقف هذا العلم إلا إذا توقفت حياة مبدعه ذاته!<sup>(١٢)</sup>

المصطلح - إذن - يعني والمعرفة التمهيدية كآلة جزء، أساس من آلية الخطاب العلمي. وعلته هذه مكانية من موضوعيته التي أُنشئت لعل الدلالة والصفيلة فيه إلى درجة الضخامة والطباق، وهي أعلى مستويات التكافة التواصلية في فعل اللغة.

بيد أن هذه البنية العلمية في المصطلحات لا تنفك عن تجردية العلم عن جوهه، فلما أنها لا تنفك عن نسبية وتغيره المستمر والتطور، في وصفه فواز زكريا - صفة ملازمة للعلم، ومن ثم لا تحيل مصطلحات العلم المختلفة إلى الواقع الملم بل إلى صور منطقية تستجيب لدلالة تلك المصطلحات والرموز، ويُفترض الدكتور مثلاً على تلكا بتحديث علم الجغرافيا عن خط الاستواء، أو خط جرينتش، فعالم الجغرافيا هنا «لا يقصد خطأ هرضياً أو طولياً مرسوماً على صفحة الكرة الأرضية، بل يقصد خطأ تشغيلياً ترمز به إلى الأماكن والواقع على سطح هذه الأرض». وهذه الخطوط ومعها مختلف الرموز التي تستخدمها في العلم، هي عالم مصطنع يخلقه العالم، ولا وجود له في الطبيعة، بل إن وجوده يعني فحوص<sup>(١٣)</sup>، فالاصطلاح على دلالة (خط الاستواء) و (خط جرينتش) هو انطلاق على صورة مجردة تقوم في الاعتقاد.

وإذا كان التجريد في العلم المعاصر صفة ملازمة من إرادة العلاقة القصوى على النحو الذي يُمكن أن نجد أقوى أمثلته في صيغ الرياضيات، فإن دقة المصطلحات تقضي بها إلى كثافة في الدلالة بغنى المصطلح اختصاراً لها ورمزاً لمعناها، ومن ثم يعني القول بأن «المصطلح يشهد التعبير بلفظ واحد في الأمم، عن معنى أو فكرة لا تستغنيا في العادة لفظاً واحداً، ولهذا أُطِّقت عليه هذه التسمية، أي أنه يُصطلح به على تسمية المعنى المقصود»<sup>(١٤)</sup>.

وقد استدعى هذا الاكتناز الداللي في المصطلح، من حيث هو وسيلة للتعاظم للخطاب العلم

إلى سهولة تبادل الأفكار وثقة الجمهور بها، منذ القدم- أياً (المحد Definition) بوصفها : تعريف كامل، أو تحليل تام، لمفهوم اللفظ المراد تعريفه<sup>(١٧)</sup>. وهذه الآلية هي الخطوة النظرية الأولى التي يتأسس بها العلم على النحو الذي يميز مادته، وينشئ- قوانينه المنهجية، التي تصف، وتكثف، وتُفهم والمفهوم، وبذلك تُتعلق مادة العلم ما تحصل به صورتها في العقل وإدراكها على ما هي عليه.

### ٣- الواقع (الحسوس) والواقع (العقول) في دلالة المصطلح

ولكن السؤال المهم، هنا، ينجم عن مادة العلم هذه، وهي الواقع الذي في مستوياته وجوانبه المختلفة، إذا كانت المصطلحات وحدودها وبفاهيمها تحيلنا إلى والعمية هذا الواقع فلماذا يُعنى بالمصطلحات ولا يُعنى بالواقع؟ ألم نقل إن المصطلحات أياً ضيق وتحديد الدلالة بحيث تصل لغا الخطاب العلمي (على إطلاقه) من خلال المصطلحات إلى مستوى الشاعية والمطابقة في الإشارة إلى الواقع؟ ليس الواقع في مستوى **الحراصة الشاعية والعمية**، وفي مستوى فهمنا العلمي وشهيدنا المعرفة، هو بيد الجمهور ونظرة القوس للبعد العلمي.

إن الإجابة، هنا، تقتضي أن نعي حقائق (الواقع) في خطاب العلم والمعرفة البشرية، تلك لنا حين نفهم هذا الواقع على أنه الواقع المباشر الذي نتلقاه حسياً، يصبح فهمنا، هدفنا، نفعنا، ونهائز المعادلة المنهجية بين الذات والموضوع لتصبح الذات هيما ترجع به كلها على حساب الموضوع (الواقع)-إن- في الخطاب العلمي المنهجي هو الواقع (المنوع)، وهو تصور عام نظرية المعرفة إليه الفيلسوف الألماني (إمانويل كانت Immanuel Kant - ١٧٢٤-١٨٠٤) حين رأى أن اتعاضدا تصنع الواقع، وأن كل ما يتكسبه (الواقع) من تشكيل أو تنظيم إنما يفرض عليه من اتعاضدا، التي ذاتي بالأفكار أو القالب الذي ينبغي أن تُصوب فيه الكثرة من الإدراكات غير المنضومة قبول أن تصف بالمنظية أو العقلانية. ومن هنا ينبغي (كانت) أن يكون الزمن مجرد أداة سلبية لتلقي التطبيقات، كما كان يرى المفكرين السابقين، وإنما هو أداة إيجابية لا تكف أبداً عن التحويل والتنظيم والبناء، لعني الواقع لهدو وألحاً معقولاً تستطيع فيه أن تحيل وأن تفكر<sup>(١٨)</sup>.

إن الواقع كما نعرفه هو - في نظر كانت - مصنوع أكثر منه معطى، وهو تركيب أكثر مما هو تلقى، وكل ما يجعل العالم مترابطاً ذا معنى، يعني.. (بالمفهوم) بل إن الزمان والمكان، وهما الوسيطان الرئيسيان اللذان نعرف من خلالهما عالماً، هما صورتان ذهنيتان أوليان للفهم<sup>(١٩)</sup>.

وعلى هذا كان خطاب المعرفة العلمية تسجيلاً لواقع مستقل عن الواقع الحي الملموس، وكانت المصطلحات بوصفها لغة العلم آتية للإشارة إلى الصور الذهنية المركبة للواقع، أي أنها تميل إلى الواقع العقول والذهني، ولا تميل إلى الواقع الملموس والمطبي. ومطابقتها وشذائتها وميلتها مستندة إلى الصورة الذهنية البنية للواقع المعطى لا إلى حدوثه ووقائعه الحية. وهي مسألة تفردت إلى أن تلبس فاعليتها القوية علمياً، وتجاهاها في احتواء الأفكار، ومصادفها القول بها لمصطلحياً، بتفادير استقلالها عن الواقع المعطى وانفكاكها من القيد الذي يحددها ويحددها ما من صور ذلك الواقع. إنها لغة الأفكار العلمية، وصورها وأطرافها التي يصنعها زكي توجب محمود بقوله: «أكثرها تصريداً وتفرعاً، أكثرها بقاء، وأوسعها شمولاً». وكلما زادت فيها مفاهيم الحضور الذاتي، الذي يروطها بمكان معين أو بزمان معين كانت أسرع إلى الزوال بسرعة التناقص مع حضورها»<sup>(٣٧)</sup>.

ومن الواضح أن هذه الصفة العلمية في المصطلحات قد رأيت على منطلق لا يقل اهتمامه بتطوير الواقع المعطى وتحسين طويقه، وتحويل وجه المعيش به وفيه وتكييفها من الاهتمام بصورته المعرفية ووجهه الذهني المتغير، بل إن العلم المتطور المعرفي المطلق محيطاً شاسعاً للآليات النظرية والتطبيقية في العلم المعاصر على نحو لم تقتض به ربيعة جوانب لا تغطي من القنعة والرافعة لإنسان اليوم. كان التباين بين العلم والواقع في شرونها العلة، التي تكسب الإنسان مزيداً من السيطرة على هذا الواقع، وتتيح له فيها أفضل الفرص<sup>(٣٨)</sup>. وبغير خلاف أن انعكاس هذا التباين في الرؤية المعرفية مؤذن بانعكاس النتائج، حيث يهيمن الواقع المعطى بما لا يدع فرصة لاكتساب أية الوعي به، والفهم له، واكتشافه، وتطويره، وعمراته.

#### ٤- تاريخية المصطلح

ولما كان العلم نائب الفكر والتقدم والاكتشاف كان الواقع الذهني تمويلاً، وكانت صورتاً في تطور واتساع لا ينتهي على مستوى الوعي البشري به. ومن ثم كان التحوّل التاريخي سنة تنطوي بها وفيها حركة الأفكار، وإنشائها، وما يمر عليها من مصطلحات. وهذا يعني أن نمو المعرفة يستلزم تدوير مصطلحاتها، ولغو المصطلحات يعني أن في تكوينها التعرّف ما هو نفسي وباطني، هو ما غير منه زكي توجب محمود: «معرضة أعلاه بالحضور الذاتي، أي الارتباط بواقع تاريخي محدد». فانطلاق المصطلح خارج القيود التاريخية هو الذي يضمنه الثبات، وهو ثبات يساوي ما فيه من

## عالم الفكر

تجريد، بذلك الفكر الذي تصبح الرموز والأشكال الرياضية نموذجاً الكل، وهو نموذج تطمح إليه العلوم بمختلف حقولها الطبيعية والإنسانية. ويغيب الفكر عن مدى ما حققته من نجاح، فإنه مدى ليس فيها على أي حال، وهو مدى متغير وله قيمة دالة متحركة، دائماً تنظر إليها نظرة علمية، وتنتقدها (أو تطمح بالقياس إلى بعضها الإنساني) في دائرة العلوم والمعارف المنهجية.

هذه التاريخية في المصطلحات منذ إدراك خصوصية الوعي فيها، ونسبية القيمة، وإن قرع الأفكار بهذا التاريخ الذين للمجسد والذاتي والإنساني والعلمي والتفاعل والتفاعل والأصيل والتفصيل... بوصفها إشارات دالة، من وجهة الوجود الاجتماعي وعلاقته في شكل وزمان معينين، ومن وجهة التغير والتحول النطق في الوعي المعرفي من تصميم لإطلاق هذا التحول بعيد من صفات التقدم أو التطور أو الرقي، لأن أي علم راق ومتطور ومنظم ما هو في الحقيقة إلا محصول من معاناة الأفكار والسبع المثقلة الوعي، يرد السبايل ويرد الألق، فهو القديم وما يطوره، وهو ما أخذ به من الماضي وما لم يؤخذ به في الوقت ذاته فالعروة العلمية بحسب هؤلاء زكرياء كاتبة سطوة حقا، ولكن تاريخها ينطو شكل (تراكيز) أي إضافة الجديد إلى القديم، ومن ثم فإن نطاق المعرفة التي تتعرض من العلم يتسع بالتدريج<sup>(١٧)</sup>، ولذلك يبدو الوعي بالسياق الاستلزامي المحدد جزءاً من إرادة البناء لوعيها بطبيعتها.

وبناء الوعي بالمعرفة في مرحلتها تاريخياً يستلزم من خلال التاريخية في المصطلحات سبلها الاجتماعي، فالجميع النطق لمصطلحات الخاصة يتفتح حتماً بقدره على بناء أفكاره، ويجهده في تركيب وعيه وبناء تاريخيته وفضايله الثقافية والرمزية الماثرة. ومن مواقفها القداس من وفي هذا النطق الذي يؤسس للمصطلحات مضمار الحركة، ويبلغ لها فضاء التشكل والأبداع والتكاثر والتمدد بما يوازي تشكل العلم وتوسعه. ويأمر الصنع يقول: «وكل من المستخرج طمأ، أو استنبط شيئاً، وإذا لم يضع له اسماً من هذه، ويواطى عليه من أخرجه إليه، فله أن يفعل ذلك. ومن هذا الجنس اخترع الصوريون: اسم الحال، والزمان، والمصدر، والتجهيز، والمخرج الطويل» (١٧٠هـ) العروبي، فسمى بعض ذلك: الطويل، وبعضه القيد، وبعضه الهزج، وبعضه الرجز. وقد ذكر أرسطاطاليس (٣٢٢ ق. م.) ذلك، وذكر أنه مطلق لكل أحد احتياج إلى تسمية شيء، ليعركه به أن يسميه بما شاء من الأسماء، وهذا الباب مما يشترك العرب وغيرهم فيه وليس مما يفردون به<sup>(١٨)</sup>. والعجابه، هناك تخرج من الآلة العملية، ما يفرض من حجبها منطقها النظري، فنذكر أمثلة اصطلاحية من «المخترع الصوريين» ومن «المخترع الطويل»، كما أنها تعظم اليقين في أطروحتها

النظرية بتجاوز المحلية (أو الخاصية) لدى العرب، حين تلعب للاستشهاد بقول (الرسطي) المكتسب درجة من عموم الحقيقة واتساع دائرتها الإنسانية.

#### 4- العناية القدامى بالمصطلح

وحتى نجد لدى القدامى وعياً بأهمية المصطلح وما ينشئه الوعي به من تضيق علمي من جهة، ومن خصوصية تلحج للمؤلفين والمفكرين المتمركضين بواثر اصطلاحية يشعرون اسماءها، أو يترجمون مسمياتها، لتضيف أفكاراً، ولتدع أخرى، وتوسع بمقدور المعرفة، وتعمقها، وتكتب مثل كتاب: (التعريفات)<sup>(٣٧)</sup> للسيد الشريف الجرجاني (-٩١٦هـ)، و(الزينة في المصطلحات الإسلامية العربية)<sup>(٣٨)</sup> لأبي حاتم الرازي (-٩٧٧هـ)، و(إحصاء العلوم)<sup>(٣٩)</sup>، و(كتاب الألفاظ المستعملة في المنطق)<sup>(٤٠)</sup> لأبي نصر الفارابي (-٩٧٩هـ)، و(مفتاح العلوم)<sup>(٤١)</sup> لأبي عبد الله محمد بن أحمد الفوارزمي (-٩٨٧هـ)، و(مفتاح العلوم)<sup>(٤٢)</sup> لأبي يعقوب السكاكي (-٩٦٦هـ)، و(مختصر اصطلاحات الصوفية)<sup>(٤٣)</sup> ابن عربي (-٩٧٨هـ)، و(الهدى في نقد الشعر)<sup>(٤٤)</sup> لأبى حامد (-٩٨١هـ)، و (كتشاف اصطلاحات الفنون)<sup>(٤٥)</sup> لأبي علي (-٩٨٥هـ)، إلخ. بالإضافة إلى معاجم اللغة، هي أمثلة واضحة على الأهتمام القدامى بتجديد لغة المنهج الاصطلاحية، والأمانة من معانيها بما يحلص المتلقي من الغموض والاضطراب، ولعل من الأمثلة والأختلافات

أما إذا نحن تعمقنا في تقويم كتب الأقدمين فسنجد إلى جانب الأهتمام بالحد والتعريف، وبهذا التصيقات عند بعضهم<sup>(٤٦)</sup>، وما يبرز- المصاحبة بينهم على سبيل الاستفهام أو الاعتراض والإبتكار<sup>(٤٧)</sup>، وسنجد التباين بينهم في تناول المصطلح، أو مرجعيته العربية، أو المنطقية، أو اليونانية... وهو تباين لم يكن يحلو لبعض كفاي القاسم الأموي (-٩٧٠هـ) حين أخذ على قدامة بن جعفر (-٩٣٧هـ) مخالفت ابن العزّز (-٩٩٦هـ) في بعض مصطلحات الفنون الفيلائية قللاً، فإنه وإن كان القلب يصحح، لو افطت معنى التقلبات، وكانت الألفاظ غير مستحيرة، فإني لم أكن أحب له أن يخالف من تقدمه، مثل أبي العباس عبد الله بن العزّز وغيره ممن تكلم في هذه الأنواع وألف فيها، إذ قد سبقوا إلى التلقين، وكفروا القزوات<sup>(٤٨)</sup> ونظرة الأموي، هذا، حفة بالاتفاق الذي يتخصص في الأختلاف الأسماء، ويُعبد المصطلحات ما يفضي إلى الغموض والاضطراب، وبذلك لقف عبارته نقضاً لما شاع لدى القدامى من أنه «لا مشاحة في الاصطلاح»، وكان الوقوف عند الأختلاف اللغوي، غلط، وعدم التقدم إلى ما يضيف جديداً، أو يكشف معرفة، أو يضي تصوراً هو أمر غير ذي قيمة بالمقياس الموضوعي.



لكن المسألة التي ينبغي أن نلتفت إليها في الرؤية إلى المصطلحات عند مؤلفينا القدامى، هي استمرار تلك الوجدية التعمدية للمصطلحات التي تنبني بالفكرة إلى مصطلح واحد، أعني إغلاق نسمة الاختلاف والنظر إلى المصطلحات نظرة تعميم موضوعي فقط وإعلاناً. نستوضح ذلك بالرجوع إلى أمثلة المصنفات والمعاجم التي ذكرتها أعلاه، حيث لا نجد من يخلص بالمصطلحات في سياقها التاريخي، تماماً كما لا نجد للفتا العربية مجموعاً تاريخياً يتناول الألفاظ والدلالات في تطورها وتحوّلها وما يطرأها من تغيرات عبر فروعها وبناتها المختلفة. وذلك هو ما يعجز الوعي بالمصطلحات العربية وحياً بانياً لتاريخيتها معرفياً، فمن لغو القول ألا نجد للمصطلحات في بعض المصطلحات بين عالمين متعاصرين كقراءة وابن العزّز معنى من سياق كل منهما، وبخصوصية منظونه الاصطلاحية.

## ٦- المصطلح ومعرفة اللغة والقوة

ويجدر بنا، الآن، أن نعود إلى الواقع الذي نتحرك من خلاله للمصطلحات في الثقافات بها والوضع لها، وهو (الواقع اللغوي) إلى الصورة المعقولة للواقع المعنى بالبنية، وطريقة، وعلاقته، ومعانيه، ومارجنته. فالمصطلحات في سياق الواقع اللغوي، أبرز تصورية وتعبيرية للمعاني، وإطاريتها هذه تقوم في اللغة وبها بوصف اللغة نظاماً من الإشارات جوهرية الوحد: الربط بين المعاني والصور الصوتية<sup>(٣٤)</sup>. وليس بين الشيء، والتسمية<sup>(٣٥)</sup> أو المصطلح والواقع المعطى. كما إن هذا الربط ليس سببياً، بمعنى أنه لا يربط بدافع، وليس التسمية صلة طبيعية بالمعنى، فهي بتعبير سوسير (Ferdinand de saussure - ١٩١٦م) - «إشهادية»<sup>(٣٦)</sup> والاشهادية، هنا، تجعل للمعنى، من حيث البدأ، قابلاً لهذا الاسم (الاصطلاح) وبغيره. لكن الذي لا ريب فيه أن الفرد لا ينشئ اللغة خالصة لتأج اجتماعي<sup>(٣٧)</sup>، ولا وجود لها إلا «بنوع من الاتفاق يتوصل إليه أعضاء مجتمع معين»<sup>(٣٨)</sup>. وهي بصفتها الاجتماعية هذه مكسبة مهجدة لتلويح الوعي، وتصور التفكير، وتحدد الرؤية، وتحكي جدل التكوين والتشكل للأفكار والأوراق والقيم، وهي تتعامل مع وجود اجتماعي له علاقته في ذاته ومع غيره.

ومن ثمّ يجيء، وصف باخطين (Mikhail Bakhtin - ١٩٢٩م) للغة بأنها «معركة ليست بريئة»<sup>(٣٩)</sup>، وأن كل اللغويات مكتظة بالأشهر<sup>(٤٠)</sup>، أي أنه لا توجد لغة فارقة يمكن أن ننظر من زواجها إلى الواقع بعيداً، وإن تسكن فيها ألقاً تفكير موضوعياً من الصفر. فهي كل لغة

## عالم الفكر

منظور مميز. يتشكل من مجملها بوصفها ملكية خاصة بالنسق الاجتماعي المجموعة التكملة بها، ولهذا المنظور بدوره ألوان متعددة وصيغ مختلفة تتعدد واختلاف مكونات ذلك النسق الاجتماعي وعلاقته.

وهنا يمكن أن نفهم كيف يقوم الجدل في بناء خصوصية الدلالة في الصياح على نوع من مفهوم «الحوارية» لدى باخطين. بوصف مبدأ الاختلاف «كامن في الإنسان نفسه» لأنه تعدي بالضرورة<sup>(1)</sup>. ويطلق التكملة الدالة على الأفكار «فعل جملي» يُلخص ويُلخص ما بين المخالفة وتأكيد الذات<sup>(2)</sup>.

وبذلك يقودنا إلى معالجة الترابط بين القوة والخطاب (الذي تملكه فيما نحن بصدد، المصطلحات بوصفها: دوال على حقائق علمية دالة توجه لها نطقاً دالاً في التاريخ). فالعلاقة بين الخطاب والقوة منظور تأخذ في تحليل دالة الخطاب على الحقيقة. يرجع هذا الاتجاه في أصله الفكري- كما يقول راسن سلون (Rasson Schlon) - إلى الفيلسوف الألماني فيشته (Friedrich Nietzsche - 1900 م) حيث ورد قول فيشته: «إن الشيء يقرر ما يريدون أنفسهم أولاً، ثم يكتفون المصالح مع أنفسهم» إلى الإنسان في نهاية المطاف. «شيء في الأشياء» إلا ما جلبه هو إليها، وكل معرفة تعبر عن (إرادة القوة)». ويضيف إلى ذلك قائلاً: «وحيث فقدت لنا لا يمكن أن نتحدث عن حقائق مطلقة أو معرفة موضوعية. ولا يعرف الناس بعدد أي نظرية فلسفية أو علمية إلا إذا طابقت مواصفات الصدق والمطابقة، كما تعددها السلطات الفكرية أو السياسية السائدة في مرحلة من المراحل. أو كما يحددها أعضاء الصفوة الحاكمة. أو منظور المعرفة الوجودية في ذلك المجتمع»<sup>(3)</sup>.

وقد تابع فوكو (Michel Foucault) تصديق هذه العلاقة بين الخطاب والقوة، إذ اهتم بما يطرأ على الخطاب من تغير من خلال العهد التاريخي، وراى: «أن تمام علاقات القوة في أي حقبة معطاة لاجتماع من المجتمعات، تؤلف التمسرات والمواقف والبريد في خطابها، وهذه الطريقة تُعَدُّ ما يُعد معرفة وحقيقة... وتستبعد ما يُعد في تلك الحقيقة إجرامي. أو مستثنى، أو مضمون»<sup>(4)</sup>. وبذلك يتغير ما يمكن قوله من حقبة إلى أخرى.

وبنى هذا الخطاب هذه الممارسات الخطابية امتداد التاريخ، ليعود الخطاب، أصلاً، في كل حقبة مجموعة من الفوائد والإجراءات التي تعكس التكملة والفكر في مجال معين، وهذه الفوائد تنسج من طريق الاستبعاد والتنظيم، وتشكل المجالات مجتمعة (الرشيدي) الثقافة، أو (لا ويعبأ الفرجح).

ونحن لا نستطيع أن نعرف أرشيف عصرنا قط لأنه هو الثلاثي، أما أي أرشيف سابق علينا فإن من الممكن أن نقيمه بسبب اختلافنا وتباعدنا العام عنه، وفي ضوء ذلك لا نخرج الخطابات المختلفة عن صراع القوة، سواء في السياسة أو الفن أو العلم<sup>(١١)</sup>.

وهذا يعني أن الخطبة الموضوعية، هنا، لا تستقل بخطابها عن علاقتها المشية بصراع القوة. ومن ثم ينتهي إيمان سلفن من عريضة لأطروحة تكونو بالتأكيد الذي يخلص إليه فوكو تجاه هذه القضية، ويأتي هكذا: «أما دعاوى الموضوعية التي تقال لمساب خطابات معينة فهي دعاوى زائفة دائماً، إذ ليس هناك خطابات صادقة بالمعنى المطلق، بل إن كل ما هناك خطابات قوية بدرجة أو بأخرى»<sup>(١٢)</sup>.

إن القوة - إذن - بوصفها إرادة عقلية وتقوى، وفعل هيمنة وسيطرة، ومقتضى سيادة وتحكم، بالمعنى المطلق الذي لا يخصصها، يحل السياسة دون حقل العلم والفكر، أو حقل الفن والثقافة، ولا يخصصها لغة أو فرد أو طائفة أو جماعة تنتمي بالخطاب إلى ردة الفعل التي تحصل في بابها. تلك الإرادة التميزية الذات في خطابها الطردية والاجتماعية يختلف اللون ودرجات ذلك التميز. وإذا كانت المظالم هي إرادتها القوة والهيمنة، وتكونها المعرفة لا تخرج عن موقعها الاتصالي من حيث هي، خطاب يجعل دلالة ذات يسبق تبارخي، وإنها تبنى خصوصية دلالتها في لغة ليست فارغة من المحتوى والرمزية والجدل ضمن إطار دين وفلسف من صورة الواقع وبنائيه الخاصة والتسمية معرفة، فإن المصطلحات مغزونة فهي والتاريخ الذي يكشف الحظر فيه عن هذه الأفكار العرفية وشيئتها.

## ٧- إرادة المعرفة

لكننا - في المقابل - لا نستطيع أن نعمل في المصطلح معرفته، فهو إذ ينطوي على خصوصية، ويحت في فضاء، من التسمية إلى تاريخ له نظومات وتوجهاته، وإلى سياق من مشترك اللغة الذي يخصص وهي بنوها ومعرفتهم الجمعية، ينطوي أيضاً على رغبة معرفية تمثل الإرادة الموضوعية في الوصف أو الكشف الذي ينتهي إلى نتائج ذات قيمة في ميزان العلم. كما أسلفنا.

ولذا أن نقول، هنا، إن (إرادة المعرفة) جزء أساس في تكوين اللاوعي في خطاب المصطلحات، يلتقي مع (إرادة القوة) وسائر المكونات التاريخية ذات العلاقة بخطاب المعرفة، وبينهما جدلية تآثر وتكثير، وتفاضل، وتغالب، واتصال وانفصال على مستوى الموضوع في إسمائته أو طبيعته أو

تجريدته، وفي محيطه أو عالميته من جهة، وعلى مستوى العالم (النظر) في استيازه وتفرده وأيديولوجيته ومنهجه من جهة ثانية، وعلى مستوى النخبة التاريخية الاجتماعية في علاقات قراها من الداخل، وفي علاقتها بما هو خارجها : من الماضي ومن العاشق الراهن ومن المترقب القادم من جهة ثالثة.

إرادة المعرفة - إذن- هي اللفظ الذي تصور من خلاله المصطلحات بوصفها إشارات لغوية لجلي الملحق عليه بين المتعاطين، منهجياً، انضامياً، خطاباً، وتكشف عن المشترك التصوري فيه من مسائل البحث والتفكير، ومن نواحي النظر التي تتفادها جوارب موضوعه، ولقرضها حدود مادة الدراسة في حقله، وذلك طمس في المصطلحات وجهاً من وجوه الانساق والانساق النظرية، وعلامة من علامات التحويل العلمي الذي يبطئ أدوات مقارنته وطرق استكشافه على نحو محيز وراسخ، ويغيب بما يضيف إلى المعرفة الإنسانية، ويحدد قناعاتها، ويعني قطعاتها إلى الوعي.

وحدثاً - استجد في الاهتمامات الدينية العربية الاهتمام بالمصطلحات، وخاصة ما يتعلق منها إلى خطاب الدراسة الأدبية التراثية، ويستطيع أن نقرا في هذا الاهتمام إرادة المعرفة بالصيغة المشتقة منهجياً وراء بناء هذا الاهتمام من خلال تعريف معاهم وبها من تلك المصطلحات<sup>(12)</sup>، أو من خلال التوجه إلى قراءة المصطلحات في إطار زمنية محددة أو عند أحد النقاد أو المؤلفين<sup>(13)</sup>، أو من خلال الدراسات والبحوث التي أجهت إلى التاريخ للعلوم اللغة وفنونها في تراثنا<sup>(14)</sup>، بالإضافة إلى المؤتمرات والندوات والأعداد الخاصة من المجلات العربية المتخصصة<sup>(15)</sup>.

والحسب هنا، أن ما يوجه هذا الاهتمام من شبهة المعرفة وإرادتها في إطار منهجي لا يسوغ الوقوف من حدود الإلم بالحدود اصطلاحية كما قال بها القادسي، إذ لابد - انسجاماً مع تلك الإرادة ولها أنها إلى معرفة لا تكف عن الكشف للتجدد- أن نحذر تلك المصطلحات في ضوء سابقها، ذلك يقتضي التذكير للدلالة اصطلاحية اللغة على حدنا للكشف من التنسيب والتخصص فيها، ومن ثم إعادتها إلى فضاء الاختلاف والتعدد فيما يثيره من إشكاليات المعرفة وانساقها، وما يحول إليه من انساق ومسائل في إطار موضوع البحث، فمن خطر المصطلحات، منهجياً، أنها تنسج في الرؤية التعريفية مركزاً مطلقاً، حيث يلف وراء كل دالة اصطلاحية إنسانية تنسج بخصوصية ما ومنظومة مفاهيمية ورؤية تعود إلى نقطة التعدد، وتعدد الانساق الدالة على نحو يشبه النقاد الضبوط الهندسية في مركز أو بؤرة، هي المصطلح الذي يلتزم التعدد، ويلم الاختلاف، ويبحث على فضاء من نحو الدالة وصيرورة الدال والافتتاحية، غير التمام الذي يخلط التخصص، والكمال الذي يلغي التنسيب.

## ٨- بين الفردية والجمعية

ولا ريب أننا حين نكتفه في المصطلحات صفتها اللغوية، سننقلب إلى منقلب دال في طبيعة تكوينها. وهو ما تحصله من طابع الإشاء والاختيار، الظاهر بعيان المصطلح إلى نبط القول أو الكلام (Parole) في رؤية سوسير<sup>١٢</sup>، وما ينصف به من طابع فردي لواقع المصطلح، ومفترق إنشائيته.

فمن وضع مصطلحاً من المصطلحات إنما ينتقي من مخزون اللغة وقلموسها الجمعي لفظاً يشير إلى ما يفكر فيه. ونسبي ما يراد. هذه اللفظة التي تدعو ظناً بفكر موضوعه، ومصطلحاً يميز مادته، تقربط بين ذات واضعها بما تحصله من طابع ثقافي ونفسي واجتماعي، وما يتركها من أصابع التاريخ وفضاء الجغرافيا. وبين موضوع دلالتها بما يضمنه من لباد المادة، وموضوع العنصر، وشموله... ومن ثم يعمل المصطلح في ظاهره ويضمونه بالآلات ذات خلق تاريخي وثقافي والآلات موضوعية ذات خلوص منهجي وإرادة معرفية. بقدر إصابتها في تعيين ما يُلحظ، وتجاوزها نحو ما يُستقر. فعنصر الذات وطوايعها توجد في المصطلح حكماً ملحزاً وبالضرورة الجماع مكونات الذات التي تمثلها الفردية والخصارية، ومصطلحات الموضوع وطوايعه تُشكل حقلية الوجود، وتُكمسه معنى الـ (ما جديق) وبين هذه وتلك تدور المصطلحات مادة الدراسة الاجتماعية والعلاماتية، والعنصرية للعرفية، والبنائية، والتاريخية، والبنائية، والفنثيكية... ملقاة في مجال طريف لتتلفي في حركة الفكر والمفاهيم والتفكير حول ما يصنع تفكيراً ويرجيه.

وإذا ما تجاوزنا تلك المصطلحات التي تعكسها المادة الطبيعية والرياضية بتبنيها الحسي والصوري الصارم على النحو الذي يلائس فيه دور الإنسان، وتخلت جيد الذات وطايعها في سلك المصطلح، وإبداع التسمية كما هو حال العلوم الطبيعية والرياضية، فلنلص المصطلحات الاجتماعية والعلمية والآلية (وأخص الأخيرة هنا بالذكر) تصويماً وإمراً من الصفة الإبداعية التي تشع بالفعل الإنشائي، ونفسي، بالذات كمنسول لتطوي عليه اللغة، وتكشف ما يداخله وما يختبئ في سريره. وهنا يلق الحد حاسماً بين مصطلح نجدته الذات لتسبي به فكرتها أو معناها، وآخر تنقله أو تعلقه من غيرها للعرض نفسه. ففي إبداع المصطلح واختراع التسمية معاناة وصقل وحيوية إفراد ووعي بالسياق والتبادل مع زخم أصدائه ومعيشة عميقة وناغمة لعطائره. وهو ما يُفني المصطلح بالتاريخ ويشره بالواقع الاجتماعي والخصاري والمثلية العرفية والأيديولوجية وطريقة التفكير وأطره المنهجية..

## ثانياً: بعض مصطلحات الشعر العربي لدى القاسمي من الحكاية التاريخية والحكاية المعرفية

وفي ضوء ذلك سنحاول القراءة للمصطلح الأدبي عند القاسمي: من خلال أبرز المصطلحات التي تصف الشعر في عروضيته، وتفاضله، وعلاقته بالقيم، للتجليل على ما تشهده تلك المصطلحات من تاريخية، وما يمكن أن يشره بعضها وفق نسقها من أسئلة المعرفة، وإشكالياتها الخاصة بالشعر.

### ١- خطاب التاريخ واللغة في المصطلحات الجدوية للشعر

لقد كان وضع الخليل بن أحمد لمصطلحات علم الأوزان والقوافي الخاص بالشعر العربي مثار سؤال طفت عن حلة هذه التسمية، من حيث حقلها الدلالي الذي يميلها إلى حياة البداية وبغضاء معانها، ومن حيث ما تشهده هذه الحالة من دلالة خاصة بسؤال الخليل العرفي. وقد أبان الخليل نفسه عن إرادته الواضحة التي وضع بها تلك الأسماء، بما وضعها في إطار بدوي، حيث يزوي عنه القرناني (١٠٨٤هـ) أنه: «قال: وشئت البيت من الشعر ترتيب البيت من بيت العرب (يريد الخفاء) قال: فسويت الإكفاء ما جاء من المرفوع في الشعر والمقطوع على قافية واحدة. وإنما سميتها إكفاء لتعاقده. لأن العرب تقول اتري الخائل إذا جاءت قوة من الحيل تتخالف سائر القوى. قال: وسميت بخير ما قيل حرف الروي سناداً من مساندة بيت إلى بيت إذا كان كل واحد منها على على صاحبه ليس مملوياً كهذا. قال وسميت الإكفاء ما اضطرب حرف رويك فجاء مرة نوا ومرة نوباً ومرة نوباً ومرة نوا... ماخوذ من قولهم: مكفا إذا اضطربت شقائمه التي في مؤخره. والتكفلة الملقاة في مؤخر البيت»<sup>(١٣١)</sup>.

ولقد كانت هذه الدلالة ملقاة حديثاً، لإحصان عباس، حيث نراه يلمح تلك الصلة بين المصطلح الشعري وشؤون الخفاء الجدوي عند الخليل، قائلاً: «والشيء اللافت للنظر في مصطلح الخليل أنه مستمد من «بيت الشعر» - يطلق الشعر<sup>(١٣٢)</sup> - وبغضى - بعد ذلك - ليرى استناد أثر الخليل إلى غيره من العلماء باللغة والشعر، فالمعجزة لدى الأصمعي (٢١١هـ) مصطلح «يعود بنا إلى طريقة الخليل بن أحمد في انتداب الألفاظ الدالة على الشعر من طبيعة الحياة البدوية»<sup>(١٣٣)</sup>. وطلب (٢٩١هـ) في (قواعد الشعر) محاول أن يستلحي روح الخليل في صياغة مصطلح مبتكر.. وليرجع مصطلحاً مستمداً من (القرن) بدور حول وصف البيت المفرد. فالبيت إما معك أو غير أو معكول أو مرجول»<sup>(١٣٤)</sup>.

وإن كان أثر البيئة هنا طبيعياً في توجيه رؤية الطليل ومن بعده الأصمعي ولعلب إلى استبعاد المصطلحات من محيطها البدوي، فإن إحسان عباس يلدح دوافع اجتماعية وثقافية في تسلك نظام القرن الثالث الهجري بالمصطلح البدوي، حين يعرض لأثر الانعزال في اللغة، حيث ذهب المعرّلة إلى تكديده منزلة الشعر في وفاتهم ضد الشعوبية، لأن الشعر في تصور هؤلاء الدافعين عن العرب أراد عربي خالص، ليس هناك ما يشبه لدى الأمم الأخرى، إلا شيئاً غريباً، ومن هنا كان إيمان الجاحظ بالصلة بين الشعر والعرق، ثم بين الشعر والغريزة، ومن هنا كان الاتجاه نحو القول بالانعزال في النظم، لكي يتميز القرآن عن كتب الحكمة الفارسية والشياعية، وكذلك كان تسلك هؤلاء العلماء بالمصطلح البدوي في اللغة<sup>(١٢٢)</sup>.

ومن الواضح هنا، أن أثر البيئة في تشكيل المصطلح وطبعه بطابع انقباض الحسي والتجربي، قد تراجع أو انصاع في ظل ثقافة اجتماعية تاريخية تتطور في شكل من الصراع والتمايز بين العرب والعجم، حتى إذا المصطلح التقني العربي جزئاً من خطاب التاريخ في هذه المرحلة يؤكد الذات العربية، ويعلن شريعتها، فهو يلف **من الذات** إذ يصف الموضوع، ويظهر ما وراء الرؤية التقنية وما يستلها من وهي التقني، وأنها التي تقدمت على الذاتية بها.

وتدخل الواقع هنا يستراء الكلاسيكية والرومانسية والعروية والاجتماعية في ضيافة المصطلح لا يعكس صورة موائمة من الجوارب بين حركة الثقافة وحركة الإنسان، ولا يفي مسافة بين اللغة وبطلانها، فهذا تعاقب جلبي تتحرك به الثقافة ملهماً بتحرك الإنسان، وتقوم معه اللغة وتكتسب دلالاتها وأبعادها الرمزية والإنشائية، والتليل حين سلك مصطلحات بدوية للعرض لم يكن يفرغ مسلمات معرّلة عن ميولها الاجتماعية والثقافية الخارجية، فهو نحوي - كما نعرف - معني بتثبيت بناء اللغة في صورتها الجاهلية التقنية، والرجعية العرفية الغالية لزمانه لتجه إلى التأسيس لرؤية نظرية العالم في مواجهة الضرورة والابتداع، فكان الاحتراف الرواية الشعر، وكان التقاليد جاكساً بين (عربي محض) و(مولد) و(قديم) و(محدث)، وليس ذلك العربي المحض أو القديم الذي هو مادة الدراسة الشعرية والشعرية، وموضوع الرواية والقتل، سوى البدوي الذي عزله الصمر، عن الاختلاط بغيره، وصاته المكان والزمان هنا (يفسد) طبعه وذوقه وإسهانه...

فالمصطلحات البدوية - إذن - تميل إلى السياق العرفي المعصر التليل، وهو سياق يبرز فيه التليل ويتعامل مع لغة، أو قل يتحد مع تيارها التقني ويستجيب فيما يشبه من مصطلحات لاجتماع، واولها، فهي اللغة من قبل التليل (بيت الشعر) يفتح الشين، (بيت الشعر) يكتسوها،

وإشارة (اليون) من الشعر تجتذب إلى تلكها المتمد في محيط البداية الإنسانية التي يضعها الطفل أسماء الأجزاء وأصنافه العروضية، وما يدخل باتساق نظم... وهو وإن سكن المصرة، واقتنى ملحمة حياته إلى بيوت العاصفة وفضاء القومنة المستقر، فإنه لا يملك أن يمتحن مصطلحاته، وما يعود إلى سمعته وتقرير مفهومه، لأنه يتحرك داخل لغة، أو بالأحرى تحركه تلك اللغة وتوجه رأيه يساقها اللغوي المحلل بفضاء البداية، ويساقه العرفي المنهج إلى تثبيت تلك اللغة وتعميقها علمياً.

ماذا لو أن العرب قبل الطفل (سموا) (اليون) سفينة، أو شارباً، أو حائراً... فما يحيل إلى فضاء البحر ومطالقاته، أو المدينة وأثرها؟<sup>11</sup>

وبماذا لو أن الطفل قد اتجه إلى اكتشاف متغير، وزهد ما استجد، ووصف ما يحيد من سميات شعرية في إطار الماصرة والاختلاط بالوثن؟

## ٩- الفجوة في الشعر، فألفية الذكر وسبقه الثقافي

ولا يخرج الأصمعي في أسبغته أسماء الشعر عن هذا المنهج (الفجوة) إنما تحيل إلى سبيل اللغة والشعر. هذا السياق الذي يعني من فوهة الذكر،  
<http://www.archive.org>

إن الفعل من الشعراء في نظر الأصمعي إنما يشهد لهمة الدالية، ويمرزه الشعرية من خلال معنى الذكر الذي يفهم باختلافه عن الأنثى، أو بتضاده معها، وما هو يوجب أيا حاله السجستاني (٢٥٥هـ) عن عدي بن زيد (-الزهدي): «أفعل هراء، بقوله: ليس بفعل ولا أنثى»<sup>12</sup> كما يوجب عن معنى الفعل من الشعراء قائله: «إن له مزية على غيره كمزية الفعل على المطلق»<sup>13</sup> والمطلق جمع حقة وحق وتطلق على الأنثى أو على الصغير الذي استكمل ثلاث سنين ويطلق في الرابعة<sup>14</sup>.

فذكرية الفعل فوق ميزتها الاختلافية عن الأنثى، لها ميزة أخرى من طفول اختلافها عن الخصمي أو الصغير، وكان خاصية الإيجاب والقوة التي تصلها صفة الفعل إلى الشاعر تستلزم قراء شعراً وتعبيراً، ولذا كان الكم والوفرة مقياساً للفعل من الشعراء لدى الأصمعي فتعطي بن صغير المازني (-الزهدي) ما قال مثل قصيدته غسلاً كان غسلاً<sup>15</sup>، ومعر البارقي حليف بني نمر (-الزهدي) ما أتم غسلاً أو سناً فكان غسلاً<sup>16</sup>، وأوس بن خلفاء الهجيني (-الزهدي) ما كان



قال مشهورون فصيدة لعقل والفهمول، ولكنه قطع به<sup>(٣١١)</sup>، وسلامة بن جندب (-١٢٠ هـ) ولو كان ذلك شيئاً كان شعلاً<sup>(٣١٢)</sup>.

هذه القمولة التي تصطبغ دلائها على الشاعر من استبعاد أفق الذكورة في اللغة، إنما تحيل إلى سبيل يحفز بالذكورة، ويغفر بارتداد، ومن يتها، ومن قبل الأصمعي واستانه أبي عمرو بن العلاء (-١٠٩ هـ)<sup>(٣١٣)</sup>، ثم ابن سلام الجمحي (-٢٢١ هـ)<sup>(٣١٤)</sup>، بعددنا نمدح أبو النجم المعولي (-١٢٠ هـ) بأن شيطان شعره ذكر وشيطان غيره من الشعراء، التي:

إنني وكل شاعر من البشر شيطانه أنثى وشيطاني ذكر<sup>(٣١٥)</sup>

والقابل بين (الأنثى) و(الذكر) في سبيل الثقافة العربية الجاهلية واللغة المعربة عنها، بُنيت الأنثى، وبكاد يطبقها تماماً من الطاعلة، فهي مقولة ومنقولة، وقد وصف القرآن الكريم هذه الرزية لدى العرب في قوله بالفرسان وإثارة وسنهم الأنثى بالأنثى، قال تعالى: (ويوحوا له من غايته جزءاً إلى الإنسان لذكور مبره) أم تنطق عما ينطق بهنك واصفاكم بالبنين، وإذا بشر أحدهم بما ضرب للفرسان مثلاً فليقرنهنك<sup>(٣١٦)</sup> وهو يعطيهن من منهنك في العطف وهو في الخصام غير مبين<sup>(٣١٧)</sup>.

فالأنثى ليست إمكانية مطلقة الفعل، لأنها تنطق دائماً في تراكب مع الذكر لللفظ الصمت في مقابل كلامه، والستون في مقابل حركته، والتألف في مقابل تكلمه، مما لا يخلق إمكانية فعلها وفاعليتها، بل يرتبها على مقابل لايزول إلا لتزول هي.

وعلى هذا يأتي نمدح أبي النجم بذكورية شيطان شعره، إنه ينسل من رؤية الثقافة للذكر، وهي رؤية لا تنف بالذكر عند دلائله النوعية الضيقة، بل تراسي بها إلى أفق استعوري، فامض لتشرق فيه الحياة من فعل الوقت، حتى لتكسب فيه الذكورة فيما تكسب معنى السلاح فتخرج من حقله الجنسية الجاهلة، وتخلق عليه الشخصية الطاعلة، ومن هنا كانت السجود لذكور أبي قول ابن عبد ربه (-٣٢٨ هـ).

ومعترافهم تهز به المفايا لذكور الهند في أيدي لذكور<sup>(٣١٨)</sup>

وفي قول الهليل (٢٠ هـ):

ولولا الريح أسمع أهل حجر صليل البيض تفرع بالذكور<sup>(٣١٩)</sup>

كما جلع الشعراء على الحرب معنى الانفعال للذكر، فهي (تفجع وتنتج) في وصف زهير بن أبي سلمى (١٠١٩هـ).

**فتمزقكم عراك الرضى يثقلها وتلفح كشافها دم تنفج فتتلم** (١٠٢)

وبمنزوح أبي تمام (٢٣١٠هـ) يمتلك هذه الخاصية الفجة

**أما الحرب كم التخطها وهي حائل وأخرتها عن وقتها وهي ماضرا** (١٠٣)

فالقتال بين أتوة (الحرب) وذكره (السلاج) بمصطب تلك التفاعل الوهمي على نحو يفرح بما يلقه العقل والروية السطحية الواقع من منطقية التقابل بين القفط وبغداد، فلا يهتدي التحليل العقلائي شيئا أمام هذا التفرع المثير الذي تستطبعه اللغة، وبكى التصوير التجاري لتلك العلاقة أربعة وأمية يرغمي العقل وينهض باب التساؤل: لكنها لا تتجاوز السطح إلى العمق، ولا تستجيب بهريرية للطقوسية ما يتجاوزها باتجاه تلك الأنوار السحيقة والمتطورة مما تخبئه اللغة وتعلمه من وهي يوليا الأبداني والحيات والعقل.

إن الفجوة التي تكفي مستطمة تقفوا في تراثنا بتأثير بين الشعراء لا يزال هناك فصوص في دلائلها الصبارية التي انطوت عليه أسئلة أبي حاتم المستعصمي وأجوبة الأصمعي وطبقات ابن سلام، ولا يزال هذا الكفة المعصية على التعميد يسطر عبقا غائرا وراء انتخاب والشمسية به، وهو عبق يتواضع مع مجمل معطياته التراث باختيارها كقوة تمسكية تعيد إلى اللاوعي والتدخل ما يتجاوز العقل بقدر ما يبدو على ظاهرها من مجسيدات الوهم والعقل.

ففي ذلك الأفق الذكري القيمة الشعرية بغزو (السلاج/الذكر) صفة لغواني والقصدان، إنها - كما يقول جرير -

**خروج بالمواد الرواة كأنها قرا همدواني إذ هن صمصا** (١٠٤)

كما وردت الذكورة ذاتها بمعنى القوة والشدة صفة للصبغة في قول النزيه (١٠٥هـ).

**مذكورة لظني كظيرا رؤاها ضواح، لها في كل أرض ازامل** (١٠٦)

بل عدت للعالي الشعري، في أصلتها وجدتها، تنأجا لعملية ذكرورية نوعية فهي مقترعة أو متجنبة، فيما يرويه ابن الأعرابي لأرجز شبيب:

يا أيها الزاعم أنني اجتلب وأنني غير عسافي انتجب  
كذبت إن شمر ما قيل الكذب<sup>(٢٢)</sup>

وقد جاءت الفجوة صفة للتفوق الشعري في لطف قطعة بن حمدة (-أهـ) الشاعر الجاهلي<sup>(٢٣)</sup>:

الأصمعي - إن - حين لتتجب (الفجوة) مقياساً وقروفاً مصطلحاً في المعرفة النقدية كان يصغي لسياق رؤية بعثها الشعر والقراء، وكان يجد في هذه الإشارة ما يجسد الرؤية الثقافية والاجتماعية العربية للعملية الشعرية ونسبها لتقليد وإبداعها وفاعليتها لغوياً واجتماعياً فالخصومة والانتجاب كمرکز دلالة الفجوة حملت اللغة منذ العصر الجاهلي هو الاتفاق الدلالي ذاته الذي شرّاه إليه كتابة الفجوة النقدية كمنهجية التي اعتمدها النقاد وعلى رأسهم (الأصمعي) خاصة حين نذكر الانتزاع لهم - في من يملك بالقطر - بالاعتناء إلى الجودة، كثرة الشعر وروايته، وكان فجوة الشاعر متصلة بفجوة التي إنشأها خلقه الإبداعي، وإفرقه، تماماً كما يثري الفعل من الميزون جنسه بالإفراج والانتجاب.

وإذا كان الحق المستتر وراء المصطلح بالغ الأثر في التوجيه إليه، وهي تشكيل أبعاده الدلالية، فإن لهذا الحق وجهاً ظاهراً على سطح اللغة النقدية ينسرب في إجراءاتها، ويصنع إشكالياتها ومظاهر الخصومة والاختلاف فيها. وهذا الوجه المظاهر للفجوة، من الناحية البنيائية، هو ما يشترك مع وجود المفارقة والمجازة التي قامت عليها الرؤية النقدية لدى العرب منذ الجاهلية، فقد تطورت تلك الرؤية على سؤال حسيح حيناً، ومعنى حيناً آخر يتطوّر في البحث عن الأفضل والأجود، وكانت الملاحظات والأراء - بل الكتب والوثائق - فيها بعد - تنبثق من محور السؤال من الشعر<sup>(٢٤)</sup>.

فجوات فجوة (عقبة بن حمدة الفعل) لتبدأ بـشمر- على ما يبدو- إلى تفوقه واستلزه، ويحيل إلى مفارقة لم يجنب بينه وبين زوجها أخرى، القيس، وهي لم تقل أنت فعل قياساً إلى ما اعتمد ابن المعتز، والأصمعي وابن سلام من معنى (الفجوة)، بل قاله -كما تحكي الرواية- لأمير

القوس (-٦٠هـ) «مطلقة أشعر منك» (٦٠هـ). كما جاءت حكومة النابغة (-١٠٩هـ) في سوق حكاية<sup>(٦١)</sup> من منطق هذه الفاعلة، ومثل ذلك لسلول عمر بن الخطاب (-٢٦٢هـ) عن «شاعر الشعراء»<sup>(٦٢)</sup> يعني (زهرا، وقوامهم أهوى بيت فلقته العرب وأجل بهت... إلخ)<sup>(٦٣)</sup>.

ثم جاءت الفعولة نظماً فكان «راس الفعل والفعل وشبه الفعل» وقريب من الفعل، ويؤكد ذلك الفعل - ويدير على طريق الفعل - وليس بفعل، وليس بفعل ولا انشئ. وليس بفعل ولا ملج، ومن فعل الفرسان...<sup>(٦٤)</sup>. بل (الفعل) لوحده أصبح مدار تمايز طيقات ابن سلام على نحو ما نعرف. وبعد ذلك جاءت مؤلفات «الموازنة بين الطائفتين» للأعمى (-٣٧٧هـ)، و«أطوار أبي تمام» لأبي بكر الصولي (-٣٣٥هـ) و«الوساطة بين التنبيه» وخصوصاً للفلسفي الجرجاني (-٣٦٢هـ)، وغيرها. التحول سؤال أفضل إلى منطق لتناول جوانب المسألة النقدية الشعرية والإقضاء إلى معطيات تصويرية وقسمة تصب في تحليلات من التراتب، مرة بين (اللفظ) و(المعنى)، وأخرى بين (القديم) و(الحديث)، وثالثة بين (الطبع) و(الصناعة)، ورابعة بين (الشعرية) و(الشعر)، وخامسة «في السراقات» بين (التنبيه) و(التعجب)... إلخ.

هذا التراتب المميز للنسبة النقدية العربية لا يقتصر على القرنين الحادي عشر والثاني في (الفعولة) فهي - كما رأينا - تصدع فويستها وثابتها في نشوء علم النكر على الأثر أو الشخصي. وهذا التراتب الذي تنطوي عليه هو ما يصنع أهميتها وحياديتها النقدية في السياق العربي، لأنه سيال يولي الفاعلة اهتماماً كبيراً. وتحتل من رعية موقع القلب والمركز، حتى نرى أن زوردها في الشعر ينشأ قيمة طليقة لدى العرب، ولذا اضدها الهجائيون والداعون من الشعراء. وقال ابن رشيق (-٥٦٠هـ) عن بيت جرير (-١١٠هـ):

فخض الطرف إنك من نمير فلا كنهية بلغيت ولا كلام<sup>(٦٥)</sup>

إله أشد حياءً لما فيه من الفطيل<sup>(٦٦)</sup>

وهي هذا ثاني (الفعولة) في موقع مركزي، في بنية القضايا النقدية العربية القديمة. ١- القديم والحديث. ٢- اللفظ والمعنى. ٣- الطبع والصناعة. ٤- السراقات، حيث تستند تلك القضايا وهي الفاعلة والتراتب من الفعولة، مثلاً استندت الفعولة وهما من سياق مفاضلة، وأقامت - كذلك - تمييزها النقدية على وهي الفاعلة.

### 3- المصطلح الشعري وصفات (الفرس)، سياق السياق وفعل المفاضلة:

و(تعلينا) لا يتعرف بمصطلحاته التقنية الشعرية عن هذا السياق، فقد رأينا كيف قسم أبنات الشعر إلى «معلمة»، و«مرد»، و«معلمة»، و«موضحة»، و«مرجلة» وأوجد -كما يقول إسماعيل عباس<sup>(١٨٦)</sup>- مصطلحا مستندا من الفرس<sup>(١٨٧)</sup>.

يجب أن هذا لا يعني أن (تعلينا) كان ينتخب تلك الصفات، ويطلقها بشكل ميكانيكي لا ترتبط فيه الرؤية بالإجراء. ولا يعني أنفق النظر التقني والتقوي العربي للشعر، وكيفية اصطلاح التسميات وإطلاق المصطلحات، ولا يتحرى شيئا من العلاقة بين الاسم والمسمى والمعنى المطوفى والمعنى الاصطلاحي.

وهو المنظر الذي أتى من خلاله وصف تعلين بالمشمول في رأي محمد متكور<sup>(١٨٨)</sup> حين يحاول تعدد الاصطلاحات وبأساليبها، روح التعليل في رأي إسماعيل عباس<sup>(١٨٩)</sup>، حين يحاول صياغة مصطلح مبتكر.

لذلك إن العلاقة بين سياق أبناء الشعر وأوصاف الفرس محلة طرح من اتصال أفق الشعر وأفق الفروسية في الرؤية العربية. والفرقان الشاعر والفارس والسيان والسنان<sup>(١٩٠)</sup>، كما يوضح في سطحة الشعر عن هذا العالم.

وإذا كان الفرس أداة الملاحظة والطرد صديقا، وموضوعا لتجليات الحلم الشعري، التفتير بصراح الجفاء بين الإنسان الجاهلي وبيننا<sup>(١٩١)</sup>، فإن الشعر أداة بحثه عن المعنى/الوجود، وموضوع لتجليات فروسيته المعنوية التي ترتب منزلته في سلم الاختقال والتقدير. ومن ثم تدحج الشعراء كثيرا بفروسياتهم<sup>(١٩٢)</sup>، والاضطوا على أبنائهم الخلطاء من صفات الفروسية وما فيها من طائف بالسلاح، كقول التور:

زحيم لمن قاتلته ياوايد - يعني بها الصاري وشعوى الرواحل<sup>(١٩٣)</sup>

وما تعود به من أسلاب كثيرة، كقول أبي تمام:

ظراً تونن في الحياة وتتلنى في السلم وهي كثيرة الأسلاب<sup>(١٩٤)</sup>

وما تصف به أرايد الصيد وهوانها من تقير وشريد. كقولك أيضاً:

ووالله لا أنفك العنزي شوارداً إليك يحططن البقاء (المختلج) (٢٠)

بل جعل جرير الشاعر نفسه جوارداً يحامي عن عشيرته فقال:

ها قداء من غراب إليّ جنواهم إلا تركت جنواهم محسورا  
أبقت من القضي الرهال مجرباً عند القواعن يزيق التيسير (٢١)

والنقد أبو تمام من الشعر فربما يلين له تصريته في قوله:

صعب القوافي إلا الفارسيه أبنى نسيج العروض ممتنعه (٢٢)

إن مصطلحات نعلب لك. حين تستطيع دلالتها على أبعاد الشعر من اصطلاحات صفات الفرس. كقوله بالسؤال هكذا. فإذا لم نستخرج صفات الناقة مثلاً - وهي. ربما. لا تقل عن الفرس إلحاحاً على وهي الشعر (٢٣)

ARCHIVE

http://Archivebeta.Sakhrn.com

هكذا الفرس تحديقاً (٢٤)

ولأنك أن لاختيار الفرس دلالة على النوي الجمالي والوظيفي للشعر عند الشاعر. ففرس الشعر هنا تميل إلى الفارس/الشاعر. وهو الذي رأيناه (مختلاً) من قبل (نعلب). والفعل بدوره فاعل للإخصاب والإنتاج الشعري. أي أنه يتقاطع في مؤداه الضمني مع ما يتصل بالفرس من صفات العنق والنجاة التي حرص العرب عليها بتفصيل الإخصاب والإنتاج النوي في سلاكلها. والممايزة والمخالطة في صفاتها.

ويؤيده هذا إلى إيراد دلالة الفرائد والتفاضل الذي ينسب إليه نعلب تقسيماته واصطلاحاته. حيث نجدده بصف النوع الأول (العمل) بقوله: «وهو الغرب الأشعار من البلاغة». وينتقل إلى الأبيات (الغري) فيقول: «ولما ألفنا هذه الأبيات مصلياً (المصلي: الذي يجي- من الطويل بعد السابق كما سيأتي). وجعلناها بالسوابق الحقة. ثلاثتها إياها ومجانبتها لها في أولها وإن الفروق من أول آخرها». ويعرض بعد ذلك الأبيات (الرجلة) فيبين رتبها بقوله: «ولما رتبنا هذه في الطبقة الثالثة وجعلناها المصلي ثالثة لشمها بها ومجانبتها لها وانتظامها». ثم يذكر الأبيات

(الموسعة) في الترتيب الرابع، وينتهي -ظهوراً- إلى الأبيات (المرجلة) قائلاً: «في البدء من تعود البلاغة، وأنها عند أهل الرواية...»<sup>(٣٢)</sup>.

فترتب هذه التقسيمات يستلزمها صفات دالة على التفاضل النوعي، أو -بالتحريج- إن تلك الصفات التي صحت بها ثعلب الصنعة الموسوعية للأبيات الشعرية، وهي مستمدة من الفرس، ارتكزته حتماً إلى المفصلة والانتخاب بحكم ما تنطبعة من رؤية اجتماعية (الغضبية) لا يمكن تعديلها، ولا يقدر على تحميم هيئتها، والحد من سطوتها الفكرية على رؤيتها.

ومعنى هذا أن تقسيمات ثعلب واصطلاحاته لا تنفك عن بنية المفصلة والتراتب القديم في تقدمها القديم، فهو يبنى اصطلاحاته في خط مواز لما قام في وهي العارفون بالشعر قبله من صلة بين تفاضل الشعراء، وتراتبهم فيما على تفاضل الجياد في السبق، وهماوذا ابن سلام يروي عن العلاء بن حمزة العنبري (-٩٨هـ) وهو من وسطه بأنه قد أدرك الناس ومجموعه، قال: «كان يقال: الأخطل (-٩٨هـ) إذا لم يجر، سابق فهو سليل، والفرزدق (-١١٠هـ) لا يجر، سابقاً ولا سليلاً، فهو بمنزلة الصلي، وجرير يجر، سابقاً وصيل، وسليلاً»<sup>(٣٣)</sup>.

ثم يذهب ابن سلام إلى أن ثعلب قد التفاضل وأعطاه مثلاً، إن الأخطل خسر أو سدا أو سبأ طراً، رواقع غوراً، جبابرة هو يجر سابق، وسليلاً شعره دون لشعارهما، فهو فيما يلي بمنزلة المستكثرت. والمستكثرت امر الخيل في الرمان، ويقال: إن الفرزدق دونه في هذه الروائع، ويعلقه في بقية شعره، فهو كالصلي أبداً، والصلي الذي يجر، بعد السابق، وقبل المستكثرت، وجرير له روائع هو يجر سابق، وأوساط هو له من قبل، ومنسفقات هو يجر مستكثرت<sup>(٣٤)</sup>.

وقد ثعلب ثعلب -كما رأينا- إلى إيراد مصطلحاته التي نسم نسمتها لأبيات على نحو ترتيب جليلها، ولارتكاز في ترتيبه على مرتبة (الصلي) التي أدرج في روائعها ما اسماء بـ «الأبيات الفرد» ثم اعتبر ما قبلها سابقاً، وما بعدها ثانياً، وبذلك كانت حيداً لتسلم التفاضل الذي تجسده طريقة تقديم البيت للمعنى صادرة عن وهي صريح بتراتب الجياد في نتائج السبق، وهو التراتب الذي ألقى بقله على مصيحات ثعلب، فجاءت -بدورها- من صفات الأقراس.

ولازم أن مصيحات ثعلب ذاتها لا تعمل التراتب فهي صفات شكلية في الزمان وهيئات الأقراس، ولا يمكن أن نحيل الأبيات (المفصلة) أو (الفرد) إلى مثلاً أحال الأصمعي (إيه (المفصلة) حين يبين أن المفصل (من الشعراء) مزية على غيره، كمزية الطفل (من الحيوان/الإنسان) على

المقابل<sup>(٢٧)</sup>. وهنا نقف على لبان في حركة التسمية ذاتياً بين (الأصمعي) و(تعلي) ذلك أن (الأصمعي) يلجج بتسميته وممايزته إلى الشعراء، في حين يلجج (تعلي) إلى الشعر. و(الأصمعي) يستند لتفاضل موضوع التسمية (وهو الشعراء) من التسمية ذاتياً (أي الشعر)، ولذا وجدنا معايير التسمية وطبقاً غائمة وغير متبلورة في حدود واضحة وصليبة ومجردة يستطيع تلاميذه أن يتفكروا عليها في النظر إلى الشعراء. يعمل هن رؤيته هن، في حين يجسد (تعلي) شايون موضوع التسمية (وهي أبعاد الشعر) هن صفاتها الموضوعية والعمدية في كيفية تقديم المعنى وصياغته في بيت واحد. ولذا تراه يقدم صفة نظرية مجردة، ونموذجاً تطبيقياً لكل قسم، فالعمل من أبعاد الشعر هو ما اعتدل شعراء، وتكافؤات، حاشيتان، وتم يلججها، ولقد هن معناه... نقول زهير

**ومن يفترب يحصب عدوا صديقه      ومن لا يكرم نفسه لا يكرم<sup>(٢٨)</sup>**

والأبيات الفر، واحدها الفر، وهو ما نجم من صيد البيت بشام معناه دون غيره، وكان أو طرح آخره لأضي قوله يوضح دلالة... نقول الخضراء، (٢٨-٢٩)

**وإن صغراً انتبأتم التهمة الأسماء      القائمة عليهم هي وأسمه صار<sup>(٢٩)</sup>**

http://Archivebeta.Sakhras.com

...إلجج<sup>(٣٠)</sup>

وأخيراً فإن (العمل) يستند التفصيلية من رؤية عامة وعمومية أي أنها إشارة تفصيل لا خلاف فيها، وهو أمر لا نجده في صفات الأقراس، العلة، أو الفر، أو المحطة، أو الموضحة، أو المرجحة، فإن أي منها لا يجسد بشكل قاطع الخطئية في الرؤية العامة، ولا بدلتا بذاته على تفريق واضح مطلق عليه.

وهذا يعني أن مصطلحات تعلي تعمل كيفية الدلالة على التفاضل والتمايز الجماعي التليل إلى إمكانية، وتتمتع من خلال التسمية بلك الأوصاف التي تجعل دلالات جمالية متفارية وغير واضحة التقاربت سؤال الجليل، ولة الأفضل، وطهرم الجليل... الذي تكمن فيه، بأشكال مختلفة ذات النافذ بالمستدات زمانها ومكانها وثقافتها، حتى ليرى الجليل حيناً ما يلجج حاجته التعلية والتسمية، ويصحب الأفضل تارة ما يندرج في استمالة السامع واستفاح عطية وثقافته، ويظهر الأجل حيناً بمسكة معانيه، وحيناً آخر بمسك العرض لها والدلالة عليها... إلى غير ذلك من العلى التي تتفاوت وتتغير بتغير وتفاوت الانطباع والأحوال.



والوعي بالإنسانية الجميل، وإبرك الخبرة المنطقية والفنصور العقلي في بؤرة هذه الأسلمسان  
واسباب التفصيل، ثم يكن غائباً عن الرؤية النقدية لدى القدامى، فطلف الأحمر (١٨٠٠هـ) بقدر  
مثل هذا الوعي فيها يذكره عنه ابن سلام في قوله: «وشهدت طغافاً ففيل له من أضره الناس»  
فقال: ما تنتهي إلى واحد يجمع عليه، كما لا يجمع على لشجع الناس، وأخطب الناس، وأجعل  
الناس...<sup>(١٠٠)</sup> ومن الواضح، هنا، أن خلفاً بنطل بسؤال الأفضل إلى موضوعات أخرى غير  
الشعر، هي (الشجاعة) و(الطغاة) و(الجمالة)، ليوحد وجه العصر، وحقيقة الاختلاف في إبرك  
نموذج الأفضل والاتفاق على الإشارة إليه عيلاً، لأنه لا وجود، في حقيقة الواقع، للأفضلية مطلقة،  
بل لابد أن نؤمن لك الأفضلية نسبية التصور والعلاقة النابعة من ذاتية ذات (في زمان ومكان)  
لا يتكرر.

كما بنقل ابن سلام رواية سليمان بن إسحاق الرملي (٢٠٠هـ) عن (يونس) (١٨٦٠هـ) أنه قال:  
«الشعر كالسرا، والشجاعة والجمال، لا ينسج منه إلى غاية»<sup>(١٠١)</sup>. ولكن يونس، هنا، الانتهاء إلى  
غاية في الشعر والشرف والشجاعة والجمال يطلقها من حين المدح والثناء، ويرتفع بها عن التسمية،  
وبذلك تنتمي إلى نمط الثنائيات المجردة التي يصبح الشطوط الواقعي لصورها جزءاً طاهرأ من  
جوهرها، وكيفية محدودة من كنهها العائلي في الفضاء العام الإنساني الذي لا تعدد حدود.

ولغير خلاف أن (الانتهاء إلى غاية) في موضوعاتنا يطلق غايةية الكثيف التعرفي له، ويستعمل  
بالظم حقيقة الواقع، وبالأحاسيس الجمالية تجاهه العلية العقلية والتفعية فيه، ومن ثم تستعمل  
الخبرة الإنسانية له إلى مواصفات نظرية قياسية جاسدة تقاربت في الاقتراب من حدودها المنطقية  
مرجات الفضل وصفات المودة.

ومن هنا نجد الثقافة والصناعة التي لميز جهد الشعر من رتيبة، عند ابن سلام، صفة الطيرة  
الطوقية، والمرانة، والندية، بحيث تلفظ من وراء الصفات المنطقية المتعارية أو المتعارية إلى تقدير  
قيمة الجوهر، والقيمة، والقيمة، بفعل الاختلاف والتمايز بين الموضوعات الجمالية وقد صاغ هذا القول  
من خلال مقارنة نقد القيمة الشعرية بنقد قيمة الشكل والجمال في الأشياء الحسية كاللؤلؤ  
والياقوت والديار والدرهم وأنواع اللذات وشرويه والجواري والذواب وأصوات الفراء والفتن،  
فقال: «والشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم، كسائر أصناف العلم والصناعات... من ذلك  
اللؤلؤ والياقوت، لا تعرف جودتهما بلون ولا مس ولا طراز ولا رسم ولا صفة، ويعرفها الناقد عند المعاينة،  
والدرهم، لا تعرف جودتهما بلون ولا مس ولا طراز ولا رسم ولا صفة، ويعرفها الناقد عند المعاينة،

فيعرف بترجيها ورائحتها وستروها ومثلها. ومنه البصير بغريب النخل، والبصير بانواع الشاي وبصرويه واختلاف بلانه مع تشابه لونه ومنه وبصره. حتى يضاد كل صنف إلى باده الذي خرج منه. وكذلك بصر الرقيق، فتوصف الجارية فيقال: ناصعة اللون، جيدة الشط، نظيفة الشعر، حسنة العين والأظفار، جيدة النهود، طريفة اللسان، واردة الشئ، فتكون في هذه الصفة بمثابة دينار ويحتكي دينار، وتكون الخرى بالق دينار وأكثر، ولا يجد واصفها مزيدا على هذه الصفة. ويقال لرجل المراق في القراء والغناء: إنه لذي النطق طل الصوت، طويل النفس، مصير، للحن، ويوصف الآخر بهذه الصفة، ويوثقا بين بعيد، يعرف ذلك العلماء عند المعاينة والاستماع له. بلا صفة وينتهي إليها، ولا علم يوقف عليه<sup>(١٠٠)</sup>. أي أن تقدير التفاضل الجمالي لا يحوّل إلى المنطق والتأويل من مبررات الذهن، ومعايير العرف، وصفات الشكل، فليس هناك صفة مثالية الجمال والقيمة، ولا علم تلقى عليه نتائج الاستقصاء، ويحوّل إليه قائد الفنون، ويستبصر حال جودتها وفضلها واختلاف قيمها.

وفي ضوء رؤية ابن سلام هذه يجسد الأسدي وجهة بما يكتنف موارثه بين إبيات أبي تمام والبحتري من تصور الخلق وعين البيان من تبارك القول الجمالية، وتفصيل أسباب الإجابة والرداء التي تتجاوز الوسيلة المعروفة لعيني الشاعرين، ويتصل هذه بالانحرافات والأخطاء التي تتلها عود نوقه، ونسب ثقافة، وثقافة إرثها: قلها يقول: نورا فلانيت بالعلل والأسباب التي أوجبت التفصيل، فقد أضررتك فيما تقدم بما أحاط به علمي من ثمت متعبيها، وذكر مساوئها في سرقة معاني الناس وانتحالها، ونسبها في المعاني والألفاظ وإساءة من أساء منها في الطوائف والتجنيس، والانتعارة، ورياء النظم واضطراب الوزن، وغير ذلك مما أوضحت في مواضعه وبيته...<sup>(١٠١)</sup> ثم يقول: ... ويصلي ما لا يمكن إضراره إلى البيان، ولا إضراره إلى الاحتجاج، وهي علم ما لا يعرف إلا بالبرية ودائم التجربة وظل للابسة<sup>(١٠٢)</sup>. ويذهب أيضا منطلق ابن سلام في إضاح هذه العرة والمقارنة بين العلم بالشعر والعرفة بالوسيلة والصنوعات الفنية والمالية، كـ «العرفة بالعين والورق والليل والسلاح والرفيق والجز والطيب والنواحة»<sup>(١٠٣)</sup>. وتكرر الرؤية ذاتها لدى الفيلسوف الجرجاني<sup>(١٠٤)</sup>:

إن العرة -إن- كمعلوم معرفي، في البصر بالاشئ والأجود، هي ملاك لاختصار طريق الحظر وراء ظاهري النص، والتحويل لعناصر الرؤية الجمالية الناقدة، وهي إذ تستمر المعجز من التحليل، وتجو قصور أية النظر تظهر مادة رؤية من الرؤية الاجتماعية والإنسانية، ومن الوعي

بالجملة... ومن شأن ذلك أن يشعروا بالمرحمان من عدم تمكن علمائنا القدامى من اشتراق (ميتافيزيقية) هذه الطبقة الصامتة، واقتراع أسئلة التعليل لكونياتها ومظاهرها، وما يتمكن عليها من طيوة الواقع الاجتماعي والروية الكونية في زمانهم.

ثعلب -إن- من خلال مصطلحاته التي يقسم بها أجياد الشعر، يلفتنا ضمناً على هذه المشكلة المعرفية في الوعي الجمالي والنقدي العربي للشعر في زمانه، وهي لا تدخل كمفهوم لاغتياري قسوة، ويرجع بحيل إليه الاصطلاح النقدي على بنيه -كما نحدد- فإنها تمثل نقياً في مقابل حضور المصطلح الدال عليها، وظلية صيغة يحجبها الصمت الذي انشكبه من قبله خلف الأحمر ورويس وابن سلاي، ثم الأندلسي الجرجاني وغيرهم، حيث قدموا -كما رأينا- ما يشيرون صراحة إلى بروزها في الوعي، وحضورها في العملية النقدية.

واللاحظ أن مصطلحات ثعلب التي تنبثق من صفة الشكل والهيئة طابعها الدالسي الوصفي لا المعيارية الطائفي التي تنصل بتسمياته للأبيات، فهي التفسيرات وصفية للعلاقات التركيبية أو التاليفية لمنهج المعنى في البيت، **وهي مصطلحاتها** نتذكر تصور إروان بارت Roland Barthes - (١٩٦٠م) للعلاقات التي تربط بين الأبيات، وهي تصور ينبع من تضمين الجملة معنى الأخرى أو عدم تضمينها، وذلك مثل (بارت) ثلاثة أنواع من التاليف والتعلق: يعود أولها إلى تضمين إحدى الجملتين لأخرى، **وأشكال كل واحدة منهما على الأخرى** (كما هو الحال في جملة الشرط وجوابها)، ويرجع ثانيها إلى تضمين واحدة من الجملتين للأخرى في حين تكون الثانية حرة من العلاقة بها (كما هو الحال في تعلق شبه جملة بجملة أخرى تامة ومستقلة) وثالثها من عدم تضمين الجملتين بعضهما البعض، **وأشادها على التاليف الحر** (١٩٦٠).

إن ثعلباً يصف هذه العلاقات التاليفية للمعنى في حدود البيت الشعري بشطريه أو بصدره وجزئه، فالعدل من أجياد الشعر، كما قال: «ما اعتدل شطراه، وتكافأت حالتهما، وتم بهما» وقد على معناه: والبيت الآخر هو ما نجم من صدر البيت يتنام معناه دون عجزه، وكان لو طرح آخره لأضى أوله بوضوح دلالة، والبيت المصقول هو: «ما تلج قافية البيت عن غرضه وأبان عجزه بقية قائله، والأبيات الوضعية هي: «ما امتلأت أجزاؤها وتعاقدت نصوصها، وكثرت فقرها، واعتقلت فصولها، والأبيات الترجعة هي التي «يكمل معنى كل بيت منها يتناميه ولا يتفصل الكلام منه ببعضه يحسن الوقوف عليه غير قافيته» (١٩٦٠). وقد أورد لكل نوع نماذج شعرية لتستدل بصفته التاليفية والوضعية معاً.

وأقول: إن (تعليلاً) بهذا الوصف البنائي يمكن أن يصنف مع أولئك الذين مهدوا التحليل النظمي في علمنا القديم، أي أنه كان: برويته النوعية للتشكيل المعنى، يصدر عن شهية المعرفة، وشعري، وبكثافة ويستطيع، وبمثل هذه الرؤية يصبح جديراً بأن يخلد بالنظر التقدي إلى كشوف لغة الشعرية بتأليفها القومي المتأخر بين الشعراء، وقد وصل بها بعد ذلك عبد القادر الجرجاني (١٧١٠هـ) إلى نتائج الباعرة، فوائداً إلى زمانه، في نظريته عن (التعليل).

لكن هذه الرؤية لدى نعلب، لا تتغير -كما رأينا- من هيمنة المفصلة، والاتصال نقدياً للشعرية بإمكانات اللغة، والتكثيف عن أية الرؤية الشعرية فيها، وقراءة ما تجسده من فعل شعري يشهده القومي الخاص بالشاعر، وبكثافة حسنة الجمالي حيوية وجدة لعيد اللغة بكارثتها وشططياتها النظرية، فوصف البناء الدلالي للبيت يبدو وكأنه أربعة أبعاد، أساساً لغائبي لشكل المعنى في الأبيات، وهذه الكيفية هي -بديها- الجرد الذي يفتح لرؤية نعلب أن تتصل ببنية اللغة الشعري في سبيله الثقافي والاجتماعي، وأن اكتسب قيمة دلالية نقدية، فلم يزل نعلب برويته عند حدود الوصف، ولم يعاقل ليفي خارج معاني البصير بالقيمة الشعرية، ولون القومي بما تفرضه المعرفة النقدية المعاصرة من دالة معيارية حاسمة هي شكل البناء الشعري.

#### ٤- عمود الشعر، وصياقه (المؤثرات) لغات العربية المصنعة

<http://Archivebeta.Sageha.com>

وكما ارتكزت مصطلحات (التعليل) وال(الأسامي) وال(العاب) في الدلالة على المعرفة بالشعر على سياق الرؤية الوظيفية الاجتماعية والثقافية التي مثّلها الشعر القديم وأوجي بها، وكما أنتجت تلك المصطلحات من الهاد الأساس للشعر العربي وهو (البيان) التي لم تعد واقعاً بحدود الشعر العباسي، بل محمولاً بوجه به اللغة، ونسفاً تنبئ به شرايينها، وسط جهد وحرص من القرويين والفتاد على استمرار ذلك، وأن يحمل الشعراء عليه حملاً... على نحو ذلك جاء مصطلح (العمود) الذي قام في موازنة الأندى، وبواسطة القاضي الجرجاني، وفي شرح حساسة أبي تمام للمروزي (١٧١٠هـ).

إن (عمود الشعر) يشير عمقاً غائراً وراء سطوحه، عنه تصدر غاية المعرفة، وفيه تكمن دوامتها وطولها ولا رعبها الذي يتجاوز الحدود الطولية والوضوحية للمعرفة النقدية، لتعبر تلك المعرفة -في محصولها الأخير- رهناً لقومي معكوم في إطار الذات بصيغتها وسياقاتها وزمانها ومكانها، أي بأنفسها التي لا تعي تلك الذات وجودها بما هو خارج عن هذه اللغة، فضلاً عن أن تعي -بديها- ما تتسدى له من موضوعات اللغة.

فليس في الشعر قصود، بقول (العمود) حسياً ومكانياً، ذلك أن العمود بهذا القول هو - كما في لسان العرب - ما «تجامل العقل عليه من فوق كالسقف بعدد الأساطين المنصوبة»<sup>(١٠٨)</sup>. ولذا ينقل ابن منظور (١٠١١هـ) قول البيت: «يقال لأصحاب الأخوية الذين لا يتراخون إخراجها هم أهل قصود وأهل صاء» ثم يقول: «والعمود: القطعة التي يقوم عليها البيت»<sup>(١٠٩)</sup>.

فالعمود، في رأي العرب، به حسياً ومكانياً، هو محور البناء، وقامته التي يتهاوى بها ربه، ولا يقم وجوده عند اختلافها، وهو في إطار هذا الوعي مرتبط (البيت) الذي هو محور الإنسان ومقر طنانيته وعلامة استقراره ووجوده الحسي من جهة، ويرجع خلافته وصفاته الاجتماعية ووجوده المعنوي من جهة ثانية، ومن هنا لا يقتصر (البيت) على معنى السكنى والعيشة بمصداقها ضرورة طبيعية للفرد، بل يعني شرف الإنسان وعزه وحسبه ونسبه بمصداقها ضرورات اجتماعية، أي أن (العمود) الذي عليه يقوم بناء البيت ينهض بناء، متشكلاً في الزمان، وبذلك كان (عمود الحسب)، وكانت هياكل العرب - والموت منها - كما يقول ابن سيده (١٠١٤هـ) - «الذي يضم شرف القبيلة كحل حسن الغزاوين، والجنين الشيبان»<sup>(١١٠)</sup>، والعبادان العارفين... إلخ<sup>(١١١)</sup>.

وينهض بناء، خاضع في المكان، وبذلك كان (عمود البناء) كان (البيت) بمعنى الدار أو الخلاء أو امرأة الرجل.

هذا الارتباط بين (العمود) و (البيت) في الوعي الشعري، يقتضي إلى السجاء لا راجع بين (العمود) والشعر، وقد رأينا أن (البيت) بمعناه البنائي المعنوي (البناء) يدخل إلى وصف بناء الكلام في وزن وقافية، فجاء (بيت الشعر) واسماؤه وأوصافه... وبذلك يأتي (عمود الشعر) في تعالق وتداخل تنطبع به الية التسمية، وفضاء التصور الذي تحمله الافة لتكوينه العربي اجتماعياً وحسباً وإبداعياً...

وهكذا يقدر (الأديب) في قوله بـ (عمود الشعر) طابعاً ومنهجاً مع اللغة، ويتصللاً معرفياً بوعي التثبيت لها، ودعم سياق الاتصال لسلسلة العقل والاتباع الجمالي فيها... ذلك السياق الذي يحتوي الية النظر العربي، ويحتشد له جهد العصر في مجال الدراسة اللغوية والأدبية عامة.

وهذا يعني أن انتخاب لفظ (العمود)، واختياره يصغر عن إرادة التأكيد على مركزية محددة في النظر إلى الإبداع الشعري، بحيث يجعل (العمود) هيمنتها، ويجسد محور بناء رؤيتها النقدية، وقاعدة أحكامها، وسيلان ذوقها، ولاة (العمود) على هذه المركزية يتجلى في مستويات ثلاثة:

**أولها:** الذات العربية، فالعرب أهل عمود. وقد كانت الضياء والألفية العربية أساس حزمة الالتباس والنظرة البونية التي انحطت بها أصحاب الحضارات الأخرى التي ارتقت فيها معاني التخصيص والاستقرار المعرفي والفني، حتى قال شاعرهم مؤكداً هذا المعنى:

في بلدة لم تصل غللاً بها طلياً ولا خبابة، ولا غللاً وهضباناً  
أرضٌ يُبني بها كسرى مساكنه لما بها من بني القلائد إسمان<sup>(١٧٢)</sup>

**وثانيها:** مألوف القول: إذ «العمود» يعني نمطاً من الجماليات التواترة والتأجزة، وهو نمط أشبه برواية الشعر القديم، وإساقته الترسيم به بحثاً وتقييداً وتقياساً واستنباطاً، حتى استقر الإثبات له، وقام الإحساس به في هيئة يومئذ العمود.

**وثالثها:** فطرية الرؤية وتطبعيتها، فالعمود إشارة إلى واقع بسيط، هو واقع المعاصرة الحية والمعاشرة المباشرة التي لا يحجب النظر فوقها حجب الرفاعية، ولا يزيغ التجربة لتعكس الصنعة، وتكتب التظليل.

وهذه السوريات الثلاثة التي تشكل أيضاً مركزية العمود تقدم طابع بارزة في الإطار النظري الذي يطرجه الفكر النقدي العمود الشعر العربي.

<http://Archivebeta.Sakhrna.com>

ففي مستوى تأكيد الذات العربية (ومركزيتها) يفتنون وصف العمود بالإحالة إلى (الأعراب) أو (سلب الأولاد) وإعادة (العرب) وإطروفتها<sup>(١٧٣)</sup>، في مقابل (الحنثين) أو (الولدين) الذين ينضوون بمنطق الرؤية الاستعلامية لـ (العمود) في معنى الفني المعروف، أي أن النقاد بهذا المنطق يبحرون في الدلالة على الذات العربية ما يفي بصفتها وتمتعها وصفتها، وهي الصفات التي تأتي - زمانياً - من القديم، - مكانياً - من البادية، - جغرافياً - من العرب، ويملك استنباط الذات العربية في الزمان، ولا تمتد في المكان، ولا تندمج في الأعراف، لأن حدوث تلك يعني التكسار عمودها.

وفي مستوى (القول) يلف (العمود) بفعل التوق عند حدود الغرب، والبوضوح والإثبات، وهي الحدود التي راعا الأمد في طريقة البحث، وتصر حقيقة الشعر المعروفة عليها، قائلاً: «وليس الشعر عند أهل العلم به إلا حسن الثاني، وقرب الثالث، واشتبار الكلام ووضع الألفاظ في مواضعها، وأن يورد المعاني بالألفاظ المعتاد فيه المستعمل في مثله، وإن تكون الاستعارات

والتمثيلات لتلقا بما استعيرت له وغير متافرة لعتاد... تلك طريقة البحتري<sup>(١٧٤)</sup>. ثم ذهب إلى وصف هذه الطريقة في أكثر من موضع بالقول «عود الشعر»<sup>(١٧٥)</sup>. وفرضها في مواضع عديدة بمعيارية في القياس على مذهب الأرائق بطريقة العرب. كقولته في وصف بعض الاستعارات: «فهذا مجرى الاستعارات في الكلام»<sup>(١٧٦)</sup> وهذا «أشبه بكلام العرب»<sup>(١٧٧)</sup>.

وفي مقابل ذلك يأتي البعد، والفوضى، وتزايد المعاني... وهي السمات التي تميز طريقة أبي تمام في نظر الأندلسي<sup>(١٧٨)</sup>. وبذلك كان خارجاً على (عود الشعر). وكان شعره «لا يشبه أشعار الأرائق»<sup>(١٧٩)</sup>. واكثرين وصفه لأخطائه في مواضع كثيرة بمثل قوله: «هذا الذي وصفه أبو تمام ضد ما نطقت به العرب»<sup>(١٨٠)</sup>. وقوله: «هذا كله لفظ صالح مستقيم غير أنا ما سمعنا مثل هذا في الريح، ولا علمناه في اللغة، ولا وجدنا في الشعراء أمداً قال: (العصيا وقبولها) ولا (الجنيب وقبولها)». أي سبيلها وإيلها<sup>(١٨١)</sup>. وقوله: «وهذا خلاف ما عليه العرب. ضد ما يعرف من معانيها»<sup>(١٨٢)</sup>... إلخ.

ومعنى هذا أن عود الشعر يحيل، فهذا **يضمده لوقلاً** ويجعلها إلى خصائص جمالية ناجزة حين عليها فعل تنظفي. **والمستحسن** شعرها وقولها حكمة استنباطية والانتقال، وساعدت في الفهم، وذلك قام مصطلح (العود) في الطريقة النقدية الجديدة سلطة القيمة، وخاصة التمرکز في حركة الفعل الإبداعي للشعر.

وفي مستوى الطبع والفطرية، يربط (العود) بين الشعر والواقع العيني القايض للحياة العربية من خلال صورة البداية وخصلتها ويبدو هذا الربط في التشديد على (الأعرابية) والإصابة في الوصف، وصحة المعنى يوضح الكلام في مواضعه، والمقاربة في التشبيه والاستعارة، وتزوم الطبع والابتعاد عن الصنعة والتكلف والاستنراق. وإذا كان من صفات شعر البحتري الذي مثل (عود الشعر) في نظر الأندلسي أنه «أعرابي، وبطوره»<sup>(١٨٣)</sup>. كما أنه ينقسم بـ «وضع الكلام في مواضعه، وصحة العبارة»<sup>(١٨٤)</sup>. وكان مدار المقاضاة الذي يحدد نظام القريض وعود الشعر عند العرب، في رأي القاضي الجرجاني، هو ما ينظمه قوله: «وكانت العرب إنما تعاطل بين الشعراء، في الجودة والخصن، بشرف المعنى وصحة، وجزالة اللفظ واستقامته. وبسبب السبل فيه فن وصف قصاص، وشبه فطارب، وبه فائز، ولن كثرت سوائر أمثاله وبشوارب أبياته. ولم تكن تعبا بل تنجيس والطائفة، ولاتعطل بالإدماج والاستعارة إذا حصل عود الشعر ونظام القريض»<sup>(١٨٥)</sup>.

ولأرب أن مركزية هذا المستوى تنبثق من حضور الواقع وظفائنه. وهو الحضور الذي تشكل الحياة البدئية للأعراب. تلك الحياة التي تلج الانشيد الطوبعية فيها على الوعي الإنساني. وتستقطبه أو قل تزكده على اقترابه منها. وتمثله لها. والانشجاع بحقيقتها على نحو صامق ومباشر.

وإذا نحن تأملنا في المنطلقات الثلاثة لمركزية العمود. نجدنا تصدق عن نظرة خارجية ساكنة وغير شعرية للخصائص الإبداع الشعري القديم. إنها لا تستقبل رؤياه على نحو حي ومشاغل وواقعي. ولذلك تقصر عن إبراز طبعه الشعرية واللغوية في عمقها الإنساني والتاريخي والجمالي.

فلا تلتفت الشعر العربي القديم على (العرب). وتوسيده لطريقتهم وذهابهم. إنما هي دلالة على الإنسان فيهم وفق مكان وزمان ونسب وثقافة وطروقت محددة. ومن ثم لا يصح أن نعتبر طريقتهم واحدة إلا على وجه الإجمال. فهي ليست -جميعاً- إبداع فرد منهم. وهي متباينة ومختلفة بقدر ما يبدو أنها متجانسة وموحدة. ولعلنا على هذا -حسبنا- أن تختلف طريقة العرب من عصر إلى عصر ومن مكان إلى آخر مع ثبات عراقتهم ولغتهم. فالأمدني وغيره من النقاد القدامى حين يثبتون القدامى العرب طريقة شعرية. يثبتون لمدىهم الحق في أن يكون لهم طريقة.

وبغورنا هذا إلى رؤية خاصة أساسية في أصول الرؤية الشعرية التي بلغها ذوق عمود الشعر. فالتأكيد على مأساة والف وجررت به العادة عن الموضوع وفرد. إنما هو تأكيد على ما يدركه خالف لسالف وتابع لموضوعه بالإسالة والألف والشروع والعادة. ومن ثم الموضوع والقرب ووضع الألفاظ في مواضعها. إنما هي أمور تاريخية تحدث في الزمان. وتكون بعد عدم. وتسير بعد كون. فاللوف كان غربياً. والواضيع كان غامضاً. والقريب كان بعيداً.

ومثل ذلك ما تبده من تأكيد العمود على الطبع والفطرية والتعلق بحقيقة الواقع. إن قصورها على داهر (أعرابي) و(قديم) يستلزم فرض الكلاب والتكلف والإبداع. على النتائج الذي يتلاقى والمأخذ محدداً وطبعاً مدنياً. فمثل هذا النتائج. وإن لم يكن أعرابياً وعلى منذهب الأوانل. فإنه صامق ومطروح وواقعي بالقياس إلى واقعه الإنساني التاريخي. في الوقت الذي يعدو النتائج الأعرابي المطروح بطريقة القدامى كتابياً ومطروحاً لواقع المحدد.



# توكيف المآثور القولي في تنمية لغة الطفل

د. وسمة عبدالحسن المنصور\*



ما المآثور القولي؟ <http://Archivebeta.Sakhril.co>

نعني بالمآثور القولي الجانب المحكي من التراث الشعبي، الجانب الذي تصوغه اللغة، ويحكيه الناس بعفوية، ويصدر عن سيالية شعورية لا يحكمها الانتقاء ولا يقومها الانتقاء، فهي متوارثة هكذا سمعت وهكذا حكيت، وإذا ما تدخل الراوي فاضاف أو نقصر لا يكون ذلك بوعي أو سرهونا بل سوابط أو معايير، إنما تدافع المآثور متفاعلا بما تحمله الذات الخصوصية، قد يحدث تعديل هنا أو هناك لمناسبة المقام، لكنه ليس مما يفقد المآثور القولي سمته أو خصوصيته.

\* باحثة الفلك شعور - الرياض.

## أهمية الموضوع وهدف الدراسة

أصبحت الدراسات اللغوية اليوم ميداناً ألقوان من الدراسات الإنسانية التي تدرس جوانب حياة الإنسان المختلفة. حتى لقد انتقل من دراسة اللغة علوم لغوية بدأت تأخذ سبيلها إلى الانفصال عن علم اللغة العام. مثل علم اللغة الاجتماعي وعلم اللغة النفسي، وامتد فعل اللغة إلى أشكال الإبداع الإنساني المختلفة سواء منها المركزي كاللوسيقى، أم السكوني مثل الشعر والرسم والتصوير. فالخط العربي ونشكيله يمثل معينا تنهل منه الفنون التشكيلية. والنوسيقى جعل تتخطى أقسام الكلام المنطوق. بل هي لغة إنسانية لا يقيد إنراكتها حد أو مصطلح.

تلتجأ هذه الدراسة اعتمادات متعددة، فمن جهة، التأثير الشعبي القوالي تمثلت الأغنية الشعبية والحكاية والثلث والعاطفلات اللسانية. والرافد اللغوية من الفاظ النعمة والمفاسات، والحكم، والأمومة المسكنة التي تفسح عن سرعة الجهداء، والغناء، المصاحب للعب. ومن جهة أخرى، النمو اللغوي للطفل، والكتابة المعرفية التي تتشكل بها عقلنا من مآثور شعبي قوالي. واعتماد آخر يتجسد بأهمية التراث الشعبي عامة والتأثير القوالي خاصة، فبعد أن طغت الحياة العصرية على موجداتنا الشعبية، والكتابة الشعر الحداثي، فقدت الجذات، وذابت هويتنا الخصوصية أو كانت. بعد هذا بذات، نجد أنه نلعب في حيرة وتساؤل: ما صورة المجتمع بعد هذه من الزمان؟ وما نتيجة هذا التسع لشخصيتنا العربية وإن كان العالم اليوم قرية صغيرة، نكون نحن إياهم أم يكونون هم إيانا؟ إن تميز شخصية المجتمع هم شافل تعقد له الدراسات، ونظام له البؤوات. فتعتمد شخصية المجتمع أساس الشخصية الاجتماعية وبه ترفى الأمم، فإن نحن الآن:

لقد نظري جواب كثير من التأثير القوالي عن استخدامنا اليومي، ويفسر هذا الغياب بعوامل ومؤثرات متعددة، نرد أهميا للتطور التقوي، ولكن حجة آخر نتيجة إحلال بذل لمآثور القوالي. فالرسوم المتحركة وبرامج الأطفال أخذت من الحكاية، وتجهيزات المواد الزودة يعوسيقى مسجلة أخذت من الغاني المهد والتفويج، والأجهزة الإلكترونية أضاءت أفاني الترفيه، وألعاب الحاسوب اتصت للعب الشعبي والغاني، وأعباء الفنية الحديثة من رفاه اجتماعي وغيره أدت إلى تغير الفعل الاجتماعي في نمط الحياة الحديثة، فالخوب، على الأطفال من اللعب في الشارع وبطريات السوق الاستهلاكية بكل ما فيها من زوكلة اللون، وإشراق الصورة، وتعليق الشريك، جعل الطفل متلقيا لا فاعلا. مشدودا لا محاورا. وأدى هذا إلى التقطاع رائد من روافد النمو اللغوي عند

الطفل. فمضيف إلى ذلك انشغال الأسرة وبشغل الامتصاصات والاستيعاب لأولويات مسئلة في المجتمع وأحدث بين الأجيال الجديد والتأخر القرني وما يصاحب ذلك من تطور لغوي، تارة، وتكون لغوي تارات كثيرة، إذ تتداخل اللغات الأجنبية في الاستخدام اليومي ما بين مصطلح مغرب وآخر مغرب. كما أن مثل هذه المراسلات لا تعين فمضيف، بل هي ضرورة لفهم لغة الطفل، ومن ثم بناء طرق لتعليم اللغة القوية على أساس القويم من الفرس والتجربة<sup>(١)</sup>.

## تعريف النمو

النمو سلسلة متتابعة متسلسلة من تغيرات تهدف إلى غاية واحدة هي اكتمال النضج وتهيئ استمراره وبدء التمرد، فالنمو بهذا المعنى لا يحدث فجأة ولا يخطط بشيء، بل يتطور بانتظام خطوة إثر خطوة، ويستمر في تطوره هذا من صفات عامة تعتمد مبدآن أساسية<sup>(٢)</sup>. وتقول سميرة بھاجر: «إنه نظام مترابط ليس مستندا بزيادة الحجم لمضيف، ولكنه يتكون من تغيرات متقطعة وإن كانت جميعها ليست من النوع نفسه»<sup>(٣)</sup>.

وأجمل القرآن الكريم صورة النمو في مراحل الطفولة، وذلك في قوله تعالى: (يا أيها الناس إن كنتم في ريب مما نزلنا بآياتنا فكأنم من قوم لم يلقوا بشيء من ربهم فكنتم من ضلعة مضطربة وغير مضطربة لكون لكم ربكم في الآيات ما تشاء، إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً لنتلقوا أشتكم ومنكم من يلقى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً) (٥-الصح)، فلتصور في القرآن مراحل متعددة لها نقطة البدء، وأنها نقطة النهاية، وبمبهما مراحل ومن التطورات الارتكازية والمنظمة. التكالمة التي تهدف إلى تحقيق النضج<sup>(٤)</sup>.

## أنواع النمو

يميز الباحثون النماذج من النمو بتعدد بعضها ببعض، وتتواصل حاملة معها عناصر وراثية وارتكازية اجتماعية في تفاعل موصول ما بين نقطة البدء، حتى نقطة النهاية متصلة

في:

- النمو الحسي: وهو يتصل بالجانب الفسيولوجي لجسم الإنسان، فبذلك وبذلك ويميزاته التكوينية من لون وملامح تظهر فيها بوضوح آثار العامل الوراثي، وقرار العلماء: «إن التغيرات في الإنسان تحدث بمرتين من الرسائل أخضعها يجعل من الفرد إنساناً لا كائنات أخرى، والتدريج الآخر يجعل منه فرداً متميزاً»<sup>(٥)</sup>.

- النمو الحسي الحركي ومحوره التحكم في العضلات، ويمكن تمييز التحكم الحركي الذي يتدرجاً مسيراً للوضوح الحركي، ولتحكم مكتسب يتدرجاً نتيجة لتلقي خبرات مستثمر عند الإنسان في مرحلة الطفولة.

- النمو العقلي هو ما يتعلق بالوظائف العليا Higher Mental Functions كالإحساس والإدراك والاشياء والتفكير والذاكرة والتخيل، وكذلك التغيرات المتعلقة بالذكاء، والصفات العقلية<sup>(1)</sup>.

- النمو الاجتماعي الوجداني، ويتضمن الجانب الوجداني من التكوين النفسي للطفل مثل الحب/الكراهية، القوّة/العدوان، الأمان/القلق أو الخوف، الهدوء/الغضب<sup>(2)</sup>، وليسو الاجتماعي مظاهر عضوية، ومظاهر عامة تظهر في سلوك الفرد عند المواقف.

- النمو الاجتماعي، ويتناول تكيف الفرد في المجتمع وعلاقاته بالأطرين وشبكة الأعراف المجتمعية والقيم الأسرية، والتزامه الديني<sup>(3)</sup>.

- النمو اللغوي، اللغة نشاط أساسي عند الإنسان، فمن غيره من الطيور، وهي أداة الفكر والاتصال، بل هي النشاط الإنساني الفاعل بالحدوث أو بالظهور، بمعنى لسان، تعرف الإنسان لحظة من الكلام فالتلفظ لا يتوقف، إذ هي مستمرة حالة من النمو المتصل في الداخل، ونحوه من الخارج، لحظة الفعل اللغوي لا تقتصر على المتحدث فالسميع في حالة نمو لغوي، وبذلك القاري، وهي حاضرة في جميع أحوال الطفولة وسلوكه الاجتماعي، وهو في حالة نمو لغوي متصل.

ويعد سميت النمو اللغوي من الأبحاث التي شغلت علم اللغة الاجتماعي وقام عليها علم اللغة النفسي، واكثر هذا البحث الدارسين منذ بدء الاهتمام باللغات ونشأتها ودراسة انتمائها وتطورها، ولذلك كان الاهتمام بالنمو اللغوي عند الطفل نقطة البداية، لأنه يمثل المراحل المختلفة للنمو اللغوي، وتعود هذا البحث إشكاليات عدة متى يفطن الطفل للغة، وبسببها، وهل يرتبط بتأخر الكلام وتأخر النمو العقلي؟ أي ما علاقة الذكاء بالكلام؟ وبالمراحل التي يمكن تمييزها في سير العملية الكلامية؟ وهل اللغة سلوك نظري؟ وهل تكون سرعة النمو في الأنواع المختلفة واحدة؟ وهل تتداخل أم تتباين؟ إذ يفسح الأرشاد بين نواحي النمو الطفولة بشكل خاص في الأيام الأولى من حياة الطفل، حيث نعتبر علينا في هذه المرحلة أن نميز تمييزاً واضحاً بين ما هو عقلي وما هو حركي، وما هو اجتماعي وما هو انفعالي. غير أن كثيراً من هذه النواحي التي كانت في الأصل

متشابهة غير معينة تصبح بمرور الزمن بعد ذلك أكثر تحديدا وأكثر تميزا. ولو أن الصلة الوثيقة بينهما باعتبارهما جميعا أرجحها لشيء واحد نقل موجودة<sup>(٩٠)</sup>. ويقرر العلماء أن المظاهر السلوكية للشفقة لا تنمو منحنى واحدا عند النمو لا في الزمن ولا في المستوى الشكلي. ومعنى ذلك أن لكل مظهر من مظاهر النمو المنحنى الخاص به فمعزل الزيادة في النمو الجسمي مثلا يكون كبيرا في المراحل الأولى من حياة الطفل، في حين يكون معدل الزيادة في النمو اللغوي أقل بكثير في الفترة نفسها. كذلك تزداد سرعة النمو الجسمي في مرحلة المراهقة في حين تبطئ سرعة النمو العقلي في المرحلة نفسها وهكذا<sup>(٩١)</sup>.

### منشأ العملية الكلامية

الكلام صلية معينة معقدة تتبناها أجهزة متعددة في الجسم الإنساني، ويؤثر فيه عوامل خارجية تساهم في أداء العملية الكلامية مثل الظروف الاجتماعية، وتأثير الحالة النفسية للشخص، بل حالة الطقس والوقت وما يشابه على المجتمع من تغيرات موسمية واقتصادية يتفاوت تأثيرها في الهبات الكلامية عند الفرد. وكذلك مصادر العملية الكلامية من العلاقات التكاملية بين النمو الفسيولوجي والنمو اللغوي بل إن أحد العلماء (تيرنر Turner) تحدث على عامل التنضج والنمو للأعضاء الفسيولوجية، فالتدريب يكون ذا مفعول أعمق وأقوى كلما كانت الأعضاء أكثر نموا ونضجا. وإن نمط الاستجابة يكون مع النمو أكثر وضوحا وتضجيدا<sup>(٩٢)</sup>. فالعملية الكلامية تنضج لتؤثرين: مؤثر داخلي وهو آلية التنطق، ومؤثر خارجي مكتسب. وكلا المؤثرين يعتبران تركيبة نظام معقد تشابهات متصل بأنظمة أخرى داخلية وخارجية. فتمنح لكي تلفظ باللغة واحدة تحتاج إلى ترويض عدة عضلة من عضلاتنا، ولابد أن يتم ذلك في توقيتات محددة معلومة، فالمعضلات المتحركة في صندوق الصوت أو الحنجرة لابد أن يتوافق عملها، الذي يسير في شبكات عصبية في قشرة الدماغ، مع العضلات المسيطرة على حركة الصدر والبطن. كما يرتبط كلاهما بحركة عضلات الفم والحنك. ولعل أشد الألمان الموسيقية تعقيدا يقتصر في توافقه هذا تحتاج إليه جملة واحدة لنطق بها كقولنا: إنه يوم جميل جدا<sup>(٩٣)</sup>. والجانب الآخر هو المؤثر الخارجي، أي الذي يكون فيه التكلم مكتسبا متأثرا بما يعيط به من نتائج لغوية، أو يؤثر على آلية التنطق عنده، وعلى عامل الفعل في إخراج اللغة، ويقصد به مجموع العمليات العقلية من قبول ورفض والتذكر وتخييل واسترجاع... إلخ.

## مراحل سير العملية الكلامية

المرحلة الأولى من مراحل التمر القوي مثل غيره من أنواع التمر لا تحدث دفعة واحدة، ولا ينتج من عدم. وقد كان تقدم العلوم اللغوية في رعاية الأم والطفل أثر كبير في كشف كثير من الأغوار المخبئة حول مراحل التمر القوي، بل إنه مسح معلومات شائعة في تحديد بداية سير العملية الكلامية. إذ كانت مرحلة الصراع هي المرحلة الأولى للغة التي يجمع عليها أكثر الباحثين، إلا أن العلم الحديث كشف عن استجابات الطفل المبكرة للغة وهو جنين في رحم أمه<sup>(1)</sup>. ويترافق لدى بين الأصوات العالية الفجائية التي قد يستجيب لها ببركة غيفة داخل الرحم، والأصوات الموسيقية الرقيقة<sup>(2)</sup>.

وقد أثبتت الملاحظة العادية للأحداث أن معظمهم يعملون أطفالهم باليد اليسرى ليضعهم في جوار القرب فمساعده على فهمهم<sup>(3)</sup>.

وتتميز العملية الكلامية بمراحل

### أولاً: مرحلة ما قبل اللغة

وهي المرحلة التي يستعمل فيها الطفل الأصوات العشوائية من صوت الطفل وأنها ترصد مواقف لغوية يصدران من الطفل. انطلاقاً من هذا المصراع والمصراع، والأخر يكون الطفل فيه متلقياً للغة من حوله، ويعوم الأصوات الإنسانية أو غيرها.

واستماع الطفل للغة يخلق له متعة غشائية خلال الشهر الستة الذي يتعثر في صلبه الجانوس ويتصحب قاعداً عند سماع صوت الأذن، ولا يعني هذا بالضرورة فهمه للغة، بل هي صرخة شهر فقط يتصحبون الشعر والأغاني والقصص على الرغم من أنهم لا يفهمون شيئاً مما يسمعون. ويبدو أن الصوت وحده هو الذي يفهمهم وليس معاني الكلمات<sup>(4)</sup>.

### مرحلة المناغاة

وهي داخلة في المرحلة السابقة إلا أنها تتميز بإصدار الطفل للأصوات الإنسانية جميعها حتى الأصوات التي لا توجد في النظام الصوتي للغة أو لغة المحيطين به، كما أنه كلما تقدم في العمر اختفت الأصوات التي لا تستخدم في المحيط القوي حوله<sup>(5)</sup>.

ولمست تعلم لهذه التغيرات طرقاً انفعالياً محدداً يمر أن الطفل وفرد في أحوال متفاوتة في

الراحة والشبع، أو عند الآثارة البصرية أو السمعية، ولكن قبل المداخلة مرحلة واحدة إن المداخل المداخلة للأطفال في الشهر الثاني يلاحظ مراحل طاقية لا إرادية تنحصر من الطفل أولاً، ثم تعقبها مرحلة إرادية يكون الطفل فيها فاعلاً لا سعيب أو مثير فقط، وإنما فعل إرادي ذاتي محض يستمتع الطفل فيه بسماع صوته<sup>124</sup>، وتكون المداخلة فعلاً إرادية عند التجارب مع شخص يتابعه كأن نلقي له الأم أو يلاعب أحد الكبار بالأشغال الذين تربوا في منازل تتعامل الأم مع الطفل اللعب اللغوي نخدمهم يتلفظون أكثر ويصورة أكثر تنوعاً ويسعوا من الأطفال الذين نشأوا في بيوت تكون فيها مثل هذه التبادلية قليلة<sup>125</sup>، ويمكن القول إن هذه المداخلة لا تكون تقليداً وتبقى مهمة الكبار فاصرة على التحفيز والمشاركة فقط فهي نوع من التواصل الإنساني من جهة، وتطوير وتكوين تجريبي يستفيد به الطفل للمرحلة اللاحقة فهو في المراحل المتقدمة من فترة المداخلة يترك التفرع الصوتي العنصرية، ومن ثم يحاول إضمار إمكاناته الصوتية للتجريب، وينتقل بسماع ضالقات فطرية مع ملاحظة أن ما يصدر عنه لا يعود كونه لسياً بالأصوات قد يخلق فعلاً اجتماعياً، لكنه ينسحب عن أداء الوظيفة الرسمية للصوت<sup>126</sup>.

## مرحلة الكلام

يختلف الطفل اللغة من الآخرين، ثم يعبر عن ذلك بالأكاء والتقليد، ويراعى النشاط الاستقبالي نشاطاً تعليمياً مبدئي للطفل للتعليم اللغوي استناداً إلى عدد من العمليات الذهنية التي ترتبط بنمو الإدراك<sup>127</sup>.

فالطفل يتعلم شكل الألفاظ الصوتي والتركيبي اللغوية، ولكن وفق تنظيم يسيطر عليه ذاتياً ويتحكمه قدراته الصوتية والإدراكية، ويتمسك ذلك في نطقه مطلقاً ما يسمعه، لما ينطقه كثيراً ما يختلف إما في نوع الصوت (خس/عس) نتيجة للأبدال الصوتي، أو في ترتيب الأصوات وهو ما يعرف بالقلب الكائني مثل (سككة — سككة)، ويحدث في تركيب الجملة تقديم وتأخير أو حذف لبعض أجزاء الجملة، وقد يكتفي الطفل أحياناً بنطق الجزء الأخير من الجملة المسموعة، مثلاً لو سألنا الطفل (أنت تحب السيارة أو الطائرة؟) لأجاب الطائرة، ولو كان السؤال (أنت تحب الطائرة أو السيارة؟) لأجاب السيارة، ورغم كل ما يطرأ على لغة الطفل من سمات شططية بغيره بها إلا أنه يتقن برعي شديد الفهم السائد في لغته القومية<sup>128</sup>، والطفل حين يكتسب اللغة دائماً يكتشف قواعد تلك اللغة<sup>129</sup>، وتتعلق مراحل الإدراك اللغوي مترابطة مع قدرات أخرى

وهي: الإدراك السمعي، والإدراك البصري، وتتضافر لفترة السمع والبصر على ترجمة حركات الشفاه، ويميز الأباء الحركي للمتلهم الذي يقلده الطفل بوعي شديد فتلحق شعب حركاته الجسمية أو كينماتية (Kinematic) التي تميزه عن سائر الشعوب، وهذه الحركات يتعلمها الأطفال في السنوات الأولى من حياتهم كما يتعلمون لغة بلانغم سواء بسموا<sup>(17)</sup>، مثال ذلك ظاهرة التصفيق المصاحبة لأغنية التصفيق، فيكتسب الطفل التصفيق تدريجاً من الفعل اللاإرادي إلى الفعل الإرادي الواعي، فالمشاهدة عنصر أساسي في العملية الكلامية، وللكشفون الذين استكملوا الفترة على الإدراك السمعي يكتسبون اللغة، لكنهم يفقدون عنصراً مهماً في تكاملها بالأداء الحركي، والإحساس الحركي، لذلك لاحظ الباحثون فروقاً في لغة الكهف ولغة من كف بصره في مرحلة تالية من طفولته أو عمره، وبحقيرة مدح مثل طه حسن الوصفية تفسر بقوة الطويل الذي ازدادت مدته بعد أن كف بصره فاستلهم ما الظن في ذاكرته من مشاهدات، ويعتمد الإدراك الحسي والذهني بداية الفترات، وتشمل فترة الإدراك الحسي في الفس والتشويق، وهذه الفترة لتضيف للطفل مكتسبات معرفية تسمى فتراته الذهنية<sup>(18)</sup>، وملاحظة الطفل وهو يتعرف على الأشياء، بلعمما يوضحها في الفهم مباشرة تكيف لنا أهمية الإدراك الحسي، ولهذه الفترة أهمية مؤثرة في تعليم المكشوفين<sup>(19)</sup>، والإدراك الحسي والتشويق فترة فطرية يولد بها الطفل، فهو يخرج للحياة مزوداً بقدرته على الحب، بل إن هذه الفترة هي نافذة إلى المعرفة.

وتتم الفترة على الإدراك الذهني سابقة الفترة الكلامية<sup>(20)</sup>، والطفل قد يفهم آلاف الألفاظ، لكنه لا يستخدم منها إلا قليلاً<sup>(21)</sup>، فالطفل قد يستطيع تمييز الطلب الترجمة إليه، ويحبب عليه بالحركة مثل: أن يُسأل الطفل في سن ثمانية شهور وتسعة شهور أين عيناك أين فمك... إلخ، أو أن يسأله أين بابا فيرفع يديه إما إلى صورته أو إلى الباب منتظراً طوقه، كذلك فترته على التقليد نتيجة الإدراك الذهني، فهو يقلد الكلمة صوتياً دون أن يدرك معناها، أو إخراج أصواتها، فهي (أمية الصغالة) يستطيع الطفل أن يتابع التصفيق مع الأغنية المقتاة.

### صداقة حلق السبابا من طور ثمانية عاماً

وكذلك في القصة الحركية على الأصابع (هذا بابا... هذا بابا)

ولا تفل الفترة الذهنية عند الفترة على التجارب أو التقليد، فالطفل قد يتجاوز تلك إلى الفترة على تمييز الخطأ من الصواب، وذلك عندما تقوم الأسرة بتصحيح نطق الطفل الذي يعمل مع



تقدمه في النمو على استخدام الأخطاء، واقتنيه لأبلاط الخط، وكل هذا يتركز على تثبيت الأصوات المخطئة بكثرة أمام الطفل فتنطبع في ذهنه. ويبدأ بالتحرف على دلالاتها<sup>(32)</sup>. ومن إبداع الطفل الخطا إبداع طفل في الثانية من عمره أن الصواب في اسم أمته اللولوبة حينما هو (أميد) لا (أميد) وقد كان يناديها (أميد) قبل شهر فقط. وتزداد مقدرة الطفل على إنتاج قواعد اللغة والقياس على أمثلتها، إلا أنه يواجه بمشكلة عند تعمد القواعد الخالصة مثلًا بالاء، (شاطر/شاطرة)، (حلو/حلول)، إلا أنه عندما يقرئ (أحمر/أخضر)، (أخضر/أخضرة)، (أخضر/أخضرة) يطلب بتصحيح الخطأ، وكذلك الجمع فهو يتلقى قاعدة الجمع السالم أولاً، وذلك بسهولة احتمال اللاحقة على الفرد، لكنه يخطئ عند اختلاف القاعدة. فجمع الصفات اللونية أيضاً يأتي على جمع السالم (الأخضرين)، (أحمر/أحمرين)، شيطان/شيطانيون). فالطفل لديه مقدرة فائقة على تنوع مفرداته اللغوية إذ سجلت مرة إلى الجانب الشكلي من اللغة، وأخرى إلى الجانب المعنوي<sup>(33)</sup>. وفي مرحلة الإدراك المعني تتركز إيجابية الطفل في (الخطأ) وهناك من الباحثين من يرى أن الطفل لا يكتسب اللغة عن طريق محاكاة البالغين، بل إنه يفعل ذلك عن طريق الفرضيات<sup>(34)</sup>. والفرضيات تظهر في سلوك الإدراك المعنوي من قاعدة هي من الخاصة ظهرت أبحاث دور من لكنها إلى لغة المحادثات الكلامية. وفي لغة لا يستخدم في توليد البنية المعنوية وإنما اكتسبتها من مساعدة المتكلمين التي نالت أخصاً هي واجد لها أيرو أصحاب نظرية تحليل المعلومات أن الأطفال في كل مكان في العالم يتعلمون قواعد لغوية بالغة التعقيد بسرعة فائقة، مما يوحي بأن الإنسان ذو تركيب خاص يؤهله لاكتساب اللغة التي يتقنها. وتكون الفرضيات حول كيفية بناء التركيبات اللغوية، وأصحاب هذه النظرية يسمون الطفل في تعلم اللغة على الطفل الاستيعاب<sup>(35)</sup>.

وتعد قدرات الإدراك المعنوي بصورة متنوعة، مثل قدرة التفكير التبادلي، والقدرة الاستقرائية والاستنباطية والتكيفية<sup>(36)</sup>.

وبعد استخدام الصحيح لزمنة الأفعال وأقسام الكلمة والتسلسل السليم للصفات والأسماء والأفعال والشروط في جعل مهارات اكتسابها الطفل عادة من دون تعلم مباشر<sup>(37)</sup>.

### الخصائص المعينة لغة الموجهة للطفل

إن مقدم الطفل لا يفرص نظاماً لغوياً خاصاً للأسرة، وإن كان يلون لغة الأسرة السائدة.

باستخدامات لغوية استجود مع مقدم الطفل، فقد درجت أسر كثيرة على معاداة الطفل منذ اليوم الأول بلغة مبرزة لها خصوصيتها، فالطفل يتعرض للنظامين لغويين: نظام خاص يوجه له فقط وآخر عام يشمله بقية أفراد الأسرة المحيطين به، وينتبه التكلم إلى التفريق بين مستويي الاستخدام فيستكين طرائق لغوية وفنية عند معاداة الطفل وإن كانت أحد جوانب النظام اللغوي العام الوجهة التكلم، فالفنية الطفل مختلفة والتكلمات (المرادوي والمساوي) لها نظامها، وتسمية الأشياء والأعلام لنفسه مسئلة مختلفة عما يطالب به التكلم. والطفل يسمع اللغة حتى وإن لم توجه له بصفة خاصة، ومن ثم يتعرض للآليات اللغوية بين المستويين الوجهة له والمستوى الوجهة للتكلم.

### وأهم ما تتميز به اللغة الوجهية للطفل:

١- الكلمة الجملة: تسلسل الكلمة الفردية جملة واحدة مثل (عم) أو (لم) - بالهمز المفصلة - وهي تقابل شلال طلمات - ومنه كلمة (سبح) وهي بمعنى اتق، ويصاحب النطق أداء حركي يميز المعنى، ويكشف دلالة، ويكون الطفل كلمته الأولى بدالات مختلفة فهو يسمي التوافق اللغوي المتصلة بشئ، محسوساً باسم الشيء ذاته، فقد سمعته شيئاً كانت كلمة كرة (كلاه) من كلمته الأولى - واللام المفصلة - فإذا أراد الكرة قال (كلاه)، وإذا لعبها قال (كلاه)، وهنا يمد الصوت باستمرار ما تخرج فيه الكرة، وإذا أراد إرضاء الأم أو الإخوة يشوهد إليهم هذا الكرة مكرراً (كلاه، كلاه) كالما التكرار إلحاح في طلب الرضا.

وتعبر الكلمة الأولى بأنها قد تكون: إما محاكاة للغير، وإما أول كلمة يفهمها، وإما أول كلمة يستعملها الثاني<sup>(٣)</sup>.

ومن الممكن أن يغيب، أن الكلمة الأولى هي الكلمة التي تعقل له متعة وسعادة.

٢- التصغير: تكثر صيغ التصغير في اللغة الوجهية إلى الطفل، ولذا فله أنها ممة من سمات الوجهة الطفولية، مثل: «طيطيه، أميه، أليه، أوليد»، ومن الأسباب التي يمكن أن ترد إليها ظاهرة التصغير مناسبة صغر حجم الطفل، كما أن التصغير شحنة عاطفية تطغى فيها الانطاف على تنعيم يتجاوز البنية الصغرى إلى ما يتصل بوجودان الصغير فوسمه ويطلق به.

وثمة مقولة هي أنه: «كما يسمع الطفل ينطق، فلهذا التصغير تمثل نموذجاً يحتذى، وهي تحاكيه في اللغة الوجهية له وفي الألفاني التي يسمعها».

## تفسير الدويو ما شطت اليها

والأم تخاطبه في أثنائها بلفظ (الويدي) أي: يا ويدي، أو أيتها (البيتي) أي: بيتي، التي تسميها بسمية الصباح متحدة.

## صباحك أصبح والورد والنفاح وعوينك هالزينة سلايلة الأرواح

والتفسير يتناول صفات الطفل وما يحيط به.

٢- وجود الكلمات التي تماكي الطبيعة مثل: صوت السيارة (عن)، ولذاعة الطفل (الورد)، والعنق (الصباح) لارتباطها بالذلات العسية التي يتركها الطفل.

٣- الكلمة المقطوعة يظهر الطفل في يد، نطق للكلمات جلا شديدا إلى تكرار في مقاطع الكلمة (أيد، وروح، صبا، بابا)، وتعين الكلمة **الطسمية** الطفل على تكرار نطقها وتثبيتها في لغته بما لها من سهولة في النطق وجرح من صوتي موسيقي، يرى بعض الباحثين أن أول ما يتعلمه الطفل ليس الأصوات المنفردة، أو الكلمات، بل المقاطع <sup>(٣٧)</sup> التي يوجد الكلمات ذات المقطع الواحد للكرر مرتين مثل الجرح (يودو) والسيارة (أيدو)، والتكرارات الجيدة (أنا)، وأقرب الجديد (البيتي) فيه ربط بين المقطع الصوتي والدلالة بعبارة ما لأصوات الطفل الطويلة من فهم خلاصة.

٤- وجود أسماء أصوات وأسماء أفعال مثل (الآرد) الرز، ذلك أن إلهام الطفل الرز يقتضي ترويه بلفظ الهواء، وهو ما تمكنه كلمة (الآرد) فتشعر الطفل بحرارة الطعام وشرابه على الصبر، وأما الطفل فيلزم بين الصوت (الآرد) والرز، فهو يصدر هذا الصوت (الآرد) حين يرى الرز مرة أخرى، ومثلها كلمة (أج) يعبر بها عن الحار بعد تعرضه للشمس شبي، حار.

٦- كثرة استخدام الألفاظ التي تتصل بالعتمادات الطفل من ملابس مثل: (التيبي)، والطعام (الناج)، بعض العيوانات الغزالية مثل (الهدج) للفتو، و(الروح) للكلب، و(النور) للقط <sup>(٣٨)</sup>.

وإنش اللغة الخاصة الموجهة للطفل عاتقا - في بعض الأحيان - بحول دون النمو اللغوي المأمول للطفل، فإذا ما استمر الأمر في مساهمته بذلك اللغة الخاصة فقط تظهر بعض إسقاطات تلك اللغة بين حين وآخر في مراحل متقدمة من عمر الطفل، وقد رصد الباحثون مميزات مثل (المير) و(النور) عند بعض الأطفال الكبار <sup>(٣٩)</sup>.

والوقوف القوي للطفل بأخذ بعينين: بعد اقفي وفيه يتبادل اللغة مع لقراءة، وبعد راسي وفيه يتبادل اللغة مع الكبار. وتتلقي هذه الترتيبات في الموقف اللغوي مع ما يقع فيه من مستويين لغويين صاعدين من الكبار امدهما بلغة خاصة موجهة، والآخر بلغة عامة موجهة للكبار. ومن ثم شابه لغة الطفل الصاعدة منه سمات اللغة الموجهة إليه.

### خصائص لغة الطفل

تتميز هنا بعض الظواهر في الأصوات وشكل الجملة، وأنواع الكلمة الصرفية في منطق الطفل في السنة الأولى.

### الأصوات

تتميز مرحلة الثالثة بإطلاق الطفل للأصوات العشوائية المتكررة الوحدات، وتقل فيها الأصوات العشوائية التي تظهر منها مبكراً أصوات العشوائية والخلط. ثم العشوائية والعشوائية، وأخيراً الأنظمة<sup>(1)</sup>. وتتميز الأصوات العشوائية بالقاء، وليس ثم الدق بالونية الظهور<sup>(2)</sup>. ويستعمل الطفل سبعة أصوات مختلفة: تيم الظهور الثاني<sup>(3)</sup>. ويلاحظ أن الأصوات الأولى (العشوائية والعشوائية) هي أصوات لا إرادية، بل طبيعية لهذا الطفل. أما الأصوات المتكررة الإرادية فهي تتطلب مجهوداً لا ينال الطفل إلا بعد حين. وقبل أن تستعمل أعضاء الطفل عند الطفل كفاهاً يلجأ الطفل إلى التبدال فكلمة (براية) تصوير (براية/براية) ويتغير شكل الكلمة بالخير والتضعيف. أو مثل الحركة تعويضاً عن المصروف. مما لا يستطيع نطقه إما ذات الصوت أو كان الصوت جاء، مجاوراً لصوت آخر في منظومة صوتية متشابهة من صوات وحركات فكلمة مثل (علك) سمعتها من أحد الأطفال بقولها (علك) لحذف اللام وغرض بتضعيف الكاف. ويتخلص إلى الإغناء وكلمة مثل (عند) -علم- يستبدل بالحاء، حمزة (أما)، والغريب. أن الطفل يوظف أصوات اللد (خدم) إذا كان قريباً (أمد) من دون مد، وإن كان بعيداً فهو (أما).

وإذا كانت أصوات الكلمة المستوعبة جديدة على الطفل فهو يلجأ إلى كلمة أخرى لصواتها أكثر لغة لديه. فمثل الأطفال -صمره سنا- كان يعرف اسم القاصصوليا فلما طلب منه أن يعطي إحدى الزلات وأسمها (سهيولة) قال خالة قاصصوليا. وليس للملاحظ هنا مجرد معرفة كلمة (قاصصوليا)، بل الخروج في نطقها وفق مدارج الصواتها، كما اكتسبتها أصوات اللد تشكيلاً قطعياً مقبوحاً

بغلاف الاسم (سهولة)، ويظهر أحد الباحثين أن الأصوات التي هي أكثر تميزاً (More Marked) من حيث ملائمتها للميزة (Distinctive Features) أصعب في الاكتساب من الأصوات التي هي أقل تميزاً (Less Marked)، إذ يتدرج الطفل في اكتسابه الأصوات من الأقل إلى الأكثر تميزاً<sup>(17)</sup>.

## النظام الكلامي في لغة الطفل

### شكل الجملة

١- الكلمة الجملة، وتضيق الظروف النطق في بداياتها من عدم تمكن وضبط، وتبدأ في أواخر السنة الأولى وبداية الثانية.

٢- الجملة من كلمتين، وتبدأ في النصف الثاني من السنة الثانية حتى الثالثة، وتتميز هذه الجملة بأنها تتكون من كلمتين يطلب عليها الأسماء، ولابد أن يتصدر الاسم إن ظهر الفعل مثل (أعصم اخذ)، (يصر قال) إلا في الصيغ الأسمية، وهي كلمة (أوصاه).

٣- تطور الجمل بعد ذلك بتراكيب الأدوات القارئة مع تقدم العمر.

<http://Archivebeta.Sakhsa.com>

أنواع الكلمة الصربية:

١- الأسماء، أكثر شيوعاً من غيرها، وتظهر كثرة شيوع الأسماء لأن الطفل يتعرف على الحيوانات، وأما الأفعال فإنها تختلف عن الأسماء في الاستخدام، فالأسماء هي أول ما ينطقه الطفل وهو يتعامل لغوياً مستقاراً من الأشياء التي تحيط به.

٢- الأفعال، يرد في إحدى الدراسات أنها تشكل ربع الكلام فقط<sup>(18)</sup>، ويفسر شتيف الأفعال في كلام الطفل أن الأفعال ترتبط بمفهوم الزمن الذي لا يكتسب ولا تتم السيطرة عليه إلا في مراحل متأخرة من الطفولة<sup>(19)</sup>.

٣- الحروف والأدوات:

إن طبيعة الحروف والأدوات الوظيفية ذات دلالات تجريدية لا يدركها الطفل في المراحل الأولى للكلام فهي تحتاج إلى مهارة في التركيب، وبخلافه في الاستعمال، وهذا لا يتيح للطفل في بداية الكلام، لذا فإنها تلتزم، وبذلك نستنتج عنى يستكمل الطفل قدراته اللغوية، وتربك الطفل أحياناً،

فقد كان أحد الأطفال لا يفهم كلمة (عند) في امر الأم له: (تأم عند الجد)، ففسل عن معنى (عند) ذلك لأنه لا يفهم (عند) إلا للملكية في فهمه (عندي كتاب/عندي قلم) ومثلها: عندك، لكن الجدار كيف يكون له (عند)<sup>(14)</sup> فالأصوات والحروف تختلف دلالاتها في سياقات متعددة، ولا يلقن الطفل مهارة توطينها في الجملة إلا بعد أن يحصل على خبرات لغوية ومساعدة من الآخرين<sup>(15)</sup>.

### معارف النمو اللغوي

هذا مبحث دقيق في درس النمو اللغوي، وثمة دراسات مستفيضة في هذا الموضوع<sup>(16)</sup>، لكننا نشير هنا إلى أهم عوامل هذه المعارف:

1- عامل معنوي.

2- عامل نفسي.

3- عامل بيئي.



وتتجملها على النحو التالي:

1- ظهور الأصوات.

2- ظهور مهارة النطق<sup>(17)</sup>.

3- ضبط التفكير في ترتيب الطفل على النطق<sup>(18)</sup>.

4- عدم تنوع لغة الخطاب بالنسبة للمتحدثين مع الطفل من حيث: اقرباء، وأخريات، كبار وصغار، ذكر وإناث، في المنزل أو خارجه<sup>(19)</sup>.

5- المستوى الاجتماعي والمادي للأسرة الطفل، فقد دلت الدراسات على أنه كلما ارتفع مستوى الأسرة مائياً واجتماعياً، وتعددت طبقاتها التنموية في المجتمع ازداد الحصول اللغوي للطفل، وذلك لأن هذه الظروف تؤدي إلى اتساع نطاق خبراته<sup>(20)</sup>.

6- عدم التساهل في إطلاق حرية التعبير، وضبط التعابير بمعنى تصحيح النطق لغيرها وصرفها لا صوتها فقط<sup>(21)</sup>.

7- تعميم الكلام على الطفل إلا في أوقات محددة<sup>(22)</sup>.

٨- انزعزال الأطفال سواء في اللامعة، أو تركهم مع الضم أو لعنل الأم ساعات طويلة، وانشفالها خارج البيت أو سفرها فترات طويلة، والعزلة أيضا تقصر تاطر لغة التواصين اللذين يتركزان معا فترات طويلة، وتقصر أيضا جيوب النطق عند الطفل الوحيد الذي يعزل عن الأصقاء، ولا إخوة له أو أقارب يلتقي بهم.

٩- صعوبة التواصل اللغوي مع الكبار، فالطفل الذي يكثر القلب المكاني عنه، أو الإبدال أو العطف، يصبح غير مفهوم عند الآخرين دونسب، صالية العطف هذه صعوبة في فهم كلام الطفل ومعرفة الحاجة أو الفكرة التي يريد أن يعبر عنها، مما يؤثر على الطفل، ويؤدي إلى إرباكه وشعوره بعدم القدرة على إيصال أفكاره إلى الآخرين<sup>(١٦)</sup>.

## حواجز النشاط الكلامي

يستلقل الطفل مؤثرات مختلفة تعمل على تشكيل خصوصية اللغوي من حيث الكم والكيف، بعضها ذاتي وبعضها خارجي، فالذاتي مثل بقطة الطفل، والخارجي مثل الجماعة اللغوية ووسائل الإعلام.

### ١- العوامل الذاتية

#### بقطة الطفل

تكون بقطة الطفل المبكرة نتيجة واستجابة لإحصاسه والحاجة، فالحاجة للرضاعة تتطلب بقطة وانتباهاً وفعلاً، ومن ثم يتسبب الطفل ثلثية احتياجاته، وفي مرحلة الكلام يتفاوت الأطفال في استجاباتهم للعب والأفاني كل حسب درجة بقطته وقدراته الذاتية، فالفرق الفردية تؤثر في اكتسابات الجديدة التي تحقق الطفل اللغة والإحساس بالتفصي. وتتم هذه البقطة مع مواصلة الحديث مع الطفل ومعالجته كقرين، «فالعرض للغة أكثر فاعلية من تعلم اللغة» ويرى بعض الباحثين أن التخاصم مع الطفل اتمر على الإسراع في اكتسابه إيها، ولكن سماع اللغة يؤدي إلى تعلمها حتى ولو لم يمارس الطفل الكلام، لكن عملية التعلم تكون أكثر بقطة<sup>(١٧)</sup>، فالبقطة تعمل على إثراء معارفه الذاتية التي يستلزم الطفل حديثه في انتقاله، الفاط، وتعمل ما يريد فيها<sup>(١٨)</sup>. وتلقد البقطة في المحاورات الذاتية الجماعية التي «فيها يضم الآخر إلى فعله أو إلى تفكيره

آلتي، ولكن دون اعتقاد بأن يكون مسموحا أو مظهريا فعلا، إن وجهة نظر المتحدث إليه لا تتدخل إطلاقا في المتحدث لا بشكل إلا منها تظهر وتقبل في الاتصال بوضوح في الأوامر والتوصيات والتلميحات مما تظهر في تبادل الأسئلة والأجوبة<sup>(١٣٧)</sup>.

## ٢- العوامل الخارجية

اللغة نشاط إنساني مبدع، وهي أهم أدوات الاتصال الحضاري والتواصل الإنساني الاجتماعي، وقد أصبح عزل الناس عن بعضهم وسيلة من وسائل التعذيب، فالمسجون والظلي توحان من التعذيب، وأهم ما فيهما هو حرمان الإنسان من التكلم مع الغير، أو الاستماع إليه، أو كلا الأمرين<sup>(١٣٨)</sup>.

### المؤثرات الاجتماعية

#### الأم، الأسرة، الرفاق

الأم هي الفعل الأكثر أهمية في حياة الطفل فهو يتلقى منها الغذاء والمشاعر والتوجيه واللغة، والعلاقة بينهما تأخذ بعدا متكاملا، فكلتا متفاعلتين من أهم الأخر، والاحتكاك به، والتفاعل معه، كل بخصبيه، وكل له فاعلية في التأثير على الآخر وتعريف استجابته، ويرى (تريباتز) أن «المحيط الاجتماعي الذي يؤدي إلى التفاعل والتفاعل بين الأم والطفل، بشكل خاص الزاوية في التطور المعرفي اللغوي وإثرائه المعنى»<sup>(١٣٩)</sup>، وأهمية الأم تسمى اللغة القومية لغة الأم<sup>(١٤٠)</sup>، فالطفل يربط من الأم الغذاء، ويرسخ في الوقت نفسه التفاعلات، والتوروث الثقافي الذي تحمله له أمهاتها، ومداهياتها له، وترفعها له، وما يحصلها له، من حركة ونغم وتوجد الإشارة إلى أن الأم التي تربط الطفل عند طلبة نجد من الفرض المتفاعل معه والمحدث إليه أكثر من الأم التي توضع وفق برنامج محدد<sup>(١٤١)</sup>.

فالأم هي المدد الذي يغذي الأم تعبيرا عن احتياجاتها النفسية أولا، ثم يتطور ليأخذ بعدا وتعليميا تعليميا في مرحلة لاحقة من نمو الطفل، والتفاعل التلقائي بمتدوله - مثل كلمة «حبيب» - ودلائلها الحسية التلقائية بالتقبل - يكشف عن أثر أهمية المدد وتوافرها فهي تمدد في يوم الطفل من الصباح إلى مساء، تصاحبه في الأكل والنوم واللعب، ويأخذ اللعب جاذبا وتعليميا عند الأم، مثل لعبة الصفاقة، ولعبة هذا بابا هذا ماما التي تعرف فيها الأم الطفل على أفراد الأسرة، وفي بعض



البيئات البدوية سمعتها (إخّاخ نّاخ كليب البدو نّاخ) وهذا بعض الأسر الكويتية سمعتها (ضاح باح ككشلي نّاخ). ونهتزم الأم بترديد اسم الطفل على مسامعه، بل إنها تقلّد وتستهلّب تشكيل الصورة التلقائية لهذا الاسم ما بين ترخيم وتصغير وتعوير مثل: ابروه ترخيم إبراهيم، والمثله لعدداً منه. وفي أسماء البنات المحلية مثل فخرمة، بطومة، ولطيفة، لطوفة، وتلفس الأم الأسماء الحديثة على ما سمعت مثل: ديمة «ديومة»، فتقول :

**ديومة من تمر بعشقونها المصمر  
ويعزل بوحلاوة ويهبط بوترمر**

ومن طرائق التشكيل تلك التراكيب القوية التي تصف الاسم وتبرزه من ذلك:

منيرة خزنة الفيرة أو منابر خزنة النابر-القاجر-خيمودي دهن العودي، والريم خلقتها عظيم، وجعلني في السوق ليد لي، خصومي أم الخصوم، ملومي بياح الترمي، بدور سراج النور، سعد زينة البلاد.

ARCHIVE  
http://Archivebeta.Sakna.com

وللأم القدرة على اختراع مثل هذه التراكيب مثل اختراعها للعبة، ويلاحظ التزايد اللغوي بمعنى لكثير أوسع بعد أن يقدم الطفل سناً، فالأم تعادّل الطفل كثيراً، ولجيب عن أسئلته الأكثر، وتعير الطلب أسئلة الطفل إما عن لونه، وإما عن حاجة معرفية، وإما إثارة لفتاة المحيطين به، وإما الأسئلة التي لا يعرف إجابتها فهي التي ترتبط بمعرفة الأشياء، القدرة والصورة التي تثير الانتباه، والأم أكثر الناس قدرة على معرفة مخلوقات ما ينطق به الطفل، إذ إن معظم الاتصال اللغوي للطفل يتم مع أمه خصوصاً في الأشهر الأولى من العمر<sup>(١٣)</sup>، وتكثر بعض الأمهات في مخاطبتها الطفل من الأمثال الشعبية المتصلة بتربية الطفل وتوجيهه، مثل (بطلق روحه ما يصبوح) وهو يقال عند وقوع الطفل لثاء نغزته بشي، ما على الأرض، ويخضع من الفل السائق حرص الأم على تقوية صحة الطفل النفسية، وعدم الاستسلام لبيكاد، ومثل (يا ملشي ضرب الزلق لا تامن الطبيعة)، وهو أسلوب تحذيري ينهي عند الطفل النظرة المتقبلية للظالم من تصرفاته، ومنها (شور من الاستشار مثل سراج بالنهاش)، ويمثل الأمثال الشعبية البروق التي نصب فيها تجربة الأم ونقلها الأم لأبنائها لتتوارثها الأجيال فيما بعد فلا تذل الشعية رغم بساطتها تعمل من تجربة الإنسان صفاتاً جميلةاً لخصها الشعب حسب ظروف بيئته وبأسلوبه

الخاص<sup>(١٣٧)</sup>، والأم تقص على الطفل الحكايات الشعبية والسوالمف وفي الحكاية والسوالمف أفق رحب للشراء اللغوي، والانتساع المعرفي، عن تلك حكاية مريم أم القل والدليل<sup>(١٣٨)</sup>، والحكاية الشعبية تمكن الطفل منذ السنة الثالثة، وعالم الحكاية هو عالم الخيال المبتغى، فالطفل يجلس مشدوداً جامعاً كل فقراته الإبراهيمية ملتصقة لكل شاردة أو واردة حتى إذا ما توقفت الأم لتلطف نفسها أو لتذكر بأمرها بالسؤال (وبعد؟) ويقتصر دور الأم على الرواية أما العمل فهو للطفل إذ يعمل الخيال على رسم عوالم الزمان والمكان والشكل واللون مستغنياً عن خبراته السابقة في تشكيل الصورة، وإدراك ما جد عليه من معارف، وقد تثيره بعض الألفاظ فيطلب المعاني أحياناً، لكنها لا تبعده عن سياق الحكاية فواصل السؤال (وبعد؟) وتؤسس الحكاية الشعبية لقيم الجمال، وعالم الرفاء والطموح إلى مستقبل وروحي يشرق في عقل الصغير، ويتدمج الروحي بالخيال، ويبنى الصغير في مخزونه ذاكرته فيها تظهر في المستقبل، فلهذه الحكايات أثرها القابل في رسم صورة الشخصية القوية، وثاني ممارسات الأم اللغوية اليومية مدرسة يعلم منها الطفل ويؤمن بمصولة اللغوي سواء كان الخطأ موجهاً له أم لغوي أثناء ملاحظته لأمه وجلوته فيها، فلفظ التحية وما يحلق عليه (الرد والقبل) مثل (أعطاك السوق) تقال للمريض أو الضابط، وهو يوجب (أعطاك اللان) والآخر هو عبارة الشخص للطفل يقال في الجملة (يا حلو) فيجيب الشخص الآخر (حلوت نيك)، وفي التهنئة بعودة الغائب (فرحت عليك)، وجوابه (بوجه نيك)، ويتعلم التهجئة بكلمة من أمثلة التثنية وتساؤل على لسان الأم في مواقف مختلفة في التناول والتحصن والرضا والغضب والغطر والندم... إلخ. من ذلك للتعبير عن الحب (أحبك واليك) وللاستهزاء بما تسمع (خربوطة بربوطة) أو (خربو موي)، وللتعبير عن الأصوات الكثيرة (حنة وبرة)، ويقال في سباقات مثاقفة فإذا أرجمها الطفل فهو (حنة وبرة) وإذا أغضرت بيت الأسرة فله (حنة وبرة) كناية عن عمار البيت بالأهلين، والاختصار والاعتزاز (طش ورش) أو (صبت وصوت)، وفي تعديدها له على الالتزام بالنسك اللغوي القبول لاجتماعها فإنها ترد عليه ناعية إياه إذا قال (عد) ملابياً ضاحكاً بقلوبها (لا عود ولا في جليب نويت)، أما إن كانت في حالة غضب فتجيب (عودت في جليب)<sup>(١٣٩)</sup>، فلفظ الناسب للإجابة عن ناداتها هو (أبيه/ سني/ كعبو/ أبشري) كما تشارك مع أفراد الأسرة في توجيه الطفل للملازمات اللغوية مثل (السلوب، التشميت) والرباء، لن قال (عني الإجابة: (عدك الله بالإيمان وطاعة الرحمن ومعبودية الشيطان)، والصدوت الشهاب بين الأم والطفل أصمية في تنمية فقراته اللغوية، فالأطفال الذين تربوا في منازل تبادل فيها الأم مع الطفل اللعب اللفظي تجددهم يتلفظون أكثر ويصورة أكثر لثوباً وشموماً من الأطفال الذين

نشأوا في بيوت تكون فيها مثل هذه التبادلة قليلة<sup>(٢٧)</sup>. ونلاحظ الباحثون أهمية الأم وأثرها في أطفال المدارس العاطفية إذ أولئك الأطفال تزداد حصيلةهم اللغوية في فترة الإجازات. ويقابل ذلك أن بعض الأطفال الذين يتكلمون في السنة الثانية أي في بداية التمكن من القدرة الكلامية، يقضون موسمية الكلام عند سفر الأم<sup>(٢٨)</sup>.

**الأسرة:** الأسرة هي المؤسسة الاجتماعية الأولى التي يتعرف عليها الطفل ويشارك بها. وهي المسؤولة عن اكتساب الطفل أنماط السلوك الاجتماعي، وكثير من مظاهر التوافق أو سوء التوافق يرجع إلى نوع العلاقات الإنشائية في الأسرة<sup>(٢٩)</sup>. وهي المسؤولة عن تربيته الدينية وطبيعة معتقداته، طليقاً بجهلته أو بتعصباته أو بحساساته<sup>(٣٠)</sup>. والأسرة (الأم والأب والأخوة والجد والجدّة إن وجدوا). وفيهما كانت الأسرة الكبيرة تعيش في بيت واحد، الأعمام وأسرهم بوجود الجد والجدّة. وكان لهذا النوع من النمط الأسري إيجابية. وإن كانت له بعض السلبيات الاجتماعية. فبالنسبة للنمو اللغوي للطفل تكون الأسرة الكبيرة وأخداً بعد الطفل والقيم ويستمر يومه في ممارسة اللغة مع الكبار والصغار، ويتكلم من فهم المواقف وإيجاد الحلول لها نتيجة كثافة التغيرات التي يتلقاها. فهو يشارك أفراد الأسرة في كل ما يحدثه يومياً، وقد لاحظت شطرنجيا- في هذه الأيام أن الطفل الأول الذي يولد في أسرة كبيرة أكثر افرادها من الكبار يكون أسرع في اكتساب اللغة، كما أن حصيلة المفردات أغنى وأكثرت تنوعاً. ويتبين فهمه للمواقف وفكرته على التوافق الاجتماعي عن الطفل الذي يولد لأسرة تعيش مستقلة عن الأسرة الكبيرة. فالنمو اللغوي يعتمد في جوهره على تكلم الأطفال الصغار لأقربهم ولأقربهم الكبار في أصواتهم وحركاتهم للمعبر<sup>(٣١)</sup>. ومن الملاحظات الشطرنجيا أن الطفل الأول لواثنين على قدر من الثقافة والتعليم يتميز اكتسابه اللغوي ويتنوع قدراته اللغوية عن إخوته الأصغر منه سناً بوجود الوالدين معاً. والأسرة هي النوع الصافي الذي يستفي منه الطفل ثقافة القومية التي تتصلب فيه وتعمل على زرع الروح الوطنية والاعتزاز بالانتماء لمجتمعه. ومن خلال هذه الثقافة الاجتماعية المتوارثة يكتسب الطفل قيمه ومعايير الخطأ والصواب وطريقة التفكير المنظم، والمنطقية في التفكير<sup>(٣٢)</sup>. كما تقوم الأسرة بتكوين السلوك غير اللائق اجتماعياً، وتعمل على تهذيبه، وتنضبط هذه تمرکز الطفل على ذاته. وذلك بمعالجة بعض السلوكيات غير اللائقة مثل: العناد، العدوانية، السيطرة، القيادة، حب الذات، العداوة للمجنس الآخر، والغيرة<sup>(٣٣)</sup>. وتكون تلك المعالجة بالعيب وإعناق المواقف الوجيهة التي تقوي عند الطفل عامل التوازن النفسي، وتوجه سلوكياته عن طريق القدوة الصالحة، فالطفل الذي يستمع إلى أموره التي تكثر من استخدام أصاليب الشكر

والاستمرار، وتمثل القيم الأخلاقية العالية مثل الصبر والإحسان بالأخلاق والتجارب التي يكتسبها الفرد<sup>(٢٧)</sup>. مثل هذه الأسرة تكون دائما لمواطن صالح. وقد عرفت أسرة تخرج على ابنائها لفظ الملاحة بأي صورة اشتقاقية كانت، واستندعت إلى أسلاف في غاية الغضب، إلا أنهم لا يتجاوزون لفظ (الله يصطاد) مثل هذه البيئة القوية ينشأ الطفل فيها متوازنة. ففي النفس، صفات القناعة، قناعتها على إمرائه ما له وما عليه. إذ إن من خلال العلاقات الأسرية يتعلم الطفل مسؤولية الجماعة وقبيلها وتعاليمها، ويتعلم التعاون مع الآخرين والأخذ والعطاء<sup>(٢٨)</sup>. ويرى القروصي أنه إذا لم يتعد الطفل إمرائه هذا القهرم يتعرض عليه فيما بعد لتهمة فحلشاً شغولاً بما له من حقوق ناسية ما عليه من واجبات. وهذا عيب خطير في المجتمعات<sup>(٢٩)</sup>.

والأثر القوي للأسرة يحيط الطفل ويحاصره طيلة يومه، ويتبين هذا النشاط بممارسة اثنين من التأثير القوي الشعبي تتشكل في:

- لتأهيل الطفل.

- القاطع المتولد الاجتماعي القوي.

- المهني التام.

- الاعاز والمواصلات <http://Archivebeta.Sakhril.co>

أما الأسرة التي تقضي الطفل وتتركه للمدرجات فإن مسؤوله القوي يتأخر، وكذلك أطفال الأجيال<sup>(٣٠)</sup>.

### تأهيل الطفل

تتطلب الكبار الطفل متباينين حملة مغنح له:

«من إيماء إلى إيماء - بكبر ويزيد»

ويشارك الأب والأخوة في لعبة التصديق ولعبة عد أفراد الأسرة على أصابعه التي تعرفه وتب الأقراب. هذا بابا، هذا ماما، هذا خاله... إلخ. كما يستلهمون من الأم حكايات والتأثير للطفلة سواء كانت متوازنة مثل حمودي ومن العودي، أم مرتجلة نحو مفادتي لا بني، «لوسة حلاوة وموسومة» - هكذا تأميت ابني أوسا - وفي تعليمه المهارات للتصاغر اليهود في مساهمته

## عالم الفكر

على الجلوس، وعند بداية تعلمه الشيء تساهم الأمه في مساعدته بالغذاء والتطبيق وتعزيز ذلك بلغته من واحد آخر مفضل عليه من الكلمات ما يعينه على مواصلة التجربة حتى إتقانها، ومن الثاني تشجيع الطفل على الجلوس:

**بو أربعة ريعو وإن ما تعد صفعو<sup>(٢٧)</sup>**

والجاء الشيء:

**هذا هذا مشى وعدا حموي بمشي ببني عدا**

وفي رواية : عسى بمشي حق العدا

وفي اللعب معه يقولون له:

**قمير النودو ما شفت البابا فارش عباته قاعد يصلي**

ARCHIVE

يكتسب الطفل لغة التواصل الاجتماعي، وقد سبقت الإشارة إليها في حواضر النشاط الكلامي، فيتعلم كيف يرد على الكبار (سوا)، والجد (و)، وكيف يخاطبهم (خال عمرا)، وإذا أراد طلباً (الله يملك)، ويستمعهم يقولون إن قال (كرمك الله)، (كرمك)، وإن عطف واستعونه، وإذا عطف الطفل قالوا له:

**عشت واصلمك الله عشت وارحمك الله**

**عشت ولبعشت البعشت عشت وعشعشت**

**وأرسمت البيت فريطات<sup>(٢٨)</sup>**

ويتلقى الطفل اللغة التحية والتعزية في المناسبات كالأعياد والزيارات فيقبلها ويقلدها بصورة تلقائية، وبما يكتسبه الطفل من التأثير الشعبي في السطور المأثري الاجتماعي الكثر والانتاب، فالشيخ يعرف كنى خاصة به فكنية (عبد الطيف)، (يوشيس)، وعبدالله، بونيم (أبونجم)، ناصر، بوبتر، سلطان، بوماجد، عبدالحسين، بوبراك، عيسى، بوعبدالله، سمور، بوشاكر، أحمد،

بوشهاب، عبدالرحمن، بولبود، أما بقية الكتي فهي مشتركة في البلاد العربية مثل علي، بوحسين، وسليمان، بوداد، وعطوب، بويوسف، إلخ<sup>(٢٧)</sup>.

ومن مكتسبات الطفل اللغوية القاطع الدرج التي تكون عاملاً تمهينياً على توارثه انطلاقة في الجماعة وتوارثه معها، من ذلك: «كفر، والله/والنعم وسبعة/نعلم/ بيض الله وجهه/من أهله، والله»<sup>(٢٨)</sup>، وتعمل مثل هذه الألفاظ دلالات تعكس ثقافة المجتمع، فالعص النبوي وأصبح في ذكر الله في أكثر الألفاظ والعهد سبعة يحمل البعد الديني في مفهوم الكثرة العدديا، والدعا، بتبويض الوجه كتابة عن الفخر والفرح مما يشيخ، ثم «من هله والله» تمام الاحتراز بالأسرة، وعروفتها الضاربة في القدم المعروفة بالفضيلة والقيم، ويطلق الطفل كتابات لغوية سكت في قوالب لا تميز عنها القديح، مثل: «دابة الله بأرض الله/بطوقه عبيطة، وفي الشقائق ثور بنور/بحمار جد/عقرب رجل/حبة رقيقة/فطر مطايح»<sup>(٢٩)</sup>.



### الحائي الحاضيات وأناشيدها

يعرف المجتمع مناسباته الاحتفالية الدينية كالتفطير والاسرة، بل تطوف أحيانا فئات من الشعب على الأحياء-بطرقون الأرباب-مفتحة بالحنانية، أنهم في تلك الحائهم الشعبية-التي تعكس شعور الجماعة والدينية أكثر مما تعكس الشعور لفتيتها واللزقة، وهي تتسم بأنها غير ثابتة البناء، فهي كل لحظة من تاريخها يمكن أن يعاد خلقها من جديد، وإن تضاف إليها أشياء، وإن تحذف منها أشياء، كما أنها لا توجد في شكل واحد فقط، ولكن في أشكال عديدة<sup>(٣٠)</sup>، وتتميز الحائي الحاضيات والاحتفالات بأنها فصائل مطولة وأبست تقطعات كالفاني الهد والفرغيس، ولم تسالنا عن مؤلفاتها إن تعرف الإجابة فالرومي الجذعي قد وعاها، إذ إن الألفاني الشعبية-هي التي استمرت على مدى واسع، واشترك الشعب في صياغتها لتعبر عن ذاته وأصبحت من نتاج الجماعة وملكا لها<sup>(٣١)</sup>، كما أن حياة هذا الإبداع الفردي ولتشاربه مرهونة بمدى قبوله لدى الجماعة ورسوخه في وجدانها على مر الأيام.

وعرف المجتمع الكويتي مناسبات عديدة يعبر فيها عن الوجدان الشعبي مثل احتفالات التفطير، وهي عادة قديمة عند طيوس العرب، فكان أهل الكويت يعرجون إلى الشوارع حاملين للصليب وكل جماعة معها قائد إمام يقرأ والجماعة ترد بالتفطير، لا إله إلا الله، محمد رسول الله والجماعات تطوف كل جماعة في حيها ولتجارزه إلى أحياء أخرى، وقد شكلي جماعتان ملتصقتان

## عالم الفكر

أو تفرقان حتى يظهر القمر فيدانيون انتهاني، فكان اليوم عيد، والأنشودة ينشدونها القائد ونجيبه الجماعة بالتهليل، وهذا نصها<sup>(١١)</sup>:

لا إله إلا الله محمد رسول الله

(تهليل الجماعة)

مولانا يا مولانا يا سامع دعائنا

(تهليل الجماعة)

ونبدور بالمصاحف نبي رضا مولانا

(تهليل الجماعة)

الطبع لنا يا محمد يوم المشرق والقيامة

(تهليل الجماعة)

محمد علي محبوبه يا الله طرفة ونامة

(تهليل الجماعة)

محمد زين كله زين مولود ضحى الاثنين

(تهليل الجماعة)

هدي الممرنا يا حوته هديه هديه

وقد يتعرض الطفل - قديما - لهذه المؤثرات الشعرية منذ الخامسة، إذ يخرج إلى الشارع مصاحبا الجماعة المشددة مما يؤثر في لغته وذوقه الفني الموسيقي، وقد ترك على الانخراط في الجماعة التزكية ومعرفة ممره فيها.

وهناك مناسبة أخرى هي ختم القرآن تعقد لها الاحتفالات، فحفظ القرآن غاية لا يدركها إلا كل أديب، وهو علم لتعلق به الأسرة، فالأم تسمح لابنها شوقها إلى حفظ القرآن، ويرتبط هذا الشوق بحبها له:

يا حبيب لك حبيب

بنيت بالقلب شعيبين

شعيب ينحر الوادي

وشعيب ينحر سدير

وشعيب قال يا بعه

حفظت اليوم جزوين<sup>(١٢١)</sup>

وبعد ان ينتم الطفل القرآن تمام الاحتفالات في طقوس مهينة<sup>(١٢٢)</sup>.

ويخرج الصغار والكتاب إلى دار تعظيم القرآن حيث يجلس (الطرح) ويحانه خاتم القرآن وزايله وسط رعية الجميع ويرحمهم بلشد (الطرح) التمجيد. وبعد كل مقطع يرد طلبة الحائرين (أعين). ويستمتع الطفل المصاحب للأسرة إلى هذا الإهداء ويؤثر فيه بالغ التأثير، ويعلق بعده فيما بينة ربحا للعلم ويكتسب لغوية تثيرها التسمية<sup>(١٢٣)</sup>. وهذا نصها:

(أعين)

الحمد لله الذي هيأنا

(أعين)

لقددين والإسلام ليجتباها

(أعين)

نعمده وحلقه أن يحمدا

(أعين)

ما فلق الزهر وما طاح الندى

(أعين)

ثم الصلاة كلما الحادي هذا

(أعين)

على الذي قد جاء بالهدى

(أعين)

هذا غلام قد قرأ وقد كتب

(أعين)

وقد نعلم الرسائل والخطب

(أعين)

ولا نقصر يا ابن اشراف العرب

(أعين)

واطرح على اللوح تراهم ونهب

- وفي رواية: ولا يكن طرفك هما والحضب -



(أصين)	علمني معلم ماقصرا
(أصين)	رديني في درسي وكبرا
(أصين)	إني علمت كتابا كبيرا
(أصين)	حتى قرأت مثله كما قرأ
(أصين)	جزاك الله يا والدي الجنة
(أصين)	وشيد الله لك الجنة
(أصين)	الجد والجدة لا تنساها
(أصين)	فعند ربي جزاها
(أصين)	في جنة الشهد مع الوالدات
(أصين)	اعطوا المعلم حقه عظيم
(أصين)	لأنه كان بنا زجيما
(أصين)	الحمد لله الوحيد القوي
(أصين) <sup>(١٢٨)</sup>	سبح له طير السماء والحد

والطفل الذي يشارك في هذه المناسبات يستلزم التعلم في التأسيس وتعليمهم بمصولة اللغة، فالأهمية الشعبية من أقدم أشكال التعبير التي عبر بها الإنسان عن ذاته، وهي تصاحبه من البدء إلى النضج، وتواكب الإنسان في موكب الحياة في كل شكل من أشكال ممارسة الحياة في دورتها المتغيرة. يشارك الإنسان في الإبداع الشعبي لمجتمعته سواء في أداء جماعي أو بدور فردي هو في حقيقته تكامل اجتماعي<sup>(١٢٩)</sup>.

### الحكاية الشعبية

الأسرة تجلس معا طويلا، وتتاح للطفل فرصة الاستماع إلى أحداث الأسرة وأخبارهم، فهم وسيلة الإعلام التي تنقل الطفل إلى عوالم مختلفة، والحكايات أحد هذه العوالم والحكايات نوعان: حكايات (سراويل) وحكايات (سراويل) بجزء (سراويل) فهي اسم فاعل

من الفعل سلف أي مضى، والسلف فهم من سبقونا من الأجيال لذا نقول السلف الصالح.  
فالسلف جملته أخبار شتاتها، ولها أصل قد جدد فعلا معلوم الآن والآن. نُؤكِّد نسبته إلى  
لشيوخه الذين كانوا أبطال الحدث على مسرح الواقع. ويأتي دور الرواية الشعبية في تناول  
الحدث بمن شاهده إلى من سمعه جيل من جيل، تسقط كلمة هذا ويتناثر وصف هناك، وتذهب على  
الشفا عراصف التغيير، إلا أن جسمها يبقى على أصالتها صليبا قائما لا يتغير مهما أنت عليه  
عزادي الروايات المنقولة.

أما الحزبية فهي من التمزي وهو التكهّن أي القول بظن، فهو القول الذي لا يتصل بالواقع. قال  
رؤبة:

### لا يباخذُ السّاقيةَ والحُزريَ فِينا، ولا قولَ العبدِ نوا الأَمرِ

وسميت الحكايات الشعبية بالخرافة والحزبية في التكرار. وهي عند أهل نجد تسمى  
السباحين ومفردها سباحية، لأنها تبدأ بالسبح.

ولكن من مواقف البحر وعزايه حتى قال يفرح هو الخمرية يتناول في وحدات السماع - أين  
اليلة - فخور في دافقه زكام الخمرية، يتجاوز تعبها الزمان والمكان  
<http://Archive.sakhrn.com>  
من مواقف البحر سائلة دالة بالقوة<sup>(١٨)</sup>، وهي دالة تنسب إلى عصر القباوت وقد كانت تؤلّوة  
كثيرا الصدم نزار فيمتها كلما انتقلت من مالك إلى آخر، إلا أنها الرابطة في تاريخ لتلها  
بحوادث وكوارث أصابت ملاكها، مما دعا كل من التقاعا إلى سرعة بيعها للتخلص منها. وانتهت  
إلى نادر فرنسي كان مفتونا بلؤلؤ الخليج عاشقا له، فلما حصل عليها مقابل ثمانية عشر ألف  
روبية هندية - وكانت في ذلك الوقت ثروة طائلة - إلا أن التاجر الفرنسي كان مستعجدا بالدفعة  
بمخطوطها في جيبه، حتى إنه أمر على الدافعة ببيعها بصدقي فيمتها، وفي يوم كان واقفا على سطح  
بعته في عرض البحر يظلم في يده مفتاحها وجمالها ويسمات البحر الطيلة لعاديه، فيمر أن البحر  
كان أشد شوقا منه إلى الدافعة، فألغاه نفسه إلى الاستمرار على تلك الدافعة، فهي بنت أحلامه،  
فتمسكت الروح التي هبت عاصفة فقصفت بالفرنسي وداته فتخرجت خالقة البحر - واخبت في  
جوفه، فلم يملك التاجر الفرنسي نفسه فلقاه بلفسه في جوف البحر وواد دافعه، وللهي السائلة  
هذا. أما الحزاي، فهي حكايات شعبية متوارثة، منها حزايي البحر الكثيرة مثل حزاية أمي  
الصديكة، وحزاية سمكة أم شعبة وشعبيون لون<sup>(١٩)</sup>، وحكاية أبو دراهم، وربما كانت بعض الحزايي

علة في حدوث بعض الحوادث الطريفة. فمن ذلك ما حدثني به والذي رجعه الله عن مؤلف حدث لبعض البحارة، قال: إنه في ليلة من الليالي بعد غناء يوم شاق، بين الغوص والعمل اجتمع البحارة في جانب من سطح السفينة يسمعون ويصفون من شقاء ومعاناة نهار لا تقوا فيه ما لا تقوا من كيد وشظف وانتصارات وإحباطات، وكان مما يتحدثون فيه أبو درياء وهو كان منطوف يظهر للبحارة أحياء. وفي هذه الأثناء والخوف قد أخذ ببعضهم سمعوا حركة غريبة في الطرف الآخر من السفينة، حيث كان التوقد، فشدّهم إليه فلما انفتحت ناحتهم وأبوا أبوا درياء وتعالى الصغينة، وبتجته نحو التوقد بانسا جتماعيه فاضطرب البحارة بين خائف وجل وحائر مشدّد، وترنّدوا بين مهاجمة والهروب، فانبصر أحد البحارة الجسورين، وتقدم لحدود، وأمسك بتلابيبه، وأصوات البحارة تعلوا في بعضة وجراح وتحمس على ذلك المسكين الذي غامر بنفسه، وإذا بصاحبهم بحر أبوا درياء إلى رفافة الذين أطلوا يتدافعون نحو الخلف حتى كان يقع أحدهم في البحر، فنصروا صاحبهم: هذا أبولفان الطباخ. وكان الطباخ قد تفلّط به الريح في البحر على لغة من البحارة، فلم يشعروا بغيابه، غير أنه استطاع أن يتشبّث بأحد الميائل ويساق على ظهر السفينة، وجر لاحقاً قريباً منه ليثبت به، وإذا أبوا درياء البحارة أنه جاذبا إلى درياء وأحدث التعاف الميول بالقاء وارطام الرجل على ظهر السفينة ذلك الصوت الذي رآه من فراسهم.

وأما هذه الحكاية والعرائس مما اعتكف به المؤلف الشعبي القولي تنصب في ذاكرة الطفل، وتتشكّل جزءاً من تكوينه الوجداني واللغوي، وقد ينسى الطفل تفاصيل الحكاية أو الحزاية، ولكنه يعود يمتثل لحكايتها التي تفتح بها مثل: الصلابة على الشيء، ثم قواهم، «زور ابن الزنזור من عمره ما كذب زور نبيح بقا وترس عشرة جدور»، وعلى التحم والشتم على الصواني مثقور، وتختتم بتل قواهم، «خلصت وخلصت وينت القياية وخلصت»، والسلام ختام ويوم منهم ما عطواني شيء.

### الملف الشعبي

يختزن الطفل تجربة يستعصرها أصحاب اللغة عند الحاجة تليداً لحجة أو شرحاً لحالة، وهو يختزل بعضونه ما يطول تفصيله، وهو البالغ في اداء الرسالة، إذ قد يرتفع إلى مقام القواعد النحوية، مثال ذلك قواهم (إر غاد القود ما يفتح الصوت).

## الألفاظ والمعاضلات (الخطاوي)

كانت الحياة قبل تغيرها بظهور الخط تتيح للأسيرة فرصة للفناء المصمم في النساء لتبادل المسامرات والأخبار ولشيء من التهور البريء. من تلك الألفاظ والمعاضلات التي تملو معالجتها ليلًا أو نهاراً<sup>(١٢١)</sup>، وفي جلسات الألفاظ الخاصة بالأطفال عادة ما يراعى العمر العقلي للطفل، ويحاول الكبار مساعدته على الإجابة للتربية<sup>(١٢٢)</sup>، إضافة إلى تلك فالألفاظ الموجبة للطفل تتميز بتجانس الأصوات والجرس السائد فيها، مثل:

(رمانتي لفتني فيها سحر فيها بحر فيها عيون تبتصر)، ومنها: (إن طفيته طار، وإن شفيته طار، وإن طفيته طار، وإن شفيته وإن عطفته طار). والمعاضلات هي نوع من الألفاظ الهدف منه لغوي بحث لفصل مهارة التلق. والتمكن من الخارج مثل: إذا انظمت الدنيا وتطلمطلمست وجاء بهار الله المتطلمطلمين<sup>(١٢٣)</sup>.



ARCHIVE

## دور الرفاق

في لوانظر السنة الثانية بداية الثالثة يتغير النمط الاجتماعي للطفل، ويبدأ في الاندماج مع غيره من الأطفال، ويشاركهم ألعابهم، وهذا تفتح له مساحات جديدة داخل المنزل وخارجه، وكل هذه التفاعلات يثرنها بثرائها اللغوية البسيطة التي تزداد ثراءً بالزياد بطريقته اللغوية الجديدة. فالطفل سريع التقليد، وهذه قدرة على التفران التجريبية وتذكرها فيما بعد<sup>(١٢٤)</sup>، فقد يلتقط الطفل ما يريه به الصغار من محصول لغوي أثناء اللعب والشجار من لغة مألوفة لديه، وأحياناً تكون جديدة في الصوت واللفظ والتركيب، والأقران قبول عند الطفل أكثر من الكبار<sup>(١٢٥)</sup>، فالطفل ربما تابع القرانة حتى إنه قد يرفض بعض المقولات التي تصدر عن الكبار، لأنها تخالف ما نقله عن الصغار.

وفي مجال اللعب يتعرف الطفل على أيام الأسبوع في لعبة (السبت سينتوت)، وفي لعبة التداوي وفي مهارات ذهنية إلى جانب مكتسبات دالية

(يا مروت البري - وين راج لبري)<sup>(١٢٦)</sup>

ويخرج الطفل للعب خارج المنزل يريه بمعجم لغوي مضمون، تقول كافيّة وسلمان، داما في البيئات التي يكثر فيها نزول الطفل للشوارع والاختلاط بالأطفال الآخرين، فإن هذا كله مدعاة لأن

يزوده بمعجم لغوي متميز، فكلما تعددت خبرة الطفل واتسع نطاق بيئته زاد نموه اللغوي<sup>(٢٢)</sup>.

وهذا المعجم يتناول أسماء ما يحيط بالطفل من حياة في الشارع مثل السيارات والناس والعباب الطواغر الطبيعية مثل لعبة (أم الغيث) للبنات، والعباب أخرى مثل (خروف مصطعل)<sup>(٢٣)</sup> للصبيان.

وهناك نوع من الألعاب اللغوية غير المتعلقات برديعا الصغير، فالألعاب الثاني عليه اختيار أن يردد مقطعا في نهاية الكلمة كقوله رجع الصدى، وعلى الأول أن يلقن في القطع الأول يحدوث يوقع الثاني في موقف يؤثر فمفك الآخرين مثل:

بيخ	يا صاحبي
(بيخ)	علمك
(بيخ)	تاكل الط
(بيخ)	تاكل...
ان	يا صاحبي
(ان)	علمك
(ان)	اكل الربيع
(ان)	اكل ....

وفي الشارع يستمع الطفل إلى العاط الباعة والمتجولين:

**طماطة حمراء شويش ياكلونها وايا الحماش**

وتضيف أصوات شويش قلبيما موسيقيا ليس له تناول معجمي.

وفي رمضان تجتمع البنات والأولاد القرقيعان كل على حدا، ويصاحب هذا التقسيم الطلائع

في الألفية الأزدية.

ويكثر في الشارع الشجار وما يليقه من لغة خالصة لعمل الحاف التمايز (المعاراة) مثل:

## بوتنبه كسر اللغوية - صحن تين صحن شمسية

### زبوت النفع... إلخ

ويشتمل الصبيان أسماء الطيور فقد كان الصيد هواية محببة لهم، ويحبون مطاردة الحيوانات<sup>(١٠)</sup>.

إن دراسة معجم الطفل تكشف لنا عن هذا التلويح الهللي في روافد النمو اللغوي عند الطفل الفلوجي اليوم، فمجموعة تلكسمة عوامل من التغيير اللغوي انماثلها التغييرات الاجتماعية والحضرية، وانفتاح العالم، وكثرة الاتصالات بين أمم الأرض، وغياب في التأثير الطولي الذي انصرف عنه أعله إلى متابعة ما تبته أجهزة الإعلام المطبوعة، وما تلوكه السمة العمالة الواقعة إلى منازلهم، مما جعل بعض الأطفال في حالة الخراب اللغوي، وخطأ في استعمال الصيغ والتركيب والعجم، وهو الخطأ يصاحب الطفل حتى مراحل متقدمة من التعلم، ويظل بعد المزال الذي طرح في مقدمة هذا البحث، هل القوة اللغوية تظهر مع النمو العقلي؟ وهل نقص المعجم اللغوي يكتشف عن نقص في الذكاء؟ أم هل تأخر الكلام دليل على تأخر الذكاء؟

لقد كشف البحث الحالي عن هذا الظاهرة التي تربط بين سرعة الكلام وتأخر الكلام قد لا يقتضي تأخراً موازياً في الذكاء، فإن كان التأخر في الكلام لا يعني تأخراً في الذكاء، دافعا فإن العكس صحيح، إذ تأخر الذكاء يقتضي تأخراً في الكلام<sup>(١١)</sup>، وهناك من يربط النمو اللغوي بالذكاء<sup>(١٢)</sup>، ولا يمكن إبطال أثر النضج اللغوي في استيعاب المحيط الاجتماعي والتأثيرات الأسرية والثقافية القومية، يقول (سرجير سبيلي): «إن نمو الذكاء يتم على قدم المساواة مع النضج اللغوي»<sup>(١٣)</sup>.

أما بيان أثر التأثير القولي في نمو لغة الطفل فهو ما سنحاول الكشف عنه بتحليل بعض النماذج من هذا التأثير القولي، ويبنى أن نشبه إلى أن نمو لغة الطفل مسألة نسبية تحكمها جملة من التغيرات منها هذا التأثير، ومنها مستوي صحة الطفل العقلية والعنسية والبدنية، ويشتت الخاصة.

### تحليل مضمون التأثير القولي ووظائفه

نتناول في هذا القسم نماذج من الألاني الشعبية، نلّف بعضها بالشرح والتعليل، ثم نتبع تلك بنتائج عامة حول الألاني الشعبية، ونلّف فيها على أهم خصائصها.

وتجدر الإشارة إلى أن اللعب الشعبي والأغاني الشعبية تحقق غايات نفسية في أهدافها. إلى جانب غايات أخرى مذكورها في الدراسة التحليلية. كما نلاحظ أن الطفل يتعلم بالقدار فائق مما حوله. وتأتي الأغاني والألعاب القرمح تأثيره جميع مصادر العارف من حوله فتجسد لديه اللغة والأدب والعرف. لذا تتناول أنواع الأغاني بالدراسة والتحليل لبيان خصائصها.

## أنواع الأغاني

تنقسم الأغاني ونظما إلى:

أغنية الترحيم، ومنها أغاني التخليد، مثل (أحمد حبيب)، وأغنية التسلية (صفاته حق البابا)، (أنثري الفقرة)، وأغنية التعليم (هذا بابا هذا ماما). وأغنية الترويح، مثل (نام يا واليدي نام). والأغنية المصاحبة للعب، ومنها التحفيز، ومنها تنمية المهارات البدنية. (أليس تيقن اللزبية). (طوبى مستسلم)، (خلق الله خلق مائلا). ومنها أغنية التذمير: (يا مروت ابوي). أما أغاني القاصيات فهنا: القاصيات الدينية مثل أغنية الترفيعان، والتعمية. ومن القاصيات استبطاء البحارة: (توب يا بحر)، والاستبطاء والشجار، وتذمات الباعة.

## أغنية الترفيع

وقد ذكرت الأغنية مكتوبة عند بزة الباطني<sup>(1)</sup> <http://Archive.org>

النص:

أحبك يا ولوفي      وأبج لك الطروفي  
وفي محمل المشايخ      وصول خالك نفوفي  
وأحبك حبيب      وفي القلب شعيبين  
وشعيب ينبت الحنة      وشعيب ينبت الهيل  
وأحبك من عطا الرب      والرب لك المظرب  
وفوق مؤسدة ريش      ونحتك ينبت مجرب  
وأحبك حب عاجر      لجاهها الجنبين  
وأحبك حب عاجر      مغرب من مسخن  
وأحبك حب اجنود      والناس ما يدرون

## مستوى الأغنية

هي من أغاني الرقص الطفل- تغنيها الأم أثناء حملها للطفل ومداعبته في السنة الأولى حتى منتصف الثانية.

## موضوع الأغنية

تجمل الأغنية في سياقها النفسي تاريخ الأم وتاريخ البيئة المحيطة، وتسلب الأم في المفردات مشاعرهم، وتلف أنغامها بتجربتها وأملها، فلفظ أحبك يتوالى في الأغنية كالجملة الموسيقية اللازمة في الطغرة الغنائية، وتكرر لفظ أحبك في بداية كل مقطع يمثل ربما ينكر بنفس القلب، وتلك الشاعر الخفيفة التي تلججها عاطفة مقدمة بين العززال الأم بأسرتها (يصول خالك دغور)، وما تعلم به هذا الوليد من مستقل (والفرش كن للفرش)، أي حين تتزوج بأمة رجل من طيرة الرجل (مورير).

## ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhr.com>

١- التواصل النفسي بين الأم وطفلها، فهو مشاركة بالنظر إلى وجهها للطفل أثناء الغناء، وتذنيق أذنه الصغيرة بالنغم الجميل فالغناء يحرك عضلات الوجه، ويشغل الطفل انعكاس حركة العضلات فإن كانت وادعة متوسطة خلقت له فرحاً وانشراحاً آثار لديه استجابات سريعة بالانسلام والتسلب بالأم ومداستها النظر إلى وجهها فكل فعل أو حركة لأحد الطرفين يقع ضمن جملة مترابطة تشكل وحدة سلوكية متكاملة ومتوافقة مع أفعال الطرف الآخر<sup>(١٠١)</sup>.

٢- نمو حركي للطفل، فالأم تغني له أثناء الرقص والحمل والمداعبة، فتثير عنده استجابات سريعة في الانقباض ومداولة الحركة بحركة أخرى، مما يعمل على تقوية عضلاته وشدها.

٣- كشف شاعر الأم، وإسقاطها على الطفل، فالأم تغزل بأسرتها، وتطرب بأخوتها، فوصولهم يحللي به بالدغوف، وهي تتطلع إلى يوم يكبر فيه هذا الطفل وتزد إليه عروسه (والفرش كن للفرش) وهذا الضرب رمز الرفاهية التي يطمح بها الفقير مادياً، فهي تلمح إلى أن يكون مستقل وادعاً مشاركاً معها وأحد.



4- الحضور الحيوي، فالكونيت المحيط بها صمغراء، بركة وصمغراء بحرية، وهذا الحضور يستغرق الانسية كلها إذ يمتد فيها طولا، ويتمد فيها عرضا، فالقاطعة البيعة البحرية وما فيها من معاني تشيع فيها، فالانتظار الصمغراء في رحلة الغوص أو السفر والرحلة الوصول تعني الفرج (وصول خالقه لمولده)، (حب تأخر مغرب من سطون)، هذا حب لا يعرفه إلا من عاين مرارة انتظار العائب- وعرة شوق الغريب لحظة العودة، وجولة القاء.

أما الصمغراء البرية فالتبساطية والتسامحية تعكسه في القلب عبارة: «ينبت فيه شجيتين» وفرحان بالعطر الصمغراوي الحبيب (الجنة والهيل).

5- معانيات التراث الملتصقة عبر الزمان والكان (الحبك حب حاضر لجأها الجنين)، فاني حب هذا الذي تحمله المرأة وتلقاه الطفل، إنها شجرة أرزية يسممها الطفل دون وهي بمضامينها، إذ تتغنى الأهداف التعليمية لسفر سن الطفل فلا يدرك إلا النغم الموسيقي الصامع للشركة، لكن الإحساس والتعم يعلنان به شعرا متفوقا يتوقف الحس وتوهم العاطفة، إذ يتمكن الصغير في عامه الأول قبل الكلام من المشغل في علاقات اجتماعية مع البالغين، وهي تدرجها مهارات للتواصل مع الآخرين<sup>14</sup>، فالعلاقات قد لا تكون أبتداء لكن الخبرات المعقونة يستمدنها الصغير من الأم لتصبح مصيدا يجره نموده الاجتماعي، فالبطل يظهر التفاعل الاجتماعي في الأشهر الستة الأولى، إن اهتمام الطفل يتركز على المؤثرات الحسية عن الأم<sup>15</sup>.

- غاية الغوية، فالأغنية تثير معنى الحب عند الطفل، بالفهم الكروي، إذ غالبا ما تشيع الأم كلمات الأغنية بتقبل طفلها لتصبح دالة لفظ (أحبك) مقابلة لعملية التقبل، وتصرح بذلك في أغنية أخرى:

حبيبي وأحبك زود بكر أمك وابوك العود

أغنية الذنوب:

النص:

نام نومه هنيئَه نومة الخزلان في البرية

نام نومه هنيئَه نومة علي ويأ خديته

ولبيدي ينام وطيب الله نومه      وعرو ولبيدي ما يهتني في مقام  
وعروة ولبيدي واللي ما تحبه      لها الرجز مجسوم والغين زام  
نام يا ولبيدي نام      ولك رب ما ينام  
نام يا ولبيدي نام      برعك رب الأنعام  
ويحفظ عيسى وموسى      والمصطفى عليه السلام

#### أداء الأغنية

تؤدي الأم الأغنية للثاء، محاولاً مدبرة الطفل لنتويته، حاملاً إياه على صدرها، أو وهي مقفوفة في جلستها مثنىة جسمه ليرقد يسكن في حجرها. وتنهز ببطءها عند رأسه بانتظام يبعث الضحك في جسم الطفل. وتؤدي هذه الأغنية لطفل التهد والمك على عهود الثالثة من عمره.

## ARCHIVE

<http://www.Archivage.org>

#### موضوع الأغنية

تعمل أغنية التنويم في تضاعفها الخيال الذي يجمع بالطفل، فواخذه إلى عالم الاسترخاء والهدوء، فما بين الدعاء واستحضار ذكر الأنبياء إلى البراري القصيدة الممتدة، ثم معاناة الأم التي تجد متفكراً لها في هذه الأغنية (أومة أمك يوم هي أمته) فهي لا تحب على النوم فقط بل تعكس احتياج هذه الأم المتكسرة إلى سويعة من النوم خالية اليأس متخلطة من المسؤوليات الملوقة بها تجاه أسرته، وأين منها تلك الأيام الخوالي (يوم هي بنه) متفولة غير مسؤولة، كما لا يغيب عن الأغنية الهامس المقلق وهو الطوف على الطفل من أحداثه وميلضيه، وهي دعوة مستجيبة بالصغير لا محذور ولا مريض، وإنما العفو مشوق في مستقبل الأيام، إذا فالربما عليه (ألا يلهي ينام)، أما من تلمظ كراهيتها لهذا الأبن قلباً (الرجز مجسوم والغين زام).

#### ما تحفله الأغنية

- الرغبة المتأصلة في النوم للطفل
- التماسك النفسي والعفو الوجداني المتنامي بين الأم وابنتها، فهو أقرب ما يكون للتصاق بها.

لمحوطة لمرامها، أو مستقرا في أحضانها، لتلتمس إليه وتحتو عليه، فتمسك كلها مرة، ففتراصل إحسانه بها وبتأني إليه دونها منقلا تقويه مومئى غائلة، للفتح له تأمل ما يصل إليه من لفظ يوهي يشده إلى عالم الطول ثم الاسترخاء، والاستغراق في نوم تحلم به الأم ذاتها، غابتها نوم طفلها ونوم آخر تنوق إليه وتلباه جفرتها التي أروعقتها مسؤوليات الأسرة.

- تنمي الإنسية عالم النوال عند الطفل، فالنوبة النوبة هي لغزلان البرية، والغزلان تمثل عالما يحيط بالطفل في كثير من العاليم، وما يسمعه من لغات، فهي تكتي في بدء اللعب عند إجراء القرعة الغزالية، وهي أمنية الطفل في بداية استبدال الأم، وهي أن يعطي الشمس سنة القديم مشطوعا يسمح من نوى الملح، مردها بصوت عال لسمعه الشمس، يا عين الشمس خذي شمس حمار وعطوني شمس غزال، ومولد الغزاة خيرة اكتسبها عندما تظهر الشمس بين السحب المطرة فيصبح الطفل - ولدت الغزاة<sup>(١)</sup> -، وهو لفظ الشبيب والفطير (يا غزال)، وفي الغاية أخرى:

هبت شبيب من شمس - يوم نزلت بسور غزال

والغزاة تربط بالجداد الذي في لغة النور، وتسمى لغتها إيتاييل

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

محمد علي سبيلاته - جاتنه الغزاة ونابته

والغزاة هي الشمس

فالغزاة مطور لتداعيات الصور البسيطة التي تحيط بالطفل أثناء نومه فهي رمز الجدال، والجدال والألمة في القصص الشعبي (الغزاة ريد الولد)، وفي بعض النيات يقال للأطفال قبل نومهم إن الذي يتم دون أن يشرب ماء فزن (الغزاة) تترده في الليل وتسلبه من لبنها، وقد لا يكون الطفل قد رأى الغزاة من قبل فيجدول به الخيال في البراري حيث (نومة الغزلان في البرية)، والبرية مرتبطة لدى بالير الجدول حيث الظهور واللعب.

- لتصبح مفردات متصلة بنظامين دينية، الدعاء (إبرهه رب الأم/طبيب الله نومه)، وذكر الأنبياء (عيسى وموسى والمسلم)، وارتباط ذكر النبي بالسلام عليه (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) [٥٦-الأحزاب].

- الشعور بالخوف والقلق على هذا الوليد من العيون الحاسدة، والقلوب البغيضة، وظاهرة الخوف هذه نوع من الجلع الإنساني يصاحب الإنسان في كل مراحل حياته، ويبلغ الأم أكثر حدة تنقل مترجما في كثير من أغانيتها للطفل:

صبايات عيني صبايات جعل من يعضضك مات  
ولا يفر النحيات وكل نسله ابنيات

وليه باب الولد مات

فلدما بالولد على الأعداء يكثر في الغاني الترفيس، مثل:

اللي ما تقول لك يا عيني تعمى من النخمين  
ويصوت ريل صبايا ويكثر عليها الديني  
واللي ما تقول لك يا شكر ما عاش في صيها ذكر  
غير العجوز ويخونها والشيايب محني الظهر  
والنعوذ من الشر وأقله في الأغنية

أهلا هلا وأهلييه وألفاء شر الأتيه  
وألفاء شر الأعادي وساعة إيوة في كل نيه  
هلا وهلا وأهليي والظر عفتك مولي

ولكن هل هذا النوع من الغاني الشعر الإنساني مناسب لقوم الصغیر؟<sup>(١٠-٩)</sup>

- التثنييم والموسيقى هو ما تملكه أغنية التثنييم، وتتميز هذه الأغنية بأصوات الله التي تطاوع التثنييم فتوفر ألحاناً متكاملة متعددة في تكوين الصوت بين الارتفاع والانخفاض، وتتراوح المقامات والقطعات بين الطول والقصر، يحيط ذلك نظام مطرد في التفكير (نم نمومة هنية/نام يا وأندي نام)، ويأتي المسجع والجناس ليغطي إيقاعاً جميلاً مناسباً يخدم الأغنية في مثل: نام/نام، هنية/هنية، ويرى رشدي حين «هذه الخاصية بمحاكاة لن الأصوات الموزونة النقطية لهدى، أكثر مما تملكه النغمات النقطية»<sup>(١١)</sup>

## اللعبة اللغوية

النس الأول:

السميت سميت سميت والاحد والعشرون  
والاثنان والاثني عشر  
والثلاثة عشرة والأربعة عشر  
والخمسة عشر والستة عشر  
والسبعة عشر والثمانية عشر

## معاني المفردات:

سميت: كلمة مأخوذة من (سميت) بمعنى ميت، وذلك بالقلب التكاملي بين السين والميم،  
والإحكام به، وإثباته لغاية موسيقية، والهاء والهم من مخرج واحد، وتدل الكلمة مضاعفة للبنى  
المترابطة في الألفية: سميت/سميت/سميت.  
بشارة: فهي في المصاحف سورة الأنا، بالطواف على الجوزان، فإذا بشر أحدكم الجوزان  
بالقوليد الجديد أو بشوم البشارة أو الحاج تلك يعني ما يحبره من ميتات تسعة وتضمعه على  
مواصلة الطواف على الجوزان، فهو أداة الاتصال في زمن لم تعرف فيه الهواتف.  
منارة: هي الرمز القيني ورمز الحياة البحرية، إذ هي أول ما يراه العائد من رحلة الغياب  
فيقوم البشير بالبشارة.

أداء الألفية الصاحبة للعب:

تؤدى الألفية في مجالين:

١ - مجال اللعب فيه الأم الطفل الصغير ما بعد السنة الأولى.

٢ - مجال اللعب فيه الطفل بالكرة منقروا أو مع اقتران، وذلك بعد اللعبة الثالثة، عندما يبدأ  
معرفة طريقه خارج المنزل، وتؤدى الألفية أثناء رمي الكرة على الجدار أو كان منقروا، أو على  
رفق اللعب المشارك في أداء القطع الثاني، فالأول يقول: سميت سميت، والثاني يرد: والاحد  
عشرون (مكثراً لعبها ضمنياً).

### موضوع الأغنية

لقد الأغنية من أغاني الشعب القوي الذي يحافظ فيها التقسيم الوسيطي والبناء اللطفي. وهذا التقيد قد يكون له وظيفة معنوية كما هي (الشمس مذبح أبيهم). وقد يكون من أجل المصالحة القلبية للمحافظة على الإيقاع والتوسيط مثل (الصمت سيغوردي/والأحد والعنكبوت)... إلخ.

### غايات الأغنية

تحقق الأغنية والحركة المصاحبة بلطف الفكر: غايات نفسية، ومعرفية، ولغوية، واجتماعية، وعملية.

### الغايات النفسية والاجتماعية

تتميز روح المشاركة عند الطفل أثناء اللعب وتلبية الأغنية فإن كان مسبقاً فهو يرفقة أمه، أو من بقله ويشاركه اللعب بداية تنمي إحساسه باللمس، وتشتبع احتياجاته العاطفية. وإن كان مشاركاً ليرفق فاللعبة تعويده على الانصياع والالتزام بالذوق واحتزام مثل الآخرين وعدم تجاوزه. وإلى جانب إحساسه يتجلى مفهوم اجتماعية والمشاركة في اللعب مسورة من تصور القبول الاجتماعي الذي يحقق تطوراً في شخصيته الطفل، والمشاركة مثلاً انشغالي يحقق له وللاطرين الفرح، بل إن الأبناء ينشرون بالشمس ثم الجمعة.

### الغايات المعرفية

تعرّف الأغنية بأيام الأسبوع، وتصور ذلك في قالب موسيقي عماده التقسيم والطفل الملمح، مما يستجوب الطفل ويحمله على حفظ أيام الأسبوع، كما تعرّف بالفلسفيات والتقاليم الدينية (الشمس مذبح أبيهم) والجمعة عيدنا وعيد الرسول). فيتدور إحساس الطفل مع الزمن ليصل ابتداءً من السنة السابعة إلى التكليف بالصلاة، وأن الجمعة إلى الجمعة كفارة لا بينها، وهذا التجمع الكبير فصلاً هو عيد، وختام أسبوع من العمل والدراسة هو عيد أيضاً.

### الغايات اللغوية

- إن شمية أيام الأسبوع تسهل جداً أثناء التعلم إلا أن وجودها في هذا السياق الترفيهي الموسيقي يسهل عملية حفظها.

- حصيلة من المفردات اللسانية، فالمعكوكوت ثم الهلين والسينيوت، والبشارة ثم المنارة، وهذه الألفاظ المتعددة تنقل الطفل إلى عوالم تثير أسئلة كثيرة، وتلهم غيرة حب الاستطلاع لفظية سينوي - التي تظهر من الوهلة الأولى على أنها نوع من البنى الصوتية - تحافظ على الإيقاع الموسيقي، وتنتج به اللعبة كلنا هو قرع يزلن يودء الألفية، إلا أن هذه الكلمة لها دلالة معجمية وهي الرامة فالتيت مسيوت والسبت آخر أيام الأسبوع<sup>(١١١)</sup>. وتعزز اللفظة في لعبة شعبية أخرى (أبوسميوت حتى لوميت)<sup>(١١٢)</sup>. ولغة تفسير آخر، أن لهذه الكلمة مدلولاً حسياً عند أهل الكويت وهو نوع من القواقع البحرية يعرف بالصميميو والصداء تختلف موسيقياً تصبح سداً، ولكن يُقفل للقطع بالثاء، وهو معروف في العربية القديمة، بقوت منه صبور لفظية، وهبوط/مذكوت، ولعل تفسيرها بالصميميو هو ما كذا لغة في طفولتنا أثناء أداء اللعبة والأغنية، فالبحر وما فيه وما يطوره أقرب إلى خيال الطفل، وكثما تدعى قواعد اللعبة إلا أن تعدد الأطراف المشاركة إلى البيئة البحرية، بل هي مخوفس يحافظ عليها بأداء حطوق البحر بمواصفة اللقاء، فحين لم يكن ذلك بعيداً عن اللعب والصداء، وما البشارة والمنارة إلا الألفاظ تعزز عند الطفولة الوجدانية في الارتباط بالبحر والفرجة بعودة البشارة.

## الغايات المعشلية

تحقق اللعبة للسفر<sup>(١١٣)</sup> لغزاً لغزاً به يحلله كذا إذا كان جالساً على الأرض مع أمه. ويشغل الطفل الذي يزدي اللعبة خارج المنزل نمواً معشلياً كبير فهو يتحرك بحركة الكرة، ويركض هنا وهناك وراء الكرة، والمبالغة مع الترفيق لتقاوت فيها المفردات المعشلية بين اللاعبين

النص الثاني<sup>(١١٤)</sup>:

جديته بدديته ناصبر ديه  
حبي الكور على الزنبر  
يا قنناص قنوم القنص  
شيط خيلك شيططها  
مزيت على بابين باب الحقة وباب الشام  
لقبت إمرابين ياكلون من محضين

قلت يا عسي يا أبو حسين كم على عيد ارمضان

سبعة ايام والسنام

احاديها وا بايديها واضرب الطويل امعاديها

خرجه برجه طاحت بالما قالت وش

انا نائم في الدرمية اسمع دبكة حراميه مدري عقرب مدري حية

(تبي دوسة الفرس والا المهيرة؟ تبي قرصة العقرب والا الحية؟)

فاق

شفتي يا عراب

أبي عشا

خذ عشا



معاني الكلمات:

حنية: تصغير (واحدة) بصورتها الظلية (حانية) ويرى السعيدان ان (حنية) تصغير هذا  
اليد (١٧١).

دبكة: تصغير بداءة.

تاصر فيه: ساء هذا، أوساه فيه.

الكور: بيت الزنايم (١٧٢). وفسرها الشعلان بالصفر (١٧٣). والكور في اللهجة الكويتية معان  
متعددة (١٧٤).

أبو حسين: يرى السعيدان انه شخصية شعبية (١٧٥). وأرى انه اسم واقف الريدي.

(العرايبي: مفرد العرب، وأبناء العرب أي أبناء العرب) (١٧٦).



## مستوى الألفية

تؤدي الألفية في مستويات عمرية متعددة، ويشارك فيها أحيانا الكبار والصغار، وفي لقاء الكبار مع الصغار في هذه اللعبة، يفتح المجال أمام الطفل لاكتساب خبرات متعددة لغوية وحركية، إلى جانب القرب، ويشارك فيها الطفل منذ السنة الثالثة.

## أداء الألفية

هي من الألعاب الصاعدة للعب في الليالي الشتوية في البور، وتؤدي الألفية أثناء اللعب، فيلحق اللاعبون كبيرهم وصغيرهم حفلة واحدة وأكلهم بسيطة على الأرض مفرجة الأصابع، ويحيط القائد بها واحدة، أما الأخرى فهي مقبوضة على هيئة التشهد، ويبدأ اللعب بأن يتقر بالشاهد على الألف البسيطة بينما من جاره الذي على يمينه، ويغني بحيث توافق كل كلمة لقوة على كف: حنية/منه/تاصر/ديه - إلخ - ومن يختل إلى كلمة (حية) يسأل صاحب الكف السؤال المذكورين في الألفية وبإني **له اختياره**، فلما قرعة العزب لتكن بأصابع القائد، وأما قرعة الحية فيطافرون، وأما دوسة العزب فهي عزيماته قوية من لفظة القائد على الكف، وأما دوسة البهرة فهي غسقة خفيف بقبضته على الكف على نحو دائري، ولذا فالعقاب أن يختار اللاعبون دوسة البهرة إلا من يجد في نفسه قوة وبها التمدد والقفار الصبور، ورغبة في إنتاج اللاعبين الذين يتشابهون من أفعالات العقاب التي قد تظهر بشكل طريف، وتخرج بعد هذا العقاب المذكور تلك الكف وترفع من الأرض وتغنى في العجب أو في الضغن أو تحت الأبط، لتكون دافئة، وتبدأ الألفية من جديد حتى ترتفع جميع الأيدي، فيتم الحوار الذي في نهاية النص، والقائد يسأل واحد اللاعبين الواقف من يده يده يمين.

القائد: قات

اللاعب: وش يمي يا غراب [ومنهم من يلقب يا براغ]

القائد: أي عشاي

اللاعب: خذ عشاد [ويؤكد بأن يضع كفّه الدافئة على خد القائد]

والقائد أن يحكم بالرضا أو الرفض، وليس الرضا ثواب سوى سلامة اللاعب من العقاب، أما إن رفض لعقابه شديد يوجب كثيرا من غسقة اللاعبين وعصايقهم ويصبرهم.

### أهداف الألفية

تبلغ هذه الألفية من تأثير البيئة البحرية فلا تظهر بوجودها أو إيجابتها، إذ إنها لعبة البحر والريادة، وأكثر ما تكون في لياقي الشتاء القارئة التي يحلو فيها طلب الصيد، وبغاية اللعبة طلب الهدف القاتل أو ما يصاحبها من حركة اللاعبين للفرار من القاتل عند الحكم عليهم بالعقاب. لهذا كله تعتمد غايات اللعبة، وأهدافها على النحو التالي:

#### ١- غاية اجتماعية

تصاحب الألفية اللعب الجماعي مما يعني عند الطفل روح الجماعة، ويؤثر فيه الإحساس بالنسج إذ يشترك الكبار لعبهم وتزويده اللعبة بقوة نفسية تجعل حراقب الطفل، وتعمل على تنمية قابلية التألف مع الآخرين والتعاون في دائرتهم.

#### ٢- غاية لغوية

تساق الألفية في تشكيل لحكمة لتعليمات متوالية متويزة بإفهام التلميذ، ويولتها التجهيز: حديد/حديد، الكور/الكور، وأحاديها/وأحاديها، معديها، غرابي/ سميتي/ بوميتي، أيام/ الشمام، طرجه/ برجه، القهيه/ غرابيه.

وتردد في الألفية كلمات للتمييز إلى جفء واحد مما يعني عند الطفل الإحساس بالجانب التمييزي للغة (يا قاضي/لوم القصر)، وتعود الألفية إلى الألفاظ مفردة قديمة لم تعد في دائرة الاستخدام مثل: الكور، شبط، سميتي.

ويكون اسم الصوت (بوش) جو الألفية يثير صوتي يشد السامع ويهيب، فظة مناسبة، ينقل بعدها إلى قسم آخر من الألفية.

وتعتمد الألفية على ألوان من الجمال الخيرية والإنشائية، الضيقة والوسعة، وإذا التفتين فليس ثمة صلة قوية بين أجزاء الألفية، وهذا يغلف اللعبة بلمس، من الغموض اللاتم لحالة اللاعبين الترويين، فن ينتهي عندة الإثارة ويبدأ العقاب.

### ٣- غاية تعليمية

تتنوع المعارف المكتسبة من هذه اللعبة والأغنية المصاحبة لها، منها إظهار فكرة التتابع والتدوير المتكررة التي هي سمة كونيّة مشاهدة (ليل/نهار، شتاء/صيف)، وظهور التتابع في التقسيمات الأغنية وتراني حركة القائد بشكل دائري، وإعادة الأغنية بعد إخراج كل كلف أهمية في حفظ كلمات الأغنية، وتنشيط ملكة الحفظ عند اللاعبين.

ومن الطيات التعليمية التعرف على الدلالات العديدة في اللغة، فالأغنية تشتمل على المفردات والمشتبات والجموع.

وثاني الأغنية على ذكر بعض جوانب الحياة البهية من فصل وما يتصل به من حركة، وأعداد (شبط خيلك شبطها)، وحيوانات وهوام (خيل، مهيمة، غراب، غراب، حبة)، ومن ذلك التباسات العينية مثل (عيد ومضار)، وتعبير الأغنية عن شوق الناس إلى هذه المناسبة البهية التي تلي صيام رمضان وهو شوق يكشفه التحوّل الفج (كوداني على عيد ارمضان)، والأطفال يلطرون العيد فهم يتألمون من تغير لحن السبّاح في نهار رمضان، وتعيدوا الفرح بالعيد والعجبة.

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Soft99.com>

الأغنية التي تستعمل عادة البعارة (توب توب يا بعل)

توب توب يا بعل	أربعة والخامس بعل
ما تظاف من الله يا بعل	أربعة والخامس بعل
جيبهم	خاطفين إيجيبهم
ما تظاف من الله يا بعل	أربعة والخامس بعل
توب توب	جيب صبحا المعتوب
ما تظاف من الله يا بعل	أربعة والخامس بعل
يا ليلوه	هاتي حسين من ابخره
يا ليلومي	هات البرومي

ثوب ثوب يا بحر اربعة والخامس دخل  
 يا اللحيان هات ابونيان  
 ما تخاف من الله يا بحر اربعة والخامس دخل  
 يا اللحيان هات ابونيان  
 يا لراعي هات المناعي  
 ثوب ثوب يا بحر اربعة والخامس دخل  
 ما تخاف من الله يا بحر اربعة والخامس دخل  
 يا لرحي هاتي اللي يقبل من ضحي  
 يا لراعي جوي شعلان من اذنه  
 ثوب ثوب يا بحر اربعة والخامس دخل  
 يا رمان القطيف هات عبد الطيف  
 يا هالة النزي هاتي حميد بن علي  
 ثوب ثوب يا بحر اربعة والخامس دخل  
 ما تخاف من الله يا بحر اربعة والخامس دخل  
 يا الخناصر هاتي ناصر  
 يا الكبيريت هات محمد العفريت  
 ثوب ثوب يا بحر اربعة والخامس دخل  
 ما تخاف من الله يا بحر اربعة والخامس دخل

نفي هذه الأغنية عدد من المخرجات الشعرية، ثم تعريف باسماء عوائل واسر كثرية ذات صلة  
 بالبحر وتجارة اللؤلؤ

## مختلج الدراسة

يسجل في هذا العرض نتائج الدراسة التحليلية للأغنية الشعبية فتجد أن آثارها على الطفل قد تنوعت ما بين المفاهيم والآثار الوجدانية والآثار المعرفية.

### ١- المفاهيم

يستطيع الطفل توظيف الآثار الوجدانية في موقفه المناسب تبعاً لما تلقاه، وتكون له القدرة الفائقة في تمييز المواقف وما يناسبها، كما يستطيع التعرف على أفراد الأسرة، وتسمية روح الاعتقاد من خلال ارتباطه بالأغنية الشعبية أو الحكاية أو المثل. من تلك أغنية (تغير القوم ما شئت البابا)، وأغنية التصفيق (مسافة حول البابا)، ولعبة العد على الأصابع (هذا بابا هذا ماما)، وأغنية القربيس (أحمد يا ولدي)، (أخواني يا خلالي).

وخالسي يا بو لبيتيه عمامته حريه

أخذهما وضبطا بالقيح طبعته ليه أبيه

أبيه استجبا لعدم تلبية يلقون العنطة<sup>(١٦)</sup>

<http://Archivebeta.Sakhal.com>

أما الانتماء الوطني يظهر في أغنية القربيس:

أصبك حسب تاجر من مطرب من سنين

أي حب تاجر لوطه، وكذلك التعرف على رموز الحكم

أعنا بنات أحمد تلاقينا كلبنا حلوه ديق أيدينا

والشمام والجاروت بأيدينا

يا صبار ما دريتي عن خطاره الشفوف

قالوا لها امشي امشي هناك أحمد ولد الشيوخ

قاعد على الشفوية قاعد يعد فلوسه<sup>(١٧)</sup>

والنور ساطع بوجهه في مصحفه يقرأ<sup>(١٨)</sup>

وينظم الطفل القيم الدينية ومناسباتها في (بيت الله) يكثر في الغنية:

أطريـف أطريـف يا أهل البيـت  
عطونا الله يعطيكم بيت مكة يسودكم  
يا مكة يا العمورة أيام السلاسل والذهب يا نوره  
أحبك يا بـه وأوديك بيت الله<sup>(١٧٢)</sup>

والغنية الشرفيعان والنظر والتهليل، جميعها تقوي القوازع الديني عند الطفل، وينمو معجمه اللغوي الديني:

ومن المفاهيم التي يترادفها:

أبي ثـاويـلي مـري اثـتـبي فيـلي

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

والغنية:

يا بـه قـومـي طـلي شـوـفي البـحر مـحـلـس  
شـوـفي المـراع ابيـي ابيـض كـنه القـرطـلـس

وفي الغنية (أطريف أطريف) بعد بأن الابن سيعمل على أن يحقق لأمه أمنية الحج (أو الحجج) يا بـه وأوديك بيت الله.

ومن المفاهيم التي ترادفها الألفاني الأجنبية رفض الأجنبي مثال الغنية:

شـمـبـل شـمـبـل شـمـبـلـه هـنـكـريـزي بـوتـيلـه  
كـنه يـدعـج المـرمر عـسـاء يـموت الـليلـه

## ٢- المعارف

بينة مثل التكرير يمثل البحر شروان حياتها. ومن ثم شكلت أغاني البحر رافدا معرفيا تنقل بالمؤدي والتلقي إلى فنون معرفية مختلفة فمثلا أغنية:

صاجه <sup>(٣٣٤)</sup>	ما صدقتي	(يا الصاجه ويا الصاجه
صاجه	لا تصطب عليهم	يا نوحذاهم
صاجه	قطع ايديهم	تري حبال الغوص
صاجه	واهن ايديهم	يا ليتني اذهيت
صاجه	واقفل عليهم	يا ليتني اخويهم
صاجه	لي لزت السيف	يا خوي محلي السفن
صاجه	لجر المجانيب	كلها صبيان

والفردات البنية في مجموعها: (لا تصطب) (قطع ايديهم) (الاراس) (اخويهم) تصغير خيمة، (لي) بالغ معناه في (لي) بفتح حذفت حرفها وهي لتعظيم بمعنى إذا، (لزت) لاصطفت (السيف) بياء الله هو الشاطئ، <http://Archivebeta.Sakhr3>

ومن أغاني البحر ما تشفق فيه الأم على ابنتها مفعية المضطرة والمعامرة في البحر. تقول:

يا طويل الظهور وبين أنت ويايح

تصطب الغوص لعب البرايح<sup>(٣٣٥)</sup>

ويختلط الغطر والاحتزاز بالأسرة بفرحة العودة

يا يمة قومي طلي شوقي البحر محتاس

شوقي شراخ ايبي ايبيش جنبه القرطاس

شوقي شراخ عبيور اسود جنبه منطه

(محتاس): من الحوس وهو الاختلاط والقصود هنا انه هائج، (عبيور): صبغة مبالغة من الغيرة، كناية عن العور، (جنبه): كناية، (منطه): مكساة.

## عالم الذكر

وتتشكل الألعاب وأغانيها الشعبية عادة منغرفة تطوف بالأطفال من بلد إلى بلد فتعزفهم عليها.

فلنحط طائفة من أسماء الفن والمناطق مثل:

أحننا بسات أحمد ثلاثينا كليلينا حلوو دبل ابيدينا

والشام والباروت في ابيدينا

(أدب) فحل ماض من الدبل وهو ما يعلق من مراد مسكرة لزجة باليد.

وأغنية أخرى تقول:

يا ليتني لوميه عزووة بعمان

يا كليلني عبالله ويلشترني سفمان

سفمان الحو شبيكه يا مرأطن العجمان<sup>(133)</sup>

وهي أغنية التامر:

يا مسرت ايسسوي : ييسينا مسرت ايسوي

ويين راج ايسوي ويين راج ايسوي

راج السمر راج السمر

ومن المعارف التي تحمل بها الاغاني الشعبية لفظة التمر، وما يتعلق به. وأخر خلاف أهمية الغنائية في بيئة مثل الكويت، فهتفى الطفل بالتمر في أغنية التمر:

يا ويذا عطنا القطر الزين حشى نزعيل ام حسيين

ونساكيل تمرها الزوين وتخلي لها التمر الشمين<sup>(134)</sup>

وأغنية أخرى تغنيها البنات أثناء اللعب:

أنا خلالة حمرة أنا خويط يريسم



والغنية

طعم يسوء حلاوي ياكل تمر خضر راوي<sup>(١٣٨)</sup>

ولعلم الجن نصيب مما تقدمه الأثافي من معارف وثقافة تصور العتبات المحلية

ثحت الباب جنبي يهبط ويهبطي

والشرطي شخصية معروفة أيضا لدى الأطفال. فترقص قبلات:

الشرطي يائي بيته يائي بيته

خبز ولبن عشيته عشيته

### ٣- خصائص الأغنية

تتصف الأغنية الشعبية بجملة من الخصائص الغريبة نذكر أهمها:

- الأصوات: تهيئ أصوات لغة جملة من التناولات الصوتية الغريبة مقام الأغنية مثل الحنية

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

نهاية اللعب

(ملوح ملوح) السلي بدل بيت أمه وابوه يروح

فائد هنا بنده اللامعين اليميين بوقت الأصوات.

- الاتباع: تعتمد بعض الأغنيات في موسيقاها الداخلية على الاتباع اللغوي مثل الحنية

التداعي شرق/ورق، والغنية فترقص: أجدك/والله، والغنية اللعب: سحر/يحر.

- التوازن: تكتسب الأغنية الجماعية التي يكثر فيها المزدوج جملة من التوازنات الغريبة التي تقوي

الأغنية وليد وهما عاطفيا في تسبيح الأغنية مثل الحنية اليعز: يا الصالح، صالجه، وأخيه: توب

توب يا بحر - أربعة والطاس دخل، والحنية التمسبة (ختمة القرآن): أمين.

- التصغير: السمك لغة الأثافي والتصغير اللغوي التلائم لجمال الصغار، والله يخطري على

دالات تملحيدية وشعبوية مثل أغنية: المير المودود، ياوليدي، بنده، خويط برسم، مضيعة

بالهالتي، خومة.

- اللفظ تنبؤية تصدر بعض الألفاني بالفتحة لانه السامع إلى موضوع الألفاني كما في الألفاني التي توجه للإنجليزي الذي يمثل شخصية مكرهه بصفته مسلحاً، مثل ألفة: شميل شميل شميل [كلمات غير مفهومة تناسب كلام الأجنبي].

اللفظ تغير عن الحركة، يتألف من اللفظ بفتحة الصواني في أراء واحد في مثل ألفة: مور مور يا ألفة: صفاته حق الباب: انظر: انظر:

- اللفظ اللامع (التأني): مثل اللفظ التأني: وبعض الألفاني تشير إلى الأعضاء الحسية.

## خاتمة

كثفت البحث لعدة القرون الشعبي، وفيه إلى المسار في الاستخدام وتلقي توطئة العوامل ومفردات: سبق الإشارة إليها، وقد تبين أنها دراسات كثيرة. وأهل من الفيد أن نوصي بما يلي:

- 1- الاهتمام برعاية الأم الطاق: رعاية توطئة إلى جانب الرعاية الحسية.
- 2- حث الأم على الاتصال بالطفل وعدم تركه للخدمة وحرصاً على المديح معه في مناسبات عدة، وذلك بعد إجازة الأمومة حتى مرحلة التطور.

3- تطوير المناهج التعليمية بحيث توظف التطور الشعبي الثقافي مثل القصص والمواقف والأمثال والألفاني مع أهمية انتقاء ما يوافق القصص. وقد أثبت أحد البحوث العلمية السابقة أن 74% من كلام الطفل المصري فصيح<sup>(17)</sup>.

4- تفعيل عمل وسائل الإعلام في كيفية التفاعل المتبادلي مع الغزو الثقافي الخارجي من مسخ للهوية الشخصية المجتمعية، وهذا يحد من هذا الغزو الثقافي الخارجي. وذلك بتفعيل التلقي من التطور الشعبي في إنتاجها الفني، ومشاركة أنشطة الوسائط الثقافية المعنية بهذا النشاط ويخلق طرائق للاستفادة من النتاج الثقافي الخارجي مما لا يتعارض مع فهم المجتمع وأعرافه وأصالة.

5- ضرورة التعاون بين المؤسسات المعنية بخدمة التراث الشعبي في مجتمعاتنا التعليمية والعربية لتبادل الخبرات، والعمل على إبراز هويتنا العربية المشتركة من التراث.

# تعريب التعليم الجامعي

«أضواء على تجربة»

تأليف: د. فريد نصر اسطر



مقدمة

يخفي صاحب «الفهرست» عن السبب الذي من أجله كثرت كتب الفلسفة وغيرها من العلوم القديمة في البلاد العربية الإسلامية زمان المأمون، أن رجلاً مهيباً تجلس لهذا الرجل المحب للمعرفة والحكمة في منامه، وأوحى له بأن يستخرج كل ما سبقه من فلسفة وعلوم لينقلها إلى العربية<sup>(١)</sup>. هذه هي الرواية المتفق عليها حول سبب إنشاء المأمون لديبته الحكمة، عام ٨٣٢/٢١٧م، والذي يعد بحسب تعبيرنا اليوم أبرز مؤسسة علمية شهدتها التاريخ العربي الإسلامي على امتداده، وليس مصادفة أن عصر الترجمة والنقل الذهبي إلى العربية كان عصر بلوغ الإشعاع الحضاري العربي الإسلامي الذروي. فقد كان مترجمو تلك الزمان من أبرز مفكرين، كما ولم تكن هناك مسافة بين الترجمة والإبداع. أما عصر الترجمة الثاني الذي

«باحث من سورية»

ابتداء محمد علي فقد اختلف عن عصرها الأول بأنه كان عبارة عن انعكاس لشعف حضاري لا قوة، وبأن الإبداع فيه تأخر عن النقل، وبأن هذه الحركة لم تقسم بالعمق والاتساع الكافيين لكي تنجح في ترك بصمة صريحة.

أما في يومنا هذا فلا مفر من تكرار النبعة العنيدة ذاتها، فما يصر من حالنا وإياكم أقل بكثير مما ينبغي. وهذا فالمحدث يدور عن الموقع الذي يحتله كعرب في سلم الحضارة العالمي. وعلى الأخص فيما يتعلق بالعلم والتكنولوجيا. وفي أعزاء كهذه لا نعتقد أننا بحاجة للتأكيد على أن اللغة العربية هي التي ما تطبق لنا على امتداد البلاد العربية، وأنها الحقيقة الوحيدة التي نحتاج حولها دون خلاف. إن المحافظة على هذه اللغة لا تتم بالمعامل معها على أنها أحد أنواع المهنة بالانظر، ويجب وضعها في محددات وحدودها من أي لغة غراء كدب بعض اللغويين المتعنتين المستعدين للتضحية بوطيفة إنسانية للغة على حساب نقاء نحوي ولغوي مقروء. بل على العكس يكون الحفاظ عليها منتج الألف والياء في وجهها، بأعريفها لمختلف الرياح وإحسانها في كل المجالات. إن من يقول إن لغتنا اليوم لغة أجنبية، وعلوم كلام وأبست لغة علوم ومصطلحات ليس مخطئا لكنها، فنستغل لغتنا بعيدة عن العلم وأسلوبه ومنهجه ومصطلحات مادتها قد تخطت عنها في هذا المجال، ومادامت لم تعرك بعد في مفعول الثورة العلمية بكل تعقيداتها وبشموليتها. ومادامت علوم اليوم تفرق أصلا بغير لغتنا فإن علاقة لغتنا العربية بها ستقتصر في مرحلتها هذه على تطوير اللغة لنقل أكبر كم من هذه العلوم والمعارف. وعلى أفضل وجه، إلى أن يحين وقد تعود فيه لغتنا لتأخذ مكانها كلفة علم أصيلة ينقل عنها إلى اللغات الأخرى.

لقد تخلفنا عن تعريب العلوم تحت مختلف الذرائع، فمادام سيكون مصير اللغة العربية بعد ظهور من عدم استعمالها فيما يختص بالعلوم؟ طبعا لا يحتاج الأمر للباعه الإبراهيمي بأن هذه الوطيفة الإنسانية للغة مستور. وأن الوقت سيأتيها ببحث يصبح من المتعارف تلافى هذا النقص مهما حاولنا. عندها سيكتب على كل تاطق بالعربية في أجيال ستأتي نأمل أن تشارك في صنع العلوم. أن يقوم بنشاطه العلمي بغير لغته. ويصبح من المتعارف على غير الشغلقين بالعلوم ولغير المقلدين

اللغات أخرى متابعة مباشر من حولهم، وهي حالة مرضية سبق وأن وهدت إلى خطورتها الدول المتقدمة، فبذلت جهوداً كبيرة في سبيل عدم ترك أحد خارج تيار الثورة العلمية.

ليس هذا السيناريو مستقبلياً جداً بل إن حال من الأحوال بل إن يومنا هذا يجعل كل مؤشراتنا هل من نتائج لشؤون الفكر في يومنا هذا يجعل بذرة شك في أن يصبح اللغة العربية مهددة كلفة علم، وإن إنعاشها بحاجة لتسم العناية الفائقة، وإن خلاصتها لا يتم إلا بتضافر جهود الأكاديميين في كل مكان ممن يتقنون ليس فقط لغة العلم بل ومنهجها أيضاً، إن من يعمل عليهم هم الأكاديميون المحققون الذين لا يترفعون عن لغتهم الأم بسبب رطلنة أكاديمية، أو تعصب للبلد الذي نهلوا منه العلم، أو للحفاظ على ما يفسه مجتمع الصفوة العلمي الذي يربو له التميز عن العامة بفهم الأرقام والقرمز، والذي هو أقرب إلى نهج الشعراء من إلى أهل العلم.

لكن الصالح للشعارات كشعار التعريب هو أسوأ مما يمكن أن يحصل لهذا المشروع، وأريد أن إخراج هذا الموضوع من حيز تناول المنطوق إلى خبرة المجرمين هو أكثر ما يمكن أن يفسح في حروقه دماء، جديدة، وفي كثير من الأحيان كانت تعالجات هذا المشروع، الفنية على شارب والقيمة، تكتي من مواقع مسؤولة الناس سقطوا فاضل خطيرة في خطط التعريب الجاهلي، فكان أن جاءت مقارباتهم عبارة عن مديح لبع أسوأ ما صنعوا في حياتها وتجاهها، ويبدأ أيضاً في ضلها!

## إيجابيات التعريب والتعريب باللغة العربية

### «الترجمون خيول بريد التنوير» بوشكين

١- إن النقل للنشاط للعلوم والمعارف إلى اللغة العربية لهد من أهم عوامل خلق القوية والناج اللانين المطلوب في صلية التحديث والمشاركة الفاعلة في تيار التطور العلمي والحضاري العالمي. فقد توافقت كل حركة نهوض واتجاهات على مدى التاريخ بحركة ترجمة لشبيطة. وهناك لا توجد نهضة علمية فكرية تنموي فراغ، بل تبقى دائماً على ما حفظه الآخرون، ويعبر الباحث اللبناني عبد الكريم ناصيف عن هذا الطرح بقوله: «إذا تسبق حركة الترجمة دائماً حركة التأليف، والعلو العام للكلمة، وتهدد الأولى للثانية حيث يبدو جلياً إننا ما التيقنا نظرة على تاريخ الأمم أن حركة الترجمة كانت دائماً هي المرحلة الانتقالية ما بين مرحلة الجذب... ومرحلة الإبداع والتأليف»<sup>(١)</sup>.

لقد ترافق عصر الترجمات الكبرى مع اكبر ازدهار عرفته الحضارة العربية، كما لعبت الترجمة من العربية نورا بارزا في دخول أوروبا عصر النهضة. فمن اليوم مائةون مئذنة من الحضارة العربية التي تحاول نقلها إلى العربية كما كان أسلافنا يفعلون من حضارة ومعارف الإغريق، مع فاروق جوهري، وهو أنهم كانوا أكثر شجاعة وتحرا من طلبة القصر في قلوبهم عما سبقهم. ويتفق الكثيرون على أن هناك شروطا معينة يجب أن تتوفر في الترجمة لكي يمكن أن تسهم في التبرور الحضاري. ومن أهمها بحسب تعبير الباحث هاشم صالح أن تكون الترجمة «صالا إبداعيا يقوم به رجل عالم وياصت في نفس الوقت» أي أن النقل يجب أن يكون تعرييا أكثر مما هو ترجمة حرفية<sup>٢١</sup>. فالترجمة المثالية ليست عملية نقل حرفي، بل هي عملية إبداعية تنجم عن تفاعل فكر وثقافة المترجم مع فكر وثقافة المؤلف من دون انتهاك لروح العمل. لهذا لم تكن ترجمة كهذه في متناول الكثيرين. بينما تعجز حركة الترجمة المعاصرة عن لعب الدور نفسه لأسباب عدة سيستم الشرح لبعضها لاحقا. ويمكن أن نورد قول الباحث جورج طرابيشي الذي يعتبر الفرق الأساسي ما بين الترجمات التي هي بمثابة نقل حرفي عن الترجمات التي هي عملية الترجمة. في عصر الترجمة الأولى كان العقل العربي مكتوبا، أما في عصر الترجمة الثاني فكان العقل العربي «ولا يزال» قيد التكوين<sup>٢٢</sup>.

٢١- إن اللغة العربية هي لغة التواصل في المجتمع بمعنى أنها لغة الاتصال والتفكير والتفاهل. ومن الأمثلة يمكن أن يكون الأكاديميون من خروجي الجامعات، وعرضوها، قانونين على أن يوصلوا علومهم ومعارفهم لمجتمعاتهم، وأن يسهموا في تنمية الوعي العلمي والثقافة العلمية في هذه المجتمعات. لا أن يكونوا طبقة طرية مستقلة عنهم بعضها بعضا فقط. وقد ألتزم لهذا. ترك بعض على مجتمعاتهم إلا إذا تمكنوا من العلوم التي يدرسونها أو يدرسونها باللغة العربية. وإذا إذا توفرت التسهيلات العلمية والتعليمية على جميع المستويات بالعربية. تصبح نظام، الدول المتقدمة يستطيعون التعبير عن تخصصاتهم وإفكارهم بلغاتهم المطلوبة. وظاهرة التخصص الأكاديمي تكاد تظهر بها عن غيرنا من الأمم لذلك فإن جيدا من طرف الأكاديميون يجب أن يبتل من أجل هذا. دستور التواصل مع العامة فلم يعد مطلوباً تعدد الأهتمام والمشتور للمصطلحات الأجنبية أثناء التوجه للعامة الإبداعات شعور «كاتب» لدى المثقفين بالتحدث وسعة معارفه. وحتى عندما

يكون التحدث على مستوى عالٍ فإن جهله بالعلم - موضوع اختصاصه باللغة العربية - يجعله عاجزاً عن إيصال مبادئه للمتلقي العربي العادي، وعلى التأثير الإيجابي في محيطه، إن إقصاء الدور الأعظم من الجمهور عن حقله العلم في الدول العربية سيبعكس سلباً في النهاية على مسيرة العلم ككل. إذ لا يخفى أن تمويل الأبحاث، واستمرار الدعم الحكومي للجامعات والأكاديميين يعتمد بشكل أساسي على وجود رأي عام إيجابي فيما يخص دور العلم والعلماء في حركة التنمية. وهذا لا يتم إلا بتبسيط العلم والسعي الدائم لزيادة الغالبية العظمى من المجتمع على مسافة ليست بالبعيدة مما يجري على جميع جبهات العلم، وأهمية وحسوبة البحث العلمي بالنسبة لجميع مناهج الحياة.

٢- إن اللغة هي الرعاء الذي ننشج فيه الهوية وحسب الانتماء إلى المجموعة الأكبر. وقد يبدو هذا الكلام لبعض شعرائنا غريباً لكثرة ما استعملت تعابير كهذه كقوائم جاهزة لأيد من إقتابها في أي خطاب لياخذ طابعاً وطنياً. وما يهم هنا هو التركيز على حقيقة أن اللغة تؤثر على تشكل الشخصية الإنسانية على كل المستويات. بل تؤثر على الانتماءات والاحاسيس والذاتة، وعلى على منظومة القيم والعلاقات الاجتماعية، وفكرية كقدراتنا القدرة هذه تعمل في اللاشعور. على المستوى الفردي، تسهل اللغة الشخص لكسب الثروة اللغوية اللازمة التي يعمل فيها ككها يصبح عضواً كاملاً في هذه الأمة. وهذا فإن اللغة شعب، دور وسيلة للإخوة ووسيلة للاتصال في الوقت نفسه. كما تمكن اللغة المتحدث بها من التفاعل مع محيطه المشترك، وتعلمه والأدلة التي يستعملها في كشف وتحليل عملياته المعرفية ليوصل إلى الآخر ما يريد فعله وقراءه وأخيراً، وكما يقول ألياج Pegg كما فإن اللغة تكسب صاحبها سهولة التعرف على تجارب الآخرين ومفاهيمهم<sup>(٢٧)</sup>. أما على مستوى المجتمع، فإن اللغة بحسب الباحث عمر غنوس: «هي المتروك التعليمي للمعارف، والتعبير الثقافية، والتاريخ الاجتماعي-الثقافي المتوارث عن طريق العملية التعليمية. وتعمل اللغة كإفراء الاجتماعي الذي يتم بموجبه الشعور بالارتباط بالماضي والحاضر والمستقبل<sup>(٢٨)</sup>. ومن الطبيعي أن تشعر النخب المثقفة التي تلقت تعليمها بلغة أجنبية فقط بالاستعلاء، والاحياز وعدم القدرة على التماسك مع المجتمع بمفهومه الأهم. فاللغة لا تأتي بمجمل عن مبادئها، وعن منظومتها الاجتماعية والثقافية، بل وعن تعصبها الثقافي. وفي هذا السياق يقول سامويل

كروجر Krogger حول أهمية الدور الذي تلعبه السياسة التعليمية واللغة في تشكيل الوعي الثقافي للنشء في البلدان التي احتلتها فرنسا حتى بعد الاستقلال، «إن السياسات والممارسات التعليمية دعمت بصورة مباشرة أو غير مباشرة للجهيزات الاستعمارية المنزلة في سبيل إجماع الشعوب المستعمرة ثقافياً، كما رسمت الأنظمة والممارسات التعليمية بعد الاستقلال التقاليد الاستعمارية وسياسة التعريب، ومن ثم أدت إلى زيادة الانحطاب والتهمية الثقافية»<sup>(١٢)</sup>. بيد أن هذا لا يعني أننا ننكر على أحد ما تمتعه بالقراءة بالفرنسية وسماح أحيث يضاف، أو الإعجاب بافتكار وكتابات فوازيير. فهذا يختلف طبعاً عن الانحطاب الثقافي الذي يؤدي إلى اتخاذ موقف سادس لغة والثقافة العربيتين كما هو حال بعض المثقفين الفرنسيين الذين يذهبون إلى حد وصف اللغة العربية بالهينة، أو بأنها لغة الخلف، أو أنها لغة الجمود والصعوبة واللامعة<sup>(١٣)</sup>. ومن هنا فإن بعداً جديداً يضاهي للمعادلة بشكل يستحيل معه أن يتعاضد الانحطاب الثقافيان للظهور، فيصبح غريباً في مجتمعه لا يستطيع من معارفه إلا اللغة، ولا يشارك المحيطين به أساليب وأعلامهم، والأهم من ذلك جهودهم للخلع ما هم عليه من ثقافة أو قومية. ومن المفردات التي يذكر هنا بأن ابن سينا كتب مؤلفاته الطبية والفلسفية باللغة العربية، بينما كتب مؤلفاته العاطفية باللغة الفارسية، أي أن العربية كانت بنظر هذا العالم التقود لغة العلم والمعرفة، فلماذا نحاول اليوم نقي هذه الصفة عنها؟ ومن أهم الأمثلة في هذا الصدد ما لعبته الأزدواجية اللغوية في لبنان من دور هدام برياني لعصر الانتماء للوطن الأم على حساب الانتماء للثقافة الفرنسية، والذي ساعدت على تغذية بعض الدراسات الدينية. يقول الباحث اللبناني كمال الحاج في معرض انتقاده للأزدواجية اللغوية قائماً: «أي تعاضد لغتين تتفاهضان دوراً متضاداً في مجتمع ما - في لبنان - فقد جعلتا طسفة اللغة، فكان أن مررتا عكس الواقع الطبيعي، دون أن نشبه إلى الخطأ القوي الذي ارتكبه مناهضة التعليمية ودون أن نشبه إلى الضيق الذي اقتناه بين اللبناني كفرد ولبنان كجمعة شعب»<sup>(١٤)</sup>. وفي المقابل يرجع الباحث سليم غير الأزدواجية اللغوية (العربية-فرنسية) إلى معطى اجتماعي ناتج عن احتضان لبنان لجموعين نابيين مسلم ومسيحي «السيحي يشعر بالراحة أكثر حين يستعمل اللغة والثقافة الفرنسيين، والمسلم يشعر براحة أكبر حين يستعمل اللغة والثقافة العربيتين»<sup>(١٥)</sup>. بل هو يذهب إلى القول: «ومن هنا فإن طرح الأزدواجية اللغوية أو إرادة التعريب يظهر كعامل طرح



## عالم الفكر

مسألة الثقافة الوطنية المتناحرة، بل وحتى وجود الدولة نفسها<sup>(1)</sup>. وهذا يشهد بوجود تباين جلي بين وهي ما تعنيه الثقافة الوطنية ناهيك عن اختلاف الثقافة السائدة لدى كل فئة. فالمسألة الفاصلة بين التعصب العرقي العلمي القوي والتعصب الثقافي لا تكون بعيدة إلا ما استطدنا من دروس التاريخ. لذلك لابد من التعرّيج ولو بصرامة على الأيديولوجية اللغوية في المغرب العربي. وتشكل الجزائر الحالة الأوضح بينها. وثاني أهمية الحالة الجزائرية بالنسبة لفرنسونا هذا، من حيث أن الاتجاه السائد في الجزائر كان ينحدر إلى استعمال اللغة الأجنبية- الفرنسية هنا- لتدريس العلوم، بينما تترك العربية لتدريس التاريخ والفلسفة. وهو طرح يلقى تجاربا واسعا في الأوساط الأكاديمية حتى في البلاد العربية الأخرى. أو بحسب عبد الحالك الصبيح تكون اللغة الفرنسية هي اللغة المنهجية المعبّرة عن عالم أئمة، بينما تترك اللهجات التقليدية للتعبير عما هو محسوس وبقي<sup>(2)</sup>. وبغض النظر عن هذا التقسيم الوطني-التقوي، فإن اللغة تتجاذر - كما سبق وأشرنا- وظرفها المستعملة والدالية لتؤثر في التركيب الثقافي-اللغوي في المجتمع كقول الباحثة ليهون لوفير في هذا الشأن «البحث الأرواحية الثقافية عبارة عن لغتين فقط، وإنما هي أيضا مجموعتان بشرتا، وتفاعلتان تفاعلان في علاقة متبادلة، وأن واحدة منهما تفسح للآخرين خلاصة». ثم تطرح بدوره مشكلة علاقة لغة التعليم بنوع التنشئة التي يخضع لها المتعلم في الجزائر، لأن وظيفة التمييز الاجتماعي التي لعبتها الفرنسية خلال الحقبة الاستعمارية تبدو وكأن التعليم الفرنسي المزيج اللغة قد أطعها على عاقبة<sup>(3)</sup>. فالتعريب في الجزائر كان عبارة عن إدراج العربية في النظام التعليمي نفسه، لذلك طأى من شتى أنواع التعصب، إن الانقياس الذي تفرضه التنشئة القسائية يؤدي حتما إلى القياس بتعلق بالأيديولوجية الثقافية. إن هذا الفصل في فهم مهام اللغة سيؤدي بالتفريق إلى وضع ترتبط به إحدى الطغتن والمعادلة والأخرى بالتقاليد. وهذه كلها من العوامل التي أدت بالنظر إلى اللغة العربية بكونها عاصرة على استيعاب منجزات العلوم والثقافة. ومع محاولة عدم الوقوع في التعميم الذي يفضّل تأثير العوامل الأخرى على جعل الوضع في الجزائر وأبعدان، فإن هذين العاملين اللذين شهدا الأيديولوجية اللغوية- الثقافية الأكثر حدة في الوطن العربي، هاتين من أعنف الحروب الأهلية.

1- إن الاعتماد على لغة عربية علمية موحدة هو عنصر لتثاقل وتعاون مهم بين الدول العربية

والكاديبوها على وجه الخصوص. إذ لا تقتصر المشكلة حالياً على انضمام كل دولة عربية على لغة اجنبية مستقلة عن الاخرى كلفة للعلم، بل إن لكل دولة عربية لغتها العربية العلمية الخاصة بها. فقد أدى عدم التشديد في هذا المجال إلى نمو مصطلحات محلية في جميع أرجاء الفكر من علوم إلى نقد إلى فلسفة، وأصبح من المعتز فهم النصوص العلمية المعربة من دون الرجوع إلى الأصل في معظم الحالات. إن وجود لغة علمية واحدة يتكلم بها الأكاديميون العرب ليس حيزي جداً من أجل التعاون العلمي، وتبادل الخبرة، بل وبناء جسر الثقة بين البلدان العربية. كما أنه حيزي آزادي، منظومة معرفية مشتركة تستطيع استيعاب كل ما يربطها من نتائج علمي وفكري من كل بلد عربي.

٥- إن التعريب والترجمة يشيخان إلى اللغة العربية ويغنيانها، بل وينقذانها من الموت الحضاري. فاللغة تعتمد على الترجمة من أجل أن يعالج وتكاثر ويؤسس فاعولها. كما أن الترجمة توسع هياكل اللغة وتغنيها وتغنيها. فقد تراقق عصر الترجمة الذهبي أثناء حكم الأمويين بتطور اللغة الاصطلاحية والفنية العلمية بطور كبير، والتي لم تكن موجودة قبله. ويعتبر عمرو بن كزبان أن اللغة العربية أصبحت تمتلك والثروة الأولى لغة اصطلاحية حديثة بمعنى ذلك الزمن (٣). كما يشهد عصرنا هذا بتطور لغة العلوم في جميع مجالات الحياة، وذلك نتيجة لتسهيل انتشار المعلومات وثورة الاتصالات، مما يقتضي تطوير اللغة بحيث تستطيع التعبر عن واقع اليوم، وإلح عصر النهضة الوراثية والوصفية الفاعلة والإثرائية. لا أن تقتصر على وصف مطالعة المعانيق لعل حبيبتها، فالترجمة والاحتكاك باللغات الأخرى، وباللغات العلمية التخصصية والأخذ عنها، يضمن عدم تحول اللغة إلى نوع من الأحافير لا يمكن إلا أن تدل على العصر الذي شهد نشأتها وشيوعها. إن القرنين الجديد الذي نعيشها اللغة، وأعلى هذا مبادئ العلوم المعاصرة، تقتضي منها ليس البحث عن مصطلحات جديدة لمص، بل عن صيغ ومناهج وأساليب وحتى تراكيب بنوية جديدة. ومن هنا فالترجمة تلعب دوراً رئيسياً في التعرف على التراكيب اللغوية المتشكلة، وعلى مناطق الجودة والحوية في اللغات الأخرى، وعلى الأساليب المنطوقة والفهمية في الوقت نفسه التي تشبع في لغة العلوم المعاصرة.

٦- الترجمة دور هوي الأطلاع على منجزات العلوم واللغات الأخرى، وإطلاع الآخرين على ما

تمثله في هذا المجال. فمع أن إتقان اللغة الإنجليزية أصبح ضرورة حيوية لكل المشتغلين بالعلوم- كونها اللغة العلمية الأوسع انتشاراً- إلا أن الترجمة تتيح الأطلاع على التصور العلمي غير الإنجليزي. كما توصل اسم منجزات العلوم من لا يفطن الإنجليزي. أو لمن- لسبب أو لآخر- لا يستطيع تلمس المخطوطات العلمية ولغتها الأصلية. وهذا لا بد من الإشارة إلى المكانة الخاصة للغة الإنجليزية كلغة عالمية للمعلم- والتي لا يتوقع أن تتنافس فيها أي لغة أخرى في المستقبل القريب. فالمشتغلون بالعلم في كل العالم أصبحوا مجبرين على إتقان اللغة الإنجليزية نظراً وكتابة إذا كانوا راغبين في الانضمام إلى المجتمع العلمي العالمي. وبغض النظر عن العوامل الخاصة التي جعلت الإنجليزية لتتبوأ هذه المكانة فإن وضعها هذا يحتم علينا التعامل معه بما يقتضيه. بل واستغلاله لصالح نشر منجزاتنا في حقول العلوم. ومن هذا فإن ترجمة بحوثنا العلمية للإنجليزية، وتأسيس منشورات عربية علمية تستخدم اللغة الإنجليزية ليعتد أهمية فائقة في بقائنا على المشاركة العلمية العالمية وعدم التهميش. كما أن إعطاء الأولوية للغة الإنجليزية في النشر العلمي، والاعتماد على مجلات إنجليزية علمية، فهذا إن كان له إيجابيات منشوراتنا العلمية في الفهارس العلمية العالمية مثل (Science Citation Index) (SCI) التي يضمن بإضافتها ضمن الحلقة الرافدة للعلم، وإمكانية اطلاع المعلمين في كل العالم على ما ننجزه في هذا المجال. وهناك تجربة رائدة ومثارة في تمكن الاستفادة منها وهي تجربة المجلات العلمية في الخليج وخاصة «المجلة السعودية للأطباء» Saudi Medical Journal، و «المجلة الطبية السعودية»- Annals of Saudi Medicine، ومجلة الكويت الطبية Kuwait Medical Journal. وهي دوريات محكمة لتصدر باللغة الإنجليزية مع إعطاء ملخص بالعربية لكل بحث. فقد نجحت هذه الدوريات في اكتساب احترام عالمي نظراً لحيادية تركيبها ورفق معاييرها، مما أهلها لقبول بعض الفهارس العالمية كالـ Current Contents.

### معوقات التعريب في العالم العربي

لا بد من الإشارة في البداية بأنه لا يوجد تعارض بين مبدئي التعريب والمحافظة على سوية التعليم. ومن جهة أخرى لا بد من التكرار بأن تجربة تعريب التعليم الجامعي كما هي عليه اليوم قاسرة قصوراً شديداً عن الإيفاء بمتطلبات التعليم الأكاديمي والبحث العلمي. وأيضاً بأن وضع

هذه التجربة لن يشهد النسخة ملبوساً في السليل القريب. وهكذا يكون الحديث عن معوقات التعريب. واقعيًا بل ومطوياً. فهذا الموضوع حساس جداً وحيد جداً، وإذا كان من المتعارف القيام به كما ينبغي فإن مسأله ستفوق مجاله.

يقول الباحث اللبناني حسن فهمي: «يبدو أن البلدان العربية قد حسنت أوضاعها منذ زمن على تعريب التعليم... فإن الواقع العاشر في هذه البلدان يشير إلى أنها مصممة على المضي في تنفيذ هذا القرار دون توفير أسباب تنفيذه»<sup>٢٢</sup>. بلخص هذا القول ببساطة جوهر مشكلة تعريب التعليم الجامعي في الأنظار العربية التي صاد به. طبعاً الحديث هنا أطول من سابقه، والموضوع في معوقات ومشاكل التعريب هو الصود الفكري لهذا البحث في محاولة لرصد تجربة قائمة على الأرض، تتميز باختلاف تطبيقاتها وتناولها واستراتيجياتها باختلاف البلدان العربية. وفي ما يلي أهم معوقات وسيليات التعريب:

## ١- غياب الدعم المادي اللازم لحركة التعريب والترجمة

قد يبدو مستغرباً البعض وضع مسألة التمويل والفكر الدعم الذي لعملية الترجمة والتعريب كأول وأهم ما تعاني منه حركة التعريب والترجمة العربيتين. فقد سويها في الدراسات التي تبحث في هذا الموضوع عدم إلاء هذا الجانب الاهتمام الكافي. واستبقى الجوانب النظرية من استحداث دراسات تعريب موحدة إلى اتخاذ قرارات تنسيق وتنظيم التمويل نحو التعريب إلى ضرورة إنشاء معاهد ومراكز متخصصة للترجمة وتعريب العلوم... إلخ. إن التركيز على هذه الجوانب أدى إلى التخلي عن الدور المحوري للعامل المادي في إنتاج هذه العملية. إن كل السياسات والبرامج والمقررات لن تقدم في الواقع إلا القليل لعملية الترجمة والتعريب بفياب التمويل والدعم المادي الكافين، والعكس فإن توفر الفيض الكافي والتمسك من الأموال المخصصة لعملية الترجمة ونقل العلوم العربية سيزيد إلى نتائج إيجابية حتى بفياب أي من العناصر السابقة. ليس هذا فحسب، بل إن توفير الدعم المادي اللازم ينطوي على فترة زمنية على تجاوز الأخطاء والارتقاء بالترجمة. فالأمر المادي الجزوي يدفع أفضل المعلمين والمترجمين إلى التفرغ لأنشطة عملية التعريب والترجمة العلمية، وبالتالي تخلق بيئة تنافس تؤدي إلى تطوير حركة الترجمة. كما يفرض الردود المادي الجهد البشري على دخول معترك هذه المهمة وتلك مشاق الإجابة فيها. هذا يعني أهمية دور التمويل في تنشيط حركة الترجمة من طريق

لتطويع ميزاتيات خبصمة سنوية لهذا الموضوع، أي تمويل ربما يتجاوز قدرة الأفراد والمؤسسات إلى تمويل حكومي. وإضافة هذا الجانب يمكننا الرجوع إلى تجربة ناضجة المترجمة العلمية عالية الجودة في الوطن العربي، وهي تجربة مجلة «العلوم» التي تصدر عن مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، والتي تعتبر بمعظمها ترجمة للمجلة الأمريكية Scientific American. فوجود التمويل الكافي لإصدار هذه المجلدة بصورة لا تقل ووفق المعايير العالمية، إضافة إلى توفر الحوافز المالية المناسبة لاستقطاب أفضل المترجمين العلميين من جميع الأنظار العربية، ولتشغيل جهاز تحريري متخصص على أعلى مستوى، كلها سمات في النجاح منقطع النظير. وفي القائمة الكبيرة التي قدمتها وتقديمها هذه المجلة لعملية ترجمة العلوم ونشرها بالعربية. وقد انتكون مبالغين إذا قلنا إن هذه المجلة منقذة قدمت من الفائدة للمشتغلين والاهتمين بالعلوم في الوطن العربي بما يفوق كل ما قدمته الإصدارات العلمية المترجمة وبكل مؤتمرات ولجان التعريب وفرارها وتوصياتها مستمرة. ومن الجدير بالتنويه أنها بالطريقة التي لمعامل معها اليوم مع التعريب والترجمة وضعنا أنفسنا في سياق خاطئ مع الزمن بكما قلنا فخصمنا النظر عن موضوع الترجمة ونظرنا فقط إلى الترجمة المباشرة للتراجم العلمية والطبية المتوفرة اليوم بالأسواق، نرى أن واحدة يكون قد تقدم حتى قبل طرحه في الأسواق بسبب الوقت الذي يتطلبه إعداد ترجمة الأعمال العلمية، والأفراح السريع للتطوير العلمي اليوم. ولا حل لهذه المشكلة إلا أن تتم صياغة ترجمة التراجم العلمية بشكل متواز ومتزامن مع عملية تأليفها، كما هو متبع حالياً في الإصدارات الأصلية بلغات مختلفة للمراجع العلمية المهمة. وبمعلنا هذا الأمر إلى الجانب الثاني مجدداً. إذ لا يخطئ أن نلاحظ أن الحاج هذه الطرق التي تتبعها الدول المتطورة كلها يتطلب شراء الحقوق والأداء بالاتزامات المالية التي تنظم هذه العملية بموجب اتفاقيات عالية. بينما يكون معظم كثرية الترجمة- العلمي، والجهود منها- عبارة عن فرصة عشوية. وإذا كان موضوع الوقت ثانياً في الآثار الفنية والأدبية، فإنه أساسي في المنشورات العلمية، ومن غير العقول أن يقوم المرء بشراء مرجع علمي بإصدار حديث، تعود أحدث مطبوعة فيه لسنتين مضت. كما يفرض الذكاء الآسي للمنتشورات العلمية، توظيف استثمارات مالية مبرحة في عملية الدعم الكافي للترجمة، مما يتيح إمكانية مسايرة الأفاق على الترجمة لمتزايد في الإصدارات العلمية. أما الوضع الحالي كما يظهر من الشكل ١ (B.A)، فإنه يعكس موضوع تراجع حصصنا العالمية من الكتب المنشورة بلا من زبائنها.

## ٢- عظم هيئات التعريب وجهود التعريب المشتركة

ليس المرء بحاجة إلى إنكار إيمانه بأن حال جميع الهيئات والهيئات العربية المشتركة كمال الأهمية القائمة إذا ما تعرض الأمير لحدوث سير وهو في طريقه لتطبيقها، فالتنطق بحكم طبعاً أن ينظر إلى هذه الهيئات كانعكاس للحال العربي بمجمله. ولا اعتقد أن الفسائل عما تغلغ جامعة الدول العربية، أو منظمة حقوق الإنسان العربية يدخل في خانة ضمانة الأمة. وعلى هذا السؤال جاءت جهود الهيئات والمنظمات والعصبات العربية التي انشئت لأغراض عملية التعريب، ولتعريب المصطلح العلمي وتوحيده... إلخ. كثرة غير بالغة. إنه في أحسن الأحوال لا توجد الجهود البذلة ضمن هذه الهيئات طريقها نحو الانتشار والتطبيق. ولا تصل إلى الشرائح المعنية بها. وإذا سألنا عن الأسباب الخفية أن يكون من الصعب تقديم إجابات مقنعة. فعلى الغالب لا تقوم الدول العربية بقرارات وتوصيات المنظمات العربية المختصة كالـ "المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم" - اليونسكو - المفترض إشرافها على شؤون الثقافة العربية بمختلف وجوهها. فقد تطلب من منظمة اليونسكو على سبيل المثال المسئول على برنامج من الفرق العربية حول الكتب المترجم فيها ثلاث توصيات وأكثر من خمسين سنة. وفي النهاية قدمت فقط سبع دول البيانات المطلوبة<sup>(١٤)</sup>. وقد يكون من الأسباب غياب القناعة الحقيقية بمصالح عملية تعريب التعليم الطبي والعلمي الجامعي بالصورة الشاملة التي يطرح عليها. من قبل الغالبية من القيدين على الجامعات العربية. خاصة من قبل الجامعات التي تعتمد اللغة الإنجليزية ويشارك في عضوية هيئاتها التدريسية مدرسون أجانب. رغم مشاركة مواطنيها في المقررات والهيئات. وتوليهم على البيانات الغنائية إلى ما عدا ذلك. وقد يكون السبب الآخر قلة الأكاديميين الحقيقيين بين القيدين على الجامعات العربية والتعليم العربي. رغم حمل الأخيرين لأعلى الألقاب العلمية قبل استلامهم فهم في أفضل الحالات ساسة أولاً وأكاديميون ثانياً. ومن غير المعقول أن تتماشى حسابات السياسة مع متطلبات العمل الأكاديمي. فالكثير ممن يشتركون في هذه المنظمات والهيئات والمؤتمرات بهمهم تسجيل الوافد وتحقيق الانتصارات السياسية. وذلك عبر صياغة التوصيات والبيانات الغنائية وبراغ العمل بها يتوافق مع توجهات دولهم السياسية وليس بما يتلاءم مع الضرورات الأكاديمية.

### ٣- غياب حرية الفكر

يجب ألا نتوقع ظهور حركة ترجمة نشطة كذلك التي تسبق فترات النهوض الحضاري بوجود الحركات المعقدة في حوائطنا. وهذه مشكلة تعاني منها الدول العربية كلها من دون استثناء. وأبو بدرجات متفاوتة. فمن متدينون بالغ وقب وقيب منها ماعو دالطي. ومنها ماعو خارجي، ولتكنابر المقصات في حوائطنا العربية على حساب الأمانة في التعامل مع الحقيقة العلمية والنص العلمي. فالسياسة في عالمنا العربي كانت ولا تزال هي القول الأساسي الذي يحدد نوعية الثقافة كلما حاولت أن تشرع عن الطبع. لذلك فإن لغتنا تتحول ويشكل غريمي غير منظور إلى لغة تصالعية ومادية بسيطة غير مباشرة لهم أكثر مما تشرح وتطفي أكثر مما تبدي. وهذا ساء لا شك فيه ينعكس على لغة العلوم والمعارف التي يجب أن تكون بظيغها عكس كل ماسبق. ولا شك فإن هذا ما يحدو البعض. عن سوء أو حسن نية. إلى وضع العربية بالعد عن متطلبات اللغة العلمية. من الحقائق المعروفة في علم الاجتماع أن كل مجتمع يسبح بنسبة سياسي لينبولوجي ومفاهيمي يعمده من رواج الخارج. ويزداد السباحة فيبقاً وقوة كلما ضعف المجتمع وضعفت حركته وحركة الفكر والإنتاج فيه. أية يمشي على نضج من أي واقع وتخلق حين هذا النطاق محاولاتنا للأهمية والعالية حسبها للحد من انتشار كل الأشياء التي يتكأن أن تسهل الصلابة بالمعلم الخارجي وبأطر منجزات العلوم. في وقت يتلور فيه مفهوم القرية العالمية أمام أعيننا. كالفلكس والصنوع التكنولوجية والبريد الإلكتروني والإنترنت... إلخ. ليس هناك شك في أن هذه الوسائل يمكن أن تقدم مايمكن أن يفسر المجتمع والفرد على حد سواء. إنما نحن نتمسك بالأمور. وبدلاً من أن ننضم إلى جند عالمي يهدف إلى ترشيده ونظير هذه الوسائل. فإننا نتجاهلها مضمين بكل قوائدها من أجل مساويرة معدومة (بطوعاً بتفاوت. النظر إلى وسائل الاتصال هذه تفاوتاً كبيراً بالاختلاف البلد العربي). وي طرح الباحث حسن قبوسي هذا الأمر من منظور آخر ففي رأيه أن «الغربيين يقولون بلغاتهم قولاً معيها يسفر عن إغناء المعارف. فلأن لديهم ما يقرأونه أولاً. ولأنه ليس لديهم ثمة موانع تمنعهم من قوله في معظم الأحيان إن لم يكن في جميعها». ثم يتابع فيصالح: «هل تكون قد بدأت لغة لغتنا لاأنا بدأتنا فقد حرية استعمالها»<sup>(٢٩)</sup>. فعلى سبيل المثال قد لا يبدو غريباً في عالمنا العربي أن تسمح هيئات التحرير لنفسها بحذف مقاطع من كتاب مترجم، وأحياناً تعديف مقاطع على الكتاب المذكور بغية إغنائها كما تعديف اقتساماً من كتاب

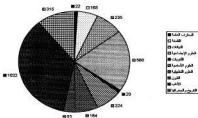
مترجم لمواقع دينية أو سياسية أو ماركسية. أما المصحح في الأمر فهذهنا تقوم في حالات المناقشة جداً بتجاوز عملية نقل المعارف العلمية بشكل أعمى إلى مناقشتها والبحث فيها وإغنائها. واسبق هذا الكلام لأحدث من الهستوريا التي رافقت أخبار استنساخ التسمية المولي في عالمنا العربي. فقد سمح الكل لنفسه من أمي إلى متعلم إلى مثقون إلى مثقفين بمناقشة مختلف الجوانب العلمية والفقهية والأخلاقية للاستنساخ. في تصور تسمية سائح بأن مناقشتنا لأحد الأبحاث، ولو من الناحية الأخلاقية، نضعها في مصاف قبول المشاركة في المحدث العلمي.

### 4- عدم توفر المترجمين الأكفاء

يمكننا في الواقع الاستغناء عن مقولة ندرة المترجمين الأكفاء، بتعبير بطاقة المترجمين الأكفاء، إن لعدم سوق الترجمة عالية النوعية لدى- وبشكل تدرجي- إلى هزوف المؤهلين عن الاشتغال بهذا المجال، وإيضاحاً إلى تباين في الكوادر الشابة المؤهلة التي تقدم على اختيار الترجمة العلمية كتخصص وعرفه للمستقبل. وببساطة فإن خبر مصنفات المجالات واسعة الانتشار ومغاص وب من القطع العلمية الترجمة بالسفر أو بالقرن مقابل البحر ماري زاهد، أو بعدد فرصة الترجمة بولاية اسمه وهو بديل مقالاً جليلية/عراق الأكاديميون المؤهلين من إحصائية وقتهم من دون أجر مهجري أولاً، ومن دون عائلة مثقبة ثانياً، والقرن مهم جداً. أثناء تداول هذا أن تلامس الواقع ومثاقيلته وتعامل مع الأكاديميين والمترجمين تعاملت مع أناس ذوي حاجات أولاً. ومن هنا يكون من الطبع أن طرح السؤال التالي: هل بإمكان الأكاديمي متخصص أن يضمن لنفسه حياة كريمة من عمله في الترجمة العلمية فقط فإذا كان الجواب لا، وهذه هي الحال على أغلب تقدير، فإن الخطاب المصنف على الساحة العربية في هذا الخصوص يصبح من دون معنى لشئنا ما يقول أحد المتخصصين العراقيين عن واقع الترجمة في العراق: «ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن. فالمحاسب شديد والإمكانيات المالية متوفرة، لكن العنصر البشري المؤهل بشكل جيد هو مايلتصا». وهو -لعربي- نفس كبير، ويقاش جدير آخر أردني المشكك من جانب آخر فيقول إن دلة نقصاً مؤسسياً جداً في كفاءات المترجمين إلى اللغة العربية فهم لا يحسنون لغتهم العربية<sup>(1)</sup> أي أن المشكلة هنا ثنائية الجانب فهو جهول باللغة الأم، كما هو عدم كفاية باللغة الأجنبية، وفي حالة الترجمة العلمية/تأليف بعد ثالث وهو ضرورة الإلمام بالعلم موضوع الترجمة. وسأعود لمناقشة هذه النقطة الأخيرة لاحقاً. إن هناك إجماع على وجود مشكلة أساسية في نقص المترجمين الأكفاء، ولكن دعونا نطرح تساؤلات أخرى مشروعة، كم من الوقت والجهد وبسوية المترجم لإيجاد من ينشر له نلجته حتى ولو كان على أعلى مستوى؟ وهل سيكون العائد القاري،



إذا كان هناك عائد مادي، يوازني الجهد المبذول لابد أن مثل هذه التسيلات ستفتح باب المصادر والمترجمين لكل قارئ، ومن زائل صعوبة الترجمة العلمية فالموضع معروف وهو أكثر من مؤلف، يدفعنا هذا إلى القول مجدداً بأن نبرة المترجمين الأكفاء، وبخاصة هدفهم، وإن كان واقعياً معاشياً إلا أنه تالز لضعف الإمكانات المادية المتخصصة للترجمة، ولغياب في تنظيم مهنة الترجمة. ومن بين الحلول المطروحة اليوم على الساحة العربية لتلافي النقص في المترجمين الأكفاء، إنشاء فروع متخصصة بالترجمة في الجامعات العربية، أو معاهد متخصصة في الترجمة، ومع الفجوة بأن هذه الخطوات مهمة ومفيدة، إلا أنها ليست كافية، خاصة إذا حصرنا حديثاً بالترجمة العلمية. صوباً نشأ هذه الفروع الجامعية ضمن الكليات الأدبية، وفروع الألسنيات مما أتت به هؤلاء المترجمة العلمية وخاصة في الفروع الدقيقة المعقدة، حتى بالنسبة للمترجمين الأدبيين فإن تجارب المصنفين اللغوية علمية بلغة لكي تترجم أدب أحد أعلام الفكر العالمي على المستوى اللغوي بتوجب أن تكون من المترجمين الجاهزين الأدبي واللفظي به، أي لا تكفي هنا المهارة اللغوية مهما كانت عالية النوعية، أما في الترجمة العلمية فقد تكون الموضوع أسهل وهذا يجب التفريق بين أنواع الأعمال العلمية المطلوب ترجمتها، فقد لا تتطلب ترجمة مرجع بالطب التشخيصي أو السريري مواعيد خاصة، والطبية المترجم غير إتقان اللغوي، التالز بالتعامل معها، بينما تحتاج ترجمة الأعمال العلمية المعقدة كالأبحاث العلمية، كالأبحاث الجزيئية Molecular Biology إلى تربية كافية بالعلم موضوع الترجمة، وأخيراً أن هذا الموضوع ينطبق على سجل التخصصات العلمية الدقيقة في يومنا هذا كالفيزياء، الجسيمات الدقيقة وغيرها، وما يدل على قواني هذا أنه على الرغم من قيام بعض الدول العربية (سورية - الأردن - تونس - السودان - الجزائر - العراق - ليبيا - على سبيل المثال) بإنشاء دبلومات ومعاهد للترجمة، فإن كمية الكتب العلمية المترجمة تبقى قليلة جداً (شكل ٢) <sup>(١١)</sup>، ويظل النقص الكتب في باقي الفروع، هذا من دون التطرق إلى نوعية هذه الترجمة، وفي الحقيقة تبقى الرغم من عدم وجود التخصص العلمي على النحو الذي نعرفه اليوم، فقد كان جل المترجمين الأوائل من المشتغلين بالعلوم والآداب ذاتها التي يترجمون عنها، ولم يكونوا مترجمين محترفين فقط لهذا بل كانوا باحثين وأساتذة، فالكيميائي الذي كرس كعالم في كيمياء كان مترجم، يضاف إلى ذلك أن كل كبار الفلاسفة كانوا قد مارسوا عملية التعليق والشرح على الترجمات الفلسفية اليونانية وأبرزهم ابن رشد الذي ترجم وشرح فلسفة أرسطو، فالتريجة كانت تتميز بكونها اختياراً مسؤولاً، وبخلاف علمياً حقيقياً، ويتميز المترجمون بالجرأة والافتتاح على جميع الأفكار والمفاهيم التي سبقتهم ولم كونها صاعدة عن مضاربات وثيقة بمعتقدوا.



شكل ١: عند الطلب المترجمة إلى العربية في كل فرع من الفروع ما بين العامين ١٩٧٠-٨١ في الوطن العربي بحسب إحصاء قامت به منظمة اليونسكو.

#### ٤- سيطرة الطوائف السياسية

مما لا شك فيه أن القرار بتعريب التعليم الجامعي هو قرار سياسي أولاً وأخيراً في الدول العربية التي أخذت به أي أنه لم يكن قراراً أكاديمياً نابعا من رؤية الأكاديميين لأهمية هذه العملية وكيفية تطبيقها. إنَّ مُنذ البداية هناك خلل كبير ناجم عن اختلاف بين في حسابات كلا المعسكرين. لقد ارتبطت عملية تعريب التعليم الجامعي منذ البداية بططاب قومي وحزبي يعني الشأن القومي على كل ما عداه، ولا يلهي الجانب الأكاديمي لأمن قريب ولأمن بعيد، وفي المقابل فويل للتعريب بفقر بالغ من قبل البلدان التي لم تشغل نفسها كثيراً بالمسألة القومية. وعندما تكون المبررات الأساسية لعملية التعريب سياسية، يفقد أي اعتراض أكاديمي على الخطوات التعريبية مهما كانت نواحيه خيانة لأطباء الوطن العظيم، ومُسكاً بالقشور لعرقلة المسيرة القادمة للشعب العربية. وقد شبه الكثيرون العملية التي اندثرت بها عملية التعريب بوضع العربة قبل الحصان، أي اتخاذ القرار قبل توفير أسباب نجاحه. وفي المغرب العربي كان المحرك للتعريب هو التفاعل حماسي قومي يتنادي بإعادة المكتبة المفقودة للغة العربية، وتوثيق أراضه الخصبة بين بلدان الإخوة. ومع جمال هذا الطرح فإن تطبيقه الشده - ومن دون دراسة وتحضير كافيين- لم

يلحق الآتي بالعملية التعليمية فمستوى بل أدى في بعض الأحيان إلى ارتكاس في علاقة هذه البلدان باللغة العربية، وبالمشروع العربي على حد سواء. ولدى النظر في الوثيقة الختامية للقاء الأول حول «علوم الطب: المفاهيم والمصطلح» ١٩٩٥، ٢٧ يرى سيطرة الخطاب السياسي في كثير من الناحي، رغم أنه من المفترض في لقاء لمبحث هذا الموضوع أن يكون أكاديمياً وتنظيماً بالترجة الأولى. فمن البند ما يتحدث عن الأخطار والمؤامرات التي تواجه الأمة، والصراع المرير مع الثورات القوية المناهضة، وإحراق الخزائن القبطية في وضع المصطلح العلمي والطبي، ومناقشة القرارات السياسية إصدار القرار السياسي بالعرب، وهذه كلها تعكس تصوراً سياسياً استراتيجياً لروح المشكلة، بغروراته المعروفة من مؤامرات إلى هجمات شرسة إلى منظمات تاريخية. وينتهي القول بأننا كلما أقلنا من هذه المؤامرات وركزنا على روح المشكلة نكون قد اقتربنا من العمل، وفي هذه الوثيقة نلاحظ أيضاً أن هناك توصيتين تشيران إلى ضرورة العمل على استصدار القرار السياسي بالعرب، وتقسيم القسم اللازم له. وهذا يعني الانتفاع بأن القرار السياسي هو جزء من المشكلة، وأن مستوره هو الوطني، إن تقديم الكلمات وتلخيصها لا يمكن أن يكون أكثر حيوية كما هو عليه في هذه الحالة. فالتقسيم اللازم لقيام حركة ترجمة نوعية وتعميم نشاط يجب أن يندمجها فرائز بتقريب الفهم والتمسك بالعلم. فالتعميم التعليم الجامعي هو لغة اليوم الطاهر، والذي يجب أن يركز على قاعدة واسعة من القبي التي لشطلي بالمهام الضخمة التي يطالبها هذا العمل. وهكذا فإن القرار السياسي رغم أهميته هو استدل مخلفات هذه السلسلة التعليمية، كما يسميها المؤلفون القوميون أنفسهم في إشاعة اعتقاد مقدم أن عملية نقل العلوم والمعارف من الحضارة بحيث يصعب تحقيقها من قبل كل دولة على حدة. وهنا نجد نفساً مرة أخرى أمام الخطاب الوحدوي الفج الذي يحاول أن يصور أن لا شيء ممكن التحقيق من دون دولة الوحدة الجامعة القائمة، وأن أي جهود منفردة عن هذا المنحى ما هي إلا ضياع وقت ومال لا يمكن أن تنصب إلا في مصلحة «الاستعمار». إن جعل نقل العلوم والمعارف الأجنبية مشروهاً مؤجلاً مشروطاً بمصول إشباع عربي، يعمل على الاعتقاد على ما نطمح من الحال العربي اليوم بأنه يمثل في حالة السليبيات «الأربعة». كما يشير الخطاب السياسي بالاختزال والتبسيط الشديدين، وأيضاً بالابتعاد عن التطبيق والتفاصيل وبالخطوات العملية البوذية. ففي دراسة للدكتور عادل عوض الاستاد بجامعة نظريون (إحدى الجامعات السورية التي تدرس

بالعربية) يقول: «إننا ننظر إلى اللغة العربية كعامل أساسي من عوامل تطبيق الوحدة العربية، والتدريس بالعديد الأخرى سيكون دون شك عامل تهوئة وتفردة... وبموجبنا التعريب على أن تكون لدينا مؤلفات كثيرة ومشتريات للبحوث ومراجع علمية تزخر بها مكتباتنا» (٦٦). ما يلاحظ هنا مرة أخرى تقديم الضرورات السياسية العملية للتعريب على الشروط الأكاديمية لإتباعها، كما يلاحظ عدم والعمية الطرح كله، فالكاتب لا يكلف نفسه على استداد الدراسة ماء الشرح لنا لماذا سيجربنا التعريب على أن تكون هضبة مراجع ومطهرات كثيرة، كما لا يشغل نفسه كثيرا بحساب التوعية. نحن نرى شك تراخى حركة التعريب في الجامعات السورية بازدياد غائل في كم الكتب والمراجع العلمية المترجمة، لكن سوية لثقتها مع الأنصف الشديد متجلة، إن إجراء بحث بسيط في فهارس اللغات العلمية المنشورة في المجلات العلمية المحكمة خلال فترة نشر المجلات الأخيرة يبين الصورة الشديدة لبعيد العلمية المتأخرة عن الجامعات السورية (مجموعها معرفة) أما بالنسبة للجامعات التي كان التدريس بها بالإنجليزية ثم عربت كجامعة حلب فقد تراخى هذا التحول بانخفاض كبير في عدد ما ينشر فيها من البحوث العلمية في المجلات العالمية المحكمة، رغم الازدياد الكبير في عدد أعضاء هيئتها التدريسية في عشر السنوات الأخيرة. وبين الشكل<sup>٤</sup> النسبة المئوية للمخصص الدول العربية الأولى من حيث نشر البحوث العلمية بالنسبة لمعدل الإنتاج العالمي وهي بمجموعها تقع في أسفل الترتيب العالمي. كما يتميز تسييس العلم بتأليه الأرقام فبدلاً من التركيز على دراسة وضع الجامعات من مختلف الناحية وعلاقتها بالإنتاج والتنمية، يتم التركيز على الأرقام المبرزة كمعد طلاب الدارس والجامعات. وعدد الجامعات والكليات والمعاهد وغيرها. ومع أن هذه الأرقام كثيرا ما استعملت من قبل مختلف البلدان العربية كدلائل على التطور والتنمية فإنها لاتزال - حتى إذا ما اقتصرنا على حساب الأرقام - دون مستوى البلدان المتقدمة (شكل ٤). بالإضافة إلى ذلك تتعاطم نبرة الخطاب السياسي القمري، وهي مشككة نغاني منها بشدة ليس في مجال الترجمة والثقافة فحسب، بل وفي مختلف جوانب حياتنا. فنحن حذرون وانتقائيون في كل ما يخص النقل عن الأناضول بدعوى الحرص على نقاء سياسي أو ديني أو أخلاقي من عوم. وفي الواقع فإن كل هذا من مظاهر ثقافة الدولة المضاربة، فالأمانة الراسخة حضاريا للفكر الأيوبي على كل الليارات والرياح، تهضمها كلها لتتمثل مايلتصها منها وبقاياها.

## تعريب التدريس الجامعي، أضواء على تجربة من الواقع

لطف من الصعب إعطاء تقييم موضوعي لكامل تجارب التعليم الجامعي العرب في الوطن العربي، إنما سنحاول التطرق إلى المشاكل التي تعاني منها إحدى التجارب الرائدة وهي تجربة التعليم الجامعي العرب في كلية طب حلب إحدى الجامعات السورية العربية كلاً.

### ١- انخفاض نوعية الكتب والمراجع المعربة

وهو تعني كبير في التجربة وليس تراجعاً بسيطاً، ولهذا الأسباب موضوعية فقد بدأت عملية التعريب في سورية بتقارب سياسي، ومع أن الجامعات المعنية نقلتها على مراحل، إلا أنها لم تكن مستعدة لهذا التغيير الكبير الذي يفرضه هذا التحول، مما أدى إلى ظهور طبعات وكتب جامعية رديئة جداً علمياً ولغوياً، ولا أبالغ إذا قلت إن فهمها بالعربية أصعب من فهم الأصل الإنجليزي، وكثيراً ما كان الطلبة يسمعون للأصل في محاضرة ليتم مناقشتها بالعربية، وهذا أضعف لم يرافقه فترة التحول نحو التعريب، فحسب بل استمر لاحقاً نشبة عرامل متعددة أهمها ضلالة الحافظ القادي المقدم للترجمة والتعريب مقابل جودة الكتاب، وقد يكون من الشئ القاري، أن يعلم أن تعريفيات المؤلف، والترجمة الكتاب الجامعي في الجامعات السورية تتراوح ما بين ١٠٠٠-٢٠٠٠ ل.س. (بين ٥٠٠-١٠٠٠ \$)، وإذا أضفنا بعين الاعتبار بأن عدداً كبيراً يشارك فيه مؤلفون أو مترجمون عدة، ويحتاج إلى أشهر طويلة من العمل المكثف سيظهر بمستوى لا تق، ومن المستغرب أن تعلم أنه على الرغم من كل هذه الأخطاء، قام البعض بتقديم جهود عظيمة وتضحيات كبيرة من أجل تقديم الكتاب العرب الجيد للطلاب، إنما، وبسبب أن مثل هؤلاء هم من المعادن النادرة في كل زمان ومكان، بقيت المعادلة خامسة، وبقيت كمية الكتب والمراجع والدرجات المترجمة ضئيلة جداً بالمقاييس إلى الكم الهائل الذي يحضر حالياً شكلها B، كما يتقدم بسرعة ماضو متوفر ونقصي المترجمات أو النسخ العربية من الدوريات الطبية والعلمية، وهي تفوق أهمية المراجع كونها تحتوي على آخر الدراسات، وتكون الاطلاع عليها حاجة ماسة للباحثين في مجال البحث العلمي، والجدوى يذكر أن هذه الدوريات لا توجد على شكلها الأصلية إن يريد الاطلاع عليها، وقد لا يكون لعملية التعريب علاقة بهذا، ومن القدر للنظر أن هذه الدوريات أخذت تخلفي تدريجياً من مكتبة كلية الطب مع الانهيار نحو التعريب، وحلت محلها مجلة تدعى «مجلة البحوث الجامعية» وهي مجلة بالعربية لا تتوفر فيها أي نماذج للنشر العلمي، ومن المؤسف جداً أن طلاب كلية الطب

بحسب أيزاكسون اليوم، وبعد حوالي عشرين على التعريب، يحضرون لامتحاناتهم في الكثير من المواد من أصل جامعية مكتوبة بخط اليد، وبجدة كل البعد عن شروط الأبحاث العلمية والكتب الدراسية.

## ٢ - فشل تعليم الإنجليزية كلفة ثانية رديئة

لتلاقي الانتقادات بلن تعريب التعليم الجامعي القطري منحصرم طلاب وخريجي هذه الجامعات من إمكانية الاطلاع على التطورات التخصصية باللغات الأجنبية وبخاصة الإنجليزية، تم استحداث خمسة مقررات للتدريس اللغة الإنجليزية الطبية على مدى خمس سنوات في كليات الطب السورية. أي أن هذه المادة أعطيت من ساعات التدريس ما لم تأخذها أي مادة علمية تخصصية أخرى. وفي الحقيقة فإن نتيجة هذا كانت اسفوية، والأسباب هنا قد تختلف باختلاف ظروف الجامعة المعنية. فمقررات هذه الناحية غير مطلوبة، ومن يدرسها هم في الغالب من غير المتخصصين في تدريس اللغة، بل هم مدرسون مواد أخرى. كلوا بهذه المهمة بحكم تخصصهم في الخارج وإقناعهم للمدة الأجنبية، والخطأ يتفاقم مع هذه المواد كسواد غير لائقة تدريس لكي تنسى بعد مرور الاستعدادات لاجاب. العملية المطلوبة لاستعمال اللغة الأجنبية خلال سنوات الدراسة الجامعية، فمن دون الحاجة إلى استعمال مستمر للغة الأجنبية، ووجود ضرورة للقرائة والكتابة بها، خاصة اللغة العلمية فإن الفائدة من مناهج كهذه كالفائدة كتب تعلم اللغة الأجنبية في سبعة أيام. ومن المآسب هنا أن أبرز استطلاعاً قام به المجلس القومي الأمريكي الدولي لتعليم تجربة التعريب في كليات الطب السورية<sup>14</sup>. فطلب من ٤٦ طبيباً من خريجي الجامعات السورية الإجابة على مجموعة من الأسئلة تتعلق برأيهم في عملية التعريب من خلال تجربتهم العملية. صرح ٢٩ في المئة من هؤلاء بأن اتقنواهم من اللغة العربية إلى الإنجليزية لاحقاً (في أمريكا) كان سهلاً، بينما واجه ٤٤ في المئة منهم صعوبة شديدة، وكان الانتقال بالنسبة لـ ٢٤ في المئة صعباً. ويختار ٤٢ في المئة من المشاركين بأن التجربة السورية في تعريب الطب ناجحة، و٢٨ في المئة أنها غير ناجحة، ولم يستطع ٢٤ في المئة أن يقرروا. ونوهي نتائج هذا الاستطلاع للوهلة الأولى بأن تجربة التعريب ناجحة بالجمال، لكنها بحاجة إلى تطوير وتحسين. أما إذا طبقنا بعض النقاط الأساسية في علم الوثائقيات، فلنعتنا أن استطلاعاً كهذا مفلوط منذ البداية، فلكي تكون العينة القروسة ممثلة للمجموعة الأوسع المشاركة منها يجب أن تتساوى ظروف الانتقاء للأشخاص بهذا الاستطلاع بين

المجموع. بمعنى أن تكون هناك فرصة متساوية لكل خريج من هذه الجامعات أيضاً كان موقعه لكي يساهم برأيه. أما أن يتم استطلاع الأطباء الموجودين في أمريكا، والذين هم أصلاً أفضل الطلاب في اللغة الإنجليزية، والذين يعني تواجدهم في أمريكا نجاحهم السبق في اختبارات الجامعة (حيث يشترط صعوداً على الخريجين السوريين النجاح في هذه الاختبارات للحصول على تأشيرة الدخول)، أي أننا انتخبنا الحالات الناجحة لغوياً، وبمقاييسنا عن رأينا في تجربة التعريب. يدعي هذا الخطأ الشائع في الاستطلاعات (تحيز النظام) Selection bias، وهو يجعل النتائج غير ذات قيمة. ومع هذا فإن تجربة التعريب برأي هؤلاء تعاني من مشاكل جدية.

### 3 - عدم وجود قاعدة بيانات Database معربة

إن من يعمل بالمعمل الطبي والعلمي يعلم كم هو مهم ومعيدي وجود قواعد البيانات الطبية والعلمية مثل المبدئين Medline والإم بيس EMBASE و SCi، ويظنون التعريب يصبح توفر قاعدة بيانات علمية معربة ذا قيمة **استثنائية، فهو يمكن** من الاستطلاع على آخر ما ينشر في المجالات العلمية بشكل ينسجم مع تطور الأسلوب المنهجي أو تراكم لها. أما الأهمية الحقيقية لهذا الأمر فهي لوجستية في المرتبة الأولى، لتعريب المبدئين مثلاً يعني عن الشريط العنقودي في الإصدارات الطبية محاولة لتبين الصالح منها للترجمة. ونظراً لأن المقالات التي تحتويها قاعدة البيانات هذه هي في الأصل منتقاة من المجالات العلمية الجيدة، أي يتضح لنا هذا الأمر - ومن خلال التعامل المبدئي مع منظومة واحدة - الحصول على نظام متكامل معرب يمكن بواسطته الاطلاع على آخر الأبحاث المهمة في جميع التخصصات العلمية. وأستأ هذا بحاجة لتأكيد حيوية هذا الأمر، نظراً لاستعانة متابعة ما ينشر في كل المجالات العلمية المهمة وترجمته عملياً. وهكذا يمكن أن يغطي الطلاب والدارس والباحث على اتصال بجميع المستحدثات في أي حقل ولم بشكل مطلق، مع إمكانية الحصول على البحث كاملاً بلغته الأصلية إذا تطلبت الضرورة. ومن الجدير بالذكر أن معظم كليات الطب في أوروبا والتي تدرس الطب بلغتها الوطنية تحتوي على قواعد بيانات مترجمة للغة. لتسهيل عمل الطلاب والدرسين، رغم إن كان هؤلاء، للغة الإنجليزية، ولا يغيث عن الحال أن الغرام بعمل كهذا يختلف عن ترجمة الكتب والمراجع، حيث يتطلب عملاً وملاحظة يومية لما يصدر من الأبحاث قواعد لترجمته. أي يتطلب هذا المشروع إنشاء هيئات وإدارات متخصصة.

## ٤ - عدم وجود مجلات علمية طبية محكمة باللغة العربية

إن تعريب التدريس الجامعي كلية يعني أن اللغة العربية هي لغة العلم المتبعة، أي يجب أن تتوفر إمكانية كتابة البحوث ونشرها باللغة العربية، وتزد هذه الضرورة أيضاً في توجهات التطوير الخاص للقاء الأول حول علوم الطب والمصطلح، والذي ينص البند الثالث من مبادئه على أن اللغة العربية يجب أن تستخدم تدريساً وبحثاً وتالياً وإعداداً للمصطلحات العلمية الطبية<sup>(١٦)</sup>. إلا أن هذا لم يتم. بسبب عدم توفر مجلات علمية بالعربية، وإن وجدت تكون غير مغترف بها وغير موزدة في الفهارس العلمية العالمية، هذا يعني استحالة الاطلاع على نتائجها إلا بصورة مباشرة من المجلد، وحتى في هذه الحالة فإن هذه النتائج غير ذات قيمة لأن المجلة لا تتوفر فيها شروط النشر العلمي الأساسية. أي أن القيام بالبحث والنشر في مجلات كهذه هو جهد ضائع علمياً، كما أنه جهد ضائع على الصعيد الشخصي، فإن إيموت سيرتاك الذاتية على مائة بحث علمي منشور في مجلة كسيلة البحوث الجامعية الآن لا يذكر لا يساري أن تحتوي على بحث علمي واحد منشور في مجلة New England Journal of Medicine أو حتى في من هي أعلى منها مرتبة. فما هو الدافع للبحث والنشر بالعربية في هذه الحالة؟

## ٥ - ضعف أو انعدام البحث العلمي

أدى التحول إلى اللغة العربية إضافة إلى ما قد سبق ذكره من غياب مظهرات ومراجع وقواعد بيانات، إلى انقطاع شتاً فشتاً عن مسيرة البحوث العلمية الطبية، وأصبحت الجهود في هذا المجال إما تكراراً لمفاهيم سابقة إنجازه، وإما أعمالاً تقتضيها ضوابط ومنهجية البحوث العلمية. إضافة إلى أن التعريب رافقه الاستغناء الكامل عن الخبرة الأجنبية، مما انعكس سلباً على عملية البحث العلمي، وعلى مستوى التدريس بشكل عام، ليس لأن الأساتذة الأجانب هم أفضل من الخبرة المحلية، بل لأنهم من المثقفين للتدريس قدموا تخصصاً لأداء هذه المهمة، بينما يعمل أعضاء الهيئة التدريسية المحليون في أعمال أخرى خاصة تأخذ منهم جل وقتهم وجهودهم رغم أنهم مثقفون للتدريس أيضاً. لسبب بسيط إنما جوهري، وهو عدم كفاية الراتب الذي يتقاضونه من الجامعة للعيش حياة كريمة، أو حتى دون الكريمة. إذ يبلغ معدل راتب عضو الهيئة التدريسية (المائل على شهادة PhD أو ما يعادلها حكماً) في الجامعات السورية حوالي ١٠٠٠٠٠ ليرة سورية شهرياً (تقريباً ١٠٠ دولار).



## ٦ - تخلف المصطلح الطبي العربي عن مواكبة سرعة التطور العلمي

وهذه مشكلة عامة جامعية وغير جامعية. فرفع عبارات المؤشرات والقنوات والقجان والجامع والتوسيدات فإن المصطلح العلمي والطبي خصوصاً لا يزال يفتق الحقائق بركب التطور العلمي ولا يدركه، ولا يزال يعاني من التعدد والتعقيد وعدم البنية فهو إن وضعه المعويون التي غير دقيق طبياً، وإن وضعه علميون جاء غير دقيق لحيوياً وإن لشارك الأكلان في وضعه جاء معقداً غير عملي. وحتى لو اتى على درجة من الكفاية فإنه يحتاج إلى المصطلح الإنجليزي بجانبه عند استعماله للمرة الأولى في النص منعا للاكتساب، أي أنه لم يفتنا تماماً عن المصطلح الأجنبي. ومن الجدير بالتنويه هنا أن كلمات الطب الأجنبية التي تدرس بلغاتها الطبية حافظت على المصطلحات اللاتينية والإنجليزية. ولم تترجمها في معظم الأحيان. فعلم التشريح مثلاً يدرس باللاتينية في كل كلمات الطب العالمية. أما القانون على تجربة العرب العربية فلم يترجموا أن يقال إن هناك ما هو غير قابل للتعريب، فترجموا علم التشريح بـ"علمه"، ولم يفتقروا الاتصال التشريحي ما بين طلابنا ونظرناهم في كل العالم فقط بل فبدوا لنا مجزأة من المصطلحات العربية. لنضم بالتعقيد والغربة واللاعلمية. ولما كان المصطلح قد نزلنا التكنولوجية الحديثة بما يمكن أن يساعد أخيراً على الحل النهائي لنشكالية تعريب وتوحيدهم المصطلح، عن طريق إنشاء بنك موحد للمصطلحات الطبية والطبية موصول بشبكة الإنترنت. ونشرف عليه هيئة دائمة تعمل على إحيائه وتطويره المستمرين. يفتي على حيرة العاملين في المجال العلمي والتعريب على وجه الخصوص. أي القواميس أفضل؟ وماهي البدائل المتاحة للمصطلح العربي؟ من دون التوفيق في قرارات وإصدارات هيئات ومجامع التعريب المختلفة والكثيرة. يسود بنك كهذا الوصول إلى المصطلح العلمي لغريب بشكل كبير، كما أن إمكانية الاتصال من مجموع الجامعات العربية بهذا البنك والقائمين عليه يتوجب صيانة تبادل الآراء حول المصطلحات العربية. واقتراح الجديد منها ممن لم يرد ذكره. وتعديل المصطلحات الموجودة بغية جعلها أكثر تلاؤماً وعملية. ومن دون معالجة فائتي من الصافي لهذه الفكرة حيث اعتقد بأنها قادرة على أن تحل مشكلة المصطلح العربي.

## الخلاصة والنتائج

يتبين مما سبق أن هناك طريقاً طويلة وشاقة يتوجب قطعها قبل الوصول إلى التعليم الجامعي العرب ذي السوية فالتعريب بحالته الراهنة لا يحقق غايات التعليم الجامعي الطبي والطبي

ورغم أن بعض المشاكل التي تعاني منها الجامعات السورية لا علاقة لها بالتعريب، فإن الكثرة مرتبطة به أو ناجمة عنه. وفي محاولتي المتواضعة هذه لإلقاء الضوء على هذه التجربة العملية توصلت إلى ثلاثة مبادئ أن لا صيغة سحرية لحل إشكالية التعريب، فمما في عملية التعريب مع المحافظة على السوية العلمية، ومواكبة التطورات الكبيرة التي تشهدها المؤسسات العلمية في كل العالم. بل ربما كان الاعتماد على صيغة سحرية أو مجموعة حلول أو مقترحات هو سبب المشكلة. ويبدو أن المطلوب هنا هو مرونة فائقة في التعامل مع هذا الموضوع، وأيضاً إلى إفتتاح عقلي بشاؤم كل عصبية قومية وسياسية أو ثقافية. فبالإضافة إلى اختلاف ظروف الجامعات العربية الذي يجعل استعدادات سياسية تعريبية موحدة غير واقعي، فإن نجاح خطوة معينة قد يكون متفاوتاً بين جامعة وأخرى بسبب مجموعة عوامل قد لا يمكن التنبؤ بها. لهذا فإن التحذير أولاً وأخيراً هنا هو الواقع ومبادئه.

لكن ما هي الثوابت التي يجب ألا نبعد عنها في محاولتنا لتعريب وتطوير التعليم الجامعي في الوقت نفسه؟  
أولاً: التأكيد على أن الأولوية هي للمستقرين الأكاديمي والعلمية التعليمية وليس لأي شعار براول مهما بدا مهما.

ثانياً: التأكيد على أن الذي يجب أن نذهب إليه عملية التعريب هو موضوع نسبي ومختلف بحسب اختلاف الجامعات، وما تسمح به ظروفها من توفر المربين المؤهلين للمشروع في صيغة التعريب، إضافة إلى عوامل أخرى متعددة. وهذه النقطة الأخيرة مهمة جداً، حيث لا يجب أن يوضع هدف نهائي هو التعريب الشامل لجميع التعليم الجامعي مهما كانت النقطة الموضوعية للوصول إليه تعريبية. فبحسب ظروف الجامعة قد لا يكون من المنطوق إذا تعريب التعليم الجامعي بجممله، أو قد تقرر جامعة ما التراجع عن مقترحات سبق وعزيت لتجاوز القدر من بها باللغة الأجنبية، وقد تزلزلي جامعة أخرى السير إلى منتصف الطريق منذ البداية. وهذا أيضاً فإن الضرورات الأكاديمية ومتطلبات العملية التعليمية هذا المعيار ولا شيء آخر.

ثالثاً: إعطاء الأولوية في تقرير التوازن المتعلق بالتدريس والبحث العلمي للاكاديميين المشغولين في الجامعة لا لأي جهة أخرى. فبغض ما تبذره الجامعة عن الأيديولوجيا بقدر ما تقترب من العلم.

وأخيراً استحداث نظام تقييم مستوى الجامعة لراقية أي تراجع أو تقدم يطرأ عليها، سواء كان ذلك مرتبطاً بالتحريب أو بعوامل أخرى، وبدراسة أساليب، وانتقل مثلاً نظام يعتمد على عدد الأبحاث المنشورة في النجالات العلمية المهيمنة، أو إلى نسبة الفاضلين المنفوية من ذوي هيبة الجامعة في المنحدرات القبول الأمريكية أو الإنجليزية، أو مزيج من الاثنين.

خامساً: تقديم الحوافز المادية الملائمة لأعضاء الهيئة التدريسية للقيام بعملية الترجمة النوعية للعلوم، والمطغرة للعمل الجامعي والعلمي، وإيجاد آلية غير متحيزة للتقييم وراقية نوعية الترجمة وبخاصة في مجال الكتب العلمية الجامعية لضمان توفير قاعدة العلمية الحديثة وبمستوى اتق، وأيضا القيام بنشر الأبحاث العلمية باللغة الإنجليزية.

سادساً: استحداث نظام تقييم لأعضاء الهيئة التدريسية يعتمد بشكل أساسي على نتائجهم العلمي المحكم، وعدم ممارسة المساواة في التعامل مع من يعمل ومن لا يعمل، وفي مجال التقييم قد يكون من الأفضل التعاقد مع جهة مستقلة عن الجامعة، لأن التجارب طمعتا ضمن ظروف عمل جامعاتنا غير المسبوبة أن أي فكرة أو رؤية يمكن أن أصل منها بدت ضرورية وبحيرة.

سابعاً: إفساح المجال لطهون الجامعات الأهلية، وذلك لتشجيع على المنافسة التي لا يمكن أن تلغضي إلى غير الارتقاء بمستوى التعليم الجامعي، فإذا لم تتنافس كليات الطب على الطالب والمستشفيات الجامعية على المريض، فإن أي أمل بنظور حقيقي لشهيد هذه البنى العلمية يبقى ضئيلاً.

ثامناً: الاستعانة بالخبرة الأجنبية في جميع مراحل العملية التعليمية والبحث العلمي ضروري جداً، وقد يستغرب البعض هذا الاقتراح لأننا نشهد من كيفية تطبيق لغريب الجامعات على الوجه الأفضل، والذي يعني بحسب قاموس الجامعات التي سارت في التحريب الاستعانة كلاً من الخبرة الأجنبية، وفي الواقع فإن الخبرة الأجنبية لا فهي هنا في أي مؤسسة علمية اليوم، فكما قد اسلفت فإن المؤسسات العلمية جامعية أو غير جامعية أصبحت يرى لمعددة الجنسيات في كل العالم، ولا اعتقد أن هناك مؤسسة علمية واحدة في الدول المتقدمة تظفر من باحثين أو مدرسين زائرين يأتون من الدول المتقدمة والثانية على حد سواء، وليس في استقدام الخبرة الأجنبية أي انتقاص من قدرنا على النهوض المستقل بأعباء التعليم الجامعي، أما بالنسبة للتعليم الطبي فإن

وجود الخبرة الأجنبية سيكون حيويا جدا للتطوير بمستوى التعليم والبحث والنشر باللغة الإنجليزية، وهي اللغة الأجنبية الأهم في معظم العلوم والطب خصوصا كما أسلفنا.

توسعاً الاعتماد على الإنترنت ووصل الجامعات العربية بعضها عن طريق هذه الشبكة واستحداث قاعدة بيانات علمية معربة وبثها للمصطلحات العربية يمكن الوصول إليها من قبل جميع الجامعات العربية عن طريق هذه الشبكة مما يمكن أن يسهم إلى حد كبير في توحيد المصطلحات وتطويرها بما يتناسب مع الاستخدامات المستجدة ومتغيرات العلم.

لقد علمتنا تجربة التعريب في الجامعات السورية درساً بالغ الأهمية أولاً من السهل جداً إعطاء المبررات الفاسدة للقيام بعملية التعريب، فمعهذا وإن الخطاب السياسي المعاصر يركز بالمصطلحات البهذلة والعبارات الحماسية التي تخدم في هذا المجال. أما الفرس الثاني فهو أن الإبقاء بالانجليزية العلمية لهذه الخطوة بالغ الصعوبة. وأسر، الخطأ فإن واقعنا اليوم يفرز لنا قبيحا هائلا ممن يشتغلون على الجبهة الأولى، بينما تكثر واقع الحياة ترميها القلة التي تحاول أن تعمل بحسب القاموس الذي أدرج من المصطلحات التعريب، إما لم تكتب هذه المعاملة الخاسرة أصلا فسيظل هذا الموضوع محورا للظواهر والنمات والاضطرابات الممنوعة بعيدة قائمة.

# في طور التنفيذ : معجم جديد للترجمة من العربية إلى الإنجليزية

محمّد سعيد طهيلي هليل\*



مقدمة

تُعاني أقسام اللغات والترجمة في معاهدنا العربية من قصور شديد في المعجمات العربية - الإنجليزية، ويزداد إحباطنا إذا ما قرأنا هذه المعجمات العربية - الإنجليزية بالمعجمات الإنجليزية - الفرنسية، والفرنسية - الإنجليزية (Robert & Collins 1987)، أو الإنجليزية - الألمانية، والألمانية - الإنجليزية (Collins Klett 1983)، حفزنا هذا الوضع على القيام بدراسة استغرانا فيها أهم المعجمات العربية - الإنجليزية، ومنها المعجم الذي وضعه (Salmons 1890)، ومعجم (Wartabet 1888)، ومعجم إلياس (1922)، ومعجم (Wehr 1961)، ومعجم البعلبكي (1988)، كما أطلعنا على أحدثها (سجاني الطلاب 1995). وقد أحصينا بعضاً من مقالبيها نوجزها في النقاط التالية:

\* قسم اللغة الإنجليزية - كلية الآداب - جامعة الكويت .

١ - القصصاها على تزيينها بالكلمات العربية دون شرح كالمفرد معناه بدقة للمترجم سواء كان من أبناء العربية أو من غير أبنائها.

مثال ١ : يَنْدُ : شَلَّتْ

(إلهام)

مثال ٢ : يَنْدُ : طَرَّقَ - شَلَّتْ - لَزَلْ  
disband, separate, break up, dispel, drive away, to remove, eliminate,  
get rid of, do away with

(اليعيشي)

لا يَنْكسح المترجم مجال الاستعمال، لما الذي سيقترن أو يتشكك وهل سيقترجم  
يَنْدُ جهته بأي من هذه القابلات

٢ - استعمال المترجمات الأجنبية كالمقالات الأجنبية، أو التعبير العربي دون أي تعويض  
بين دلائلها وإيهاماتها

<http://ArchiveBeta.Sakhrn.com>

مثال شَلَّتْ -  
Solitary, alone, single, lone, sole, isolated, separate, sever-  
al, distinct, individual

مما يصعب معه اختيار المقابل المناسب للنص الذي يعالجه المترجم

نرى كيف يختار المترجم المقابلات المناسبة في ترجمة العبارات التالية

١- عزف منفرد . ٢- اجتماع (تلاق) منفرد .

٣- حبس منفرد . ٤- منفرد يتكلمه .

٥- عاش منفرد . ٦- منفرد يراه .

٢- غياب التلازمات اللفظية في الشبكات العربية والإنجليزي فلويدنا والمقابل الإنجليزي غير  
كاف على الإطلاق، ففي أغلب الأحوال يكون الفعل الإنجليزي أو الصفة مثلاً متعدد المعاني بعدد  
استعمالاته مع فاعل أو مفعول أو ملزوم معين، ويكون التلازم غائباً وهو الذي يُعَدُّ المعنى، كما أن

المقابل يرد في مجموعة من الترجمات مما يجعل عملية الترجمة شاقة للغاية. تُضيقُ الوقت والجهد.

مثال: برّاق : اللمع - shining, sparkling, flashing, gleaming, glittering, glist-  
tering, glistening, shimmering, radiant, dazzling, bright, brilliant, re-  
fulgent, resplendent, beaming, shiny, lustrous

(المورد)

لنرى أيضاً أي من هذه الترجمات لترجمة «مورد» برفقاء جيد يتحدّد معنى «رفقاء» بتلازمها  
بمورد.

6- الاهتمام بالمكتبات المترجمة أكثر من الترجمات الإضافية والتعابير الاصطلاحية كما يتضح  
من القائمة (جدولاً) التي تقدم ثلاثين تركباً إضافية وتعبر اصطلاحياً لغزها عشارية من  
بعض النصوص. وكشفتنا منها في شقيتين عربيتين - الإنجليزية- وتشير العلامة (✓) إلى  
وجود التركيب أو التعبير في المعجم المصدر. وتشير العلامة (X) إلى إنباه.

7- تركب هذه المعجمات على المعنى العرقي للكلمة المصدر وتجاهلها للمعنى المجازي الذي  
يُشكل هذا على لترجم للغة ثانية كما يكون كلمة

مثال : واثق المولد (a newborn girl) burying alive

وهو معنى «المعجم» دائماً استكمالها مجازياً فقد غاب عن واضع المعجم. وهذا بالتبسيط  
ما يحتاجه المترجم، فالاستعمال المجازي مرتبط بطبوعية اللغة. بل إنه في أبسط الحالات، وهو  
الفعل بطل، لم نجد أي مقابل يساعدنا على الترجمة بدقة.

مثال: التعبيران المجازيان

1- بطل السجن : He was imprisoned, put into prison, jailed, in carcer-  
sted, locked up (coll).

2- (الدولة) دخلت الحرب : (The country) went to war with or against...

وحتى التوضيح الصوري لفضلنا أن نقدم بعرض سريع لتهجئة كل معجم من هذه المعاجم  
الخاصة.

## ١- المعاجم العربية - الإنجليزية

### ١- معجم (1890) Salmone

يضع نظام الجذر ودلاً من أن يضع تحت كل جذر الأسماء والمصطلحات وغيرها يُحوّل المستعمل إلى جدول، وتشكال للأصناف الاشتقاقية العربية (انظر جدول ٢ و ٣).

ويزيد من تعقيد المعجم اتجاهاً لرموز وأرقام عديدة منها:

١- في المصدر العربي يحول إلى رقم للمطابقين في الجدول.

مثال: (مفعول) والإحالة إلى الرقم والمختصرات 27 280

(Nouns of action) (مفعول) للمصل إلى (مفعول) (انظر جدول ٣).

٢- استعمال a, b, c للإشارة إلى المعاني المختلفة للفعل أو الشكل المشتق.

٣- استخدام الأرقام الرومانية I, II, III لتمثيل تصرفات الفعل العربي (انظر جدول ٣).

٤- استعمال الأرقام العربية 1, 2, 3 وغيرها في مكان جديدة في الجدول للإحالة إلى الأسماء والمصطلحات المشتقة (انظر شكل ١).



- \* **تَبَحَّثَ** *A* (n. no. 1) [*P*]. Searched into, investigated; ferreted, wormed out, grabbed, scratched up.—(*ʔ*) [*An*]. Sought for; inquired into.—III, Discussed, argued with.—V, *see* I(*ʔ*).—VI, *see* III.—X, *see* I(*ʔ*).
- 13 1. (*ʔ* 00). Search, inquiry, examination, investigation.—(*ʔ*) Discussion, controversy.—(*ʔ*) Mine.—17, (*ʔ* 44). Research.—24<sup>1</sup>, Earth, mould.
- 20 **مِبَاحَثَة** Discussion, argument, controversy.

ARCHIVE  
http://Archive.org/details/sakhras.com

على الرغم من مبررات هذا المعجم وفي كثيرة وتشتمل على عدد كبير من المعاني والاشتقاقات وسلاسة وسلاسة لغة الإنجليزية وثرائه في المرافعات فهو يقتدر إلى السهولة الواضحة للمعنى كما يتلوه الكثير من التعيينات الاصطلاحية.

### ب- معجم (1888) Wartabet

يعتمد هذا المعجم على الجذور أيضاً، ويهتم بالفروق بين المعاني وتطبيقاتها (انظر شكل ٢). لكنه يلجأ إلى الفاصلة والفاصلة المنقوطة لتمييز الطرفين أو البعد في معانيها وليس تلك بالوسيلة الناجمة السهلة التي يمكن أن يلجأها المترجم في بحثه عن المعنى.

مثال ١ : تبحر - To bear pov- to be embellished, use courteous language. To bear pov-  
arry with patience and silence.

مثال ٢ : جاني - a gatherer. Sinner, criminal. جاني

وقد يلجأ إلى مجال الاستعمال حياً :

متكلاً، يمتد يَمْتَد يَمْتَدُ : To spread out (a garment or cloth), open the hand, stretch out the arm.

يسط يسط يسطه : To be free, without restraint (in speech).

ويُجمله في كثير من الأحيان

سَلِمَ من : To escape, to be free from

سَلِمَ بـ : To admit, submit to

كم سيكون الأمر جلياً إذا أضفنا (سَلِمَ من الغرض) / الآفة/الخطر/الأذى وسَلِمَ بـ (القدر) مثلاً.

To search	سَجَّهَ سَجَّهَ سَجَّهَ
the earth is search of something.	
To seek, inquire, to examine, investigate.	سَجَّهَ سَجَّهَ سَجَّهَ
To discuss, discuss	سَجَّهَ سَجَّهَ سَجَّهَ
investigate a thing with one.	
To seek for, in-	سَجَّهَ سَجَّهَ سَجَّهَ
quire into, investigate.	
Examination, investigation.	سَجَّهَ سَجَّهَ سَجَّهَ
Inquiry.	
Soil, earth.	سَجَّهَ سَجَّهَ سَجَّهَ
Field of inquiry,	سَجَّهَ سَجَّهَ سَجَّهَ
Investigation, research.	
Discussion, controversy,	سَجَّهَ سَجَّهَ سَجَّهَ
disputation, Search for some- thing.	

## ج- معجم إلياس (١٩٣٣)

ما يلتزم به هذا المعجم تحديد الكلمة العربية أو تفسيرها بكلمة عربية مرادفة لها تمهيدا للمتر  
التأويل الإنجليزي.

مثال :

To investigate ; search ; look, or inquire, into.	بَحْثٌ فِي الْأُمُورِ
To study ; examine.	— الأُمُورَ : قَرَأَتْ
To look, or search, for.	— مِنْ أَثَرِهِ
To discuss a question with.	بَاخَعَهُ : قُبَاخَعَتْهُ فِي الْأَمْرِ
To reason, or argue, with.	— : مَارَوْهُ
Research ; careful search.	بَحْثٌ : تَبَحُّثٌ
Examination ; investigation.	— : تَحْقِيقٌ
Researcher ; investigator	بَحَّاثٌ : مُبَحِّثٌ
Ponibala	بَحْثِيَّةٌ : بَحْثِيَّةٌ
Theme ; a subject set for speculation or discussion.	مَبْهَوتٌ : مَوْضُوعٌ
Research work.	— : مَوْضُوعٌ وَمَقَرٌّ
Discussion ; argument ; debate.	مُبَايَعَةٌ

شكل (٣)

وقد تقدم هذا إلياس بالمُعْجَمَةِ الثَّانِيَةِ مَطْرُوعًا إِلَى الْأَمَامِ فِي إِشَارَتِهِ فِي بَعْضِ الْحَالَاتِ لَا كَلِمًا  
إِلَى الْمَلَاكِمِ اللَّغَوِيَّةِ وَتِلْكَ حَالَاتٌ كَثِيرَةٌ لَا سِيَّاقٌ يُعَدُّ مَعْنَاهَا وَاسْتَعْمَالُهَا

مثال : إِيْدَ : عَزَزَ : To support ; maintain

To confirm ; establish : أَلْبَتَ

To help ; support : سَاعَدَ

فَمَا الَّذِي سَيُفَرِّزُ وَالَّذِي سَيُكَلِّمُهَا فَالْمُسْتَعْمَلُ وَحْتَاجٌ إِلَى سِيَّاقٍ مُفْرَحٍ كَانَ يَقُولُ إِيْدَ حَكْمًا :  
الْبَتَّ : وَإِيْدَ : مَوْضُوعًا : دَعَا وَنَصَرَ

#### د- معجم (Wehr (1961

يُعدّ معجم (Wehr (1961، وكذلك معجم الجعلياتي (١٩٨٨) أفضل وأشمل مُعجمين من العربية للإنجليزية بالنسبة لفرادات اللغة العربية وديالكتها (Phraseology). لكن يبقى الكثير مما يجب القيام به هذا إذا ما قارنا بين هذين المعجمين والمعجم العربية - الفرنسية، والعربية - الروسية (انظر النجد ١٩٨٠، والسيل ١٩٨٢، والقاموس العربي-الروسي ١٩٩٢).

تنظم الفردات في معجم Wehr تبعاً للجذر العربي، ويستخدم المعجم النظام الأوروبي في تليل النظام الصرفي... I, II, III (ص ١٧٧). وتطلى، كل صفحة منه بعد جدول من المطاللات الإنجليزية بشكل يصعب معه على المترجم استعمال المعجم (انظر تعليق 1993 (Hoogland). ويستخدم الفاصلة للفريق بين التعريفات المترادفة، والفاصلة المظروبة للإشارة إلى بداية التعريف في نطاق دلالي مختلف (انظر شكل ١). وما يزيد من صعوبة الاستعمال كما يستخدم Sahrng/ ORO، لتوضيح الاستعمال، لكنها غير كافية إطلاقاً فلو لم في الاستعمال تعديد (الشيء)، وتعديد (المتعدد)، وهذا هو ما تطلى فيه العلم الفاصلة العربية والتي من التواجد الإنجليزية- الأمريكية.

مثال: <http://Archivebeta.Sakhril.com>

to decrease, diminish, reduce (هـ s. th.)

to lessen (e.g., the value of s. th.)

to disregard, neglect, fail to heed (هـ s. th.)

كما نلاحظ في المعجم تعدد الترجمات المُتسرة من السياق

مثال :

طنان ringing, sounding, pealing

jingling, resounding reverberating.

echoing, humming, buzzing.

droning, whistle, buzzer (of a kettle);

famous, renowned, celebrated.

أشرف أي كلمة نختارها من هذا التركيب الترانزي في لترجمة فصيحة طُنْكَ أو كلمات طُنْكَ، وأي  
مثال إنجليزي يستعمله مع (الطنقة)، ومع (الجرس)، ومع (الغياض)، ومع (اسم) في السياقات:  
طنقة طُنْكَ، جرس طُنْكَ، غياض طُنْكَ، واسم طُنْكَ

هد - الجعليلكي (١٩٨٨)

يختلف الورد عن طقة المعجم العربية - الإنجليزية لكونها شريفاً الفينايا وفن الحروف  
الأولى للكلمات، ومن الاعتقاد بغير الكلمة أو الأصل المبرك الذي إنشأت منه. وعندما يكون الكلمة  
العربية أكثر من معنى واحد فإنها تُقسّم إلى فروع ولي كلاً منها تعريف أو شرح أو دليل بالعربية  
يُتميز بعضها عن البعض الآخر (انظر شكل \*). وقد خطا الورد هنا في خدمة المترجم بخطوة إلى  
الأمام، وألقى عملية الشرح العمدة لتجديداً في "Web". وقد استوحى الفكرة من إيلاس، ولكنه  
وَقُل في تعريفه بين اللغتي بشكل مبدع عن غيره.

مثال: رفع : أزال to remove, take away, eliminate, lift, raise, end, put as

end to

رفع : راف. -to raise, increase, step up, hike up, scale up, jack up, sky-

rocket, heighten, intensify, enhance.

يَحْتُ (من): تَحْتُ، تَحْتُ  
to search for, look for, seek, quest, hunt for, fish for, try to find, to grub for, rummage, search about, to prospect for, drill for, excavate

يَحْتُ: دُرس  
to discuss, to consider, look into, to study, explore, inquire into, delve into, scrutinize, examine, investigate, inspect, check out, to deal with, treat, to research, do research

يَحْتُ (من): تَحْتِيش، تَحْتِيش  
search for, quest of, search, تَحْتِيش, تَحْتِيش, prospecting for, looking for, seeking, hunting, prospecting, drilling, excavation

يَحْتُ: دُرس، تَحْتِيش  
discussion, consideration, looking into, study, exploration, inquiry, scrutiny, examination, investigation, inspection, checking, treatment, treating, dealing with

يَحْتُ: دُرس، تَحْتِيش  
research, research work, study, survey, report, treatise, paper

يَحْتُ: دُرس، تَحْتِيش  
in quest of, in search for

تَحْتُ: دُرس، تَحْتِيش  
under consideration, under discussion, on the tapis, on the carpet

## مكمل : ( ٥ )

وعلى الرغم من أن محاولة البطيخي في إعطاء المعنى بالعربية هي محاولة جديدة بالشتاء، فينقصه المزيد من المعلومات الدالية حتى يزول اللبس الذي يسببه العدد الوفير من الترجمات التي تلتفت إلى شحذ وتفرق بين معانيها، ولا تكفي يهتدى المترجم إلى ترجمة وقع المصدر من المعنى، ورفع الرأس. وعلى معجم Web وأحصل بين الكلمات الإنجليزية المترجمة بالعلاقة، أما الدلالة التقوية فتتصل بين الكلمات الإنجليزية ذات الدلالات المختلفة المختلفة، أو بين ظلال المعاني المتقاربة، ولكن دون أن تكون مترادفة. وكل هذا لا يستعمل استعماله.

firstfruits; firstling, first (early, earliest) بالهبة

produce or product or result; first sign.

first in diction, herald, harbingers, forerunner.

precursor; beginning, start, rise, dawn; first, initial, early

ونلاحظ في مثلنا هذا كثرة الترجمات لكثرة من المعجميون من ملأوا لفظة "هبة" بل، بلحاظ في بعض الأحيان إلى إعطاء مترادفات لدرجة في اللغة الإنجليزية كإعطائه *like up, jack up* بمعنى (رفع) راف - انظر المثال أعلاه.

## ٢ - معجم جديد

وبعض نقلا في أوجه النص هذه نجد أن على الجمعية اللغوية التي انبثقت من الترجمة هذا لها أن تُعثر من معانيها. وإن أُعيد النظر في منهجيتها. من هذا تولدت لنا فكرة معجم الترجمة. وبهذا إن الترجمة كما يقول *Hartmann (1993:5)* - معجمية معقدة تتضمن المشرقة على صياغة معنى التعبير الواحد باللغة المصدر واللغة الهدف فاللغويين، ومعجم عربي أحادي اللغة، ومعجم ثنائي من نوع خاص هو من الفصل البناء الترجمة.

للتغلبات بين اللغات. وأفضل التعريفات هي التي تركز على الصفات المميزة للمعنى إذ إنها:

(أ) توضح المعاني المختلفة للكلمة

(ب) تفرق بين المعاني المتصلة.

وهذا بدوره يساعد على إيجاد المقابل الإنجليزي

## ٢-١- السياق

قد لا يكون للكلمات في حد ذاتها أي معنى من المعاني. لكنها لديها القابلية أن تحمل معنى معينا، وتتعلق هذه القابلية في السياق اللغوي أو الاجتماعي. فمعالجتها لا تهتم بما طرأ على معنى الكلمة الإجمالي (*referential meaning*) أو المرجعي. وما اكتسب من إحصائيات بل هي

تجرد العلى. ومن ثم فالتعريف القلشيب فيها غير كاف. بل إن التعريف الكامل أيضاً يحتاج إلى تعزيزه بالسباق. فالكلمة يتكون معناها بتعريف السباق (النظر: 1988 : Jackson).

مثال: خادم المرمى (custodian) = القم طوبها، الأمن طوبها، واحرمها.

مثال ٢: اليد العتيل (Kaaba) = الكلمة

## ٢٠٢- الجذر

إن صيغة الكلمة في اللغة العربية، باعتبارها لغة سامية، بُني على قاعدة من السواكن والحركات. عناصر الجذر. وهو هيك من السواكن. وعلى القلشيب من الإنجليزية التي تعتمد على مورفيم الأساس (base morpheme) أو الجذع (stem) فالجذر العربي لا يكون كلمة في حد ذاته. بل هو مجرد سلسلة من السواكن يحمل معلومات دلالية عامة. والمعنى المحدد يمكن أن تصل إليه بشكل عام إذا رجعنا إلى الجذر **فكل الاشتقاقات المنكدة من الجذر تُصلها في المعجم مدخل** منفصلة لكنها مترابطة ببعضها. إذ إن اللغات السامية. وعلى العربية. تتميز بأن الجذر هو الأصل القوم الذي اشتقت منه جميع المشتقات في اللغة. وهو يتكون من السواكن الخمسة. ولا يطلق أي صيغة موجودة في تلك اللغة. من ثم فنخرج التباح شيوخ ابن فارس (في معجم مقاييس اللغة) (النظر طاول ١٩٩٧) فيكون الجذر أو الأصول هادياً لفهم كل كلمة ومشتقاتها وينظم المدخل العربي فيعبري كل مدخل كلمات مترابطة دلالية.

مثال: رخص الزاء والطاء والصاد أصل يدل على لين وخلابة شبة. من ذلك الرخم الرُخَص: هو الناعم. ومن ذلك الرُخَصى خلاف الغلاء. والرُخَصَة في الأمر: خلاف الشديد.

[معجم المقاييس في اللغة من ٤٤٧]

## ٢٠٢- الأمثلة التوضيحية

إن الشواهد التوضيحية باللغة العربية والتي قد تأخذ أشكالاً عديدة فقد تكون شبه جملة أو متلاًزماً لغوياً أو جملة كاملة تعزز التعريف بالكلمة. كما تساعد على التفريق بين الكلمات المتطابقة في معناه. فالترجم يبدأ عمله من الطرق العربي فيتعرف من التعريف على الصفات الدلالية



المميزة للوحدة المعجمية سواء كانت كلمة أو أكثر، ثم يبدأ في اختبار مدى صلاحيتها لفهم النص، فإن لم يتسعه هذا لجا إلى الأمثلة التوضيحية، فإن كانت هذه قد أحسن اختيارها فخرته على إيجاد الترجمة المناسبة، لذا وجب الاهتمام بوضع الشواهد وحسن اختيارها على ألا تشكل معلومات زائدة عن الحاجة، أو تفرغ في التفاصيل، أو أن تكون مبنية مبنية فتثير حيرة المترجم (في الأمثلة واختيارها انظر 1992 Mianera). ونضيف أن استعمال المرافف لشرح معنى الكلمة العربية كما تفعل بعض المعاجم الثنائية كالإيراس والبليكي، وبعض المعاجم الثنائية الإلكترونية لاجتماع كثيرا على فهم المعنى المراد:

مثلا: ١- طرح ٢- اقتطع ٣- رمى ٤- طلع

[المعجم: القاموس الناطق]

مثال ٢: حدث to occur, happen, take place

باح كان ناشط  
ARCHIVE  
http://Archivebeta.Sakhril.com

[البليكي]

ويختلف معجم الترجمة الذي نقتضيه عن هذه المعجمات التعليمية فالقصد منه هو حفظ المترجم على فهم اللغة المترجم منها فهما بيقفأ في سياق معين، وإعطاء القائل المناسب باللغة المترجم إليها في سياق محال، وتقضي القايلات على السياق المحدود أي التزام القائل أساساً، كما تقضي على التزام المعجمي أو ما يعرف بـ colligation كارتباط الاسم بحرف جر معين، أو الفعل بحرف جر معين، ومعجمنا في واقع الحال يقضي عن معجمين يرجع إليهما المترجم في انتقاله من اللغة العربية إلى اللغة الإنجليزية: معجم عربي - عربي، ومعجم عربي - إنجليزي. إذ يعد المترجم بمعلومات دلالية في كتلة اللغتين، فالتمييز الدلالي ضروري في حالة الفهم وكذلك التعبير، والشرح العربي في المعجم يقدم الفهم، أما الشق الإنجليزي أو الأجنبي فيقدم التعبير في الوقت نفسه.

وترتكز خطتنا في تنفيذ هذا المعجم على بعض العناصر المعجمية الوثيقة الصلة بعملية الترجمة وأهمها:

## ١-٢- التعريف

إن المعجم أو الشق العربي على وجه التحديد في معجمنا لا يفي عنه فهو عماد الترجمة في تحليل كلمات النص الأساسي لأنه يُعرّف معاني هذا النص داخل اللغة التي كُتب بها، وحيث إن إحدى المهارات التي نستشرها في عملية الترجمة هي القدرة على التعبير عن معنى الشيء في إطار اللغة المصدر بالتعريفات. ينبغي أن تكون دقيقة وكاملة وواضحة فهي على حد قول Steis (1978:8) «التي تمكن المستعمل من التعرف خصائص معاني الكلمات». فالتعريفات في المعجم الأحادي (الطلق العربي) ضرورية لأنها هي أول ما يحفز المترجم على إيجاد المقابل. إذ إن الكلمات العربية للنص المصدر يجري صياغة معناها في هذه التعريفات وصياغة المعنى هذه من أكثر الطرق شيوعاً.

إن معجم الترجمة الذي نلاحظه سيكون عربياً على تشكيل معنى اللغة المصدر أو اللغة الأم (العربية) [١]. وإعادة صياغة باللغة الهدف (الإنجليزية) أو اللغة الأجنبية [٢]. إن المترجمين سيغيرون كثيراً من الرمي بأهمية الدور الذي يلعبه المعجم الجديد بالنسبة لعملية الترجمة. والتصد هنا نوعين من المترجمين العالم الذي يتم الترجمة وإعادة الترميز فترجموا في المستقبل (المرحلة الجامعية في أقسام الترجمة)، والمترجم الذي يمارس مهنة الترجمة. ويلجأ الدارس في أغلب الأحوال إلى المعجم الثنائي ليستعين به في عمله الترجمي. أو على فهم اللغة الأجنبية ولا سيما في المراحل الأولى لتعلمها. وقد ظهر حديثاً نوع جديد هجين مولّد من معاجم الدارس يجمع خصائص كلٍّ من المعجم الأحادي والمعجم الثنائي. ويعرف بالمعجم شبه الثنائي (bilingualindirect- (bilingual ، أو المعجم «المترجم» (translated) أو المعجم «المشرح» لأنه جاء نتيجة لتكييف المعجم الأحادي اللغة لغة الأجنبية كـالإنجليزية مثلاً لسد حاجات الدارسين المتعلمين بلغة أجنبية كـالإسبانية مثلاً. وقد شهدت الثمانينات ظهور ما يزيد على ٢٠ معجماً من هذه المعاجم شبه الثنائية ذات الأغراض العامة للمتحدثين باللغات العربية والصينية والفرنسية واليونانية والعبرية والإيطالية واليابانية والنرويجية والبولندية والبرتغالية والإسبانية وقد زينت عليها حديثاً اللغة الروسية والفترانية والسلافية (Kerremas, 1997).

وفيما يلي (شكلًا) تعرض مثالين لهذا النوع من المعاجم. النوع الأول (كلمة El drag) وهو من الإنجليزية إلى الإسبانية وبه صودان والمعاني فيه مترجمة ومعها تعريفات بالإنجليزية ومقابلاتها على اليمين باللغة الإسبانية مع جعل توضيحية بالإنجليزية. أما النوع الثاني (E2) فيقتصر على

إعطاء المقابل بالإسبانية لكل من المعاني الموصلة والفارقة بالشرح باللغة الهدف (انظر في الإنجليزية-العربية معجم (Harrap 1980)، وقرابة الأمثلة الإنجليزية بلا ترجمة ويختار مطابقاً واحداً بالإسبانية، ويجمع المعجمان بين ميزة الشرح والأمثلة باللغة الهدف، وتزويد القارئ بترجمات مباشرة لها باللغة الأم.

- ٤٦ drag along ١. To draw or pull along slowly. ٢. To move or go too slowly. ٣. To walk or swim to tired along the ground. ٤. To search the bottom of a dish or hole for hidden objects.

drag along ١. To take a time and boring, unpleasant. ٢. To move a rather too dramatically (sometimes) slow, heavy, uncertain. ٣. To be slow. (His speech dragged on and on.) ٤. The shuffling or slowest locomotion. (The dog dragged behind the other party.) ٥. Always use to do sth to the end of sth. ٦. American very often breaks part of words. After some drag behind her because it is too long. ٧. The always is always just an ideas made things. ٨. There is always something in it that is not the right meaning drag.

(DICCIONARIO INGLÉS, ed. P. de Mello Vianna, Voluntad/NTC/ Houghton Mifflin 1982: 141)



ARCHIVE

- ٤٧ drag along ١. To take a time and boring, unpleasant. ٢. To move a rather too dramatically (sometimes) slow, heavy, uncertain. ٣. To be slow. (His speech dragged on and on.) ٤. The shuffling or slowest locomotion. (The dog dragged behind the other party.) ٥. Always use to do sth to the end of sth. ٦. American very often breaks part of words. After some drag behind her because it is too long. ٧. The always is always just an ideas made things. ٨. There is always something in it that is not the right meaning drag.

PASSWORDS ENGLISH DICTIONARY FOR SPEAKERS OF SPANISH; comp. P.H. Collis, trans. R. Sainz-Espasa, Harrap/ Kernerman/Ediciones SM 1980/ 91: 154-155)

نكسر ١١١

## ٢-٥ الاستعمال المجازي

معظم الكلمات من أسماء وصفات وافعال وافعال جزئية يمكن ان تتسع في معانيها او تستعمل مجازياً، وهذا تكمن صعوبة ترجمتها فالاستعارة والاستعمال المجازي يعكسان حضارة اللغة التي نقتل منها أو إليها، ومن ثم وجب ان نعمل في معجم الترجمة هذه الاستعمالات بوجه خاص. ولناخذ التعبير التالي كمثال «بطلت القوة عامها الرابع». حاولنا البحث عن هذا المعنى المجازي للفعل دخل في معجمنا اللغوية، كما بحثنا عن الاستعمال المجازي للتعبير «نظن الجاهل» والتعبير «نظن الجاهل» فلم نجد أي منها.

## ٦٠٢- المعنى الفرصي (pragmatics)

قد تحتاج بعض الكلمات العربية إلى أكثر من جملة أو عبارة شارحة لفهم استعمال الكلمات لتأدية أمور عديدة منها التعبير عن المشاعر أو التأكيد مطلقاً أو دعوة شخص أو لخصه أو الاعتذار إليه أو تهنيئه أو تعزيته أو التعمد له بالقيام بعمل ما وغير ذلك. وحتى تكون الترجمة فعالة لابد وأن تنقل هذا الجانب الفرصي (pragmatic) إلى اللغة المترجم إليها. كل ذلك ظل يمحور عن معالجم الترجمة، بل وحتى عن المعالجم الأحادية. وقد أولى معجم Collins CO-BUILD في طبعته الأخيرة (١٩٩٥) اهتماماً لهذه الناحية، واستخدم لها علامة متعددة تدور الفرصية حول: كيف ومعنى وثلاً استعمال الكلمة أو التعبير. والثال التالي يوضح الطريقة التي يمكن أن تأخذ عليها على فرعية تعبير عن التعبيرات.

مثال: مستندى استشاري: تعبير يطلق على الاستشارات التابعة للقطاع الخاص في مصر ليعني خدمة **القتل** بتأثير من التي تقدمها المستشفيات الحكومية. يُظهر باستهجان إلى لغة استشاري-من كثر من الاستهجان باللغة العربية في مصر.

مثال ٢: شهود الله التي لم تخلص أوزار، يستعمل المثلث أو القسم

<http://Archivebeta.Sakna.com>

## ٦٠٢ - المقابلات

تهدف بعض المعالجم اللغوية إلى تزويدنا بمقابلات لكلمات من لغة المصدر ويسود الاعتقاد بأن هذا هو قمة العمل المعجمي. وأن هذه المقابلات يمكن بسهولة إيجادها في النص المترجم كما هي، بلا تحوير أو تغيير (انظر Zgusta 1970). وذلك فكرة خاطئة في الأساس، أم تول السياق ونسبته وفرصته حقاً، بل ترى أن تقتصر على مقابل واحد، والصحة في ذلك هي السعي نحو الدقة وعدم إرباك المترجم. وفي الطرف الآخر نجد معجماً مثل Wall و كذلك من بعده البليكي يزودنا بعدد هائل من المقاربات دون التمييز، ويؤيد من حرية المترجم في المائل أن المقابل الذي يزود به المعجم الثنائي هو في الطب الأحوال غير مفهوم كآه مزروع من السياق. وكذلك الكلمة الرئيسية للمدخل هذا إذا لم يحددها السياق. من هنا جاءت أهمية السياق في معجم الترجمة المقترح أي أن الحوير الذي ينبغي أن يبنى عليه هو الموازنة بين سياق وأخر، أو إيجاد المقابل النصي، أي ذلك المقابل الذي يتغير بتغير النص. لذا فمن نؤيد هنا فكرة تعدد المقابلات التي

تظل كل ظلال المعاني حتى يختار المترجم من بينها (انظر 163: Blanning 1990) فسريرة أن يصحبها ملازمها القضي. وكما يقول (Cruse 1986:53): «إن المعنى الواحد يمكن أن يعكس منه الميقاتات المختلفة ويطلق لأحضر لها، وكل سياق يؤكد صفات دالكية بذاتها ويغطي معانٍ أخرى ويحببها» (انظر Walker وشيوز بين المترجمين: / idle/ lary, humid/maggy, excitement/ exhilaration وغيرها). إذا أصبح التزاماً على واضع المعجم أن يطرح عدداً من التباينات العربية غير متصلة من سياقاتها حتى يمكن المترجم أن يختار من بينها ما يتفق والنص، هذا إذا وجد. أو أن تلتزم في إلى إيجاد المقابل المناسب. (انظر Kassirer 1995).

قارن بين spreading, dissemination, propagation; grief, sorrow

(Walker)



واقترانها التالي

radio transmission, radio broadcast [التراسل، البث] [التلفزيوني]: الإرسال

http://Archivebeta.Sakip8.com

propagation/ dissemination of knowledge [المعرفة] البث

spreading disaster, the news, rumours [الاشاعة] [الخبر] و [البث] البث

laying mines [الغام] البث

divulging secrets [الاسرار] البث

striking terror into (the hearts of people): [الرعب] البث

sorrow, grief, sadness: حزن، شدة،

## ٨٠٢ - الوحدات متعددة الكلمات

على الرغم من أن المعاجم الثنائية قد اعتمدت إلى حد ما- ولا سيما معجمي Webster والبلعكي-

بالوحدات متعددة الكلمات فلا تزال قاصرة في ثلاث طرائق

(ب) التلازمات اللفظية

(أ) التركيبات الإضافية

(ج) التعبيرات الاصطلاحية

## 1 - التركيبات الإضافية

التركيبات الإضافية التي نلصقها هي مجموعات من الكلمات لها شكل ثابت لا يتغير، ومعنى خاص بها، وهذه يجب أن نوليها عناية خاصة.

مثال: بيوت الله - بيت الليل - بيت الشقة - بيت الأفكار - هرق النساء - صابونة الغصاة - غدة النكاح - حروف العلة.

وتتمثل هذه التركيبات صعبية في الترجمة، وذلك لأنها لا يمكننا بحال من الأحوال أن نترجمها ترجمة حرفية، وقد شيرت العالمة اللغوية الإنكليزية بثرانيا في هذه الظاهرة، وعبارة التوثيق فيها، ومنها العالمة والترجمة وفرانكلين.

## ب - التلازمات اللفظية

في تعريفنا لمصطلح "التلازم اللفظي" في هذا البحث سنلجج نهج Benson (1985) Cross (1979)، Ashenafi (1979)، ونعرف التلازمات اللفظية بأنها تجمعات معجمية للكلمات أو أكثر جرت العادة على تلازمها وتكرر حدوثها وترابطها دالالياً، وعلى التلخيص من التعهيرات الاصطلاحية (idioms) نجد أن كل مكون فيها يستعمل بمعنى غير الاصطلاحى بمعنى أنها شطافة تماماً، وكل مكون من مكوناتها هو مكون دالالى له كونه ومعناه.

مثال 1- أسماء وصفات والمعال

(أ) جريئة تكراء - حلقة مفرقة - جامعة خريقة (اسم + صفة)

(ب) رأس المال - فائحة الكتاب - رفاق السلاح - صناديق الاقتراع (اسم + اسم)

(ج) أحرز نصراً - حلق حجة - بذل جهداً (فعل + اسم)

مثال 2- الفعل والحال: ارتعد فرعاً

مثال 3- الفعل وعرف الجر والاسم: خفل بشدة

وهذه التزامات لاتعدّها قيود نحوية ودلالية فحسب، بل قيود قابلية التجميع والاستعمال وبخاصة اللغة. واللغة العربية تزخر بالتزامات اللفظية في كل اجناسها الكتابية والنحوية، في القصص والدراسة، وتمثل هذه التزامات عتية كداء بالنسبة للمترجم، وذلك لصعوبة توقع اجزائها. فانطلاق التزامي للكلمة يخطف باختلاف المحضرات (انظر 1988، 1990 Helal وكذلك 1994 Telia et al) وصعدت (1994) Rabbour حين تقول: «إن تفصيل تجميع لفظي على آخر ليس أمراً عفوياً عربياً، بل امتداداً، لكنه لتفصيل له معناه تدفع إليه العقلية القومية لبناء اللغة الواحدة».

إن ترجمة التزامات اللفظية تستغرق من الترجمة العربي وقتاً طويلاً، وتستنفد جهداً كبيراً حتى يصل إلى المقابل الإنجليزي الصحيح، ولابد أن يشرب اثر اللغة الأم إلى الترجمة، ولا يمكن بحال من الأحوال أن يكون المترجم معكماً على صفة التزام الأجنبي الذي يقترحه مقابلاً للالتزام العربي. إن التعامل أو التصرف في الترجمة يحدد لا على مستوى الكلمة، بل على مستوى التزام اللفظي، وبأساليب الشهود أعطت المؤلفات الأجنبية تعريباً وفتشية التزامات اللفظية (انظر 1993 Hongland وعليل ١٩٩٧ وتجاريداً على هذه المعاجم).

تتركز أهمية التزامات اللفظية في كونها الطريقة الطبيعية للتعبير عن معنى (Heid 1994). ولهذا السبب لتسم النصوص المترجمة التي تعوي التزامات خاطئة أو تعبيرات تم تأليفها خصوصاً «غير طبيعية» ومن ثم لابد أن يهتم معجمنا المقترح بشكل خاص بالتزامات العربية فهي التي تحدد

(٣) المقابل الإنجليزي

(١) المعنى التزامي

مثال: حلقه وصل/ حلقه مفانج - seminar/ Key ring

مع الأخذ في الاعتبار أن هناك حدوداً لما يمكن لعجم الترجمة أن يعطيه من التزامات لفظية ويقترح هنا إبراز اللزوم في الشطين العربي والإنجليزي من العجم يربطه بين اقواس مربعة حتى يرى المترجم اثر التزام على كل معنى من معاني الكلمة العربية ويطلبها باللغة الإنجليزية.

مثال: [يعتد] صيغة: a bargain [strike]

[تعاظم] المشتري: dog [abuse]

### ج - التعبيرات الاصطلاحية

يشير التعبير الاصطلاحى إلى سلسلة من الكلمات التي تتبناها عوامل دلالية وتركيبية تجعل منها وحدة واحدة. ومن الناحية الدلالية لا يمكن الجمع بين معاني هذه الكلمات متفردة لفهم المعنى الاصطلاحى للتعبير ككل. أما من الناحية التركيبية، فهذه الكلمات تنقسم إلى حد بعيد بالفئات، ولا تسمح بالفتح والتغير الذي يظهر في سياقات أخرى (Crystal 1983:152) مثال ذلك ضرب به عرض الصائط والتعبيرات الاصطلاحية أو التعبيرات «المسكوكاة» كما يقول الصنائع (١٩٩٦: ٢٢) تعني شيئا أو محمود أحد العناصر في مكانه حيث يستحيل استبداله بمتغير آخر. كما أنها لا يمكن استخلاص دلالتها من العناصر المألوفة لها. بل يعمل في فهمها على تجربة الفرد مع لغته بطريقة توظيف المجتمع لهذه التعبيرات في مقاصدها اللغوية. ومن ثم نشأت صعوبة ترجمتها بمقابل اصطلاحى أو لغة اصطلاحية إلى الاصطلاحية. وذلك من صعوبة ترجمتها أنها معقدة دلاليا على عكس التعبيرات البديهية التي تتميز بالشفافية والظهور اللاتقيدى (2000: compositional) (المناشر: ١٩٩١). أضف إلى ذلك أنها مرتبطة إلى حد بعيد بالمضارة التي نشأت فيها مما يضيف إلى صعوبة نقلها من لغة لأخرى. فقد تحولت العبارة عن معناها العرفى التي تعنيه عناصرها المألوفة إلى معنى مختلف كل الاختلاف فيما تشير إليه. مثال ذلك: جس النبض التي يمكن ترجمتها في معناها العادى بـ feel the pulse. أما في معناها الجازى، بمعنى (يسبرغور فلان) فنترجمها بـ sound somebody out. ونوصي هنا بالإشارة إلى الاستدلال الجازى لبعض العناصر الدالطة في تركيب التعبير الاصطلاحى أي شرح البنية الدالطية الدلالية للتعبير، وذلك بالإشارة إلى أصل التعبير وإلقاء الضوء على مرجعيته المضارية.

مثال: رجع بخفي حنين/ ظاهري التذلل/ قلب ظهر البطن (العميد انظر أبو سعد ١٩٩٧ وصديقي وآخرون ١٩٩٦)

ونقترح هنا الشكل التالي في الشق العرشي للتعبير الاصطلاحى:

مثال: شَرْوَى بَطِير / شَرْوَى: الفعل



التفسير: الشق الذي في ثوب الشرة

التعبير كتابية عن القيمة

مثال: ٩: قلب له ظهر الجبن الجبن القرس

عاداه بعد مؤنة

ويزيد من أهمية التعبيرات الاصطلاحية كثرة ورودها في اللغة المحكية والكتوبية فهي تكون عملاً يقل عن ١٠ من الرصيد اللغوي المتزن في كتابية المتكلم العربي ذي التكوين الثقافي التقديس (الحناني، ١٩٩٦).

كل هذه التجمعات التي تتألف من أكثر من كلمة يفتى أنواعها من مركبات إضافية ومتلازمات وتعبيرات اصطلاحية استمدت وجودها من العضوية والبيئة العربية الإسلامية، ولاتزال حية نستعملها حتى يومنا هذا، ولابد أن ينعكس هذا الواقع في معجم أحد ضلوعاً للترجمة.

## ٣- خلاصة

يبنى معجمنا المقترح على مجريتين أساسيتين:

<http://Archive.org/details/...>

١- الترجمة الناجحة تعتمد اعتماداً كبيراً على فهم النص الذي نقوم بترجمته من اللغة العربية، ووسائلنا المعجمية في ذلك تنحصر في التلميح، إلى ما من شأنه أن يساعد على بقاء الفهم من شرح معنى الجذر الذي يدور حوله المعنى العام، والتعريف الشيق الشامل الواضح، والاعتماد أساساً على كلمات أو تعبيرات تعيش في سياقها لا كلمات مجردة من السياق.

٢- إن فكرة التقابل تنبع من فكرة حسنة عن التكامل اللغوي والمعجمي لأن واقع الحال يفرض التفكير، فليس ثمة تقابل بين كلمات اللغة التي نترجم منها واللغة التي نترجم إليها، من ثم فالمعجم المقترح لا يطمح في تزويد المستعمل بالمقابل اللغوي، ولكنه يزوده بالمقابل النصي لأن معنى الكلمة أو التعبير لا يتفهم من السياق بل هو يربط به.

إن يكون معجم الترجمة المقترح مرجعاً للمقالات الجاهزة الاستعمال كما نوصي به المعالج الضائقة المتاحة، بل إنه يساعد المترجم أو يحفظه على إيجاد المقابل المناسب، ولكن بعد مقارنة سياق سياق لا كلمة بأخرى.

## أفاق نقدية

- المجلد : الأثر البشرية (عز الدين عتاي)
  - بين الذوق والنقد المسرحي
  - علم النفس والتحكم : نظرة للحداثة الجديدة
- http://Archivbooks.Scanal.com

# العولمة: الآثار البشرية

تأليف: زايجمونت باومن

عرض وتقديم: د. شفيقة بستاكي

Globalization  
The Human Consequences  
by Zygmunt Bauman  
(Cambridge: Polity Press 1998)



ARCHIVE  
<http://Archive.org/Sakhrn.com>

يتضمن الكتاب قصة لوصول بالإنسان إلى مقدمة، ويقع في (١٢٧ صفحة + ٧٠٤)، وهو منشور (١٩٩٨-١٩٩٩). وفيه نرى بمواقع أهم المصطلحات في صفحات الكتاب (١٣٤-١٣٦). مؤلف الكتاب هو زايجمونت باومن أستاذ فخري في علم الاجتماع بجامعة لندن في بريطانيا وأرسو في يولندا.

## عرض الكتاب

يهدف الكتاب إلى التحذير من المآسي البشرية المترتبة على العولمة، ومن ثم التعرض للعوامل الاجتماعية الطبيعية التي تبرز في مقابل ظاهرة العولمة، فظاهرة الانكماش المحلي الرافض لكل ما تقدمه العولمة

\* عرض وتقديم: د. شفيقة بستاكي - قسم الفلسفة جامعة الكويت

من معالم الاختزال الزمني والمكاني. فإذا انطلقنا مع الفراض المؤلف في أن الاختزال في بعده الزمني والمكاني يقتصر تحولاً متعدد الوجود لمؤشرات الوضع البشري. وإذا قمنا الأسباب الاجتماعية للاختزال والنتائج المترتبة عليه، تبين مدى الفتح مسيرة العودة إلى الوحدة المفترضة في الآثار. فالعودة في رأي المؤلف تفريق بلور ما توجد، إنها تفريق عندما توجد. أسباب الفرقة هي ذاتها الأسباب التي تعزز التماثل العالي، إلى جانب المسار العالي المطلق من مجالات إدارة الأعمال والمال والتجارة والمعلومات، ثمة مسيرة محلية تعزز المكان. وبين المسارين وبهما تتحدد الشروط الوجودية لمجموعات سكانية متكاملة، والفلات العديدة ضمن كل مجموعة، فما يبدو عودة عند البعض، يعني المحلية عند البعض الآخر، ومؤشر الحرية الجديد عند البعض، ينزل قدرًا محسوبًا قاصداً على البعض الآخر. القدرة على الحركة ترقى إلى أعلى المستويات في سلم القيم، حرية الحركة، وهي بضاعة نادرة ومرغوبة، وتغير مقسوية التوزيع في العالم الجديد، تصبح العامل المؤثر في التدرج الاجتماعي. (ص ٢). فالمحلية علامة على العوز والاتحاط الاجتماعي في العالم الجديد. وذلك لأن الحياة المحلية تفقد القدرة على إعطاء المعنى والتفاوض عليه، وتصبح معتمدة على سلوكيات لا تحكمها مبدع بذلك أحلام مثقفي العودة في التكامل العالي بين البشر. إن ما يثير القلق أن العجوة الاجتماعية في الاتصال والأخذ في الاتساع بين النطبة العالمية والبقية المحلية جزء لا يتجزأ من مسيرة العودة.

يتناول الفصل الأول، وهو بعنوان (الزمن والطاقة)، الترابط بين الطبيعة المتغيرة تاريخياً للزمن والمكان من جهة، ونسق التنظيم الاجتماعي وتوازنه من جهة أخرى، ويبحث بشكل خاص في الآثار

الفترة بالاضطراب الزمني/الذاتي على تنظيم المجتمعات والمجموعات وببناها. فمن أهم هذه الآثار الشكل الجديد للغياب الإقطاعي حيث تتمركز السلطة من السلطة الثقافية والسياسية للوحدات المحلية. وتتلخص الوحدات المحلية لقوتها، وتتمثل أسباب هذا الانفصال بين القمة وال القاعدة في التنظيم المتغير للمكان والمعنى المتغير للسلطة المحلية في الحقبة المعاصرة.

يبدأ الفصل الأول بقوله مشهورة لأبيرت ديلب مفادها أن الشركة تقتضي إلى المستثمرين فيها، لا إلى العاملين ولا إلى التوربين. ولا إلى الحل الذي تلحق فيه. هذه المقدمة الأساسية تعتبر المستثمر هو صانع القرار الذي له الحل في تيد المصادر التي قد يعمل في ظلها موظفو الشركة والتعاملون معها. فالمستثمر هو صانع القرار الحقيقي الذي يحل ويربط ويمنح ويمنع مايشاء. بغض النظر عما يراه العاملون والتوربين والمراء من الجماعة. لقد أصبحت هذه المطولة من الحقائق التي لا تشك فيها، والتي تفسر العالم دون أن تكون بحاجة إلى تفسير.

الفصل الثاني الذي نتعامل في إجابات جوهري متعلقة الفصل الأول أن الحراك المستمر أصبح أهم عامل استراتيجي في بناء الطبقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية وإعادة بنائها. هذه المقدمة الثانية تبين أن قابلية الانتقال أصبحت هي المادة للحركة لبناء المراتب والطبقات الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية. لهذا لتبني المستثمر بطل الفترة على الحركة والنقل بين الأسواق العالية حرية. نقطة النظر. من الواجبات الاجتماعية نحو المساهمة في الحياة اليومية واستمرار حياة الجماعة.

ومن هاتين الفرضيتين نحصل على حقيقة ثالثة وهي أن حرية الحركة التي حصل عليها المستثمر تعني التحرر غير التطور وغير المشروط من الواجبات والمسؤوليات المترتبة على قراراته. وهذه أهم جائزة يحصل عليها رأس المال الحر غير المقيد محليا من قابلية الحركة. الحرية الجديدة لرأس المال تعيد إلى الذاكرة حرية الإقطاعي الغائب في أعمال حاجيات الفلاحين العاملين على توفير القوت لهم. بيد أن الحرية الجديدة المقيدة في حركة رأس المال المسائل لا تواجه الواقع الحقيقية الثانية التي تفرض الالتزام.

إن تجربة النخبة في السلطة غير المرتبطة بعمل ما تثير الرهبة. وتجمع بين الاثورية والفسدة انطلاقا من جهة، واللامادية والفسدة على تكوين الواقع من جهة أخرى. ويوشك ذلك في عالم الفضاء الإلكتروني. (إبراهيم ٦-٢٧).

يقابل الفصل الثاني وهو بعنوان (حروب المكان) المراحل التعاقبية للحروب الحديثة التي قامت لتأمين الحق في تحديد معنى المكان المشترك وتعزيزه. وفي ضوء هذه الفكرة، تعالج الظواهر الماضية في التخطيط الشامل القرية، والتوجهات المعاصرة في التصميم الحضري، والبناء من أجل تحقيق العزلة وإخفاء بعض التصور التاريخي الذي أتت إليه ظاهرة (مراقبة الكل) وبالتالي تكون، وهي النمط الحديث للفصل للسيطرة الاجتماعية وبخصوصا وضعها الحالي النظم ونهايتها المشرقة.

يبدأ الفصل الثاني بمقولة إن البدن البشري كان منذ الأزل مقياسا لكل شيء، ثم يحدد هدف حرب المكان بتفسير المكان الاجتماعي الخريطة معلنة ومدرجة من قبل الدولة، وهي مهمة موازنة لرئيس كل مجهود مناهض آخر لتأويل المكان، ومن ثم تطرح المؤسسات التي تعمل على رسم الخرائط إن لم تكن مدفوعة من الدولة أو مدعومة منها أو مدخنة منها. إن دراسة العلاقة بين المكان والخريطة تعكس علاقة غير متماثلة بين الاثنين، لقد كانت الخريطة في الماضي تسجل تضاريس للحد وتعكسه، أما الآن فقد جاء دور الحد ليكون انعكاسا للخريطة، ويتوقع إلى صف الشفافية المنطقية التي تدعو الخريطة إلى تطهيرها، لقد تمكّن المكان وفقا لقرار ورسم الخريطة، وليس العكس كما كان الحال في الماضي. إن العمل بمبادئ الانتماء والأفراد في تخطيط المدن يكرس العنصرية بالتفسير العدلي للحلول الهندسية والسكانية الحاجات القوية - ككل - دون اعتبار للفروقات التي تفصل الأمور القاطنة أو الجماعات والطبقات الاجتماعية فيها.

إن الأفراد بمبادئ الانتماء والأفراد في وضع الخرائط، ومن ثم في تنظيم المكان، أدى إلى العبث بحياة الناس الحقيقيين من أجل تحقيق خطة مهيمنة للنمو والتجديد، ولأنه في أن الأفراد يفرض الطاعة، وعدم التسامح هو الوجه الآخر للطاعة، فهي الحل القبح يصبغ اكتشاف خصائص الشخصية والتهافت اللازمة للتعامل مع الاختلاف بين البشر والظروف المكانية. وفي حال غياب هذه الهياكل يستسهل الخوف من الغير لأنه غير مفهوم وغير متوقع، ومن هذا ينشأ الخوف من الغير، ونشأ الحاجة إلى مراقبة الغير، عندما يقوم منكم الدولة ومراقبتها بمراقبة الجميع، وهي الظاهرة التي يطلق عليها اسم الباتانتكون Panopticon أو مراقبة الكل. وقد شاعت الإشارة إلى هذه الظاهرة في روايات عديدة منها على سبيل المثال، رواية أرويل (الف وتسعمائة وثمانون وأربعة) حيث يتكلم كل شخص جهازا تلفزيونيا خاصا به، ولكن لا يسمح له

## عالم القصور

وبإغلاقه، ولا يتمكن الشخص من معرفة اللحظة التي يستعمل فيها الجهاز كآلة تصوير من قبل القائمين على البث. ظاهرة مراقبة الكل تتحول إلى ظاهرة مراقبة القلة في الميدياوتيكين - 2006 options في عصر العولمة والمراقبون (يفتح القالب) في هذا العصر هم (الديمقوريون) التقنية الذين ينتمون إلى العولمة، ويتحقق ذلك عن طريق متابعة مشاهدتهم على شاشات التلفزيون والإنترنت. وهكذا يتقابل - على الرغم من انفصالهم واقتراحهم - المحليين المشاهدين (يكسر الهاء) والعالميين المشاهدين (يفتح الهاء). وذلك عبر الجبهة ومائل الإعلام في الفضاء (ص 37-44).

يتناول الفصل الثالث وهو بعنوان (ماذا بعد الدولة الوطنية) مستقبل السيادة السياسية للمجتمعات المحلية، وبخصوصها حكمها الذاتي، ومستورها الذاتي في ظل ظروف العولمة في الاقتصاد والمعلومات. فالخلاصة لتنازع الهوية بين مؤسسات اتخاذ القرار ومراكزه من جهة والعالم الذي تنتج فيه المصادر الضرورية وأزوع وإلطف. وتنتجس، مما يتمكس سلبا على قدرة الحكومات المحلية في إدارة المجتمع. واتخاذ القرار وتطبيقه.

يبدأ الفصل الثالث هكذا: في الجيل الخامس كانت السيادة الاقتصادية مبنية على الاعتماد بين الأمة ومن ضمنها للبيئة قائمة قائمة على التحكم بمفاهيمها. أما الآن فتلته شق فاصل بين السياسة والاقتصاد (ص 44). لقد كان العالم مقسما بين كتلتين قاريتين على تصدير النظام العالمي للأشياء، من خلال تزويد كل جزء منهما منها لقاضي في الصغر بدوره القدر لهم ضمن المجموعة الكبرى. لقد كان العالم كلاً، فكل جزء، أعميته الخاصة. أما الآن فلا سيطرة لأحد على قدراته. بل لا يمكن تحديد معنى التحكم والسيطرة في ظل الظروف الجديدة. في هذا الفصل أيضا يتم تحديد المعنى العميق للعولمة وهو: السمة غير المحددة وغير المحكمة والمدمرة ذاتها لشؤون العالم. وبعبارة أخرى: العولمة تعني غياب المركز وغياب مكتب التحكم وغياب مجلس الإدارة. العولمة تعني الفوضى العالمية الجديدة. هذا التصور للعولمة يختلف اختلافاً مطلقاً عن تصور الكونكة. في التصور الأخير، نلص الأمل، والنية، والتصميم على جعل النظام كائناً عالمي الذي بالخل. فتصور الكونكة يتضمن النية في تحسين ظروف المعيشة لكل البشر في كل مكان. وربما المساواة المطلقة فيما بينهم. أما تصور «العولمة» فيشير إلى الآثار العالمية غير المقصودة وغير المتوقعة، وبالتالي تعني المبادرة العالمية وفعاليتها. فكرة العولمة تشير إلى القوى التجهوية التي تعمل في المناطق المجاورة التي تلح خارج حدود السيطرة.

في هذا العالم الجديد يصعب الحفاظ على التميز بين السوق المحلي والعالمي، بل بين الداخل والخارج والفسية الدولية إلا بالمعنى الضيق والبلدية والشرطة المستخدمة في مراقبة السكان. فالنظام العالمي الجديد يحتاج إلى المحافظة على الدول الضعيفة التي تقوم بدور الشرطة المحلية لتيسير عمل المؤسسات التجارية العالمية دون أن تخشى عرقلة حرية الشركات العالمية. ومن المبادئ التي يستلزمها الخراف في تأكيد تصوره السلمي للعولمة، انبعاث البيروقراطي العالمي إلى أن كل سيطرة تتضمن استراتيجيات واحدة، أعطت أكبر قدر ممكن لحرية الحكومات، وفرض أكبر قدر من القسور على حرية قرار الحكومات. لقد طبقت هذه الاستراتيجية بنجاح من قبل حكومات الدول التي تجد نفسها الآن في مكان الحكومات. وهذه الاستراتيجية بمخالف التجزئة السياسي مع العولمة الاقتصادية. فالعالم يشهد اليوم توتينا طبقياً جديداً للفرق الاجتماعي والثقافي على المستوى العالمي. وهكذا يتم اختيار مستخدمي الشبكة العالمية للمعلومات التي تعتبر بوابة الحرية ومبدأ المساواة القادمة، ويقل روادها خصوصاً في العالم الثالث، فالحرية مقارفة. إنها مطبقة جداً للأغلبية، بينما نهمل ثلثي سكان العالم. إن الثورة الجديدة بدأت أخيراً في التحرر من معوقاتها الأيديولوجية المتمثلة في الدول المتخلفة بطور الوظائف وإدارة مجلس الأمناء، الجند ليسوا بحاجة إلى الفقراء. وتسامح وسائل الإعلام في تعزيز صورة العولمة المحلية بمعاداة الفقراء والمحتاجين. فالحفلات الفخيرية، وتبرز صور المساعدات التي تقدمها الدول الغنية في الأزمات والمساعدات والكوارث الطبيعية. هذه الظواهر تساهم في تحسين الذات العالمية بحزام واق ضد الشعور بتأليب التفسير فهناك النظام العالمي فزير العين بأنه ساهم في رفع المعاناة عن الجوع والمساكين (أص ٧٦-٨٨).

يرصد الفصل الرابع وهو بعنوان (الصراع والشرور) العواقب الثقافية للتحولات السياسية والاقتصادية السابقة. ويشرح أن التأثير العام هو الشعب والاستقطاب في التجربة البشرية مع وجودها الثقافية المشتركة التي تدعم تفسيرين متضادين تماماً. للثقافة الحركة المسيرة معقول متعارضان تماماً للغة والواقع. بينما يتأرجح الباقي في الوسط بين الطرفين متحصلاً بذلك نتائج هذا الصراع ومعاداة الخلق والخوف والتذبذب. ومن القضايا التي يؤكد هذا الفصل أن محاولات تخفيف المعاناة وتحديد عدم الرضا عامل قوي بدوره في تقسيم معني القابلية للحركة.

يرصد المؤلف في الفصل الرابع حالة التنقل التي تكتنف حياة المرء في عصر العولمة والتنقل ليس بالضرورة في المكان، فمن الممكن أن تنقل على شبكة المعلومات من موقع إلى آخر دون أن



## عالم الفكر

تتشارك من مكانته. الفرد يعيش في دائرة قريبة مركزها في كل مكان ويميطها خارج المكان. إن فكرة السكان تكتم فقط في عالم يبقى ثابتاً. صلب الجدران. وشلالات الطرق. ومحدد العلامات.

ويشغل التنقل أكثر ما يتنقل في مجال الاقتصاد. حيث يخلق الإنتاج شكل السراب الطبيعي للتخبر والتجريب. فقد تقلصت الخدمات والمنتجات كماً ونوعاً لصالح ما هو مؤقت ويعتمد على الدوام الجزئي الزمن. فالمصناعة تتركس في إنتاج ما يفري ويجذب باستعمال مبدأ «استبعاد الانتظار» من الرغبة لاستبعاد الرغبة من الانتظار، وذلك في إطار مجتمع استهلاكي يعثر القيام بدور المستهلك فيه واجباً أساسياً لأعضائه. إن التنقل في مجتمع الاستهلاك بحثاً وتقليباً عن البضائع الاستهلاكية غير المتوفرة ليس مرضاً، لا شفاء منه، يصيب المستهلك. بل هو الإحساس بالوحدة والتمسك بعينها. فالرغبة لا ترفع الإحتياج. بل ترفع الرغبة ذاتها. إن حالة التنقل المتفرقة تفرض تجربتين لأعضاء مجتمع الاستهلاك. التجربة الأولى هي تجربة السائح الفجول الذي يضع الحزين إلى الوطن فوق أسباب الراحة في الوطن لأنه يريد ذلك إما أن التجول أفضل استراتيجيته متاحة له في الحياة الآن، وإما أن العلم بأنهم بحاجة حياتهم مع المجتمع القدرات الحقيقية أو الحقيقية. التجربة الثانية هي تجربة الفرد الذي يتجول لأنه يدفع من المظلم بعد أن تم تجريدته من الأرباط الروحي بالمكان الذي لم يلقَ وأعداً له يشي. فالسائح يتنقل في حالة التجول والشغل لأنه يرغب في ذلك. أما الفرد فهو على علم بأنه غير باق في المكان ذلك لفترة طويلة. مهما رغب في ذلك. لأنه لا يلقى الفرحان في أي مكان. السائح يتنقل لأنه يجد العالم جذاباً فيقل عليه. أما الفرد فإنه يتنقل لأنه يجد العالم انطوي معانيه لا يحتمل. السائح يسافر لأنه يريد ذلك. والفرد يسافر لأن الطيار الآخر لا يطاق.

العولة مسطرة لتحقيق السلام السراج وبرغباتهم والناثير الجانبي الثاني للمعلوم هو تحويل الآخرين إلى مشردين. الفرد هو المسافر الذي حرّم عليه مكانة السائح. كما حرّم عليه البقاء في مكانه أو البحث عن مكان أفضل. والنتيجة هي الضو. الأخضر للسائح والضو. الأصفر للمشرد. المشرد هو الذا الآخر للسائح. المشرد هو المعجب الأكبر بالسائح. ففي عالم اللاسكوي تكون السياحة في الشكل المشري الوحيد لللاسكوي. لقد تحول السائح إلى مستهلك. والمشرّد إلى مستهلك. ولكن الأخير لشوية الشوائب. وذلك لأن إمكانياته محدودة بفرد معيّن. فهو لا يساهم في زيادة الثروة. لأن الاقتصاد تحول إلى اقتصاد سياسي.

إن عصر الاضطراب الزمني والكاني هو أيضا عصر المخطط الدائم للاتصال بين النخبة المتعلمة والعامية. فليس لدى اللغة الأولى، وهي المثبتة من دون حدائق، من شيء يتخاطب به اللغة الأخرى. فلا نفاذ في زمن اللغة الأولى كصدى لتجربة اللغة الثانية ولتوقعاتها. (ص ١٧٧-١٨٠).

في الفصل الخامس وهو بعنوان (القانون العالمي والنظم المحلية)، تسند فكرة الثورة باعتبارها مثال القيم الأولية العليا التي تخفي العلاقة الاجتماعية. فالثورة تتطلب إعادة توزيع السلطة، وتستلزم مصداقة سلطة القاهرة عند المقتضين المطوب من بينهم. تتظاهر الثورة بأنها الجهد الكلي للخطوات الاقتصادية الذي يقلل التمييز بنسبة متساوية على جانبي العرض والطلب في سوق العمل. إن ذاتية المد تخفي جوهرها المختلف على طرفي التقسيم. فالثورة في طرف الطلب تعني حرية الحركة إلى مواقع العمل، وترك التعاقبات والفضلات في الخلف لكي تنطف وتعلم من قبل التحليل. الثورة تعني التماس من كل أعضاء الأحياء الاقتصاديين المحلي. أما معنى الثورة على طرف العرض فهو أن يكون عرض العمل متصليا غير مرئي. وبذلك يحدد من حرية الاختيار بالقبول أو الرفض، وانعدام ترويض القواعد الداخلية بالعمل. فبعضها نظاما لاختيار المستثمر في إطاره العالي في مقابل الحدود المحلية المرونة على حياض مرض العمل. يبين عدم التماثل بين الاثنين مما يؤكد سيطرة الأول على الثاني. لقد بين المؤلف في كتابه ما بعد العدالة والاستثناء منها (١٩٩٧) أن عالم القمص الشهير فرويد، سواء كان على صواب أم خطأ، اعتبر الذات النفسية والاسما في عصر الحضارة الحديثة نتيجة لزيادة جزء كبير من الحرية الشخصية في سبيل تحقيق الأمن النفسي جماعيا. أما اليوم في مرحلة ما بعد العدالة فإن الاتجاه العكس هو السائد. إن النزعة في ميالة قدر كبير من الأمن في مقابل إزالة المعوقات التي تحول دون ممارسة الاختيار الحر هي التي تولد للمشاعر السالبة من القلق والخوف. وأهم تحول القلق هذا، ينبغي أن يحدد ما طرقة الفجوة بين كلمات الأمن والأمان والثقة في تجربة واحدة وهي تجربة الطهارة.

إن وجود اليوم منذ عهد العالمي والمحلي حيث الحرية العالمية في الحركة ترمز إلى الشراكة الاجتماعية، والتناجح والتقدم، وحيث السكان يرمز إلى الهوية والصيانة العاشقة والمختلف إلى البراء. فالحرية تعني قبل كل شيء، حرية الاضطراب، والاختيار اكتسب بشكل ملتبس النظر بعدا مكانيا. ففي زمن الاضطراب الزمني/الكاني، ثمة مشاعر لم تجرب من قبل تدفع من بعيد إلى الزيادة. الاستمتاع بالوطن في تجربة الشوق إليه من بعيد.

لقد قيل إن النظام الجزائي يخرب قاع المجتمع لا قمته. وفي محاولة علماء الاجتماع تفسير هذه الحقيقة أُرشد أسباب عدة لتكرار مناقشتها. السبب الأول هو التوليات المطبقة للمشروع الذي بالمحافظة على نوع من النظام. فالأفعال التي يرتكبها السعوطون هي التي تظهر في نصوص قانون العقوبات. أما سرقة ثروات الأمم، وسرقة الأسر من أسباب أرواها فلا تدخل ضمن قائمة الأفعال التي يعاقب عليها القانون. السبب الثاني هو صعوبة سبر أغوار الجرائم التي يرتكبها التكبر في القعة، وبالتالي صعوبة تفريقها عن الأعمال اليومية للشركات والمؤسسات. السبب الثالث هو أن حرية العامة في مراقبة الجرائم عليها متخفية ومؤلفة وأحياناً غير موجودة. أما أهم الأسباب- فهو أن الجرائم العليا تتم في احتليل الأسيور، عن القلق الوجودي الذي يعاني منه مجتمع ما بعد الحداثة. وأخيراً فهناك التبرة الكبيرة التي تغطي بها النخبة عندما تواجه القاتلين على النظام القانوني مطلة. أما قوانين السوق الحرة التي تطبعها النخبة فهي غير المطبقة. هذه الأسباب مجتمعة تؤدي إلى نتيجة مشتركة وهي تجريم الفقر وتحديد الجريمة بالفقراء الطغيان. فمصادر الجريمة هي مصادر قذيفة

إن راضي الرافضين يؤدي إلى تعزيز تحول العمل إلى قاعة حسيمة. فكلنا المهتمين لنعزز الأخرى، ولتؤكدان فيما بينهما أن الانحلال والاضراب في القاع شيطانان توأمان للمعولة في القعة (ص ١٠٥-١٢٧).

## مناقشة تقنية

الانطباع العام الذي يخرج به قارئ هذا الكتاب هو أن العولة غير مستطير في تشريه على عامة البشر. وإن الخير كله يأتي بمطابقة هذه القوضى التي تشبه في أرجاء المعورة قلة نظوية غير معذولة دون وأزع من ضمير. فالأثار البشرية التي تنشأ عن العولة تكريس الانقسام والاستغلال والتسلط والفسخرة والظلق والتفديب وعدم التسامح والتشرد والضياح. فالعولة في انكرا البشرية انقلاب شامل على القيم، وانحصار مطلق للعمل العليا، وتكريس متشعب للأوضاع والتفريق في نفوس البشر. يرمض هذا الكتاب الآثار السلبية فمصعب، ويشكر تماماً لأي أثر إيجابي على مجموع البشر. فالكتاب الذي بين أيدينا كتاب ناقص لا يفي الموضوع حقه من رصد الظاهرة العولة بمنهج علمي محايد يتناول الفتح على البشر كافة دون تمييز أو معاملة للظواهر المؤدية

لفرض الطوبى إثباته على حساب الظاهر. المقدمة للفرض الطوبى إثباته. ومن ثم فالمحااجة ماسة إلى كتاب آخر يستكمل ما قام به هذا الكتاب فيرصد الآثار الإيجابية للعولة على حياة البشر. إن الكتاب الآخر الذي نقترح على المؤلف كتابته، وبالتالي استكمال كتابه عن العولة سيكون قادراً على تفسير أهم مقارفة كان ينبغي تحليلها، وتفسير عدم توقعها من قبل علماء الاجتماع والاقتصاد والسياسة الذين ينتمي إليهم مؤلف الكتاب وهذه المقارفة هي أن العولة التي أنشأتها الرأسمالية في نهاية القرن العشرين هي القائمة على تعطيل أحلام الشبهين في وحدة البشر، وتحرير الحصول على المعرفة من الارتباط بالقدرة العقلية. المعرفة بفضل العولة مقاةة والتساوي للجميع فلا فرق بين الفقير والغني، ولا العالني والمصلي، ولا الشمالي والجنوبي. ولا الشرقي والغربي. لقد طمسدت هذه الحقيقة الأربعة من مظاهر العولة وهي في رأي جودهر مسيرة العولة وماهيتها. فإن لم يكن العولة إيجابيات أخرى لكي بها تحرير العقل البشري من حدود الزمان والمكان لينهل ما يشاء من المعرفة التي يساهم في خلقها البشر في كل مكان وزمان. فطالب المدرسة في أقاصي الأرض قادر على الاتصال بمكتبة الكونجرس الأمريكي (أكبر مكتبة في العالم) للحصول على ما يشاء من المعرفة بغض النظر عن مكانه الاجتماعية والطبقية والثقافية. فمن أهم عيوب هذا الكتاب أنه يتجاهل إحدى الآثار السلبية للعولة على الرغم من زعمه أنه يتناول الآثار على البشر. وأن من العيوبيات إلى تحليل التقدم التي يقرؤها الكتاب في فصوله الخمسة وصولاً إلى النتائج التي تجعل الهوية في العولة.

يفترض المؤلف في الفصل الأول ظهور طبقتين متنافرتين تحدان الراتب الجديدة هي بناء الطبقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية. وهنا طبقة المستثمر والعام من البشر، بما في ذلك العمال في المصانع والفلاحون في المزارع والمعلماء والورعين في الشركات. ولما كان الاستثمار حراً في الانتقال من مكان إلى آخر فهو غير ملزم بأي واجبات اجتماعية نحو الساسة في الحياة اليومية واستمرار حياة الجماعة. وشدة خطان منطقتان في هذا القواسم الأولى هو اعتبار الفئتين متنافرتين، والثاني هو أن الحرية في انتقال الاستثمار هي التحرر من القيود والواجبات الاجتماعية نحو استمرار الجماعة.

إن فئة المستثمر في عالم اليوم لا تشكل طبقة اجتماعية ميسورية عقلانية اقتصادية متجانسة السمات متفردة لغة العامية بل هي فئة متغيرة العناصر والسمات. ولذلك لا تتشكل فيها شروط

## علم الفكر

الهوية التي تحدد سماتها. فالتخصص المستقر اليوم قد لا يكون كذلك في الغد. ومن ينتمي إلى فئة المستقرين قد ينتمي في الوقت نفسه إلى فئة العامة بمعنى أنه ربما كان عاملاً في مصنع أو فلاحاً في مزرعة أو معلماً في مدرسة.

ومن جهة أخرى فإن القزوم بين حرية الحركة في الاستثمار والتخلص من الواجبات الاجتماعية ليس تحليلياً دام يبرهن عليه. إن الحديث عن حرية المستقر في تعريف استثماراته من مكان إلى آخر، أو من شركة إلى أخرى لا يعني على الإطلاق الحرية من القيود التي تفرض في المكان الذي يتعامل معه ولا القيود التي تفرضها التنظيمات المالية لتأمين التعامل المنصف. فالظروف الضريبية والتعامل مع المعلنين في أسواق المال المشقة تؤمن التزام المادي، والقيم التي اقتنع بها العالم المعاصر وأصبحت فيها عائلية. إن تصوير المستقر العالي كما لو كان خارجاً على القانون المحلي والعالي محالاً المحيطة لأنه في نهاية المطاف يعتبر العالم سوقاً لاستثمارات التي يستثمر فيها. فإذا لم يلتزم المستقر بتنظيمات السوق في موقعه ١ و ٢ و ٣، لم ينجح في تحقيق الفردية المطلوبة لاستثماره. وبذلك شطط المبتدئ الاستثمار في الفصل التالي.

نأتي الآن إلى الفصل الثاني الذي نقرره علاقة المكان بالخرائط التي تعكس علاقة غير متساوية. وبعد أن كانت الخريطة انعكاساً لتضاريس المكان، أصبح المكان انعكاساً للخريطة. ولتحقيقاً لنوايا المخطط التي تتمثل في العمل بمبدأي الانتظام والأطراف. وبهذا يسعى المؤلف إلى إثبات مقولته وفق القياس التالي:

- ١- تخطيط المكان وفق الخريطة المجردة وكرس مبادئ الانتظام والأطراف.
- ٢- الالتزام بمبادئ الانتظار والأطراف وفرض الطاقة.
- ٣- الطاقة لما هو سائد تفرض التجانس الذي يساوي عدم التسامح مع المخطط.
- ٤- الظروف من المختلف يستلزم مراقبته.

إذا كان هذا القياس تعبيراً عما يروصده المؤلف في نصه الفني، فنحن أمام نظرية الزاوية في أبهى صورها. فالخريطة المجردة أدت إلى سقوط قيم التسامح والتواصل. وذلك لأن الخريطة إما أن تكون انعكاساً للمكان، أو أن يكون المكان انعكاساً للخريطة. هذا التصور يهمل بدواً كالتأ

## عالم الفكر

يمتد فلاسفة العلم للتعبير عن العلاقة بين الفوازين والواقع فتصوروها بمثابة العلاقة الوظيفية القائمة بين الخريطة والكلان عندما تستخدم الخريطة كوسيلة للوصول إلى المكان المطلوب. لا تعتبر الخريطة وسيلة لتحقيق التوأمة الكبرى على عامة الناس بل مجرد أداة ناعمة يستفيد منها العامة في تسير أمور حياتهم اليومية.

ومن جهة أخرى نجد في التسلسلة التي تتبعناها في الفوازين 1-6 مبادئ يصعب قبولها لأنها لا تستند إلى أدلة الدراسة التجريبية المثبتة، ولا إلى مبادئ تعاليمية. فالقول بأن التجريد موهبة فطرية معينة يمكن تقليده بالإشارة إلى افتقار الصورة إلى المحتوى، واختصار نظرية المنطق (وهي نموذج التجريد بحيث) إلى القيم الإيجابية أو السلبية إلا إذا تم تحليل المصطلح كقيمة أخلاقية.

والفرد الأخير الذي يصعب قبوله أن الالتزام بمبادئ الانتظام والأطراف يفرض الطاعة. لا أدري إن كان هذا مبدأ سيكولوجياً عاماً وقصص شريحة الدراسة استيرادية. أم أنه مبدأ في علم الاجتماع طوق على مجتمعات مختلفة ولبن أنها جميعاً تلتزم بهذا المبدأ. وأتعب الظن أنه يقتضي هو الآخر إلى سبل التعصبات القارئة التي تظهر إلى الفردان العظمى الرئيس.

في الفصل الثالث لمصطلح على تعريف جديد للمعولة، وهو أن عصر المعولة هو عصر فقدان السيطرة على المقدرات. وبالتالي فالمعولة تكافئ: غياب السيطرة وفقدانها. واستناداً إلى هذا التعريف يميز المؤلف بين العولة (globalization)، والكؤنة (Universalization).

فالكونية تصور إيجابيات تحقيق الوحدة والألفة والتكامل بين البشر دون اعتبار للعرق أو الثقافة أو الطبقة الاجتماعية أو الخلفية السياسية. بيد أن التساؤل الأساسي الذي لا نجد له جواباً في هذا الفصل هو ما الميزر أو المصنوع المنطقي الذي يعتمد عليه المؤلف في تقديم هذه التعاني؟

إن التصورين التروحين لا يستندان إلى تحليل لغوي ولا تحليل منطقي. بل يمكن القول إن هذه مصطلحات جديدة لا تاريخ لاستعمالها لأنها تفرض ظواهر جديدة لمبر مستبقة في التاريخ البشر. فإذا انطلقنا مع المؤلف في التعاني التي يستندنا إلى التصورين فكل الحق في الاحتفاظ برأيه دون الالتفات إلى الحوار لعدم المسألة عليها.

القضية الأخرى التي يؤكدها هذا الفصل هي أن المعولة تهمل كلتي مكان العالم لأنها ليست

بحاجة إليهم. إن العولة في مجالها الاقتصادي والإعلامي لا تملك إلا أن تهتم بالمستهلكين في أسواق العالم الكبير التي تكتظ بالسكان. لأن العالم أصبح سوقاً مفتوحة يسعى المستثمرون إلى الوصول إلى أكبر عدد منهم بالمعاية والإعلان لتحقيق سرعته أعلى وعلاقات أكبر. وإذا فالعولة لا تملك إعمال المستهلك الممكن أي تكتي سكان العالم، بل إن الهيمنة الإعلامية التي تتعرض لها دول آسيا المكتظة بالسكان مثل الصين والهند لتأمين الوصول إلى أسواقها الغير قليل على ذلك.

وأخيراً فهناك البعد البيروقراطي الذي يدعو إلى إفساح للمساحة الواسعة لحرية الحكام ورفضه للمحكوم في عالم العولة. والحق أننا نجد صعوبة بالغة في تحقيق هذا البعد في عصر العولة. يقدم الكتاب صورا لتطبيق هذا البعد في زمن الدولة الوطنية عندما تتخضع للحكومة كل الحرية وتحدد الحرية للمحكومين أي عامة الناس. أما في زمن العولة، فالحكومة الوطنية تهد نفسها مقيدة بالقوانين وتأمين حرية حركة رأس المال والاستثمار العالمي، وبش ساعد الحكومة الوطنية في الرقابة وتطبيق القوانين المحلية. أي أن الحكومة الوطنية تصبح محكوما. فتنزع المسؤولية عليها في توفير الحماية الداخلية لرأس المال والاستثمار العالمي الذي أصبح حاكما. بيد أن هذه الصورة تفسد عن أحوال حقيقة معينة وهي أن العولة ضاركة بين الدول الوطنية جميعا لتطبيق المصالح العام. فهو يحد تدخل فيه الدولة الوطنية طوعية لتحقيق مصالحها المشتركة مع المتعاقبين الآخرين. فكما يشكك الفرد طوعية عن بعض حرياته الشخصية عندما يتدخل في شراكة مع الأفراد الآخرين في المجتمع المدني. تتخطى الدولة الوطنية عن بعض حرياتنا لتأمين مصالحها لا لتحقق إلا بالدخول في المنظمة العالمية التي تنظم مستويات العمل العالمي المشترك.

في الفصل الرابع، يستعرض المؤلف فكتين متناقضتين للتأسيان إنسان عصر العولة. وهذا فكتا السواح والشريدن. الفكتان تعبران عن طبقتين اجتماعيتين وثقافتيتين لا تواصل بينهما، ولا تتبادل بينهما. فكتا السواح سعيدة مستقلة تفعل ما تشاء، وتحقق رغباتها الآن وهنا، وطبقة الشريدن تعيسة تبقى في مكانها الذي لم يعد يرغب بها.

بيد أن حقيقة الأمر هي أن الفكتين تتبادل أدوارا متغيرة يمكن أن يقوم بهما شخص واحد ينتمي أحيانا إلى هذه الفئة، ويمتشي أحيانا الأخرى إلى الفئة الثانية. فالشخص الواحد يمكن أن يقوم بدور السواح في مجال ما، وفي ظروف معينة، ويقوم بدور الشريدن في مجال آخر وفي ظروف

مغايرة. فربما كان الشخص سائداً في مكان أقيم فيه في الماضي، وتعرف على ثقافته والاساليب الاجتماعية السائدة فيه، ويصبح مشركاً نظراً لتغير وضعه الاقتصادي. إن مفهومي المداخلة والتشرد غير المتضمنين. فنحن لا نعرف متى يكون الشخص مشرداً، ولا نعرف متى يكون سائداً. فشرط الحرية التي تحدد التشرد من جهة، وتلك التي تحدد المداخلة، غير محددة. هل من شروط التشرد أن يفقد الشخص مسكنه مثلاً، أو أن يكون مهاجراً من بلده مثلاً، إن عدم الترحيب به في المكان لا يمكن أن يكون شرطاً كافياً للتشرد. لأن السبب قد يكون سيكولوجياً أو اجتماعياً أو جغرافياً أو مهنيّاً أو أي أمر آخر.

يبدو لنا أن مجتمعي السواح والتشرديين لهما مجتمعا واحداً، بل هما مجتمعان لا ينفصلان إلى الاتصال بينهما. بيد أن المؤلف يؤكد أنهما ينفصلان إلى مجتمع الاستهلاك الذي يعتبر المستهلك واحداً على كل مواطن. فكما زاد استهلاك (س) من استهلاك (س) ارتفعت قيمة (س) ووزنه في المجتمع عن مكانة (س) وأهميته في المجتمع. وبموجب هذا المعيار ترتفع مكانة السلع أكثر على المستهلك من التشرد الذي لا يساهم شيئاً في مجتمع الاستهلاك.

في الفصل الأخير من الكتاب يطرح المؤلف عدة أسئلة أساسية: العامة المستقلة من مصادر متحركة لإثبات أن الحركة تساهم في النظام الطبقي في خدمة القانون العالي، وهي مادية، بحاجة إلى تسويق هذه نظريتها خارج إطارها الخاص بها.

المبدأ الأول هو مبدأ الحرية الذي يشبه بالقيم الأولية العليا من حيث إطفاء العلاقة الاجتماعية. فبعد تطبيق الحرية على طرفي العرض والطلب من سوق العمل، يبين المؤلف أننا أمام معنيين متعارضين على الرغم من استعمال الحد ذاته في حائلي التطبيق. فالحرية في طرف الطلب تعني «حرية الحركة إلى مواقع أفضل» وترك التعاقبات والفصل في الخلف، لكن تنطف وتوقع من قبل التشرديين. الحرية تعني الشخص من كل اعتبار إلا ما يكون اقتصادي الطغي. والحرية على طرف العرض تعني «أن يكون عرض العمل ملصقاً غير مرئي». وذلك والبعد عن حرية الاختيار بالقبول أو الرفض، وانعدام فرض القواعد الخاصة بالعمل، (س) ١٠. لأننا أن الفصل بين معنيين متعارضين لهما واحد يستلزم الاستشهاد بأهمية من الاستعمال الطغوي الطغي. فلا يمكن أن ننتزع المعاني المتعارضة للفظ والصح استعمال من كون مرور. فلا يمكن أن نثبت إلى الحرية معنى حرية الحركة في حالة (س) ونثبت إلى الحرية معنى الضلوع وتقييد الحركة في حالة



(مصر)

التبدأ الثاني، وهو مبدأ سيكولوجي وضعه فرويد - عالم النفس الشهير - في إطار تفسيره للمذاهب النفسية، ينطلق أساساً على عقب في هذا الكتاب. ينص مبدأ فرويد على أن المذاهب النفسية تنشأ عن التنفعية بالحرية الشخصية في سبيل تعطيل الأمن النفسي جماعياً. أما في هذا الكتاب، فالمذاهب النفسية تنشأ نتيجة للاستعداد المساند في عالم اليوم للتخلي عن الأمن النفسي اجتماعياً في سبيل إزلة العقائد التي تعول دون ممارسة الحرية. كيف أثبت المؤلف هذا القانون السيكولوجي الجديد؟ لقد بنى فرويد تعميمه المبني نتيجة للاطلاع عدد كبير من المرضى النفسيين الذين كان يعالجهم على امتداد فترة طويلة. أما مؤلف كتابنا هذا فلاحظ أنه لا يمارس مهنة الطب النفسي، وبالتالي لا يجوز اعتباره قانونه أكثر من تعميم عرضي لا يستند إلى دعم الدليل العلمي.

التبدأ الثالث هو أن نظام الجراء، بخراب عامة الناس، ولا يتعرض للجرائم التي يرتكبها أهل القمة. ولتفسير هذه «الظاهرة» الوصف الأمثل - الاجتماعي الذي ذكره في عرض الكتاب (مصر) - بيد أن المؤلف يفتكر السبيل الأمثل وهو في رأيه أن الجرائم التي يرتكبها أهل القمة تعبير عن القلق الوجودي في مجتمع أما بعد المصادقة اليد أن اكتشافنا لقانون هذا لا يفسر التشريع الذي أدى إلى «الظاهرة» في كل قطر على حدة. ومن جهة أخرى لا يمكن اعتبار «الظاهرة» عالمية بمعنى أن المجتمعات كافة تمر بالتطور الاجتماعي ذاته الذي أدى إلى التعبير عن القلق الوجودي. لا شك أن التشريع في المجتمعات المختلفة يستمدون تلميحاتهم من مصادر مختلفة، ومن الصعوبة يمكن أن نعلم بأن الدساتير كافة متفظة في التحليل الأخير على تجريم القتل. علماً بأن أغلب الدساتير جاءت نتيجة لثورات الفقراء انتصاف المظلومين. لا أعري كيف يمكن أن نعمل العولة مسؤولية «الظاهرة» التي تشتمل ظهور جرائم المسموحين في تصومس قولتين الجراء - ولا يمكن أن نتكلم مع المؤلف في أن كل الجرائم التي يرتكبها أهل القمة تنشأ عن العقاب - لأنها تشتمل بقوانين العولة في مخالفتها للقوانين الحالية، ولأنها تخالف القواعد التي تفرضها المؤلف نفسه عندما اعتبر التشريع الحالي قاصراً على تعيين الجرائم العليا في نص القانون.

# بين التذوق والنقد المسرحي

دراسة تحليلية لجماليات التلقي المسرحي

د. أحمد صحر<sup>\*</sup>



ARCHIVE

يعتقد الشراح والمختصون بالدراسات النقدية أن قضيتي التذوق<sup>(1)</sup> والنقد من القضايا التي لم تحسم في النقد المسرحي. ذلك أن التذوق شخصي، وكذا النقد، إلا أن الفاصل بين الاثنين أن التذوق يظل عملية استيعابية شخصية للمتلقي المسرحي لا تتطور إلى ما تتطور إليه عملية النقد المسرحي التي تتطلب من الناقد الموسوعية في الاطلاع والمعرفة لكي يتمكن من إرساء القواعد الأساسية في عملية التلقي المسرحي التي تعد مهمة جدا نظرا لما للناقد من دور مهم وحيوي في دفع العملية المسرحية قدما سواء في مجال الكتابة أو التمثيل أو الإخراج أو الحرفية المسرحية.

<sup>\*</sup> استاذ مساعد في قسم الدراما والنقد المسرحي - المعهد العالي للفنون المسرحية جامعة الكويت.

إذا كنا نتحدث عن قضيتين من القضايا المهمة التي تشغل للفيلسوف المعاصر، وكذا التخصصيين من الفلاسفة، فإننا لا ننسى حقيقة مهمة مؤداها أن القضيتين تتداخلان تداخلاً كبيراً، والفاصل بينهما يمثل في أن التناقض قد لا يتحدى ثقوفاً حدود الذات أو الموضوع التمثل في لقاء الأصدقاء والمقربين حيث يهدي كل منهم رأيه فيما شاعره، وهو بطريقة الحال رأي شخصي يعينه الفيلسوف التخصصي لصاحبه، وهذا يأتي بخلاف التقاطع الذي يستطيع أن يلتقي، وأن يترجم هذا التناقض ليصبح رأياً ثانياً يجب عليه حين يخلي به أن يقر أنه سوف يحدد ويؤيد الكثير من المقادير، بل وسوف يؤكد بعض القيم ويرفض البعض الآخر.

إذا كان الأمر كذلك فلماذا نلجأ عند هاتين القضيتين لتبين حدودهما ومجالات وجودهما.

تحدث الكثير من علماء الجمال والتخصصيين عن الفيلسوف، ويرغم تعدد التعريفات وترويضها إلا أنها ذاتي متعلقة في كثير من جوانبها.

وطبقه هنا أغرض بعضاً من هذه التعريفات الخاصة بمصطلح التناقض بشكل عام والتناقض الفني والسريري بشكل خاص محاولاً بعد ذلك أن أوضح جوانب الاتفاق والاختلاف بين التناقض والتناقض.

تعددت د. أميرة حلي سمر بين التناقض والتناقض: «إن التناقض ليس مجرد عملية قتل معلمي، وإنما يفترض القيام بعملية إحياء، لأنه يفترض الفنية على الاختيار والانتقاء لعناصر الجمال، ولخصائص العمل الفني. لأننا عندما نقرأ عملاً فنياً معيناً لا نراه بقعة واحدة، بل نلاحظ في تعديل رؤيتنا ونلاحظ تفرجها من زاوية إلى أخرى، ونلاحظ العمل الفني يعتمد على خبرتنا السابقة»<sup>(1)</sup>. أي أنها تفهم إلى طبيعة التناقض الذي يعمل بطريقة الحال إلى العمل الفني، والانتقاء به دون وضع مجموعة من الأحكام أو المعايير بشكل مسبق.

أما عن علاقة التناقض بالفكرة الجمالية فتحدثت الدكتورة/ وفاء محمد إبراهيم عن الفكرة التي تقدم بدائلها بطريقة الحال الحقيقية الجمالية والفنية الإنسانية، وتقول: «سوف التناقض هو الأساس الذي يولد من خلاله شخص استطاع أن يحول خصائصه الجمالية مائة لقوة إلى مادة جمالية تجسدية في عمل فني، موسيقي أو تصويري أو نصي أو شعري، وشخص آخر أصدر حكماً بالفكرة من خلال خبرة مثالية في فاعليتها لفكرة الإبداع»<sup>(2)</sup>.

هنا نجد أن عملية التناقض لا تأتي من فراغ، ذلك أن الكثير من الباحثين والفلاسفة علماء الجمال أو علماء النفس قد أشاروا إلى عملية الإبداع وعملية التناقض، وقالوا إن «المتلقي يفتقر إلى كثير من القدرة التي يمتلكها الإبداع، من حيث الإلهام والصفاء وسهولة الإبداع والإضافة... إلخ. أما المتلقي فهو بعيد بما قدم له في وحدة تفكيكية عليه أن يجول في حدود فهمها وكيفية» ومن

هذا يصاب التشويق للتمكن المبدأ بالإنحباط عندما يجد أن شأه تغيراً أو تعويلاً كان ينبغي أن يتم، ولكنه لم يحدث، ولذلك فإن التشويق للعمل هو خالق من وجهة نظره الخاصة، ولكنه خلق من الحرية الذاتية، أي كأنه يعمل على فضاء آخر أسبق من فضاء العمل المعروف المأهول.<sup>(1)</sup>

وفي مجال التشويق الفني يعرفنا الدكتور/ حسن محمد حسن على جانب آخر من جوانب التشويق، ويقصد به أن التصوير بشكل عام وكيفية تأويله فيقول إن: «أول خطوة في مجال التشويق الفني هي أننا لا نكتفي بالنظرة العابرة للمعنى، بل يجب أن نعيش في الأشياء، التي نلاحظها ونشاهدنا المبدأ»<sup>(2)</sup>

إن التشويق بمعناه العام هو قدرة الإنسان على مشاهدة إبداع فني ما، ثم استيعاب هذا العمل ومن خلال التشويق المتصور الشخير والمستوحب لأصول التقنية الفنية يستطيع التشويق أن يفسر حكمنا غالباً ما يدور في تلك الدائرية التي مرجعها يوم شك ذات التشويق إلا أن هذه المرحلة مرحلة انتقالية سرعان ما تترجم الذات بعد أن يسيطر التشويق على الموضوع.

إن المطلق سواء كان مثقوباً أو ثقوباً يحدث في جوانب الشجيرة المبدعة من جماليات التقني الفني عموماً، والمسرعي بوجه خاص، مما يترتب عليه نجاح هذا الإبداع الفني في فتح جمهور التواصل مع المطلق المرحلي.

ويضيف د. مصطفى يحيى التشويق تعويلاً يقول في: «التشويق هو عملية اتصال وتواصل بين أعمال الفنان، وبين المتلقي أو المستمع لها»<sup>(3)</sup> والتشويق نوعاً بيزوية تقنية، وأيضا هناك تواصل في اتجاه عكسي نتيجة لرد فعل الجمهور واستجابته لأعمال الفنان، وذلك ترى أن عملية التشويق واستجابته لها من جهة أخرى.<sup>(4)</sup>

إن حكمنا على الإبداع (الوجه - مسرحية - فيلم سينمائي أو غير ذلك) بالجمال معناه أننا قد نقلنا إلى مراحل هذا الإبداع والتوقيف، يحدث نوع من الألفة والتلاقي بيننا وبين هذا العمل المبدع، إلا أن هذا لا يعني أننا حينما نتحدث عن التشويق فإننا نقصد نوعاً من الانطلاق الداخلي القاصر على الذات، بل إننا نقصد بالتشويق أن: «الذات خلال لحظة التقوق تتعاطف مع الموضوع لإبراز معناه، والتكثف عن تواتره الفني، ومدى ما يتكثف فيه من اعتماد بين الشكل والمحتوى أي بين المادة والصورة»<sup>(5)</sup>

وهذا يعطينا أدرك أن التشويق يعيش تدرجتين لا تجربة واحدة فهو يعيش تجربة المبدع سواء كان هذا مؤلفاً مسرحياً يكتب إبداعاً فنياً يعمل في معالجة موضوع معين من خلال نص درامي، أو كان مخرجاً يقدم بتلخيص هذا الإبداع النصي، ليصبح رؤية متكاملة الإبداع عن طريق وضع خطوط التنفيذ هذا النص بواسطة الممثلين والفنيين، وذلك نستطيع القول إن التشويق هنا

سوف يمر بمرحلة إبداع هذا النص، وما يتبعه من قضية شغلت ذهنه، وكيف استطاع الخروج بتوجهه هذه المعالجة على قضية المسرح أن يقدم لوحة فنية جمالية تجعل الكثير من نواحي التجربة الفنية ناجحة.

يتحدد عماد الجمال عن التوفيق بقولهم إنه يجعل المتلقي يمر بالعديد من المواقف والخطوات المثالية أو المتناقضة التي تجعل الإحساس بجمال الموضوع وكثافته يكتمل، وقد افترضوا مراحل عدة:

- ١ - التوفيق لتوليفي غير مألوف أمام الذات.
  - ٢ - العزلة استنكار الموضوع بكل انتباهات.
  - ٣ - إحساسنا بأننا ماثلين أمام ظواهر لا نحقق.
  - ٤ - الموقف العنصري، أي الموضوع المثلث أمامنا.
- ويذهب إلى العنصر المباشر فنقول إلى الموضوع أولاً نقر منه.
- ٥ - الطابع العاطفي أو الوجداني: الموضوع الفني المثلث أمامنا يؤثر فيها الحاسيس والفعالات خاصة بسيطة.
  - ٦ - الثقافي: تتبرهن هذه الفعالات كقوى عاضية لها انتماء بالتأثير.
  - ٧ - القصص الوجداني: نضع أنفسنا، موضوع الآخر الفني فنتحقق بيننا وبينه مشاركة وجدانية أو مصالحة بلطفية، وهذا هو الذي يجعلنا نشعر بالألم لأبطال المسرحية، يظهر على قساعات وجوهنا ما ينسحب إلى تقصصنا لمواقف أبطالها<sup>(٢)</sup>.
- ونظراً لاختلاف طبائع الناس وما يترتب عليه اختلاف التواقيع، وعليه فإننا سنجد أنفسنا أمام أكثر من حكم على العمل الفني الواحد، وطالما أن الإنسان يصدر حكماً شخصياً فإنه بذلك بحاجة إلى الاقتراب بما يسمى تربية الذوق الجمالي.

### تربية الذوق الجمالي

إن تربية الذوق الجمالي عملية ضرورية من أجل تكوين نظرة على رؤية عامة تمكنهم من حسن استخدام حاسنات السمع والبصر اللتين يعتمد عليهما في الإحساس بالجمال. وهذا يجعلنا نفكر بأن الأمر بحاجة إلى أن يبدأ في مرحلة مبكرة ليستطيع الطفل أن ينمو ويكبر ويصبح له ذوقه الخاص به الذي يميزه عن أقرانه.

«إن التعاقب للملاحظات بين الأفراد يصعد أحكامهم الجمالية، وإن كان يستند إلى حد ما إلى

تأثير لقرائهم الخاصة التي يمكن قياسها سيكولوجياً سواء كانت فطرية أو وراثية أو مكتسبة. إلا أنه قد تأكد لدى علماء التربية أن فسفاً كبيراً من هذا التفاهوت إنما يرجع إلى نقص في التربية الجمالية فيسبب بدرجة أكبر على البيئة بمعناها الواسع.<sup>(٩)</sup>

وما ينسحب على العلم - أي الفنون الجمالية العام - ينسحب بطبيعة الحال على الخاص، والقصد به تربية ذوق مسرحي يستلوع من خلاله مشاهد خشبية المسرح أن يتذوق الأعمال المسرحية التي تقدم، والتي تختلف طبيعة الحال وفقاً لاختلاف المدارس والتأثيرات والاتجاهات مما يترتب عليه تعويد وتدريب التذوق المسرحي لكي يتعود منذ حداثة سنه على مشاهدة أعمال مسرحية تجعله يفهم أفكار وألف مثل هذه الأعمال، ويترتب عليه طبيعة الحال القدرة على التمييز بين مسرحية وأخرى معتقدة بذلك على حصيلته مشاهداته التي تجعله يتمتع بمشغول وغير يجعله قادراً على تذوق الأعمال، وإصدار أحكام تميزها الحكمة والفراية.

إن تربية الذوق النفسية مهمة مؤداها - كما سبق وذكرنا - أن الذوق لا يتعدى حدود، وإنما معياره الأساسي القاري إذا غابت المعايير، إلا أنه بالمعنى لا يدل محل المعايير التي يعتمد عليها القارئ في التقييم، إلا أنه - أي الذوق - يتألف حسب الحالة النفسية والفراوية للمفروق، ومع ذلك تؤكد على إمكانية ظهور الذوق، ذلك لأنه يظهر بغير وفي أصله هذا طبيعة تلك مع الإنسان، يعبرون عنها بمصداق الذوق، وبصورة الفرية عند الشك في كل من الفن الجميلة دون غيره ممن يستطيعون هذا الاستيعاد، وبعد ذلك يأتي التهذيب والتأطيم، وليس من شك أن الدراسة التي الذوق وتهذيبه وتسهم به إلى درجة محدودة، فالأدب ذو الطفرة التوائية يظهر من قراءة الأدب، ومعالجة الفنون فترأ بعد تأمل مسئول الذهن والذوق، يضع يده على العبارة البليغة، والشيكل الجليل، ويقرأ صديق الماطفاء.<sup>(١٠)</sup>

لما عن الشروط التي تتحكم في تربية الذوق بعد أن أدركنا أنه مكتسب من خلال القراءة والأطلاع والمشاهدة، وغيرها من صفوف الثقافي فقد حددنا الأستاذ/ أحمد الشايب<sup>(١١)</sup> في خمسة مؤشرات بها تتحقق تربية الذوق وهي: البهنية، «الزمان، الجنس، التربية، التخصصية والفراية أو المزاج الخاص.

فيقتصد بالبهنية هنا المعصر والغروف التي تعطي بالذوق سواء كانت اجتماعية أو ثقافية فجميع هذه الظروف تؤثر على الذوق ويحدث التفاهوت. ويقصد بالزمان فط الحاضرة والتطور والقراري الذي يشهده المجتمع حيث تزداد مساحات التقدم والاختلاف على لغات الآخرين، وهذا يتغير الذوق بعد أن تكون وتهذب وترقى. المعصر الثالث يقصد به الجنس، ويعني العادات والتقاليد المشتركة عند أمة من الأمم مما يجعل لهذا الشعب مجموعة من السمات التي يثقلها

الأبناء، عن الآباء، وتصنح جزءا من وجودهم، والثرية وهي العنصر الرابع ويقتصد بها ما يحصل عليه الفرد داخل الأسرة الواحدة من معلومات ثقافية وبراسية، وفردا من الصقل والتثقيف مما يوجد ثمرا من التفاهة بين أفراد الأسرة الواحدة. أما العنصر الأخير فيقصد به الشخصية الفردية أو المزاج الخاص، وهو أهم هذه العناصر لأنه دائما المرجع الأكيد حينما نتعمق إلى التذوق الفني.

وربما انتقلنا هنا إلى نقطة مهمة كثيرا ما تثار على ساحة المسرح المصري والعربي، بل والعالم، وهي:

لماذا يتذوق المشاهد العربي عامة والصربي خاصة تلك الفرعية من المسرحيات الشعبية والسياسية والبطولية والرومانسية والكوميديّة، على حين يلق التذوق أمام مسرحيات النعت واللامعقول والمسرحيات الفكرية وذات الاتجاهات الوجودية من أعمال موارث وغيره، يلق أساسها على غير اهتمام مما يترتب عليه عدم اندماج المشاهد، وهو ما يجعل متذوقي مثل هذه المسرحيات يحدون ما يدرهم عن تذوقهم، وربما يرجع ذلك إلى اللغة التي كتبت بها، هذا إلى جانب اعتقاد بعض جمهورنا لاهتمامات هذه المسرحيات الفكرية والثقافية، مما يترتب عليه رفضها، وهو ما يثير رفضا على طول الخط.

إن مشاهدي المسرح اليوناني يختلف طوائف طوائفهم وطقسهم وقد تولفوا أعمال كتاب المسرح اليوناني، وهو ما يتفق أيضا عند تذوقنا التذوق ككتاب عصر النهضة وعصر عويدة للتكية، وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على أن التذوق المسرحي لا يخص فئة واحدة، ولا لاداء شاعرة فئات الشعب كلها في المسرح اليوناني ومسرح عصر النهضة - كما سبق وذكرنا - هذه الأعمال وتذوقها.

وفي هذا الصدد يقول د. محمد صفدي الجبالي: إلى ما سبق قوله، إن التذوق الجمالي في الفن يلقى نتيجة غريب، حواسنا على تلبية، بينما نجد باقي أنواع التذوق (إستدسل هذا كلمة تذوق، سجارا وبدلا لكلمة تذوق) يواجه الحقائق التي لا تحتاج إلى تدخل الفاركة الجمالية أمام مشاهدات النفس،<sup>(٢٢)</sup>

## التذوق المسرحي

كثيرا ما نسمع أن رواية كذا أو قصة أو مسرحية هذا الكتاب، لم تلق قبولا أو إستمسانا، أو ضحك ما يقول إن عرض مسرحية كذا قد استحوذ على إعجاب الجمهور من المشاهدين واعتقد يتأثر إلى الذهن هذا السؤال:

لماذا فضل القراء أو المشاهدين أو المستمعون هذا عن ذلك؟

- ولماذا اجتذبت الآراء كلها على هذا العمل؟

إن الإجابة على مثل هذه الأسئلة معقدة جدا لأنها تشبه التساؤل الذي يقول: لماذا ينهض المشاهدين في وقت معين إلى مشاهدة أفلام الكارثية أو أفلام العنف دون غيرها من الأعمال الأخرى؟

إن رأي الذوق عند هذه الجماعة من الناس جعلهم يتفقون على تفضيل هذا العمل على ذلك. ويرجع هذا إلى توافر العديد من الخصائص والسمات التي جعلت هذا العمل الفني يجتذب هؤلاء الناس، ويجتسمون معه التوحيد انوارهم رغم اختلاف ظروفهم المعيشية وظروف نشأتهم الأسرية واختلاف كثير من الطوائف، ومع ذلك فقد التقوا وتردد ذوقهم، الأمر الذي يؤثر في نجاح هذا العمل واكتساب شهرته عن طريق جمهور المشاهدين.

وهذا يتصل بالحق على قدرة بسيطة هذا الذوق. هل من الممكن أن يرتقي ليصبح وسيلة مشروعة معلما هو العمل مع النقد للحكم على عمل فني ما؟

إن قضية الذوق السرحي أمر لا يزال يحير الكثير من الدارسين والباحثين، ذلك أننا نتفق على أن الذوق الشخصي هو الأول في كل الأحوال ليصبح شعبا من الهوى، ويعدنا عن شائعات النفس، وكل هذا يدفع الكثير من النقاد إلى ضرورة إخصاص النقد المذاهب العلمية الموضوعية التي تحاول أن تضع معايير وامكانات تخدم القارئ كأي علم بهاء. ولا نقول أن بطيها جوفيا، ولكنها مثل معايير كتابة النص السرحي يعرفها المؤلف، ويهضمها ثم يتركها جانباً ليكتب مسرحيته دون أن يهتف هذه القواعد أو المعايير. ولكن مع ذلك نستطيع أن نوصدها وأن نعددها إن أردنا ذلك.

ولذا لزمنا طرح قضية إخصاص الذوق عامة، والذوق السرحي - الذي هو موضوع بحثنا - للذائغ العلمية، ونفترض أننا قاصرون على أن نقول نواتنا، وأن نفعل كلية كما يحدث معنا عند إقدامنا على تقرير حقيقة علمية. إذا افترضنا أننا قاصرون على ذلك فهذا معناه أننا نفكر ونفكر حقيقة من كلمة وثابتة في مجال الفن عموما، وهي أن الذاتية والتقديرية هي النهج الوحيد الذي يمكننا من الإحساس بقوة المؤلفات وجمالها. فنستخدمه في ذلك صراحة. ونعرف مع احتفاظنا به كيف نميزه ونقدريه ونراجع، ونجده. وهذه الشروط الأربعة لاستخدامه. ويرجع الكل هو عدم الفاصل بين المعرفة والإحساس، واصطلاح الصلح حتى يصبح الإحساس وسيلة مشروعة للمعرفة<sup>(3)</sup>.

ومما سبق نستطيع القول إن الذوق السرحي من الممكن أن يتطور ويرتقي لكي نستطيع من خلاله الحكم على اثر فني، وذلك في حالة ما توافر الطبيعة والدراسة والممارسة. وهذا نقول إن



هذا الحكم التابع من قبل القديس صديوح لاستناده على العديد من الآباء التي تصح ويقلها الكثير من الناس، إلا أننا قد نجد من يعارضها - من قبل مثقفين آخرين - بأسلوب آخر، ويقلها أيضاً، وهكذا يكون القديس المسرحي قد قرى ونسخ لتصبح رؤاه، وهذا يأتي رأياً متفقاً مع رأي استاذنا الدكتور / محمد زكي العشماوي الذي يرى: «أن الرجوع إلى القديس امر لا مقر منه في الحكم على الأثر الفني وتقديره»<sup>(14)</sup>.

يبد أنه لا يقصد بطريقة الحال الإحصائي السطحي، أو القلة وحسب، وإنما يقصد القديس الضرب البصير.

أما عن النقد والعلاقة بونه وبين القديس فقد تحدث الكثير من النقاد والدارسين عن تعريف النقد، وقد تعددت التعريفات، إلا أنها برغم ذلك تتكامل، فمنهم من يعرف النقد بقوله إنه يعني الحكم<sup>(15)</sup>، أما الدكتور / محمد حافظ دياب فيعرف النقد عامة والنقد الأدبي خاصة بأنه يعني التمييز والتقييم والتأويل<sup>(16)</sup>، وهو ما يتفق مع رأي د. عز الدين إسماعيل في قوله إن النقد يعني «الحكم الأدبي»<sup>(17)</sup>، وهما اشتقاق التعريفات فإنها تتفق في أن مجال انطلاقها واحد، ورأي الدكتور / أميرة حلي مطر قريب من حديثنا فيما يتعلق بالعلاقة بين القديس والنقد، فهي ترى أن: «التأويل والنقد عملتان متصلتان بكل الأحوال»<sup>(18)</sup>.

إن النقد المسرحي أهدافه المبرحة كما أن المسرح هو اللغة الفلسفية للفن المسرحي الذي يقوم بتحليل عناصر العمل المسرحي حتى يظهر واقع هذا العمل في نفس المشاهد.

إن النقد المسرحي عملية تحدث بعد أن يكتب المؤلف ويخرج المخرج هذا الإبداع، ويعدّها يأتي النقد الذي يعود تكويم هذا العمل بعد أن كتب وقدم مستنداً على ذاتيته، وكذا على الجوانب الموضوعية، وعلى طاقاته.

أما عن النقد ووظيفته، وهل من الممكن تربية الحس النقدي، فإننا ندرك من خلال ما تناقشته في الفلام عدة أن النقد المسرحي أين من ألوان النقد الأدبي، جاء متأخراً إلى ساحة النقد، ارتباط في صيرورة بظهور وظيفة المخرج وهي وظيفة مستقلة عن العمل المسرحي الذي ارتبط منذ نشأته بالفرعوس تلك المسؤول عن تقديم العمل المسرحي ككل، ولم يكن له سوى المخرج، ولكن كانت له وظيفة المخرج - كما اعتقد - وقد اعمت - ولم يكن النص قد طرح بعد - بمسألة لتقديم هذا العمل إلى المشاهدين، ونحن نعلم أن أرسطو قد عاصر هؤلاء الكتاب إذ إنه كتب كتابه «فن الشعر» في أقطاب كتابة هؤلاء الكتاب لمسرحياتهم، وتقديم التراجيوس لها.

إن كتاب «فن الشعر» لأرسطو اشتمل عليه الكثير من التراجيح والنظريات، ولكنني اتصالح من حقيقة هذه الدراسة التي كتبها أرسطو، هل حقيقة هي دراسة لعل ما ساهده هذا قراء من

أعمال، أو هي لا تعتمد أن تكون متدا تخطيطيا كان يشع اسمها معينة (الفرن كمشكاة - الحكمة كروج - والجمال المناسوي كوسيط بين الخير والشر والفساد للطلق) ويقيم تماثيف وفروقنا مختلفة (الحكمة البسيطة في مقابل الحكمة المعقدة وأنواع الإبراهيم، ولكنه لم يكن يقوم بالتفسير النص أو استكشاف مستويات معينة.<sup>(19)</sup>

وهنا نعبر عن الإشكالية الكبرى ذات صلة مباشرة بموضوع الدراسة والقصد بها الفروق الجوهرية بين الثقافي المسرحي والثقافي الأدبي، أي جمالية الثقافي عند مشاهد العمل المسرحي وعند قارئ، وسامح الإبداع الأدبي. إن الثقافي المسرحي يتم بعد مشاهدة عمل مسرحي، وهو أمر يجعل من حق الثقافي للعمل المسرحي أن يستتبط - سواء كان نالقا أو قارئا عاليا - من العمل الذي اسمه ما يشاء، من المفاهيم والمفولات وأن يضيف إلى تفسيراته الآخرين الذين شاهدوا العمل ما لم يذكر من قبل، والدليل على ذلك أننا إلى اليوم نضيف وتعود الشرح من جديد إلى مسرحيات شكسبير.

أما عن الثقافي الأدبي لرواية أو قصة أو شعر فإن الأمر يتحلق بالكيفية نفسها، غير أن قراءة هذه الأجناس الأدبية تتم في أجواء تختلف عن جوهر المسرحية. فالعمل المسرحي يقوم بوجود نص درامي إلا أنه تحول على طبيعة النص ليصبح إنشا واحتمل من مجموعة أدوات إبداعية أخرى، وعليها يتغير الوسيط ثم يرتبط عليه بعد الإخراج والتمثيل، وهو يختلف عن الرواية أو القصة أو الشعر الذين يتصورون طبيعة الثبات كنتاج، إلا أنه أيضا يصلي إلى الثقافي الحق في أن «يستتبط من العمل الأدبي الذي اسمه ما يشاء، من المفاهيم والمفولات والقيم ما دامت طبيعة العمل تحمل هذا والثقافي - في مثل هذا الصنيع - الشبه بمن يقومون في أعمال البصر، فقد يستخرج أحدهم الفلوق، وقد يعود الآخر بالرجحان، وقد يرجع ثالث بالصدق والغير».<sup>(20)</sup>

وعليه يختلف أيضا التقدير المسرحي عن التقدير الأدبي لطيفا لطبيعة النجاج، غير أنني أرى أن النقد الأدبي يختلف عن النقد المسرحي، ذلك أن النقد المسرحي يتطور ويظهر في نهائيات القرن التاسع عشر، وهو يختلف عن النقد الأدبي كونه يكتمل بالكتمال رؤية المسرحية مبنية على طبيعة المسرح.

إن النقد المسرحي جنس من أجناس الإبداع الأدبي عامة، ولكنه يزيد عليه في كونه يكتمل بعرض العمل المسرحي على جمهور المشاهدين، وبعد أن نجد أنه على مستوى النص قد تتشابه الرواية مع المسرحية، إلا أنها تختلف عنها كما سبق وأسلطت في كون الرواية لها مكتسبات بمجرد طبعها، بخلاف المسرحية نقل لنا نالقا إلى أن يرى القارئ على طبيعة المسرح.

وعليه فإن تعريف النقد المسرحي بذلك يأتي هو الأكثر بعد أن ينشئ الكاتب من إبداعه

المسرحي التمثيلي، ثم يأتي النقد ليحكم ويقيم ويحلل ويرجع هذا الإبداع سواء اكتفى بالنص وحده أم إنه استكمل عمله ككافة - وهذا هو المنهج الصحيح - بالعروض المسرحي.

وعليه نقول إن النقد وظائف عديدة منها: الحكم أو النقد أي الاعتماد إلى مبررات لايد حكم القيمة، غير أن النقد وظائف أخرى، فهو يحاول أن يفسر أو يوضح العمل الفني<sup>(٢١)</sup>.

إننا نتحدد بعض من وظائف النقد في ضرورة الحكم والتفسير، وهو - أي الناقد - يهدف من وراء ذلك إلى ضرورة الاقتراب بعمل الكاتب المسرحي، وكذا الخروج - أي العرض المسرحي ككل - من جمهور المشاهدين ليكتسبوا هذا العمل وإبداعه وما خطي فهمه على الجمهور.

ويؤكد نظري، من الناحية المهمة مشار حديثاً، وهي هل من الممكن أن تطور المسس النقدي عند الناقد المسرحي إن الأجابة على هذا الاستفسار ليست بالأمر العسير، وبخاصة إذا علمنا أن النقد المسرحي قد استفاد من العلوم والفنون وبخاصة في مجال الإخراج، وذلك لما لا ينبغي أن ننكر الدور المؤثر الذي لعبه كل من (ألفريد جاري) و(ألفريد أوتو) على المستويين العملي والنظري في هذا الصدد<sup>(٢٢)</sup>.

وإن مل هذا على شيء فإنه يدل على الاستغناء الكبيرة التي اجتازها النقد المسرحي من علوم الإخراج في وقتنا الحاضر، وهو ما يؤكد قدرة الناقد المسرحي على تربية حسنة النقدي بالمشاهدة والإطلاع، ذلك أن القرن العشرين شهد تطوراً عظيماً في كل المجالات، واكتسبها العلوم الإنسانية التي تذكر منها علم الاجتماع وعلم النفس واللسانيات بكل فروعها، والفلسفة والتاريخ والأثرولوجيا<sup>(٢٣)</sup>، وكان طبعها أن يستفيد النقد المسرحي من تطور هذه العلوم.

وهنا نعود فنقول، إن النقد يسهم من شأنه في تطوير حساسة التذوق<sup>(٢٤)</sup> هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى طمأن أن نؤكد أننا من خلال الدراسات الجمالية والنقدية فإننا نقرب من الفطاة هذه نستخدم جميعها في مجال التذوق وعليه فإننا نستخدمها ونعني حينئذ أشياء مختلفة طبعاً لوجودها في النص، أو في السياق العام للمعنى ضمن المتن أن تعني الإعجاب أو الإعزاز أو approbation، ولكن من التمكن أن تعني designation، ومن الممكن أن تعني معنى فلسفي Philosophical، أو جمالي Aesthetic التقييم<sup>(٢٥)</sup>.

إذا كنا قد أدركنا وظيفة النقد، وكيف أنها لا تعد مرحلة للاستمتاع بالقلة أو التذوق، ولكنها تتخطاها إلى مرحلة يستطيع فيها الناقد أن يحكم على الأعمال الفنية حكماً سليماً لا يخالف أحكام الآخرين مخالفة الأبيس للأسود، إذا كنا قد علمنا هذا فإننا نفرق من فترة هذا الناقد على أن يستغرب هذا العمل الفني، وأن يقره منزلته، وهو هنا على يقين من علاقة هذا العمل بالمعصر

الذي كتب فيه، ثم فكرته على مفارقتها بالأعمال الأخرى التي كتبت في هذا العصر، ثم التولية بتعدد القيم الجمالية لهذه المسرحية أو تلك... وهي أمر يجعل الناقد قادراً على أن يصنف أعمال الكاتب المسرحي الواحد، ويضع كلا منها في مرتبة تتقدم على الآخر أو تتأخر عليه. فلذا قلنا إن «الناقد الفني» - الناس التي فوق - «ميلة التوليدي» أعمال مسرحية تحمل الكثير من القيم الفنية والفكرية والجمالية، وتحمل مكان السدارة بين أعمال نعتان عاشور، هنا يأتي هذا الحكم معتمداً على أساسه ومبرراته القوي كلاماً، وهو رأي يأتي مطلقاً مع رأي استاد الأجيال محمد زكي العشماوي في مرتبة الشبهة (قضايا النقد الأدبي) قوله: «ليس من شك في أننا حين نضع كل واحد من هؤلاء - يقصد دانتلي وشكسبير وهوراتيس وجيوت - في مكانه الخاص من هذا السلم - يقصد سلم القيم - إنما نستند في ذلك إلى أساسه، إن لم تكن لها بقية الأرقام العنصرية وليس ينبغي أن يكون فيها سعة التفاوت»<sup>(79)</sup>.

وبما سبق نستطيع القول إن هذا التفسير والتفريب الذي تسعى إلى تطبيقه لتقييم عمل فني ما، يجب ألا ننسى عند قيامنا بذلك أن نخضعه من وجهة نظر شخصية تريبية مؤداه اتفاق رأي الجماعة ونوقهم، والأمر قد مر قبل وصوله إلى هذه المرحلة بجهد طويل، وهو أمر طبيعي، ولكنه لا ينبغي أن يكون إلا مجرد وسيلة مثالية حتى يصبح من الممكن أن يتحقق التوازن الدقيق في النقد<sup>(80)</sup>.

إن ما تسعى إليه العلوم الإنسانية حين تتعدد بعضها من البعثات التي تميز العلوم، أمر يأتي مختلفاً حين ندعى لتعدد مهام الناقد المسرحي الذي لابد وأن يستشبع بفكر ما اقترعته د. س. كهوت حين تتعدد عن تنوع الشعر، ولا أرى هنا مغالاة في أن يمسح هذا الرأي على المسرح أيضاً إذ يقول «إن الأساس في النقد هو القدرة على اختيار القيمة جيدة، مسرحية جيدة مثلاً، وإعمال أخرى رديئة، وإن أي اختيار يتعرض له الناقد إنما هو في مقدرة على تفصيل قيمة جيدة، وفي الاستجابة الصحيحة لخلق فني جديد، وإن الخبرة التي تتطور وتطور في الشخصية الرواية الفاسدة ليست فقط مجموع التجارب الناشئة عن رؤية القصائد الجميلة، فإن الثقافة الشعبية إنما تتطلب تنظيماً خاصاً لهذه التجارب»<sup>(81)</sup>.

إن التمييز بين الناقد والمثقف يتحقق في مجال بحثنا ألا وهو موقف كل من الناقد والمثقف من الإبداع بشكل عام، ذلك أن الناقد عندما يتعامل مع إبداع ما هنا نجد أن مهارته هي مهارة تكيفية تستند إلى معايير مختلفة من مذاهب فلسفية مختلفة، وقدرته تكمن في نجاحه في التطبيق الجيد لفرض البداية الذي اختاره ويرجع في استنتاجه<sup>(82)</sup> أي أن الناقد يختلف عن المثقف في أنه يعتمد في تقييمه وإصدار أحكامه على مجموعة من المعايير والقواعد التي لا تأخذ

مكانها الطبيعي عند الخلق الذي «لا تمكنه» - في أحكامه - إلا حسيبة ثقافية وسهارة إسرائيلية، مما يترتب عليه الميل إلى تقديم القضية ما في درجة الخلق لعمل واحد.<sup>(37)</sup>

إن الفارق بين الناقد والخلق في تعامله مع الأعمال الفنية إنما يتحدد في أن «موقف الناقد ينبغي أن يكون متسلحاً بشوات كثيرة أولها الممارسة الجيدة للأعمال الفنية من خلال تأويلها وفهمها عن طريق الإلمام بآرائها وتطورها ومواقفها المختلفة من العصر الذي وجدت فيه»<sup>(38)</sup>. وهو أمر يختلف في حالة الخلق وموقفه من الإبداع، ومدى طموحه الجمالية التي تتجلى من خلال القراء. فالخلق يستجيب للإبداع، وفي استجابته تتعدد نوعية وطبيعة الشجرة التي يعيشها.

إن خبرة الخلق واستجابته إنما هي «بورها شجرة سائلة وشبيهة بشجرة الغتان البدرج، أي هي عملية إعادة خلق للعمل الفني»<sup>(39)</sup>. إن يعتمد الخلق في أحكامه على إعادة تنظيم وتأييد أبعاد العملية الإبداعية التي مر بها الفنان البدرج لها.

إن كل هذا على شيء، فإما يدل على أن الناقد إنما هو مشغول من بالمعنى من التجارب والظنون الكثير من الضغوط وتعرض على أصبح قادراً على إصدار حكم به الكثير من الصعوبة، وهو ذلك البدرج من الخلق الذي قد يخطئ في بعض الأحيان نظراً لوقوعه في شرك وهذلة الظن. إذ يفرض بأنه على علم وبصيرة بأنه، وفي كثير من الأحيان قد عرض نفسه للخطأ. وأسوق مثلاً على ذلك مسرحية للكتاب الإنجليزي الشهير داروين «بتر» قصة الجبل، حيث إنها تقدم موضوع حظر التعامل بلغة معينة، وهي لغة أهل الجبل بين الأفراد بتركها، ومن القولة الأولى فإن الكثير من النقاد انصافاً وراء ما بهذه المسرحية من سياسة، واعتبروها تقويها مسرحياً للمشكلة السياسية والاجتماعية. على حين وجدت مدفاً قليلاً من النقاد لم يفتأ إيراد مدى سياسية مسرحيات «بتر» السابقة، ومدىاً قليلاً منهم فهم ذلك، «بتر» في إبعاد مباشرة السياسة عن مسرحياته. كما أن بعضهم فهم كيف اعتاد «بتر» أن يلقي - بين التمد والهدوء - أحكاماً تقنية ساخرة يلقها كتاب الصدف والنقاد والدارسين فيقولونها بحتاً وشخصية واستطراد المعاني الكاسية خلف المعنى الظاهر. إلخ، ثم يكتشفون في النهاية لغز «بتر» على البهرام أحياناً<sup>(40)</sup>.

وإن كل هذا على شيء، فإما يدل على أن كثيراً من الأعمال المسرحية تجعل وراء معناها الظاهر الكثير من المعاني التي قد لا يلتفت إليها الكثير من النقاد مما يترتب عليه انقسام النقاد إلى أكثر من فريق، مما يترتب عليه أيضاً وفور الفارق في حيرة من أمره بينهم - أيها صاحب التفسير الصحيح. ذلك أن «بتر» وفيه من الكتاب مثل «صومونيل بوبكت» - وكالعادة - قد انصرفت

اعتمادا بالغا بقضية الفرد المظارد من المجهول لنظام النبوة أو أي قوة مادية أو ألوان من القهر والاستعداد) كل هذه جعلتهم حسب قول «مارتن اسلن» يفترون ليهيخوا أصحاب قضية واحدة. وهي بطبيعة الحال قضية فكرية. وقد تكون فكرية واقعية. أو قد تكون مجردة. إلا أن هذا لا يجعل التقاد مع ذلك يقررون بينهم ليهيخوا جميعا من حيث الشكل من كتاب مسرح القيد.

وهذا الأمر قد يختلف عندما نقرأ أو نشاهد مسرحية أخرى. مثل مسرحية طبعيا النهاية ليهيخيول بيكيت. تلك المسرحية التي تحتاج من الطقاد والمدرسين أن يهسروا قواحا وشاعريا بهذه التوعية من الأعمال التي تشهد كثيرا عن التقاليد المسرحية من حيث الكتابة أو العرض. والتي حاشا تعود عليها جمهور المشاهدين. هنا يأتي دور الطقاد في تيسيرهم بهذا الاتجاه. ومحاولة إيجاد مرتادين له. ولا تكفي بالأعمال المسرحية السهلة بحدوث أن هذه الأعمال بها الكثير من القداخل والصعوبة بحيث تقوم من قبل جمهورنا. وعليه يجب أن نقصد منه ما استطعنا من وجهة نظر دماغه. ومن وجهة النظر الإنسانية. ما ربما نسلم بدها أنهم لا يشجون هذا الألب هيشا. على حين يصفون به العيث فمن وراء التصوير للمواقف في حالكه المروعة بحث قوي على التفكير في بطوننا. ومن هنا نقصد انتشاره على (٣٧)

إن البحث عن الداعي الفاعل في بعض التجهيزات هيشا تبين الناقد للتخصص والتشوق لهذه الأعمال. بحيث يستطيع أن يزدى بعضا من مهامه في تتبع مراحل كتابة نص معين - كما حدث في تعرفنا على نص لغة الجبل - والظروف التي كتب فيها العمل. محققين في تلك المنهج التاريخي في صلية النقد. والذي لشخص مقال لـ «فيليس م. جوتن» جاء فيه: «إن أول مهمة يواجهها الناقد هي أن يوضح لنا الميهم فما نقرأ. وأن ينظم النص تنظيميا يخرجنا من القوقس التي ربما كانت تسود نتيجة لعدم العهد الذي كتب فيه. وكثرة الآراء التي تضاربت في أصله وتفسيره» (٣٨).

وباستطاع أن نستفيد من تطبيق هذا المنهج على الأعمال المسرحية العالية والمطهرة التي مضى عليها الزمن. وأم يدور لها أو يكتب عنها من قبل الطقاد. وبذا ينظمها الكثير من التفسيرات لكي نوضح مبادئها من لغوي أو تناسي. وهو ما يساعدنا في إيجلائها وإبعاد الآراء الضللة التي تفسر وتشرح دون علم بأصول ومعطيات هذه الأعمال. وهي مهمة شاقة تساعدنا مثلا في التعرف على كثير من أعمال كتاب المسرح الكلاسيكي. ونفسرها - كما تعرفنا - بكثير من دبرائنا المسرحي الذي كتب في نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ولا نعرف هذه الكثير تلك مهمة يقوم بها الطقاد وهم بذلك يشجون هذه الأعمال مغية التعرف والتفهيم.

## علاقة التنوق والنقد ببعض المدارس الأدبية والفلسفية وكذا المناهج النقدية

### ١ - المدرسة الكلاسيكية وموقفها من التنوق والنقد

تميزت المدرسة الكلاسيكية بفترة ازدهارها على الطول، على مر الأزمان، كما يتميز هذا الأدب بأنه يركز على محاكاة الآداب اليونانية والرومانية. وقد استمرت الكلاسيكية حتى القرن السابع عشر، وتطلعت في أعمال «كورني وراسين وموليير» إلى أن وصلت إلى القرن العشرين، ولا تزال الكلاسيكية تمارس مهامها من خلال محاولة الكثير من الأدباء والفنانين المحافظة على مجموعة من المعايير كـ «الرصانة والتوازن، والقلوب والصناعات الإنسانية الصادقة». ومن هنا يمكن وصف أسلوب البيوت بالكلاسيكية<sup>(٣٧)</sup>. أي أن الأدب الكلاسيكي لا يعني أدب اليونان والرومان وحسب، بل وينسب على بعض من النماذج الأدبية والفنية والمسرحية في القرن العشرين.

إن إطلاق مصطلح كلاسيكي على بعض الأعمال المسرحية والأدبية والفنية يشكل عام قد ينسب أيضا على مثل كاتب جديد للتعبير الفكري، نظرا لحرص المذهب الكلاسيكي على جزالة التعبير الفكري وتبسيطه - وحتى وإن لم يكن من أنصار المذهب الكلاسيكي المتكلمين بقواعده وأسسها الفنية والفكرية<sup>(٣٨)</sup>.

لأنه وإن تعي في البداية أن الاتجاه الكلاسيكي في الأدب والفن قد صرح به صراحة اتجاه نقدي كلاسيكي أيضا عرف باسم النقد بواسطة القواعد. وهو الذي أعتد على القوانين الصارمة التي وضعها أصحاب هذا المبدأ وعلى رأسهم أرسطو. ونقل العمل بهذه القواعد بين الأثنيات إلى محاولة إبطال التعبير عليها، إلى أن وصلت إلى القرنين السادس والسابع عشر، حيث اهتم الكثير من نقاد هذه المدرسة بالباحث ما سجله أرسطو وموليير. إلا أنهم سعوا إلى إدخال بعض التعديلات عليها. وقد انتعش اهتمام الكلاسيكية الجديدة في موشوعات عدة وهي نظام التمازج الدرامية - أهداف القواعد - مفهوم محاكاة الواقع أو الإيهام به، ومفهوم اللائق، ثم وحدات الحدث والمكان والزمان. أما الأشكال الدرامية للتعريف بها فقد اقتضت على القواعد الجديدة والتكديدا، على أن يكون كل منهما شكلا فنيا بذاته لا يسمح بالخلط بين الاثنين، وعلى أن تكون لكل منهما القواعد والقوانين الخاصة به<sup>(٣٩)</sup>.

استمرت الكلاسيكية بعد ذلك، وأتبعها مرة أخرى في القرن التاسع عشر محاولة أن تنظر إلى الأمور نظرة تجمع بين الموضوعية الجامدة للكلاسيكية القديمة، والذاتية المتطورة للرومانسية الجديدة<sup>(٤٠)</sup>. أي أنها حاولت قدر الإمكان تقليد مساهمة الكلاسيكية القديمة بما يفرضه من قوانين صارمة، قد يقول البعض إنها سعت دأبها لتوازن الطفل والطفولة والشعور توازنا وإياها يكون الحضور الألف فيه العقل، بالإضافة إلى حضور الحسنيين الآخرين<sup>(٤١)</sup>.

ونقاد هذا الاتجاه يسمعون سمعاً خشناً من أجل الإكثار من سيطرة العقل، وكذا التقليل من حد التقليد، وهم يقدرون أن التقاليد الأدبية صليبية عندما تكون في خدمة التشكيل الفني للعمل الأدبي، فالتقاليد ليست مجرد قوالب صماء تفرض قمعاً على العمل الفني، لأن العكس هو الذي يحدث<sup>(١)</sup>، وهو ما يتعلق عندما يحدث التطور الحداثي الذي يتعكس بطبيعة الحال على العمل الأدبي، والذي يصل تأثيره إلى النقد ليستجيب لهذا التطور. الأمر الذي لا يجهل للمعايير أو القوانين التي تخصص نقد العمل المسرحي.

إن ما سبق ذكره، يأتي متغافاً مع ما ذكره «جورج سفلولير» فيما يخص القديس الذي يجب أن يتعلمه الناقد حين يتعامل مع هذا المنهج القائم على المعايير أو القوانين، إذ يشير قوله: «إن الناقد ينبغي أن يظل منطوقاً للتجديد في الفن، وينبغي أن يكون على استعداد لتخطي عن المعايير التقليدية عند» والتي لا تكون صالحة للحكم على أعمال جديدة مختلفة<sup>(٢)</sup>.

وبطبيعة فإن علاقة هذا المنهج النقدي بالفنيلي النقدي والنقد بحاجة إلى تجديد وبطبيعة ذلك أن يشاهد أو قاربه العمل الكلاسيكي عليه - أي النقدي - أن يدرك ما يتخسره العمل من طبيعة مقبولة لتجرب حواس التذوق فينتقل ويخرج، مما يجعله يشترط من روح المؤلف فيفضل بشخصيات مسرحية وأحداثها، وأمر ما ينبغي إليه الناقد الكلاسيكي، أي أن النقدي لا بد أن يدرك موقف النقاد في هذا العمل دون أن يخلط نفسه بتقبله إلى عزيماته.

إذا كنا نذكر ذلك للمتنوق فلا ندعي بشيعة أن يلتزم - وكذلك الناقد - بحزمنا الكلاسيكية ونوازحه من الانطلاق، ذلك أنه - وكذلك الناقد - إذا سجعاً نفسها في سجون القواعد، مما ينتج عنه أن يكون الناقد «مهاجراً نتيجة لاتباع هذا المنهج عن تنوق قيمة العمل، ويطلق عليه، سواء كان نقدياً أو تفسيرياً، عن الهدف تماماً»<sup>(٣)</sup>.

مما سبق نستطيع القول إن مناهج النقد بواسطة القواعد يحتشد المدرسة الكلاسيكية بعراطلها الثلاث، هذا إلى جانب أنه يحتشد ويتشعب كذلك على مناهج النقد التفسيرية، وكذلك مناهج النقد التفسيري (الحكمي) هذا إلى جانب مناهج النقد الوشوي الذي يعتمد على القواعد والأسلوب النقدي التي نال بها أرسطو، ومن أثار بعده من المنظرين والشرح الحكم على العمل الفني من منطلق القواعد.

## ٢ - علاقة التذوق والنقد بمذهب الفن للفن

إذا كان لنا أن نتعرف على مكانة التذوق الفني والمسرحي وكذا دور النقد في ملاكته بأصحاب مذهب الفن للفن، أو كما يسمى أحياناً بـ «المدرسة التعبيرية» فإن أول ما يقابلنا في طبيعة تعاملهم



مع التثوق القلي للعمل المبدع إنما هو أمر لا يشغلهم كثيرا وكل ما يشغل أصحاب هذه المدرسة هو رفضهم لأن يخضع الفن لقواعد الأخلاق والدين، ولقد عرف هذا المذهب باسم (مذهب الطوبوعيين)، وقد جاء هذا المذهب كرد فعل للرأي الذي يربط بين الخير والجمال، نشأ هذا المذهب (إلزاله) وليمه (أميل، زولا)، وكان من المقابحين لهذا المذهب الشاعر الفرنسي (بوليفر) ومن أتباع مذهب الفن أيضا (كولستوي)،<sup>(34)</sup>

إن اعتقاد مذهب الفن قائل على ضرورة تقليص مساحة المعض على الفسيلة، والتخلي عن القيل، أمر ربحا وبقي متخفا مع رسالة المروج عامة، والأدب خاصة، إذ لا يمكن بأي حال من الأحوال تقليص دور التثوق النفسي، ومن ثم فقد المبرحي نظرا لأننا سوف نتطلى حينئذ عن رسالة المروج والأدب على عالم التثوق الفني، والتأهارة في البناء.<sup>(35)</sup>

إن مساحة التثوق من مطلق هذه المدرسة سوف تقل أو سوف تقتصر على ضرورة إقصاء التثوق الشعاعيين لثورة وبدأ واحد من ضرورة تخليق هذا العمل القصيلة والخير والقيل، وهو ما تتفق مع إيداعه كتاب المروج اليوناني، رغم حرصهم عليها - التطوير والقيل - إلا أنهم اعتبرا بضرورة أن يصل الفن إلى مرحلة عالية، ولا يندو فتم من هذه الكلفة وإنما تركوها لمن هم أدنى منهم مرحلة من الكتاب والشعر،<sup>(36)</sup>

إن أصحاب مذهب الفن كلف بعد أن سيعوا إلى ضرورة عدم إلهاج الفن لقواعد الصرامة التي تزم المروج مراعاة الدين والقصيلة بعد هذا كان عليهم أن يبدروا رسائلهم بشكل معقول ومقبول، إلا أن هذه المدرسة لم تستطع أن تمنع نفسها من طغيان الشكل والصورة الذي يجرد الفن من كل مضمون لا يتجر الإحساس والجمال في نفس الإنسان<sup>(37)</sup>، مما سبق يتضح لنا أن أرسطو بذلك قد رفض أن يتحول الفن - الشعر - إلى خطية وروعة وإرضاء، لأنه أدرك أن تلك سوف يسلبه صفة الطلق الفني، وقال أرسطو: «إن العقل غير الناضج الذي يقتصر إلى ملكة الابتكار على استعداد دائم لأن يتلقى الحكمة من الآخرين»<sup>(38)</sup>.

إن يدعوا أرسطو إلى المحافظة على ما للشعر من قيم جمالية تنمي حسنة التثوق الفني والجمالي للتثوق وكذا التأقد، وهي ما ساء طوال عصر الأدب والمروج - لولجا أو إزهاقا - إلى أن وصلنا إلى القرن العشرين حيث اعتبر النقاد نظرية الفن للفن دافعا مستحيلا من الفن حتى لا يستخدم في الأغراض التفعيلة، ولكن كان من أمداء النظرية من حاول دفعها والهروب من الارتباط بالحياة ولوجبه سجون الأمور اليومية،<sup>(39)</sup>

إن كثيرا من الكهتين بعركة الأدب عامة والمروج خاصة قد فهموا «نظرية الفن للفن»<sup>(40)</sup> فهذا خلطوا إذ اعتبروها هروبا من الحياة ومن الناحية التفعيلة، والانغراق في عوالم الضياع والتشتيت

## عالم الفكر

والعموم، وربما هذا يعطي فرصة كبيرة لازدياد مساحة التفوق الأدبي، إلا أنه من ناحية أخرى يقف الإبداع الصلة بالباشرة - أي الفن القائم على الخطابة والوعظ - بينه وبين الجمهور، لأنه سيتحول - أي الفنان - إلى مصطلح اجتماعي ينشغل فقط بالتركيز على ترسيخ المبادئ والقيم العليا.

كما سبق نصل إلى حقيقة مؤداها أن التفوق المسرحي أو الداعى المسرحي لابد وأن يعي جيدا أنه أمام مثل هذه الاتجاهات - قصد الاتجاه الفلسفي المتكلم للعب الفن للفن - وعليه أن يستفيد من تركيز هذا المذهب على الجانب الجمالي والابتعاد عن الناحية التفعيلية، وهو ما يساعد في نحو حواس التفوق أو التألق - وتربية نوله إلى أن يصل إلى مرحلة التعلم والتدبر على التقدير لهذا الإبداع الفني الجمالي للابتعاد عن الناحية التفعيلية، وهو ما اعتقد أنه يؤخذ على اصحاب هذه المدرسة الذين «يعتقدون أنهم - بذلك - حمانا الفن من المسوئية والدعاية والإنساق، وهم في الوقت نفسه من أعداء الفن لأنهم يشعرون أنه اليوم - الملتجد، والطمون شريان الحياة الذي يمدده بالدم من المجتمع»<sup>(14)</sup>

وإذا نحن اقتربنا من المنهج الذي يصلح للتألق في تقديره لأعمال هذه المدرسة فإننا نجد أن المنهج التأثيري (الاستدائي) - الذي هو أيضا مدرسة أدبية وفنية - يحتضن مذهب الفن للفن، وكذا الزعمانية، مروراً بالتأثيرية ثم الرمزية، والطبيعية، والتعبيرية، والحدسية، والوجودية، وأخيراً المعنوية. وعليه نستطيع القول إن هذا المنهج وإن كان قد «ظهر في التاريخ القديم، الذي صاحب ظهور فنون الأدب المختلفة وبخاصة فنون الشعر، ولكن هذا المنهج كما قلنا لم يختلف قط بل ظل قائماً وضرورياً حتى اليوم، وكل ما طرأ عليه أنه قد أصبح يعبر مرحلة ضرورية وأساسية وأولية في النقد، ولكنه لا يمكن الاكتفاء به والوقوف عنده»<sup>(15)</sup>

### ٢ - المدرسة التأثيرية وعلاقتها بالتفوق والنقد المسرحي

إذا كنا قد أدركنا ما لعبه الفن للفن من مقصد صريح في الإزالة من شأن الجمال والابتعاد عن القوائم العقلية القياسية التي سمات ومميزات على الكلاسيكية، فإننا هنا أمام المدرسة التأثيرية - الانطباعية - فالتأثير من مذهب الفن للفن في كونها تعدد طبيعة العمل الأدبي أو الفني بمعنى ما يستطيع هذا العمل أن يثيره فيها من عاطفة وإحساس غير هائلين بما يتضمنه العمل من أي مفهوم من مفومات المعالجة الإنسانية<sup>(16)</sup>

كما سبق يتحدد المنهج النقدي لهذه المدرسة التأثيرية التي تعطي من شأن الإحساس بمقدار ما يتركه فيها العمل من أثر يحرر حواسنا، الأمر الذي يجعل القمطي سواء كان متلوفاً أو ناقداً

حرية التعبير الشخصي والذاتي لرد فعله. وهو ما عاب عليه الكثير. إن كيف تعتمد على إحساس الناقد، وانطباعاته في تقييم العملية الأدبية؟ إنهم بذلك يتركون العنان لكل من يتحول من معلومات إلى فنان وهم - أي الانتطاعمين - «جروا وراء التسجيل العرفي للانتطاع، ونسوا القيمة الجمالية، والضرورة الدرامية اللتين تضمنان وجود الشكل الفني الذي يحول هذا الانتطاع الجرد إلى جسم فني جميل من خلال العمل الفني»<sup>(31)</sup>.

إنني لا أطرح على المنهج النقدي الانتطاعي في مجال التلق أو النقد، ذلك أنه في مجال التلق يعد المنهج الأساسي الذي يعتمد عليه الناقد، وكذا على خبراته الحسية في استقبال ما يقرأه أو يشاهده. أما فيما يختص بالنقد فإن هذا المنهج الذي يركز على ذات الناقد وعلى تجاربه الذاتية من أجل الانتقال فيما بعد إلى مرحلة أخرى «موضوعية يفسر ويبرر فيها الناقد انطباعاته بجميع موضوعية يستطيع الغير مناقشتها»<sup>(32)</sup>، وهو ما يؤكد عليه د. محمد فتحي هلال في أهمية هذا الاتجاه النقدي الذي يشمل في كونه يسمى إلى «الإلتحاح على ضرورة التلق الجمال الفني، والمحرص على الشعور بالمتعة الفنية، في وجه علماء القديين التقديرين الذين تصر إنراكم، فولفوا عن النظريات الحديثة بها وهم جيد لها»<sup>(33)</sup>.

كما سبق لعدد إلى حقيقة مشابهة إن المنهج النقدي في النقد منجز برغم كونه نقدياً انطباعياً فإنه يتضمن قدرًا من الذاتية التي هي جزء أساسي من المدح سواء كان كاتباً مسرحياً أو قصصياً أو روائياً. إن لا ننكر جانب الذاتية في حيلة المدح أو النقاد، على أساس أن هذه الطريقة - أي الانتطاعية - إنما هي اتجاه يدخل في جميع المدارس الأدبية دون استثناء، حيث الانتطاع عنصر أولي في خلق أي عمل فني، ولكنه ليس كل شيء، كما تأخذ الانتطاعية الطائفة. لذلك انشرد عندما اقتضت على تسجيل الانتطاع كهدف في حد ذاته، ولكن مع ذلك يظل الانتطاع المادة الخام التي يتشكل منها أي عمل فني ابتداء من الرومانسية ومارا بالواقعية والرمزية والطبيعية والتعبيرية والحمية والرجولية والعشقية<sup>(34)</sup>.

#### ٤ - المدرسة الإنسانية وما بعدها ومنهج النقد السياقي

إن الحديث عن المدرسة الإنسانية إنما يأتي متفقا من حيث التمسك مع المدرسة الكلاسيكية. إذ إن الإنسان كان ولا يزال محور الفن، وإن قلت المساحة بين مذنب أو مدرسة وأخرى (إلا أننا مع ذلك لا نستطيع تسميتها بـ «مدرسة» أو تسميتها في منطقة معينة أو ربطها برواد يعود إليهم الفضل في تسميتها، ولورثها كمذهب أمي له سلامة الطائفة، وخطوطه العريضة التي تسجل مهمة التعرف عليه بين بقية المذاهب المتعددة)<sup>(35)</sup>.

إن المدرسة الإنسانية - يظهرها مدرسة العالم في العصر الحديث - تشمل العديد من المدارس والمذاهب الأدبية التي جاءت منذ القرن الثامن عشر - مع بداية المرح الأوربي الحديث - في محاولة منها للتقليل من حدة سيطرة القوانين والأصول الأدبية النقدية - التفسيرية التي وضعها أرسطو. إلا أنهم أدركوا أن الفن لا يمكن أن يعنى اعتصاما على الموضوعية أو الذات الداخلية فاصعب ذلك أن الكثير أعاب من قبل على منهج النقد التكميري - الانطباعي، واكتفوا بالنظر إليه على اعتبار أنه مرحلة تؤدي إلى النقد الموضوعي الخاص للفرد والمعايير. وبطية اشتغل القرن التاسع عشر كله بالبحث عن مناهج ومذاهب للأدب والفن لتعطي تلك المذاهب والمناهج لتعطي لم تشهد الإنسانية مثيلا له من قبل. حتى أصبح القول بأن القرن التاسع عشر، ثم القرن العشرين من بعده قد كانا عصري ظهور المذاهب والمناهج الأدبية والفنية، ولقربها تنوعا كبيرا<sup>(١٧٩)</sup>.

إن تعدد المدارس والمذاهب والاتجاهات الأدبية يقتضي بطبيعة الحال التعدد في مناهج النقد. على أني أرى أن الإنسانية وما المنطلقة من مدارجها قد شملت المدرسة الأرسطية<sup>(١٨٠)</sup> والمدرسة الأوروبية وكذلك المنطلقة أراء الخوخ والنقاد الكبير، هيرويلت تيزه، والتالف «هوتوير» والنقاد سمات يوفه الذين اتبعوا منهج النقد التكميري، وقد المنطق كل هذه المذاهب الأدبية والنقدية منهج النقد السبالي.

إن النقد السبالي، وكما هو واضح من لفظة سبالي بفعل «الطوف التي ظهر فيها العمل، وتطبيقاته في المجتمع، ويشمل بوجه عام جميع العلاقات، والملاقات المتبادلة بين العمل وبين الأشياء الأخرى باستثناء حياته الجمالية.

فالإفراء الجمالي يتركز على العمل ماثولا على حدة، غير أن العمل، إذا ما نظر إليه بطريقة غير جمالية، كان يوجد في سبالي»<sup>(١٨١)</sup>.

إن النقاد الذين ينتمون إلى النقد السبالي، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر كارول ماركس، ومن أش من بعده من النقاد الاجتماعيين أمثال «هيرويلت تيزه» يراعون جميعا في تقديم السبالي التحليلي نوعي كثيرة، فلما تؤدي إلى إبراز التواهي الجمالية في العمل السبري دون التناول.

إنني أعني بذلك أن غرض هؤلاء الاجتماعيين وراء التطوير الاجتماعية في محاولة منهم لتحديد الأنظر الاجتماعية والتفسير البنية التي فرضت هذا الإنتاج، هذا إلى جانب محاولة تصنيف الخلق على أنفسهم باستطام المعايير الاجتماعية التي يحدونها كمعايير للحكم على هذا الإنتاج السبري خاصة - والفني عموما - معا يؤدي إلى صرف التلوق أو التالف بعيدا عن القيم الجمالية التي يتضمنها الإنتاج، مما يؤثر سلبا على أسلوب التناول عند كل منهما، ولا شك أن

التجاذب التناقض المسرحي لهذا النهج في تنقيح وتخلي العمل طبقا لمعايير جديدة سوف يحدد ويضيق الخلق على التنقيح لتحقيق مثبته الحسية في تولفه لهذا العمل، وطوله لا أبعد في النقد السبائي من منطق النقد الماركسي الاجتماعي التحليلي<sup>(٢٤)</sup> سبيلا حتميا لإبراز التناقض الجمالية للمتنقح، وسوف يشحول الأمر إلى نجاح المؤلف فقط في الانتصار الفكر الماركسي اجتماعيا عن طريق القصة التي تلوح بالكيان الاجتماعي للثري<sup>(٢٥)</sup>.

أما فيما يخص بالثقافة الماركسي<sup>(٢٦)</sup>، فبرغم أنه يستخدم منهج التحليل العنقد على محاولة التعرف على السبائي الذي يجمع بين المبدع والمجتمع، فإنه يبين ذلك مدفوع بتحصير في حدود المعايير والقواعد، وهو خطأ كبير يجعل انتصار هذا الاتجاه والمذا - كما حدث مع تين - يحولون «المعايير الواقعية السبائية إلى معايير للتقدير»<sup>(٢٧)</sup>.

إن المجتمع بشكل عام وقضايا الاجتماعية والاقتصادية بشكل خاص هي الأساس الذي يشغل الناقد الماركسي، وعليه نجد أن الاهتمام بهذه القضايا يقل من الاهتمام بإبداعات المؤلف المسرحي، وهو إن وجد كما في **إبداعات إيسن**، فإن **النقد الماركسي السبائي** إن طبق عليه هذا النهج النقدي فإن يبرز التناقض الجمالية في التجربة المبدعة وما يتوجب على تين ينسحب أيضا على الناقد مما كانت يدافع<sup>(٢٨)</sup> التي بركار - مع اعتناك كزاد فريدي - على الفرد في محاولة لتحليل التجربة المسرحية المقدمة من منطق التركيز على نظرية علم النفس، ودراسة العلاقات النفسية بين الشخصيات أكثر من التركيز على التجربة الجمالية، وبذلك هذا يسلمة من مجرد اعتماد الناقد بالتركيز على المضمون بطبيعة الحال بدراسة العلاقات من وجهة نظر نفسية، وإنلخذ على ذلك أمثلة من مسرح شكسبير في مسرحيته «هانلند» أو «ماكبت» أو «هيلن» إذا ما تناولهم الناقد فإنه سوف يركز كثيرا على العلاقة بين هاملت - على سبيل المثال - وامي، أو على العلاقة بين هاملت والشبح، وهنا سوف يتعد كثيرا عن إدراك الجوانب الجمالية في العمل، والتي كان من المتوقع أن يدركها.

إننا باتباعنا هذا المنهج النقدي نفس كمشنوقين أو كتقاد أن العمل الفني المبدع من جانب الكاتب المسرحي على وجه الخصوص والمبدع الفني عموما، في الإمكان أن نتلوه، وأن نسلطه، وأن نطعمه جماليا دون أن نقرب من شطحية الكاتب المبدع، غير أننا لابد وأن نعي أن النقد السبائي يتكفي من منطق وجهة نظر مساندة يهدف التقديرة بالنظر إلى التناقض النفسية أكثر من النظر إلى إدراك الإبداع الجمالي في التجربة الفنية، وهو ما جعل البعض يعطى أن هذه المقاربة - اقتصاد الإنسانية - مدروسة تين - سالت ييف - قد حاولت الانتباه بعيدا عن الفن إلى التاريخ أو علم الاجتماع أو علم النفس.

## ٥ - حركة النقد الجديد

مما لا شك فيه أن القرن العشرين - وبخاصة بعد انقضاؤه - شهد تطوراً ملحوظاً في جميع فروع العلم والمعرفة والحياة بشكل عام، وانعكس بطريقة الحال على الفنون والآداب - موضوع حديثنا - وعلى النقاد والنقد بشكل خاص، إذ لم تعد نجد الكتاب - بل والنقاد المبرمجين أيضاً - الماعين إلى التمسك بتناول الموضوعات التقليدية، مما ترتب عليه وجود الكثير من النقاد الرافضين للاستعانة بمناهج النقد التقليدية القديمة، وهو ما يعني أننا سنواجه بالعديد من الدارس الأدبية التي سبحت عن صيغة نقدية جديدة تواتها.

سمعت حركة النقد الجديد - التي تميزت بقليلة والعمل الجاد في التحليلات - إلى ضرورة الابتعاد عن الإمكان عما تميزت به الدارس القديمة من سيطرة الفكر، فهي ترفض النقد بواسطة القواعد، على اعتبار أنه يعيق حركة الإبداع والنقد، وكذلك رفض النقد الاتباعي الذي يترافق العنان كاملاً للنقاد ليهني بآرائه الشخصية المبنية من ذات نون إنشاعها النظرية الموضوعية، بل هم يسعون - إلى تفسير العمل وإنشاعه - وإذا وجدت عندهم تقديراً فإن ذلك لا يكون عن طريق تطبيق قواعد، إذ إن النقاد الجدد، الذين يعرفون تاريخ النقد، يشكون في القواعد - وهم يكرهون جهدهم لتحليل أعمال متعددة ويهبطون للتفسير بغير من القواعد.<sup>(١٤٩)</sup>

إن النقد الجديد يركز على العمل من الخارج ولا يهين في العمل انعكاساً للمجتمع، ومن ثم فإن النقد أو التنبؤ للموضوع الجمالي في العمل يأتي منفصلاً بحيث لا يفضح كل أعمال النوع النقد أو التقييم، بل يركزون عليهم عامة على قصائد أو روايات متفرقة على حين أن النقد السابق يتجه إلى جمع كل أعمال المؤلف الواحد أو العصر الواحد سواء<sup>(١٥٠)</sup>.

إن النقد - وكذلك السابق - في رأي حركة النقد الجديد اقتراب في وظيفته فيما هو سائد على مساحة الفن والآداب الحالية، بمعنى أنه حدث تغير في مهامه ووظائفه إذ إنه أصبح مطبقاً منه لا يبحث في بواطن العمل وإنما يركز على اللغة وما تحمله اللغة والألفاظ من معاني ودلالات، وهو اتجاه نقدي يسعى بالقياسية structuralisme وسلم - نقد الميثانين بأن القوانين الاجتماعية تترك بصماتها على نفس الفنان، وتحدد الأبنية والرموز، والموضوعات التي قد تكشف عنها هذه النفسية من خلال الأفعال التي تنسجها.<sup>(١٥١)</sup>

إن رولان بارت Roland Barthes رائد النقد الميثاني لتمد من دور اللغة، وكيفية التعامل معها، وهو ما «الحل مساحة من التكرار من دور اللغة، وبالتالي عن العمل الذي أصبح يستمد وجوده الظاهري الآن من اللغة»<sup>(١٥٢)</sup>.

وهو يعني بذلك أننا لابد وأن نحلل العمل دون أن نضع لأنفسنا نظاماً قاسماً مسلفاً. ولكن اللغة بواسطتها الأساس الذي يجعل الكثير من الدلالات والعلامات سوف يعتمد عليها القارئ في تحليل العمل، وهو ما أكد دعوة «بارت» إلى الإضلاع من شأن اللغة.

إن التقدم الذي حدث للغة ولوظيفتها استحضره «بارت» في مجال النقد يطبقه على المسرح. إذ هو يظن أن العمل المسرحي - على سبيل المثال - قد يكون للغة عند التحليل أكثر من معنى. ذلك أن منح العمل معنى معيناً قد يكون مكتوباً وقد يكون صامتاً، وبالتالي يتحتم الفصل بين قراءة العمل ونقده العملية الأولى مباشرة. أما في الثانية فنلعب اللغة - كتابته النافذ - دور الوسيط. ثم - نقد - قراءة - ذلك هي الكمادات الثلاث التي تنسج حول العمل حالة من اللغة<sup>(٣٢)</sup>.

نما سبق نذكر أن حركة النقد الحديث قد شملت النقد البيهوفي، والنقد السيوسويطيفي (السيوسويطوي)<sup>(٣٣)</sup> والفكيكية، ومنقصر حديثاً هذا على البهوية كنظرية أدبية نقدية لمخضت كما ترى د. نهاد صليحة إلى تيارين متمايزين:

١ - التيار الأول، يسمه «الكسوس» وأتباعه «أشمن» في نظره إلى العمل الفني على عنصره الوظيفية والبناء مفصلاً إياهما تفسيراً لغوياً صريحاً.

٢ - التيار الثاني فهو يرى العمل الفني في معناه وأبعده إلى الأساس اللغوية التي تكونه، ولكنه أيضاً يربط هذه الأساس بالواقع الإنساني في إطار تاريخي متغير<sup>(٣٤)</sup>.

نما سبق نذكر أن أصحاب التيار الأول ويتبعون كثيراً من المجتمع الخارجي الذي يعيش بالأجاء المسرحي، ولا يعتقدون أنه تعبير عن المجتمع أو انعكاس له، بل يركزون على العلامة التي يتضمنها النص، ويصنفون بها الكلمة المكتوبة، والدلالة ويصنفون بها مفهوم الكلمة المكتوبة. وهذا مما يشكلان نظاماً من العلامات التي تقيم علاقات متضاربة بين الكلمة وما تشير إليه.

أما التيار الثاني فهو لا يفصل العمل عن المجتمع المحيط به، بل هو ينتج إغرائاً له ويعبئ عنه. مما يفرهم من التمرسة الهرماتويطيفية الأكاديمية، ودراسة النظرية الجمالية في الاستقلال.

ونظرة نستطيع القول إنه على كتاب المسرح طبقاً لمفاهيم هذه التمرسة البهوية أن يفهموا في كثير مما اعتاد عليه الناس في أساليب وطرق كتابة النص المسرحي، نما يترتب عليه إهدات تغيرات في طرق استخدام المؤلف لأدواته في كتابة النص وخاصة فيما يتعلق بمفهوم الكاتب لمذاهب وطرق الكتابة التقليدية التي رفضها النقاد كما اتهم رفضوا فكرة التسجيل الواقعي، التي تفسر أسبقية الموضوع على وجود الكتاب. وما يترتب على هذه الفكرة من صفات الصنل والإنجاس والأمانة التي تنسب عادة إلى الكاتب الجيد. وكذلك هم يتبنون مبادئ الإنجاز، والنخل

## عالم الفكر

الأدبي، ورسالة الكاتب والعمل الفني، ويعتقدون أن الإيمان بهذه المفاهيم يؤدي في النهاية إلى إلغاء النص والقضاء على وجوده الفني الكليته، كما يؤدي إلى انقراض الفن الأدبي أو التضييق بأهم متطلباته ومصادره»<sup>(٢٢)</sup>.

إن هذا التطور الفني حدث في أساليب صياغة النص المسرحي ينسحب بطريقة الحائل على القارئ وكذا الناقد إذ إنهما أصبحا أمام إنتاج يعتمد كثيراً على إفساح المجال لإظهار خبرات وشجرات ليس فقط المؤلف وحده ورؤيته الإبداعية، بل أيضاً المثقفي أو المستقبل للعمل الفني، فلكل ما أشارت إليه د. نهاد صليحة فيما يتعلق بالمدرسة الهرمانيوطيقية، وكذا مدرسة النظرية الجمالية في الاستقبال إذ تؤكد هذه النظرية على نسبية ومعنى قيمة العمل الأدبي، وعلى دور القارئ في صياغته»<sup>(٢٣)</sup>.

ولن ندل ذلك على شيء، فإتباعاً يدل على أن النظريات النقدية في القرن العشرين تركز على دور المثقفي مستبقاً كان أم نادماً في تناول العمل الفني المبدع وهو - أي المثقفي - ضامر على أن يلخص هذا الإبداع ويثبته بناءً على خبراته الشخصية الشخصية، وهو ما يدل على أن الدارس النقدي المعاصرة في القرن العشرين تركز على جانب التدقيق ولا تلتفت، بل إنها تسعى إلى ضرورة أن يعيد كل متقرب تحليل ما هو تحليلاً أدبياً، والأمور كذلك فيما يخص الناقد، فلك أن النقد الجديد يدعو الناقد إلى ضرورة تطبيق العمل المسرحي والحكم عليه اعتماداً على البحث عن المعاني الثقافية من أجل تحديد الأبهة الثلاثة قوة الذين أفعال الواقع المحيط بهم، أي لا يفصلونه عن المجتمع، وعليه نجد أن الناقد البندي قادر على تحليل العمل تحليلاً بدائياً دون أن يعتمد في ذلك على نظام مسبق، بل نجد أن لكل عمل نظمة التضمين فيه، وهو ما جعل البنديين يؤكدون على تعدد المعاني للعمل المبدع، وهو ما أكره د. سامية أسعد بقولها «إن العلاقة بين النقد والعمل علاقة شكل بمعنى لا يمكن أن يزعم الناقد (ترجمة) العمل لأن ما من شيء أوضح منه. كل ما يقدّر عليه هو (إيجاد) معنى معين مشتق من شكل معين (شكل العمل)، وعدد الناقد المعاني، ويطلق لغة ثانية تسمح فوق لغة العمل الأولى، بعبارة أخرى، يبدع الناقد العمل شاملاً في العلامة»<sup>(٢٤)</sup>.



# ملخص

## علم النفس والتحكم:

## نظرة للحرب الباردة

د. عمر خليفة\*



هدفت الدراسة الحالية إلى كشف بعض المفارقات العالمية في تطبيقات علم النفس، ما بين العالم الغربي والعالم العربي، من خلال مفهومي «التحكم بالجمل» و«التحكم بالقطاعي». وحاولت الدراسة تتبع تاريخ علم النفس وتأسيسه في ألمانيا، في ظل علاقة محكمة مع الاستعمار. وأظهرت الدراسة أنه بالإضافة لعمل لايبزج الشهير لعلم النفس تطورت الأبحاث الخاصة بالشعوب البدائية والمتخلفة في المعهد الاستعماري بهامبورج. وبينت الدراسة علاقة علم النفس الوثيقة بالانثروبولوجيا، واستخدام كلا العلمين لخدمة أهداف الامبراطورية الألمانية والبريطانية. وبينت الدراسة أن المساهمة الأكثر فعالية، وأكثر إمبريالية في تطبيقات علم النفس، هي

\* كلية التربية - قسم علم النفس - جامعة البحرين

المساهمة الأمريكية، والتي طورت البحث في علم النفس بصورة خيالية. وتوقع لعلم النفس بأن يلعب دوراً مهماً في الحرب الباردة، خصوصاً بعد إعادة الغرب لنظريته للحرب التقليدية، أو حرب الاقتتال. ولقد تفوق الاتحاد السوفييتي بادره الأمر في أبحاث التحكم، خصوصاً تحسين الدماغ وإعادة تشكيل التفكير، والتي اعتمدت على تجارب بافلوف الفسيولوجية الشهيرة على الكلاب. ولقد أزعج هذا التفوق الهائل علماء النفس في أمريكا، وتبعاً لذلك قامت المخابرات، والرابطة النفسية الأمريكية بمحاولة سد الفجوة الكبيرة بينها وبين الاتحاد السوفييتي في تطبيقات علم النفس. ولقد تم تقديم الدعم السخي لعلماء النفس ليلتحقوا بتطور علم النفس في الاتحاد السوفييتي. ولقدت مجموعة منهم بمسح علم النفس، وزيارة الاتحاد السوفييتي. ومن بين أكثر التطبيقات التي دعمتها وطورتها المخابرات أبحاث تقنيات تحسين الدماغ، واستخدام المقاييس النفسية، والتخويم، وتقليل التحسيس، واشتدت بعدها تطبيقات علم النفس الهائلة في محطات المخابرات، وفي المؤهلات العسكرية، وفي السجن، ورئاسة البوابيس. وكشفت الدراسة عن توظيف علم النفس في إطار العلاقات الإسرائيلية - العربية، وتعمل تلك في الحرب النفسية، وفي الدبلوماسية، وفي المفاوضات، واستغلال الجمعيات السيكولوجية العالمية، وفي صوغ مفهوم سيكولوجي مفارق للإرهاب، يستخدم بفعالية في أعمال الردع ضد العرب. وتناولت الدراسة في الجزء الأخير تطبيقات علم النفس بالقطاعي أو بالإنجاز في العالم العربي. وتم طرح بعض التساؤلات المهمة عن ما هي علم النفس، وما هي الاستجابة المناسبة لتطبيقات الآخرين له بالجملة. وخلفت الدراسة إلى أهمية فهم واستيعاب علم النفس المعاصر، وتفسير الروح الطلاقة والفعالية فيه من قبل علماء النفس العرب، ومن قبل الاستخطاطيين، لأن السلاح النفسي الآن يعتبر من أهم الأسلحة الاستراتيجية في العالم.

## مقدمة

في محاضرة أقيمتها في جامعة العلوم والتكنولوجيا بالآردن، ضمن فعاليات الفائزين بمؤتمر  
عبد الحميد شومان للباحثين العرب الشباب لعام 1996، تحدثت عن تاريخ علم النفس وعلاقته  
بالاستعمار، والأمبريالية، والمظاهرات كمنهجية أساسية للمعاصرة. وقد تم توجيه الدعوة إلى نخبة  
من علماء النفس في الآردن لم حضور هذه المحاضرة. وكان رئيس الجلسة ومقدمي في المحاضرة  
هو د. عبد الرحمن عيسى، أحد كبار علماء النفس في العالم العربي، والقوم شخصياً بكتيس كتيه  
لطلابي في علم النفس بالجامعة. وقد قرأ عبد الرحمن عيسى ورقة التوسمة «مازق علم النفس  
في العالم العربي» قبل المحاضرة، وقد عني لهذه النخبة المتفارة من علماء النفس بالآردن بنبذة  
بين عتدي خاضية لئلا «إذا جاز لي في مجلة بسيطة، المتكثف يرى أن علم النفس في العالم  
العربي في مازق، فهو خرج عن الأصول وأقيم بالمتكثف». ولقد فهمت من قول عيسى أن الحديث  
عن الاستعمار، والأمبريالية، والمظاهرات، وعلاقة ذلك بعلم النفس أنه من المتكثف. والمسؤال الذي  
تأمر إلى ذهني منذ تلك المتكثفة وإلى الآن هو: أين المتكثف في علم النفس؟ أم هو الاكتفاء، بكتابة  
«مداخل إلى علم النفس» والحديث المتكثف لدرجة الترتابة، واللق، والسمام، والتشهير في هذه  
«المداخل» والمقدمات، والآنس، عن ما هية علم النفس، والآنس البيولوجية للمتكثف. وعلم  
النفس التطوري، وطبيعة التعلم، والتفكير والضمائر، والإبرك، والدافعية، والتفكير واللغة، والذكاء،  
والقدرات الخاصة، والشخصية، وفهم النفس أو الذات، وعلم النفس الاجتماعي، والعلاج النفسي،  
في نظيري، أن المتكثف المتكثف لعلم النفس سيهيء بالنسبة لتطور العلم والنظرة الاستراتيجية  
لتطبيقاته.

قد يرفض بعض علماء النفس العرب قليل الفكرة الطاقة بالتنازع بين الاستعمار وعلم النفس،  
وبين الأمبريالية وعلم النفس، وبين المظاهرات وعلم النفس. ولكن مهما كان أرفض فهناك علاقات  
شائكة التداخل، ومعقدة التفاعل بين هذه الطوى. إذ تحتاج هذه العلاقات لقراءة خاصة وناقدة  
لتكشف العصاب، ولتضمن أو لتعزیز بعض من التكريرات لأخذ الفروص والتعبير منها. ويمكن القول  
إن روح الاستعمار والأمبريالية قد سرت في أرومة وشرابين علم النفس، وأن عطية وعطلة علم  
النفس تقلد من خلفها التمايزات بدعائها المنفي لتطور مفاهيمه، ونظرياته، ومناهجه، ونقائله.  
فيأثرى، متى حصل علماء النفس العرب إلى تلك النقطة المتعدة التي يعلون فيها سوء استخدام

علمهم بواسطة وفائهم من علماء النفس في جزء آخر من العالم والسؤال المثير هو كيف تقرأ وتدرس ويبحث في علم النفس دون الإحساس بهذه المصيرفة مع العلم بأن الإحساس باب مهم من ابواب علم النفس العلماء وإنه الأمر عجيب إذ إن كبرياء بعض علماء النفس العرب لا تود أن تخرج علم النفس الغربي مع أن اسكتز نفسه غير عن تجميع علم النفس لعربية وكرامة الإنسان وحسب تعبيرة «إن الناس قد تم التلاعب بهم» ويعترف عالم الإنسان «الينوسكي» خلال وبعد عشرين عاماً من العمل الاثنويولوجي وجد نفسه كما كانت في موقفها الخاص بمحاولة دراسة الإنسان بطريقة نسي للإنسان تخرج إنسانيته تماماً كما جرحت الفيزياء والكيمياء والطبوعات الطبيعية في السنوات السابقة (تكرت - ١٩٩٠). إن المحاولة الهروبية لدفن الرؤوس في الرمال لعدم المواجهة أو النظرة البعيدة البعيدة للتطبيقات علم النفس والفنول بأنه علم طاهر، وعطيل، وثقي وثقي هي من العوامل التي حورت علم النفس في العالم العربي لكي يكون «بلا لون» وبلا رائحة وبلا طعم.

يعتقد البحث الحالي على أن نظرة (الفاكس في وأند) على أهم جوانب التطبيقات العالمية لعلم النفس وطورها هو الفارقة بين عملية التطبيق بالجملة والتطبيق القطاعي. وتعني العملية الأولى الاستخدام الأكبر لعلم النفس في السياسة الدولية، وبخصوصاً في العرب البارزة وبمعدن التحكم، واستخدامه في المظاهرات بصورة طغية ومستوردة، بينما تعني الثانية الاستخدام الأصغر لعلم النفس في المجال التربوي، والعلاجي، والهنسي. وتبعاً لهذا التعريف يبدو أن علماء النفس في الغرب في حالة من الاستعداد الهنسي لتطبيق علم النفس بفعالية بالجملة (الفاكس)، وبالقطاعي (الفاكس) على السواء. ويعتبر آخر استخدام مزيج يقوم بكلتا الدورين أو يلعب على الحبلين بصورة واعية ومهذبة، لذلك كانت نتائج علم النفس في الغرب أكثر من طموحاته لأنه يقوم بأداء كل من «الفراتس» وال«فراول» بجدة وبالفنول، ربما يمكن القول إن هناك عدم نهية نفسية لعلماء النفس في العالم العربي لتطبيق علم النفس بفعالية حتى على مستوى القطاعي (الفاكس). بمعنى آخر، يقوم علم النفس بأداء حتى «الفراول» بوجهها الأكمل. ونتيجة لعدم التهيئة النفسية هذه لم ينتج علم النفس في العالم العربي في تطبيق طموحاته المذكورة في مقدمات كثيرة وهي: الفهم، والتفكير، والتحكم. وجانب ثان من جوانب الفارقة هو محاولة علماء النفس العرب شريطة علم النفس داخل قوقعة صغيرة لا تسمح ولا تغني من بؤس، وهذه الشريطة جعلت علماء النفس العرب

وتعترضون أكثر من أي مجموعة أخرى من علماء النفس في العالم لعملية تسجيل الدماغ بعلم النفس نفسه، مما عزز زيادة التهميش وتعميق الهزائم النفسية في العالم العربي. ومن جهة أخرى، ساعدت هذه الرؤية الضيقة والتقليدية لعلم النفس على حصول انتصارات لتسليح قوى تعرف كيف تطبق علم النفس بصورة فائقة الفاعلة. وجانب ثالث من جوانب المفارقة هو مساعدة علماء النفس في الغرب من الالتزام بالمعايير الأخلاقية لتطبيقات علم النفس. وثبتا لذلك يتم تطبيقه في كثير من الأحيان بصورة «إجرامية»، وإسماح علماء النفس العرب بمراقبة هذه المعايير، وتطبيق علم النفس بصورة «ميسية». وفي هذا الجانب اقتبس ما عبر عنه أسكنر بقوله: «إن تكنولوجيا السلوك تعتبر من الناحية الأخلاقية محايدة، ويمكن استغلالها من جانب الشريرين أو الطيبين». وبكلمات أخرى، إن رؤية الشفقة والرحمة لدى علماء النفس العرب تعاقبها في أحيان كثيرة رؤية القسوة والعدوانية عند علماء النفس في الغرب. ولكي نفهم طبيعة العلاقة بين التطبيق بالمجمل، والتطبيق بالمفاهيم، هناك أهمية لتتبع تاريخ علم النفس الشرابي بجنونه العميقة في الاستعمار، خصوصاً ارتباطه بالأمريكان بين «الإنجليزية» وال«بريطانية». ويحدث البحث على النظرة الغائلة إن مفاهيم ونظريات ومفاهيم علم النفس بأنه «أوروبي» في صلبه عن أسلاف غائلة في الاستعمار، ولغة إنجليزية. إن زعماء علم النفس المعاصرة تلقف على جنود شجرة عميقة في الأمريكالية. وهناك أهمية بأن نعرض طبيعة الخلف بين علم النفس وعلم الإنسان وتطبيقاتهما للتحكم والسيطرة، وزيادة قبضة الغرب على القارِب. إن هذا التهاويل مساعد على تعزيز تطبيقات علم النفس بصورة مبرمجة واستراتيجية لكي ما يستعمروا ويأسروا بصورة غائلة. لذلك لابد من سبر هذه الأنوار الاستعمارية، والجنود الأمريكالية لعلم النفس. أولاً، بوسعنا القول إنه من دون قراءة عميقة لغائصة في تاريخ علم النفس وتأسيسه «البحث» في المآل، وتأسيسه «التطبيقي» في بريطانيا، ونظرة «النظري الكلاسيكي» في روسيا، وأرقائه «الأمريكي» لغة إنجلترا في أمريكا، سوف لفشل في تحديد علاقة علم النفس الاستراتيجي بالحرب الباردة، وهو هدف مركزي للدراسة الحالية. وثانياً، بوسعنا القول كذلك، إنه من غير قراءة ذكية لأبحاث تسجيل الدماغ والقياس النفسي، والتقديم الفعائلي، وثقافة التجسس، ومعرفة القوة الشفوية وراء تحويل هذه الأبحاث، سوف نفشل في فك شفرة من شفراته علم النفس في استعمارية المستور في الحاضر. وثالثاً، بوسعنا القول كذلك إنه من غير قراءة موسوعية لمعرفة دور علم النفس في إطار

الملاحظات العربية الإسرائيلية من خلال كيفية صياغة الحرب النفسية، وتنظيم العمليات الإرهابية، واستغلال الجمعيات العرقية السيكولوجية، معوق فاشل في وهي أو تشخيص بعض أسباب التوتر النفسية أمام إسرائيل. وبإضافة، يوسع القول إنه من غير قراءة دقيقة لأهداف علم النفس، كما هي في كتب الفلسفة، والسياسة، والمبادئ، والعلوم، سوف فاشل في تحديد ما المقصود بـ «التحكم بالقطار»، وهو هدف مركزي للدراسة الحالية.

## علم النفس والاستعمار

يعتبر فونت الأعلى مقاماً في تاريخ علم النفس، وهو أول شخص من غير نمط، يمكن أن يترك عليه «علم نفس» فقد قام بإنشاء أول معمل لعلم النفس في جامعة أليزاج عام ١٨٧٩ وهو العام الذي يترك فيه لاستقلال علم النفس عن الفلسفة. وكتب فونت في بداية اهتماماته «علم النفس التجريبي» ومن ثم «علم النفس الاجتماعي» و«الطبيعة العلمية». ولقد أكد فونت أن العمليات العقلية العليا إنما تدرس من طريق دراسة الإنسان الطبيعي من طريق علم النفس الشعبي (بيرنج، ١٩١٧). والنتيجة كانت كتاب في التنشيط الأخيرة في حياته مجالات عدة من علم النفس الشعبي أو الفلكلوري. ويذكر فونت أن العمليات النفسية الفردية يمكن دراستها في المعمل، بينما التصالح الثقافية لا يمكن أن تدرس في المعمل (كيم ويرلي، ١٩٩٢). وتبعاً لذلك فقد انبثق فونت أن المنهج التجريبي في علم النفس مناسب لبحث العمليات العقلية الأساسية، ولكنه غير مناسب لدراسة الظواهر التي تنتشر بالثقافة (يرلي، ١٩٩٢) ولقد بين بذلك أوجه قصور المنهج التجريبي (دانتز، ١٩٨٢). ومن ثم أشار إلى أن التفكير يتأثر بصورة كبيرة بوسائل اللغة، والمعادن، والأساطير، وهي مجالات لعلم النفس الثقافي أو الفلكلوري (دانتز، ١٩٩٢). في أثناء الحرب العالمية الأولى قال فونت إن العقل الجمعي في ألمانيا هو أرفع مقاماً من العقل الجمعي للأعداء. ويؤكد المجتمع الألماني على البطولة، والواجبات، والمثل الروحية (كيتلر، ١٩٨٧) من ناحية تاريخية، فقد ارتبط إنشاء علم النفس الشعبي، أو علم النفس الفلكلوري، لدراسة المجتمعات البدائية ارتباطاً وثيقاً بإنشاء الأنثروبولوجيا.

عرفت الأنثروبولوجيا عام ١٨٦٠ تقريباً فترة جديدة، تعتبر في الواقع بداية العلم (كيتلر، ١٩٩٠). فبين عامي ١٨٦٠ - ١٨٨٠ ظهرت معظم مؤلفات الدراسة التطورية، ومنها محق الأسماء لباخ أو زن، والقانون القديم، الذين عام ١٨٦١، كما ظهر عام ١٨٦٥ كتاب تيلور بعنوان «أبحاث

في التاريخ المبكر للجنس البشري» أتبعه عام ١٨٧٦ بكتابه «الجنس البشري» هذا إلى جانب كتاب مورغان عن نظم القرابة، عام ١٨٧٩ وكتابه عن «الجنس القديم» عام ١٨٧٧. وعلم الإنسان على حسب قول إدوارد سعيد، (١٩٩٧) هو أكثر العلوم الاجتماعية تواجها بالاستعمار. إذ كثيرا ما قدم علماء الإنسان والأصول العرقية المشورة والنصح للحكام الاستعماريين حول عادات الشعوب الأصلية وأعرافها ومساكنها. ونسبي مجموعة المقالات المتنازعة التي غرورها خلال أسد عام ١٩٧٢ وعنوانها «علم الإنسان والواجبة الاستعمارية». البعثات إلى ما هو أبعد من ذلك. ويحدث معظم منظر علمي الاستعمارية عن «عصر الامبراطورية» بوصفه يبدأ رسميا حوالي عام ١٨٧٥، مع «الترانسم بالكتيب لاشكالا إفريقيا». ولزهر علم الاجتماع (بالهام من لو بوز)، وعلم النفس (الذي يشبه البيونيد دو سوسور)، والتاريخ، وعلم الإنسان طبعاً. في العقود التالية لعام ١٨٨٠، وتوج العديد منها بمؤتمرات استعمارية عالمية (١٨٨٩، ١٩٠١، إلخ) أو مجامعات مستعدة (كالتقارير العالمي لعلم الاجتماع الاستعماري عام ١٨٩٠، ومؤتمر علوم الأعراق الوصفية في باريس عام ١٩٠٢).

وفي ألمانيا، تمت دراسة علم النفس الناجم والذي يخلط مع التنازع الاستعمارية مباشرة بعد استقلال علم النفس عن الفلسفة عام ١٨٧٩. ولقد ركزت بعض الأبحاث النفسية المبكرة على توظيف الامبراطورية الألمانية لعلم النفس، وخاصة علم نفس الأعراق البشرية (بروست، ١٩٩٦). وعندما انتقلت سياسة لغاتها في المستعمرات، حاول السكوتير الاستعماري للدولة إحداث إصلاح من خلال استخدام وسائل محافظة أكثر من الوسائل المصروفة (فرونر، ١٩٨٤). ونسباً لذلك تم اعتبار العلوم، وخاصة علم النفس، أدوات صالحة للتحكم «لا يستطيع الفرد عمل أي شيء» من غير أن يفرض خصوصية اللغات في المستعمرات. أو يفرض نفسية السكان المحليين (ديرنيرج، ١٩٩٢). وقد أريد لعلم نفس أعراق الشعوب أن يكون جزءاً من مناهج العهد الاستعماري في هامبورج الذي تم تأسيسه عام ١٩٠٨، والذي يقوم بتدريب رجال الخدمة المدنية ورجال الأعمال الذين يعملون في المستعمرات (هامشون، ١٩١١). واستخدم مفهوم «علم النفس الشخصي» وعلم نفس الأعراق البشرية، تكراراً ومراراً في هذه الفترة الزمنية، ومجال اعتماد هذين العلمين هو «علم النفس» وعلم الأعراق. وكلاهما تأسس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وهي فترة متزامنة مع بداية الاستعمار. وهناك عالمان ساهما مساهمة كبيرة في تطوير علم الأعراق

البشرية هما: لغوت وثورتيك. واعتبرت مساهمة لغوت في علم نفس الأعراق تمثل خلقة معرفية مهمة تساعد رجال الخدمة المدنية في فهم أفضل لثقافة السكان المحليين في المستعمرات. أما علم نفس الأعراق البشرية الذي أسسه ثورتيك فإنه يهتم بدراسة العلاقات الوظيفية بين الفرد وإطاره الثقافي الاجتماعي. واعتمد ذلك العلم على منهج الملاحظة والملاحظات التي أجريت في الثقافات الأجنبية (المستعمرات). وتبعاً لذلك فقد تم تطوير مجموعة كبيرة من المفاهيم النفسية في معهد برلين لعلم النفس التطبيقي لاستخدامها في دراسة الشعوب البدائية.

ولقد صمم مشروع دراسة الشعوب البدائية أساساً لافراض البحث الذي يقوم بها التكتلون في المستعمرات. وكذلك بالنسبة للمبشرين والعلمين ورجال الخدمة المدنية والأطباء الذين يعملون في المستعمرات. وشغل مفاهيم الشعوب البدائية مجالات واسعة من الوظائف السيكولوجية مثل الإثراء، والثقة، والمعتقدات الاجتماعية، والقيم والميول. وتبعاً لذلك فقد تم تعريف علم النفس كأداة فعالة لتوظيف طاقة العمال في المستعمرات. **وقد** **فكك** **التوظيف** **إلى** **الاستفادة** **من** **قوة** **كل** **فرد** **بشري** **حسب** **قدرته**، **وهو** **في** **المنهجية** **التي** **أعطتها** **الاستخدام** **الأوروبي** **من** **خلال** **التحكم** **في** **عمليات** **السكان** **المحليين** **في** **المستعمرات** **(موريسون، ١٩٩٠)**، **وبصورة** **السكان** **المحليين** **في** **الخيال** **الغربي** **في** **صورة** **الإنسان** **التكسول** **الذي** **يحتاج** **لعقلية** **تعزيز** **كبير** **لتفسير** **طاقته** **العضلية**، **وتعتبر** **دراسة** **(المعطاس ١٩٧٧)، (إسميد ١٩٧٧)** **للمشاركة** **من** **«أسطورة** **الأسلاني** **التكسول**، **وهي** **دراسة** **لصورة** **الماليزيين، والفلبينيين، والجاويين** **من** **القرن** **السادس** **حتى** **إلى** **القرن** **العشرين** **ووظيفتها** **في** **عقائد** **الراسمالية** **الاستعمارية**، **وهي** **تغير** **من** **صورة** **الإنسان** **في** **الخيال** **الغربي**.

ويمكن أي عالم نفس أن يلاحظ الآن أن هناك علمين للنفس في ألمانيا انعكسا في مصطلحين: «معدل حديث» انشئ في أيارج عام ١٨٨٩ في السنة التي استقل فيها علم النفس عن الطبقة واختص هذا العمل بالمساهمة الأولى لغوت في علم النفس التجريبي أو علم النفس البحت. وأرجو ألا يفهم بشكل خاطئ، إذا قلت إن هذا العمل مرتبط بالإنسان الغربي أو الإنسان في أوروبا أو الإنسان «المختصر» وربما ينبغي علي أن أضيف أن هناك محلاً آخر لعلم النفس الشعبي، أو علم الفلكلوري، أو علم نفس أعراق الشعوب وكان في العهد الاستعماري في هابسبورج الذي انشئ عام ١٩٠٨ واختص بالمساهمة الأخيرة لغوت في علم النفس الشعبي، التي



تم تطبيقها بفعالية لخدمة الأهداف الاستعمارية. واخضع هذا المعهد بالشعوب، «البدائية، في المجتمعات غير الغربية، وساعدهم علم النفس مساهمة كبيرة في إشغال وقود الاستعمار والامبريالية، أو «الغالب المتفكك» كما يهر إدوارد سعيد. ويقيم من ذلك بأن علم النفس كانت بواعثه الاستعمارية منذ مرحلة تاريخية مبكرة. ويمكن التساؤل، هل مهد علم النفس لتقديم الاستعمار؟ أم إن الاستعمار مهد لتقديم علم النفس؟ فما شئ أهما السبب وأهما العرض؟

وربما كان من الأنسب القول إن الذات كـمؤسس لعلم النفس «البحث» أو «التجريبي» لعبت دورها الريادي في سياسة ارتباط علم النفس بالاستعمار. لأن علم النفس تم اعتباره «أداة صالحة للتحكم» حسب تعبير ديرنيرج-وان برطانيا، كمؤسس لعلم النفس الفارق أو التشطبي. لعبت دورها الريادي كقوة عقلية في سياسة تطبيق علم النفس في المستعمرات التي لا تغيب عنها الشمس. ويتجلى هذا الدور من خلال إسهامات معهد باغلة كيمبرج الذي قام علماء النفس فيه بإجراء القياسات، وتسجيل الملاحظات «السيكولوجية عن الشعوب البدائية» وكذلك من خلال المعهد الأفريقي العالي، والذي كان قائمًا بالتوسع بالنسبة للأفريقيين البريطانيين في المستعمرات. كما يمكن الإشارة بصورة نهائية إلى أن بعض علماء النفس هم باحثون واستعماريون، أو علماء وامبريالون. وقد يصعب في هذه الحالة الفصل بين التوظيفين. وثمة إدوارد (1944) قام عالمين عالم الإنسان بجامعة كيمبرج، بوضع خطة لعملية أنثروبولوجية واشترك معه فيها علماء النفس ميرز وماكنوجال لعمل بعض القياسات الأنثروبولوجية والسيكولوجية، والملاحظات عن الشعوب البدائية، وبالفعل قاما بقياس الحواس والإدراك، وكانا على وعي بأنهما يؤيدان عملاً أكثر كدالاً مما قام به جالتون. وشارك علماء النفس في بريطانيا وفعالية، كعلماء نفس في الحرب العالمية الثانية، وكان معهد علم النفس في جامعة كيمبرج رائداً في ذلك، ولأنهما من خلال التقارير التي التحصى والتي تم إصدارها ونشرها.

إن الحملة الاستكشافية التي قامت بها جامعة كيمبرج إلى منطقة توريس استريتز (ريفرنز، 1941) تعتبر من ناحية تاريخية واحدة من المحاولات غير الثقافية المبكرة. وكان هدفها جمع معلومات، منطقة عن ثقافة غير غربية، ومقارنة هذه المعلومات بالمعلومات الموجودة لوضوحات هذه. ولم يسبق لها أن تم تماثلها من وجهة نظر علم النفس غير الثقافي. ولقد تضمنت هذه الحملة بعض الأسماء والتي أصبحت فيما بعد مثارا للثقافة السيكلولوجي مثل: ريفرز، وسيلفمان.

وبيرز- وماكوجال، ولقد درس كل من ريفز وسلولمان الطداع البصري عن طريق تطبيق الطداع الأتقي - الراسي، وطداع ملار لاير. ولم يكن لدى الباحثين أي فكرة عما إذا كانت الطداعات البصرية التي توجد عند السكان في الغرب لها وجود عند السكان المحليين في الأماكن الثانية من العالم. ومدى قوتها في حالة وجودها. ولقد اقترح ريفز بخصوص نتائج الطداع البصري، أن استجابة الأفراد في الغرب للأشكال نظرة كلية، بينما يركز الأفراد في الأماكن الثانية على الالتقاء كعامل مهم. ولقد حدد ريفز (١٩٠٩) أبحاثه عن الطداع للسكان «النداس» الذين يستكنون في جنوب الهند. وأظهرت نتائج دراسته أن النداس كانوا أكثر عرضة للطداع من الرجال الأجانب، والنداس، والأطفال. ولأن الأحوال الفسيولوجية، وآثار الخبرات في الحياة المقصورة أظهرت أن الطيرت المشددة من دراسة الأشكال الهندسية والرسومات تؤثر على تقليل وإضعاف الطداع (بيرغوسكي، ١٩٤٠). ويمكن القول إن هذه الملاحظات التي انطلقت من جامعة كيمبريدج كانت تقدم بعض الأهداف الاستعمارية. ويمكن أن نفهم المركزية العرقية البريطانية من خلال تعبير مثل «الأماكن الثانية»، أي غالبية من الحركة البريطانية، وأن نفهم النظرة الاستعمارية في صلوة «تأكل المعلومات في الغرب» وفي غير الغرب، أو كان من بين أهداف الدراسة معرفة قوة الطداعات في هذه المجتمعات. وربما كانت هناك أهداف خفية لغير الأهداف العلمية في معرفة نقاط الضعف في هذه المجتمعات، لأنها مجتمعات لنظر بصورة تجزئية للمؤسسات بينما ينظر الأفراد في بريطانيا بصورة كلية. إن النتائج التي تم التوصل إليها هي أن الأفراد في الأماكن الثانية، أكثر عرضة للطداعات. وعلى الرغم من أن تعبير طداع يقصد به من ناحية سيكولوجية بمعنى «الطداع البصري» في رؤية الأشياء، لكن ربما يمكن لهذا التعبير بصورة أخرى، أي إحكام عملية السيطرة على المجتمعات عن طريق طداعها.

لقد تأسس علم النفس في بريطانيا بصورة تطبيقية من خلال إسهام فرنسيس جالتون خلافا لتأسيسه في ألمانيا بصورة بحثية من خلال إسهام فونت. وكان علم النفس التطبيقي على علاقة وثيقة بالانثروبولوجيا والشارع البريطانية الاستعمارية. ويعتبر المعهد الأتريفي العالي، الذي أسس عام ١٩٢٦، من أنشطة الأجهزة وأكثرها أهمية من بين الأجهزة العالمية - الإدارية التي تأسست أثناء قيام الانثروبولوجيا التطبيقية. ولقد جاء في بيان المعهد التأسيسي أن أهم أهدافه «القيام بقرب كامل بين المعرفة والبحث العلمي من جهة، وبين الأمور التطبيقية من جهة ثانية. تم

بدأت قطاعات استعمارية جديدة بتدورها الأقسام بالأنثروبولوجيا، ففي عام ١٩١١ أنشئ المجلس البريطاني للبحث الاجتماعي في شؤون المستعمرات. وعهد إليه إسداء النصائح إلى منكرات الدولة في المستعمرات بخصوص «المسائل التي تتعلق بالعلوم الإنسانية» وتكون في خدمة النظرية الاستعمارية. (لكنز، ١٩٩٠).

لا نكاد نغف عن الدراسات التي يطلق عليها الغرب «العلوم الاجتماعية»، تلوح من العصر لقرن من الزمان، وتشمل تلك العلوم في معظم الجامعات خمسة فروع تشمل في علم الاجتماع، وعلم الإنسان، وعلم النفس، والعلوم السياسية، وعلم الاقتصاد، والتاريخ، ويوجد فرعان اخران من الدراسة يشتملان بصورة مزدوجة هما: الجغرافيا وعلم النفس، فعين يعني علم النفس بدراسة الأشخاص يتم تصنيفه ضمن العلوم الطبيعية، ولكنه إذا عني بدراسة الجماعة يصبح حينئذ علما اجتماعيا (الفاروقي، ١٩٧٩). وعندما تأسست العلوم الاجتماعية في القرن التاسع عشر، كانت عبارة عن دراسات توجد في دول قليلة، وهي بالتحديد: بريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، وإيطاليا، والولايات المتحدة، وأن ظهر هذه العلوم وصورة خاصة الفروع، والاقتصاد، والعلوم السياسية، وعلم الاجتماع، كانت أهميتها بصورة أساسية بالمتعلقة بالتجربة أثناء الدول الخمس، وبصورة أكبر كانت تهتم بالغرب. وفي تلك الوقت اتجه علماء العلوم الاجتماعية إلى أن «الغرب» ليس هو الكلية في العالم، وانتهوا إلى أن «الغرب» هو «اللاحيث»، ولذلك فهو مختلف بصورة جذرية عن الغرب. ولقد طرح حينها السؤال، كيف تتم دراسة «الغرب» والإجابة عن هذا السؤال لقد تم تأسيس علوم خاصة، وهي «علم الإنسان» لدراسة الشعوب الدعوة بالجناتية، والاشتراكية. لدراسة الدعوة بالمحضارات العليا، مثل الصين والهند والعالم العربي (ولرمستون، ١٩٩٧).

ولا ينبغي أن ننسى، عملية الإزالة، إذ إن معظم العلوم الاجتماعية هي انعكاس للمنطقة الاجتماعية والثقافية في الدول الغربية التي أنتجتها (الوارد سعيد، ١٩٩١، اسماعيل الفاروقي، ١٩٧٩، علي ميزوهي، ١٩٧٨، عمر الخليفة، وإسلام هشورقة، ١٩٩٠). ولقد تأسست الأنثروبولوجيا والاشتراكية لدراسة المجتمعات غير الغربية (لكنز، ١٩٩٠، ولرمستون، ١٩٩٧)، والتي من بينها العالم العربي (العياشي، ١٩٨٧). ولقد تأسس هذان العلمان على علاقة وثيقة مع الاستعمار والأمبريالية، وانتهاء الاشتراكية، وتحويل حضارات الشرق من موضوع إلى ذات، وتصحيح الأحكام التي قلها الوعي الأوروبي، وهو في مغفولته عن حضارات الشرق.

فالأستشراف يكشف عن طبيعة العقلية الأوروبية ونظرتها إلى الآخر أكثر مما يكشف عن الموضوع المدروس. فهو موضوع دراسة وليس دراسة موضوع (حسن حليفي: ١٩٩٨) وهو يعبر عن مصالح الغرب وروايته لمجتمع الشرق أكثر مما يكشف الحقيقة الاجتماعية والثقافية والسيكولوجية في الشرق. كما يعكس صورة الشرق في ذهن الغرب.

ويون إدوارد سعيد: في دراسته الشاملة حول الأستشراف، يوضح أن الشرق كما يعرفه الاستشراق هو اختراع أوروبي، فهو لا يتكلم عن نفسه بل يسم الكلام حوله بالقبالة عنه وليس بموجب الواقع بل بموجب مصالح الغرب ورفائله في تسويق سياسته الاستعمارية. لذلك جاء الأستشراف في جوهره معارضة في السيطرة، ورواية سياسية تصير على التفوق الغربي (حليم بيركات: ١٩٩٨). يقول كمال أبو ديب في مقدمته لكتاب الأستشراف لآلوارد سعيد (١٩٩١): إن الكتاب يمثل ثورة جديدة في الدراسات الإنسانية وتتكشف في هذه الثورة منطلقات متعددة، لعل أهمها تكوّن مفهوم جديد للثقافة والشبكة الخفية من علاقات القوة التي تنسجها المعرفة متحيزة في الإنشاء الكتابي، وفهمهم سياست العلاقات الاجتماعية بكل أشكالها وسياسة المعرفة وسياسة البحث... وينصب هذا التحويل للمعرفة على الآن على روح الثقافة الغربية، وكشف آلية السلطة والسيطرة والقوة والتلاعب المتمكن فيها.

<http://Archevbeta.8>

أما بالنسبة لعلم الإنسان، فقد ركزت التحليلات النقدية المبكرة كالأبحاث التي اعتمدت بالخطاب المستعمل في الأنثروبولوجيا والتاريخ واللاهوت العربية المتصلة بهما، على موضوعات عامة كالعلاقة مثلا بين السيطرة الاستعمارية أو الهيمنة السياسية، وشكل المجتمعات الهمجية (ليكلمان: ١٩٩٠). ولقد كان علم الإنسان وهو أكثر العلوم جرأة نظرا لأن موضوع دراسته - وهو المجتمعات البدائية المفتحة للعالم غير الغربي - كان حقلية جامدة، غير قادرة على رفع إصبع واحد بالانتقاد لاساقنتها. ولقد لم تكوين النظرة ثم الأخرى لوجد صداقة تلك الحقائق التي كشفت لهم جزئا لا يتجزأ من الرأي الغربي عن العالم (الغاروني: ١٩٧٩).

يقول لكرار (١٩٩٠): إن مجال علم الإنسان ظل، وكما هو معروف إلى الآن، محصورا بماضي المجتمعات التي أطلق عليها المجتمعات «التيوتشات» أو «البدائية» أو «التقليدية» أو «غير الغربية» أو «العالم الثالث». ولقد وصفت المجتمعات بتلك الأوصاف لأنها ببساطة كانت صالحة للخطوع لسيطرة الإنسان.

## عالم الفكر

وفي علم النفس المعاصر كثيراً ما تستخدم مصطلحات «التكافؤ» و«الثقافة» و«التشكيل الثقافي» سواء في علم النفس عبر الثقافي، أو علم النفس الاجتماعي، أو في الفلاس النفسي. وترتبط التجديد التاريخي لهذه المصطلحات بالفترة الاستعمارية. لقد ظهرت كلمة «التكافؤ» عام ١٩٨٠ على أيدي الأنثروبولوجيين الأمريكيين، أي في لغة سيطرة الغرب. ويشير المفهوم إلى انتقال مؤسسات أو ممارسات أو عتائق ثقافية ما (أو محتجج) إلى أخرى. ولخص هذا المعنى التجديد والعلم يخلي. المعنى الحقيقي، الذي ليس شيئاً آخر سوى الاستعمار. وكل الدراسات المنخفضة بالتكافؤ أصبحت سوى دراسات لبعض مظاهر الاستعمار. وتعني في الواقع دراسة الاحتكاك الثقافي الغربي بسلطان الثقافات. إن مجال مفهوم التكافؤ مساو تماماً، بل يتطابق كلياً مع مجال مفهوم الاستعمار. لقد لاحظ سوسنبر في كتابه «علم نفس الاستعمار» وثقافة نظره أن سياسة التعامل إنما تستند إلى مبادئ التطورية الخطية فهو يقول: «نقوم سياسة التعامل على حجب مغرية، ولكن معنى فليسكن من من تحقيق التماثل مع أعراف تختلف عن المرافقة، علينا أن نكون مقتنعين بملكية تلك الأعراف التماثل. أي أننا لا نستطيع بالوحدة التكوينية للطبيعة الإنسانية». واعتبر مؤسسور الطبيعة الإنسانية التكوينية خطأ تماماً، بل هي الخطأ التطوري الوحيد عدداً من التشبهات الشهيرة (نكراد: ١٩٩٠) <http://Archivebeta.Sakshi>

إن العلوم الاجتماعية مثل أداة فعالة في تحقيق السيطرة على الإنسان والمجتمع. ولقد كانت التحيزات ووجهات النظر السياسية التي صاغتها، وتمكنت بها لتأليب وسائل الإعلام. على قدر بالغ من الأهمية في ذلك كله. وفي الغرب، كانت تعقيلات العالم العربي ولا تزال منذ حرب عام ١٩٦٧ غلة، وفلسطينية، وعراقية، عصرية، كما أثبت البحث النقدي في أوروبا والولايات المتحدة بما لا يترك مجالاً للتريب. لكن رغم ذلك، نستمر في التعلق بالأفلام والعروض التلفزيونية التي تصور العرب «راكبي جمال، دينيين، وإرهابيين» وشيوعا، أثرياء إلى درجة تغير الاستعراق. فعلى مدى عقود عديدة، لا تزال تلحن في أمريكا حرب ثقافية ضد العرب والإسلام، وتروي الشفوفات، الساعرة (الكاذبة) العصرية المروعة للعرب والمسلمين، وبهم جميعاً إما إرهابيين أو شيوعا. نط. وإن المنطقة خراب فاحل شاحح لا يصلاح شيء، إلا لجني الأرباح أو الحرب (مسعود: ١٩٩٧). إن للثقافة أو التكافؤ ترتبط بالتجديد التاريخية للتأسيس علم الإنسان وعلم النفس. ولتعزيز هذه الثقافة التي تمثل وترسم صورة الآخرين بتفسير المفاهيم والمفاهيم والنظريات الخاصة بهذه

العلوم. إن استيراد علم النفس إلى العالم العربي يمثل نوعاً من الثقافة تجاه الغرب. والخاصة أن هذه الثقافة، كما يقول الزميل (١٩٩٦) تتم في ظروف يتوقع فيها التبادل غير متكافئ، وغير متبادل، إنها نوع من الثقافة الشبوية تلك القائمة بين النموذج والتقليد في وضع يفرض فيه النموذج على التقليد قاعدة سماها علماء النفس «القيود الزموج» أي الإلزامية الزموجية والتناقض، أنه مثل الأب الذي يطلب من ابنه أن يقتدي به في الصواب لكنه يعاقبه عندما يتسرع الابن في التمشي أو في إطلاق ضاربه ليشعر برجولته. يمكن تجاوز وضع الإلزامية الزموجية حين الخوض بحسنة، لكن الإبقاء عليها قد يؤدي إلى حالات من العصاب أو ردود فعل متطرفة يصعب السيطرة عليها، إن الذين يطمحون في تجاوز هذه الوضعية الزموجية هم الذين تمكنوا من تطويل الإلزامين المتناقضين للقيود الزموج «كن مثل النموذج ولا تكن مثله» في مجالين مختلفين وفي هذا الصدد يبدو أن الأسويين، وبخاصة البابائين، يستعملون مثلاً التمييز بين الحالات الطبيعية لمختلف المتعارج الثقافية التي تشبه المضارة الغربية. كيف يمكن أن فهم المسورة التي يلاقيها العرب في التفريق بين مجالات التطويل لمختلف المتعارج الثقافية التي يشهدها الغرب

## علم النفس في أمريكا

ويرجع على أن أن التفسير إلى ما كتبه عن ارتباط علم النفس بالانثروبولوجيا الثقافية المسماة الأمريكية في هذا المجال، وهي امتداد طبيعي للمساهمة الألمانية والبريطانية. وقد يكتن من القاسم معرفة علاقة علم النفس في أمريكا بعلم النفس الجديد في جامعات ألمانيا. فقد بدأ وليم جيمس علم النفس في أمريكا مع إدراكه بأهمية علم النفس الفسيولوجي الجديد في ألمانيا. وجيمس لم يكن بطبيعة شتصا تجريبياً، ولكنه كان يؤمن بالتجريبية، وقدمها إلى أمريكا بعد أن وضع عليها الختم الأمريكي من خلال تأكيدته على المعنى الوظيفي للعقل. وعمل جيمس على تفسير علم النفس الجديد في ألمانيا وقدمه وإدراكه، وكان متصفا دائماً مع الروح الوظيفية لعلم النفس الأمريكي. ويصعب القول ما إذا كان جيمس قد قام بتجديد هذه الروح أم هو مجرد انعكاس لها؟ (بورن، ١٩٩٧). ينكر سوكال (١٩٩٢) أن مؤسسي الجامعات الأمريكية نظروا إلى أوروبا، ومن ثم تبناوا النموذج الألماني كقاعدة للبحث في جامعة كورنيل (١٩٦٤)، وجامعة جون هوبكنز (١٩٧٦) وجامعة كاليفورنيا (١٩٨٧) وجامعة شيكاغو (١٩٩١)، وجامعة ستانفورد (١٩٩٢)، وعندما أسس فوننت معمله في لينينج عام (١٨٧٩) سرعان ما توافد عليه الطلاب لينسوا في

العمل، وبالتالي درجة المتكثف في هذا الفرع الجديد من العلم، وشهد عمله خلال العشرين عاماً الأولى أسماء برزت بعد ذلك في تاريخ علم النفس، وكان أبرز ما يميز هذه القائمة من الأسماء تخصصها لعدد كبير من الأمريكيين الذين هادوا جميعاً ليعرّفوا علم النفس في بلادهم، وقام الكثيرون منهم بتأسيس وتوجيه معامل علم النفس (مثل: ١٩٨٨)، والتدريب، النهجي الذي لفته فونز إلى تلاميذه الأمريكيين للإجابة عن أسئلة العقل، حوله الأمريكيون وترجموه إلى نظريات جديدة لاستنتاجهم الخاصة في داخل وخارج للعمل، وتبعاً لذلك قام طلبة فونز بنظر الاتجاهات العلمية في علم النفس في أمريكا، وربما نجحوا في ذلك أكثر من أي محاولة أخرى في العالم (بنجامين وآخرون: ١٩٩٢).

ومن المناسب الآن أن نتبع التطور الهائل لعلم النفس في أمريكا، التي قامت بالكثير من مساهمة في إنتاج وتصدير علم النفس للعالم، ومن بينه للعالم العربي. لقد نال دول أول دكتوراه في علم النفس عام ١٨٩٥ من جامعة هارفارد، وكانت أول دورية لعلم النفس باللغة الإنجليزية في المجلة الأمريكية لعلم النفس، التي أسسها حول عام ١٨٩٥، وفي عام ١٨٩٦ ألف جون ديوي أول كتاب مدرسي لعلم النفس، وهو أول محاولة لكتابة أمريكي لشكافة كتاب تعليم النفس الجديد، كما أنه الأول من نوعه باللغة الإنجليزية أرفقت الرابطة النفسية الأمريكية بالتنظيم أول اجتماع سنوي عام ١٨٩٢ في جامعة يوسلفانيا (كانل ١٩٩٤)، ولقد حضر الاجتماع ١٤ من بين ٢٦ عضواً وتم تقديم ١٢ ورقة علمية عن تطور علم النفس، ومنذ عام ١٩٩٤ تعقد الرابطة اجتماعاتها بانتظام مع جمعيات أخرى مثلية، وذلك بمساهمة الجمعية الأمريكية للطبوعين (سوكال: ١٩٩٢)، وبحلول عام ١٩٠٠، وبعد ١٧ سنة من إنشاء معمل علم النفس في جامعة جونز هوبكنز بواسطة هول تم افتتاح ٤٢ معلاً في الجامعات الأمريكية، والتي استخدمت المناهج العلمية لعلم النفس الجديد. إن ٧٣ من هذه المعامل لم اعلمهاها بواسطة فونز من جامعة لايبزج (بنجامين وآخرون: ١٩٩٢) وقد يحث هذه المعامل علم النفس الذي بدأ عملية التكيف مع البيئة الجديدة (سوكال: ١٩٩٢)، ويمكن القول إن علم النفس الأمريكي قد ورث خصائصه الجسمية من التجريبية الألمانية، ولكنه أخذ علة من داروين، حيث تعامل علم النفس الأمريكي مع العقل في حالة استخدام وفي عام ١٩٠٠ تقبل علم النفس الأمريكي كلاً من علم النفس التجريبي للإنسان، وعلم نفس الحيوان والقياس العقلي، وبدأ يكتشف فرويد. وفي ذلك الوقت كان بعض المحافظين من الفوتيين وبعض

الراشدين من الوظيفيين، أما غالبية علماء النفس فكانوا في منتصف الطريق، وفي تلك الفترة كان الجو مهيئاً للعالمين، الذي لوجد السلوكية في جامعة هارفارد في ربيع عام ١٩١٢، بورفلة السلوكية، علم النفس كما يراه السلوكي، وأصبحت علم نفس التأثير والاستجابة (برونج، ١٩٨٧).

ومن التطورات الأخرى في علم النفس هجرة مجموعة من علماء النفس من أوروبا إلى أمريكا مثل ماكسويل، وكوفكا، وكان تأثير المدرسة الفرونية والفرويدية والجشطتية والبيجابية قويا في الولايات المتحدة.

وانشاء الفترة الثانية هاجرت مجموعة أخرى من علماء النفس الأوروبيين إلى أمريكا وكذلك مجموعة من علماء النفس من آسيا للتدريس العالي في علم النفس (برونج، ١٩٩٤). ثم انتفع علماء النفس الفواجا إلى الولايات المتحدة من كل أرجاء العالم، وخصوصاً من غرب أوروبا بالطريقة نفسها، ولتسبب ذلك، الذي دفع الرسامين اسوايا إلى إيطاليا في القرن السابع عشر، وإلى فرنسا في بداية القرن العشرين. وفي الحقيقة إن عالم النفس الأوروبي الأقدم بأنه أكمل دراساته، أو امتلك الحق في التحدث بصوت رسمي، ومن ثم في التحدث في التحدث التحدثية (لا إيا) فطسي زمنا في إحدى الجامعات الأمريكية (بولان، ١٩٩٤) وفي عام ١٩٤٠ تم فتح نحو ٢٠٠٠ شهادة بكثراء في علم النفس متوفرة في الولايات المتحدة، وفي أكثر من اعداد الدكتوراه في طوة اجزاء العالم.

والولايات المتحدة أكثر تطوراً في علوم النفس، لم تتأثر بالاضطرابات، مقارنة مع الدول الأخرى، ففي الولايات المتحدة هناك نحو ٨٠٠ عالم نفس و١٤٠ باحثاً في علم النفس لكل مليون نسمة. وفي الدول الصناعية الأخرى غير الولايات المتحدة هناك ٢٧٧ عالم نفس و٨٢ باحثاً في علم النفس لكل مليون نسمة، أما في الدول النامية فهناك ٨٤ عالم نفس و٢٠٦ باحث في علم النفس لكل مليون نسمة، والدول الصناعية حوالي أربعة أضعاف علماء النفس مقارنة بالدول النامية، والقصبة لأعداد باحثي علم النفس، فهم يشكون عشرين ضعفاً من الباحثين في هذا المجال بالدول النامية، والعلاقة بين القوة الاقتصادية والصناعية للدولة، وتطور علم النفس علاقة قوية على المستوى العالي (برونج، ١٩٩٤).

وبحسب عام ١٩٢٠ انشلت العلاقة بين علم النفس والوضع الصناعية الجديدة، وتحول حينها علم النفس الوضعي إلى سلوكية أو إجرائية، وتم استزاج علم نفس الجشطتات في أمريكا



وبذلك لعدم تسامح التنافس في ألمانيا. وعندما سافر الأمريكيون إلى أوروبا لعلم علم النفس الجديد من فونت، رجع هؤلاء بكمية من الحماس لعلم النفس الفسيولوجي وعلم النفس العضلي، ولكنهم في أمريكا حوّلوا نموذج النشاط في علم النفس من الوصف والتعميم إلى تطوير القدرة أو العلاقة الشخصية في حالة من التوافق الناجح للفرد مع بيئته. ويمكن القول إن أدوات علم النفس ترجع إلى فونت. ولكن الإلهام يرجع إلى جالتون. وهذا يطرح السؤال: لماذا والإجابة بكل بساطة أن نظرية التطور هي التي حثت هذا التغيير (يورنج، ١٩٥٧). بحسب نظرية التطور فإن المشكلة تتلخص في أن البيئة تعمل بطريقة غير جلية، فهي لا تدفع أو تسحب، إنما تختار وتصطفي. ولقد ظلت عملية الاستقاء الطبيعي، طيلة آلاف السنين من تاريخ الفكر الإنساني، تجري وتسير وهي غير مرتبة، رغم أهميتها غير العادية. وعندما تم اكتشافها في النهاية أصبحت، بالطبع، الفتحا لنظرية التطور (اسكنر، ١٩٨٠). ولقد تولت أمريكا نظرية التطور بشراعة، وتبعاً لذلك يمكن القول إن علم نفس التوافق وقيم البدء كان النتيجة. إن أمريكا أصبحت مستعدة لقبولية أكثر من ألمانيا وإنجلترا. وأمريكا هي الدولة القارئة الجديدة، فإن الواقع من طريق التوافق مع البيئة هو الفتح بالنسبة للثقافة العالم الجديد. ونفسية أمريكا الجديدة تعتمد على الغرض والوضوح والقرينة، وهي الفلسفة المسؤولة عن تطور التراتبية والطبقية في داخل علم النفس وخارجه. ويروج العصر كانت تتطلب ذلك (يورنج، ١٩٥٧).

والتطور الهائل لنظرية التطور، والبدء للأصلح، وتطور علم نفس التوافق في أمريكا لعب أدواراً كبيرة في عمليات التمثيل الثقافي للبلاد البروقية. وفكرة «البلاد البروقية» وإن الفلسفة السياسية بالنسبة للتشكيل الثقافي تتطابق تماماً مع نظرية علم النفس الاجتماعي في التشابه والتجانس (بايرن، ١٩٧١). ولقد أظهرت أبحاث علم النفس الاجتماعي أنه كلما كان هناك فردان متشابهان في ناحية الاجتماعات والتشابهات والمعتقدات والمجموعات العرقية صارا يميلان ويعديان بعضهما (كاسل، ١٩٧٨). وبالنسبة لاسكنر، فإنه من الممكن إحداث تغيير ثقافي، بل أكثر تحديداً، تصميم الثقافة التي نريد. ونفس كيفية التحكم في الفرد يمكن التحكم كذلك في كل البيئة الثقافية. وقد عبر بقوله «وبالنظر إلى أن علم السلوك وتكنولوجيا السلوك يعملان على وضع تصميم أو تخطيط أفضل، فهذا «تغييران» مهمان في تطور الثقافة. وإذا كان هناك غاية أو اتجاه في تطور الثقافة، فإن ذلك لابد أن يكون له علاقة بوضع الناس تحت تحكم المزيد من نتائج

سلوكهم (إسكتر، ١٩٤٠) وأد ساهم علم النفس الاجتماعي المرتبط بعلم النفس الشعبي أو الفلكلوري أو الثقافي، في فهم وإحداث التمثيل الثقافي لمجموعات العرقية. وتم التعبير عن النهج التاريخي للاتصال عبر الثقافي بين المجموعات المختلفة من خلال الصورة الويبنانية لفلانز هوفستاد، التي يفسر فيها المهاجرون، إن الفكرة الأساسية من وراء تلك هي أن التقاليد الثقافية يجب أن تعبر وتتخطى عن «طرقها القديمة» و«موروثاتها الثقافية». وأن تقبلي «الطريقة الأمريكية» إذا لم توجد وتعرض حرارة كافية لهوفستاد فإن الفروقات الثقافية بين المجموعات سوف «تتصهر» وكل فرد يصبح من ناحية ثقافية «أمريكية» (مقدم، تشار ورايت، ١٩٩٢).

يمكن أن نخلص في هذا الجزء من الدراسة القول إن أمريكا قامت بتكوين علم النفس في تربيتها، وذلك لإيمانها العميق بنظرية البناء للأصلح في الداخل للأفراد والمجتمعات المكونة للمجتمع الأمريكي، والبناء للأصلح في الداخل يرتبط بالبناء للأصلح في الخارج والقصبة لأمريكا الدولة العظمى. ولقد تم تكوين عدة نماذج مختلفة ومحاولة المزج بينها مثل علم النفس التجريبي من ألمانيا، والقياس النفسي من بريطانيا، والوقعية من فرنسا، وبرزت هذه المدارس السلوكية والتبليدية ولكن الوطأة والثقافة مع السلوكية والوقعية والدراسية. وبذلك تم خلق ما هو مستورد بالمعنى الأمريكية. ولم تكن استجابة علماء النفس الأمريكيين لعلم النفس في أوروبا استجابة نظرية، بل كانت استجابة ناقصة، إذ تعلم الطلاب الأمريكيون الثقافات العلمية في ألمانيا، لكن روح العلم الجديد كانت روحاً أمريكية. ولقد تحولت قبل علم النفس من لا يبرز إلى أمريكا وأصبحت أمريكا- تبعاً لذلك للقول- مركز الكون لعلم النفس. وأصبحت الجامعات الأمريكية هي الأماكن التي يجمع إليها علماء النفس من العالم عامة والعالم العربي خاصة. وأصبح النموذج الأمريكي لعلم النفس هو الأكثر تأثيراً في العالم. فالكثيرون الهائل من المصادر، وأبحاث الكتب، والدراسات، والجيلات، والبرامج، والمؤتمرات والجمعيات والمنظمات، والأدوات والتقانة المتعلقة بعلم النفس مشجوع أمريكي يصدر للعالم أجمع، ومن بينه العالم العربي. ولم تطبق المفاهيم وتعليل النظريات وتصميم النتائج بصورة تلبي المواطن، وتأسر العقول، وتغسل الألبسة، وتجعل علماء النفس- وبخاصة العرب منهم- في حالة من اللاوعي. وبوسعنا الافتراض بأن الحرب الباردة هي أكثر العوامل التي حثت هذا التطور الهائل لعلم النفس. وهناك أهمية في التعمق من صحة هذا الافتراض.

## علم النفس والحرب الباردة

عندما طرح الألمان من الحرب العالمية الأولى مفهومين: فكروا في بحث سبل الهزيمة وتعنية الشعب الألماني تعنية نفسية للقتال والاضطراب مرة أخرى، وذلك اتجهت الأنظار إلى علم النفس (فرج وعطية، ١٩٨٧). وعندما كانت النازية تعد ألتانيا إعداداً شاملاً للحرب، نشأ الاعتماد بعلم النفس الحربي كجزء من خطة عامة لتأهيل الدارسين للتعنية الدولة كلها تعنية نفسية للقتال. وذلك اتجهت أبحاث الألمان إلى دراسة عميقة لكثير من الظواهر النفسية والاجتماعية، وخصوصاً ما يتعلق منها بقرن الشباب (السياسية والعسكرية)، والروح المعنوية (الدنية والعسكرية أيضاً)، وسيكولوجية القتال والدعاية. استطاعت ألمانيا أن تستفيد من نشاط علم النفس الهني على أوسع نطاق في بناء قواتها المسلحة، وقامت العديد من الأبحاث في مجالات متعددة مثل: الاختبارات النفسية للاقتناء، الروح المعنوية الدفاعية، الروح المعنوية الهجومية، وشؤون التعنية وسيكولوجية الحياة العسكرية (المسيد، ١٩٥٩). ويعتبر علم النفس العسكري أحد الفروع التطبيقية لعلم النفس، وهو يعنى بتطبيق مبادئ علم النفس في مجال الجيش بغرض رفع مستوى كفاءة أفراد، وذلك بواسطة عدة مثل: انتقاء، وتوزيع الأفراد على التخصصات، والتجهيز العسكرية المختلفة، مستخدماً في ذلك أساليب القياس النفسي. ويهتم هذا العلم أيضاً بتطبيق مبادئ التعلم على برامج التدريب العسكري، لضمان نجاح هذه البرامج وتحصيل أهدافها. ويهتم كذلك بدراسة سيكولوجية الحواس، والتأثير المتبادل بين الفرد ومجتمعه العسكري، وتشخيص وعلاج الصعاب بصدمات نفسية ناشئة عن أفعال القتال، وإرشاد وتوجيه العائدين من القتال، ولأسباب المشوّهين منهم، وتأهيلهم للحياة المدنية (فرج وعطية، ١٩٨٧) وساعد علم النفس العسكري بصورة فاعلة في تشكيل وتصوير جديد بالنسبة للحرب، وكيفية إطفاء شعوب. وينبغي أن ينظر في ألتا أن ألتانيا كما كانت أول التركب في ارتباط علم النفس الوثيق بالاستعمار، كانت أول التركب كذلك بارتباطه بعلم النفس العسكري، وبالحرب النفسية الخاصة، وكانت بريطانيا ثاني دولة في تأسيس علم النفس، وهي ثاني دولة في ربط علم النفس بالعمليات العسكرية.

وفي المخابرات البريطانية لا يجري رجال الاستخبارات العسكرية بشكل كثيف في العمليات المستترة، وتتلقى العمليات الهجومية المستترة أكثر مع وحدات مخصصات الطيران الخاصة، وتقوم وحدات العمليات النفسية، أو (إسبايس Psychops) بتنظيم الدعاية لدعم العمليات العسكرية، وفي

العام ١٩٧١، كان الجيش البريطاني فرع الحرب النفسية يضم ٢٠ شخصاً، وكان رجال العمليات النفسية موزعين على ثلاثة مقرات عبر البحار. وكانت هناك وحدة أخرى مطروها في وزارة الدفاع، ويجري التدريب على العمليات النفسية في «مؤسسة العرب المشتركة» وتميز المؤسسة بين نوعين من الدورات، أحدهما لضباط الإدارة، والآخر لضباط الوحدات التي سيكون عليهم تخطيط العمليات النفسية وتطبيقها. وتشمل الدورات محاضرات حول ممارسة الدعاية الشيوعية، وحول مصائد الفن، وتقنيات الإعلان الحديث، والخيبرات التي اكتسبت من العمليات النفسية الأخيرة. وفي عام ١٩٧٦، أكدت وزارة الدفاع أنه كان قد تم تدريب ١٨٤٨ ضابط جيش، و٢٦٢ من كبار الموظفين المدنيين، خلال السنوات الثلاث السابقة، على استخدام التقنيات النفسية لأغراض الأمن الداخلي.

على الرغم من أن الوحدات القتالية للحرب النفسية قد تكون صغيرة من حيث العدد، فإن الجيش البريطاني يتوقع لتفوقها أن يكون واسع النطاق إلى حد بعيد. وبالعمليات النفسية، اكتسبت القوات المسلحة ومؤسسة الدفاع - أو هي ستكتسب سريعاً - القدرة على شن حملات سياسية للأطعمة أهداف عسكرية بقاء، وتشغل مسئّل عن النظام السياسي، أي من دون الإشارة إليه (بلوش وجيرالد، ١٩٨٧). وفي تقرير جيفون «الرأي العام والبيدسات المسلحة» نشر في ١٩٨٧، سن في شامز، بتاريخ ٢٦ أكتوبر ١٩٧٨، أكد بالتر أن تدور بريطانيا على الدفاع عن نفسها قد تعتمد على كيفية نقل الرأي العام بالإعلام، أكثر مما تعتمد على قوتها من حيث عدد الجنود، وكيفية السلاح والعتاد العسكري. إن الاستخدام الأكثر فعالية واتساعاً للعمليات النفسية سوف يمكن العسكريين من التغلب السياسية في أحيان أكثر (بلوش وجيرالد، ١٩٨٧). وتعمل هذه العمليات النفسية على فهم طبيعة التحكم الرأى تطبيقه في الاصطاح الواسعة ولا حدود، والتي استعملتها بريطانيا. وبعد ذلك ينبغي لنا أن نسير لنما في عرض أهم الجوانب التي يوظف من خلالها علم النفس لأغراض الحرب الباردة.

ومعها فإن الغرب قد عاد النظر في استراتيجيات الحرب، وخطط لاستراتيجية جديدة تهتم بالمعامل السيكلوجي، وبذلك يمكن القول إن الحرب النفسية اليوم هي حرب سيكلوجية (كريم شلبي، ١٩٧٢) وهي خلافاً عن الحرب التقليدية أو حرب القتال. ومن أمريكا، يعتقد روزنفلد مثلاً أن الحرب العالمية الثانية هي مقياس حقيقي لحركة العلم والتطبيق، وتكمن الفكرة في حشد

وتحريك العلم لفخدمة الدفاع (ماركس، ١٩٧٩). ومن بريطانيا، يولي شيرشل، «كثيراً ما ظهرت الحرب النفسية وجه التاريخ، ومن فرنسا، يؤكد ديجول: «لكني تقتصر دولة ما في حرب، فإن عليها أن تلتزم الحرب النفسية قبل أن تتحرك قواتها إلى ميادين القتال». ومن ألمانيا، يضيف روميل (إن القائد الناجح هو الذي يسيطر على عقول أعدائه قبل إبدائهم، وتبعاً لذلك فلهذا استخدمت مصطلحات وتقنيات كثيرة للحرب النفسية منها: حرب الأعصاب، حرب المعنويات، حرب الأفكار، حرب الإرادات، حرب الدعاية، الحرب الباردة، حرب الإشاعات، فصيل الدعاغ أو فصيل التخ، حرب الدماء، الحرب بلا قتال، والحرب السيكلوجية (إنوغل، ١٩٤٩). إن روزفلت وتشيرشل، وبيجول، وروميل كانوا ألهة للحرب يتكون الفن بلا وحده، والفن بلا شطبة، بحيث لا تطغى ولا تخر، وهم قد ابتكروا إلى أهمية الحرب النفسية، وتبعاً لذلك أهمية علم النفس في التخطيط الاستراتيجي الحربي، إن الآلة القوية تلتد بلا ريب أن علم النفس تم التمكن له بأنه سوف يؤدي لاتتمدارات لصالح القوى العظمى.

ولقد لعبت الحرب الباردة بين أمريكا والاتحاد السوفييتي كدافع رمز للحرب النفسية أو السيكلوجية دوراً كبيراً في تطور أبحاث علم النفس، وتخصصت الجمعية الدولية الإنسانية، في أمريكا لدعم أبحاث علم النفس، وتتبع هذه الجمعية المخابرات الأمريكية، وهي تقدم دعماً مالياً كبيراً لأبحاث علم النفس لفخدمة المخابرات، وكانت الملة لتقديم هذا الدعم ولتصديق علماء النفس هي الرابطة النفسية الأمريكية (ماركس، ١٩٧٩). وهنا يمكن أن نقف قليلاً عند طبيعة العلاقة بين الرابطة النفسية الأمريكية والمخابرات الأمريكية. ويمكننا في هذا الجزء، من الدراسة القول إن علم النفس في حقيقته قد تطور جزء كبير منه بواسطة المخابرات، فإن تطور أبحاث علم النفس قد لعب دوراً كبيراً في الحرب الباردة، وهنا تطرح التسألة بصورة معكوسة بأن الحرب الباردة ساهمت على تطور علم النفس، ربما يصعب علينا تحديد أيهما السبب، وأيهما النتيجة، وبهما يكن فإن علم النفس يحمل ماضيه الاستعماري والأنيمولي الذي لا فكاه منه بل ينبغي أن تطغى هذه الذائكة الاستعمارية حياً في بالنا، وإن تطغى مثقلة أكثر بالتطبيقات الهائلة لعلم النفس في مجال المخابرات. فهناك تواصل متدرج بين دور الأنيمولوجيات الغربية في تطبيقات علم النفس، واستمرار دور الأنيمولوجيا في هذه التطبيقات بعد الاستقلال. سوف لننقي في الجزء اللاحق من الدراسة بعض أهم محاولات التطبيقات «المخابراتية» لعلم النفس ومحاولة كشف جزء من التعديلات لهذا الجانب الاستراتيجي.

ولقد عقد في موسكو عام ١٩٦٩. المؤتمر الدولي السابع لعلم النفس التطبيقي (علم النفس التقني). وكان ذلك فرصة للمندوبين الغربيين للإعجاب ببعض النجازات المهمة في مجال علم النفس الفارقي. مثل مصلحة الانتقاء البشري للمسكوك الحديثة. حيث التفتير التركيبي الذي يختص على مجموعة مؤلفة من الأطباء وعلماء النفس التقنيين والإحصائيين والمستفيدين (أوكراين). ومنذ الحرب العالمية الثانية كان هناك اعتماد كبير من قبل علماء النفس الأمريكيين بمتابعة تطور علم النفس في الاتحاد السوفييتي. وقام مشورة من هؤلاء العلماء بزيارة للاتحاد السوفييتي في صيف ١٩٦٠. تحت دعم كامل من جمعية البيئة الإنسانية. وكان هدف الزيارة كما يقول بوير. هو تعزيز التواصل بين علماء النفس في البلدين (بوير. ١٩٦٢). ولم يكن لدى نسبة من هؤلاء العلماء فكرة عن علاقة تلك الرحلة بالمخابرات كما دعمت الجمعية مؤتمرا وكتابا عن «بعض الآراء عن علم النفس السوفييتي» الذي نشرته الرابطة النفسية الأمريكية عام ١٩٦٢. وقام كل واحد من أولئك العلماء المشورة بكتابة باء عن أحد المجالات في علم النفس (ماركس. ١٩٧٩). ولقد شكر علماء النفس الأمريكيون الذين قاموا بزيارة الاتحاد السوفييتي جمعية البيئة الإنسانية التي وفرت لهم الدعم المادي. ونما تقول بوير فإن هدف زيارة علماء النفس الأمريكيين للاتحاد السوفييتي هو «تعزيز التواصل بين علماء النفس في البلدين» ولكن يبدو أن الأجندة الخفية لهذه الزيارة تتمثل في تفكير استراتيجي أمريكي ببداية الحرب الباردة لأنها أكثر مناسبة لروح العصر. وربما يكون من ضمن الأجندة تجنب علماء من علماء النفس السوفييتي لكي يساعدوا علماء النفس الأمريكيين في عرض الأبحاث النفسية المتقدمة. خاصة في مجال تقنيات التحكم في السلوك والتفكير التي طورها السوفييت.

بعد هذه الزيارة المكشوفة المستورة في الوقت نفسه ظهرت مجموعة كبيرة من انتقادات والكتب الخاصة بعرض ودراسة علم النفس السوفييتي. أو علم النفس في السوفييت خلال الخمسينيات والستينيات. ولقد حدث توثيق دقيق لكل أبحاث علم النفس السوفييتي. والكتابة التي يتم بها فهم سلوك حل المشكلات. والصحة العقلية. وتطبيقات علم النفس في الصناعة وطرق التشخيص. وعمل علماء النفس الأميركيين بذلك على فهم نقاط القوة والضعف في البناء النفسي للأفراد والجماعات والعودة في الاتحاد السوفييتي. ومن الملاحظات التي تمت لعلم النفس مثلا: علم النفس الروسي المعاصر (إرنزوان. ١٩٩٢). وعلم النفس السوفييتي وفسولوجيا النفس (إرنزوان. ١٩٩٩). وعلم

النفس السوفييتي (بون، ١٩٦١)، وعلم النفس في الاتحاد السوفييتي (سايمون، ١٩٥٧)، والعلاج النفسي في السوفييت (بون، ١٩٦١ ب)، وبعض وجهات النظر عن علم النفس السوفييتي (بون، ١٩٦٢) وبعض الأبحاث السوفييتية في التفكير وحل المشكلات (ريتمان، ١٩٦٢) والدراسات السوفييتية للنمو الشخصية والتنمية الاجتماعية (برونفيلدر-شتر، ١٩٦٢)، والبحث والعمل الأكاديمي وسط الأطفال (براكيل، ١٩٦٢)، وملاحظات حول علم النفس التربوي والصناعي في الاتحاد السوفييتي (فليشمان، ١٩٦٢)، وجوانب حول علم النفس وفسولوجيا النفس في الاتحاد السوفييتي (ميلر وبلفمان، واستكسبيرج، ١٩٦٢)، والمناهج السوفييتية وعلم النفس السوفييتي (ريتمان، ميرفي وميرفي، ١٩٦٢) والملاحظة الدقيقة توضح لزمن مصطلحات: تشكيل الدماغ والإنسان الجديد، والمقاتل المبرمج، والحرمان العصبي، والحركة المسببة، وسيكولوجيا الاستجاب، وسيكولوجيا الانتاج، وسيكولوجيا التعذيب في هذه الفترة من مسوحات علم النفس السوفييتي، وبداية الحرب الباردة بين أمريكا والاتحاد السوفييتي. ويتوقع لعلم النفس أن يلعب دورا كبيرا في فهم سيكولوجيا القيادة السوفييتية، وفهم كيفية صنع القرار، وفهم الهدوء النفسي للروح الجماعية، وذلك إباناً ببداية الحرب الباردة أو الحرب النفسية، بدلاً من الحرب التقليدية أو حرب الاقتتال أو الحرب النووية أو البيولوجية أو الكيميائية. إن واحداً من أبرز رموز الحرب الباردة هو اقترانها للظن لديهم بعملية غسل الدماغ.

### غسيل الدماغ

بوسعنا القول إن الدور التطوير لعلم النفس هو الذي قاد المظاهرات الأمريكية لدعم وتطوير الأبحاث النفسية ذات الصلة بموضوع الدماغ والحرب الباردة، خصوصاً غسل الدماغ (انظر بون، ١٩٦٢، بيدرمان وزيمر، ١٩٦١، ماركس، ١٩٧٩). ويعرف غسل الدماغ بأنه كل محاولة للسيطرة على العقل البشري، وتوجيهه لغايات مرسومة بعد أن يجرى من تطويته ومعلوماته ومبادئه السابقة (الدماغ - ١٩٧٠). ويعرف كذلك بأنه عملية إعادة تشكيل أو إعادة تعليم والتحويل الإيمان أو العقيدة إلى كثر بها ثم الإيمان بتقويضها (توفل، ١٩٨٩). لقد نشرت جريدة «أخبار موامي» في سبتمبر ١٩٥٠ مقالاً كتبه إدوارد هنتر بعنوان «غسيل الدماغ»، وهو أول استخدام لهذا المصطلح في كل اللغات، وأصبح يستخدم بسرعة في الحرب الباردة. وهنتر هو مهمل في مجال الدماغ يعمل تحت مظلة الصحافة. ولقد ضاع المصطلح من كلمة صينية معناها تنظيف

الدماغ، وليس الكلمة أي دلالة سياسية في اللغة الصينية ويعتقد هنتر أن الشيوعيين تقنياً تستخدم في وضع عقل الفرد في حالة من الضباب تجعله يخطئ، ويعتقد بأن ما هو «مصحح» هو غير مصحح، وما هو «عقلاني» هو خطأ، وسألم يحصل قد حصل، حتى يصبح الفرد في نهاية الأمر مجرد ربيب أو إنسان آلي بالخدمة للشيوعية. وهناك اعتقاد بأن التقنية السوفياتية في مجال التحكم في العقل تعتمد اعتماداً كلياً على عملية الضغط النفسي المكثف، والكشف على نقاط الضغط في الإنسان. ويبدو أن هناك بعض الفروقات بين النظام السوفياتي والصيني في عملية غسل الدماغ، ويعتقد ذلك على خصوصية الموروث الثقافي. إذ يعتقد السوفييت على إجراء عملية الغسيل في مراحل العزلة، ثم القروض، ثم التضييق والتخفيف، بينما يشبه النظام الصيني مجموعة سيرة من خيرا، الترخيز بالآثار يوزنون في بعض اعتماداً على الضغط الجماعي والعقيدة والتكرار (ماركس، ١٩٧٩) وسوف نفتح المجال في الجزء اللاحق من الدراسة لعرض تطبيقات مساعدة بالملف المتعلقة في أبحاث غسل الدماغ وكيفية استجابة علماء النفس في أمريكا لهذه الأبحاث الغامضة والمربكة في الوقت نفسه.

لقد قام الخبراء الشيوعيون في مجال «إعادة تشكيل التفكير» بأطلق فكرة «الإنسان الجديد» كهدف، من خلال التعبير الخلفي في المعتقدات والقيم. وكان ذلك التطوير في مجال التحكم قد أزعج الأمم الغربية، واحتارت لهذه الممارسات الشيوعية (بيرغر مان ويزر، ١٩٦١). واستخدمت تقنية غسل الدماغ في مجال التحكم في سلوك الأفراد، خصوصاً في الحرب الباردة، وكان تطوير هذه التقنية من جانب المخابرات الأمريكية كرد فعل على اعتقاد أمريكا بأن الروس والصينيين ممارسات عالية في مجال التحكم في العقل. ويقول هنتر- عالم النفس بالمخابرات الأمريكية- إن السوفييت قاموا بعملية غسل الدماغ بطريقة تشويط ذاتها، أو الفعل المعكوس، التي قام بها بالملف في تجاربه على الكلاب. ويضم من قول هنتر التخوف والقلق من التطور الهائل لعلم النفس في الاتحاد السوفياتي، ولكن الاستجابة الهستيرية لعلماء النفس في أمريكا كانت ذات فائدة في تطور أبحاث علم النفس. وقد يصعب علينا تصور استمرارية أبحاث بالملف من غير إسهام أسكر في مجال تكنولوجيا السلوك.

إن العلاقة بين بالملف وأسكندر كعلامة الحاج والأنيس- كما تعبر إحدى الأغاني الغربية- فهما يذكران دائماً مع بعض لدرامي علم النفس، وبخاصة في مجال نظريات التعلم، ويشرح



استمر (١٩٨٠) - العالم السلوكي الأكثر شهرة - دور بافلوف في بناء هذا العلم الجديد، وإمكانية بناء الفعل منعكسة جديدة بواسطة عملية التكيف. ولقد من ذلك علماً سيكولوجياً كاملاً ظاهراً على التأثير والاستجابة، أو على التوتر ورد الفعل. وعلى ضوء هذا العلم اعتبر السلوك كله بمثابة رموز الفعل على منبهات أو مشغرات، وإن تجاهلات الحرب العالمية الثانية أعادت الثقة إلى مبادئ بافلوف، ومن ثم عاد بافلوف إلى الصورة، وأصبح من العلماء المفضلين.

وفي أحد الأيام، وبعد جهد مضن واسفين طويلة في حياة ضيقة، استدعي بافلوف إلى الكرملين لقابلة لينين كرئيس دولة، واستقبل استقبالاً حافلاً، وطلب منه لينين فوراً أن يشرح له بالتفصيل نتيجة أعماله. وقد ذكر له في أثناء الحديث بأنه لم يكن شغوفاً بأبحاثه الأولى عن الجهاز الهضمي، ولا بمراسلاته عن الغدة الصموية، ولكن ما يهتم به هو تجاربه على الكلاب. وطلب من بافلوف أن يكتب ملخصاً وافياً عن كل أعماله المتصلة بالكلاب وسائر الحيوانات، ولكن من ناحية إمكان تطبيقها على الإنسان. طلب منه أن يكون دقيقاً في التفاصيل فيما يختص بالأبحاث المتصلة بالجهاز البشري. وعندما أتم بافلوف كتابة حوالي أربعين صفحة بخطه فأقبل لينين الذي كان قد قرأ هذه الأبحاث بعناية، وقال له بعبارة كبيرة: لقد أتيت الثورة، وإن ما فعلت باكتشافه لبعض مسلمات الشيوعية الأولية، ولقد كانت تجارب بافلوف على الإنسان والحيوان الركيزة التي قام عليها الشيوعيون عملية تطوير الإرادة الحرة وتفسيرها إرادة الحزب والثورة. ومع أن الأقدمين استخدموا وسائل مختلفة وبيولوجية للسيطرة على عقول الناس لتحويل معتقداتهم، فإن الجديد في نظرية بافلوف أنها تعتمد على الوسائل الفسيولوجية أكثر من غيرها (إصلاح نصر، ١٩٨٨). يبدو أن لينين قد استلهم بصورة متقاربة الدور الذي يمكن أن يلعبه علم النفس في تشكيل وصياغة السلوك. ونعتبر تجارب بافلوف والثورة والحيرة بمثابة مسطر التكوين لأبحاث فصل الدماغ، وربما أنشطة الكي. جي. بي. البالغة الذكاء والخفاء.

لقد لاحظ بافلوف أن الكلاب عندما كانت تتعرض لمحفزات تجريبية، أو مواقف صدام متشابهة، فإن رموه الفعل والاستجابات التي كانت تصدر لها تختلف من كلب لآخر، حسب اختلاف أزمجتها، كما كان علاج كل كلب من الانهيار يتوقف أولاً على نوعه الوراثي. وفي الحرب العالمية الثانية تبنت هذه القاعدة بالتسمية للألمانيين الذين أصيبوا بالهستيريا عصبية مؤلمة نتيجة المعارك، أو بسبب التوتر الناجم عن الغارات الجوية. وقد اختلفت المبررات التي أعطيت لهم

اختلاقا كبيرا، طبقا لأصاطهم الزلجية (إصلاح نصر، ١٩٨٨). ولقد وجد تأويل إحصائي على صلاحية الاكتشافات بالوقوف عن الكلاب في تطبيقاتها على المشكلات السيكولوجية للإنسان، إذ استجاب المرضى للعلاج استجابة كاملة. يؤكد مارجنت (١٩٦٣) بأنه وجد الشيء نفسه في المرضى الذين أعطوا مهدئا من مهدئات الطوارئ، في خط الجبهة الألمانية حينما كانوا يصارعون بالانقياد عن التوتر القلبي، عن نصف القبائل. وقد أمكن تصنيفهم في الفئات نفسها، ويظهر أن كمية الهدى التي يحتاجون إليها تختلف تفاوتاً كبيراً. ولطريق الاكتشافات بالوقوف في الكلاب على ميكانيكية أنواع جديدة من التحول العيني والسياسي في الكائنات البشرية توحي بأنه لكي يكون التحول مؤثراً يجب أن تستثار انفعالات الشخص حتى يصل إلى درجة شاذة من درجات الغضب، والخوف، أو الشوق، فإنما أمكن الاحتفاظ بهذه الحالات أو أمكن زيادتها بوسيلة أو بأخرى. فقد انتهى الأمر بالنسبة للشخص إلى حالة من حالات الهستيريا، حينئذ يصبح الإنسان أكثر استعداداً لتلقي الأوامر التي قد يلقاها في الظروف العادية على الإطلاق. وقد يحدث بدلاً لذلك مرحلة من المراحل المتعاقبة، أو «الفتنة»، أو «شديدة التقلب»، أو قد يحدث «انهيار استعراضي كامل» يقضي على كل التعقيدات السابقة.

لقد أثبت بالوقوف أن فترة كذب على مطاوعة التوتر الشديد تتجاذب تبعاً لحالة جهازه العصبي وصحته بصفة عامة، ولكن بمجرد أن يحدث له «الوقف الكامل» فإن تغيرات غريبة للغاية تحدث في وظائف مخ الكلب.

وواقع أن الجهاز العصبي للإنسان مثل الجهاز العصبي للكلب، يكون في حالة من الانزواء الديناميكي بين الإثارة والتوقف الوقائي، ولكنه إذا تعرض استشارة شديدة فإنه يصل إلى الحالات نفسها من الإثارة الشديدة أو التوقف الكامل التي وصفها بالوقوف، فيصبح المخ حينئذ عاجزاً مؤقَّتاً عن تلبية وظائفه العادية. ويبدو كذلك أن حالة «الامتناع الوقائي» التي لاحظها بالوقوف على كلابه تحت وطأة التوتر العصبي ظهرت في جرحى الحرب، وكانت تتملكهم حالة الانسلاخ الهلالي، أو يصارعون وفقد الذاكرة، أو يمتنع بعضهم عن استعمال أطرافهم، أو بنويات من الغيبوبة. ولقد نجح بالوقوف في تجارب متكررة في إثبات أنه يمكن تكيف الكلب، مثل الإنسان، على كراهية من كان يخشون سابقاً، أو حب من كان يهملهم قبل ذلك (إصلاح نصر، ١٩٨٨). ويذكر إدوارد هنتر القتران اسم بالوقوف، أسنان علم وظائف الأعضاء، الروسي، بعملية «تفصيل الدماغ».

نتيجة تجاربه المتقدمة على فرائز الحيوانات وسلوكها، وقد ركن بافلوف في أبحاثه على «نظام الإشارات» وهو ما يقصد به النفس الغريزي التوجه الذي يصل مباشرة بين الحواس وبين العقل. وانتهت المرحلة الخامسة من أبحاثه بتجارب على الحيوان والإنسان لإثبات نظرية «الفعل المتعكس الشرطي» وتعلمي القيام بسلوك معين نتيجة لمؤثرات خارجية، مثل دبل القاب عند رؤية الطعام، أو عند حدوث أي أثر مقترن بالطعام. كما توصل بافلوف إلى أنه بتغيير بيئة الإنسان يمكن تغيير بيئته الذاتية. والواقع أن أبحاث بافلوف كانت هي المضائل التي انارت الطريق أمام الشيوعيين للتوسع في عملية «تحويل الخلق» وبرنامج لتحويل الخلق ليس بجديد تماماً، ولكن الشيوعيين جاؤوا بمنهجهم في ضوء أكثر شمولاً وتنظيماً، كما أنهم استخدموا فيه مجموعة من الأساليب الفنية النفسية المبرمجة المزايلة. ويمكننا القول بثقة إن مساهمة بافلوف التي ترجع لهذه المرحلة البارزة من تطور علم النفس تصنف بدقة متناهية التزاوج الوثيق بين علم النفس والتحكم بالبيئة، والاقتران الصيق بين علم النفس والتطبيق الأكبر - أي بصورة «مايكروية» في السجن، وفي الاستجابات أو الاستئطاق، وفي انهيار المقاومة النفسية، وفي التهازؤ النفسي - الألعاب الذهنية. كما يعبر إدوارد سعيد.

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

وإن النتائج التي توصل لها بافلوف كانت لها تطبيقات في كيفية إعدادات انهيار المقاومة النفسية للمعتقل، وكان علماء النفس العسكريون (انطربولوف وجورالد، ١٩٤٧) يعتقدون، منذ آمد طويل، أن الطريقة الأكثر فاعلية في كسر مقاومة السجين للاستئطاق هي إجباره على تسبب الألم لنفسه، ومن هنا جاءت تقنية جعل السجين يلفظ، وقد ياهد بين ساقوه، قبالة حائط يستند إليه - معنيا - على رؤوس أصابع يديه، لغترات طويلة، واشتد في أن تعمية العينين، ويضع السجين من القوم، والتبدلات الكبيرة في حرارة الترتلة، واختطاع السجين له «مسيحج أبيض» بشكل دائم، كلها من الأمور التي تسرع في انهيار مقاومته، وفي التاثيرات البرطانية، كانت مهمة الاستئطاق باستخدام هذه الطرق قد لوكت إلى أربع «فرق جنالية إقليمية» تابعة له «شرطة السرا المكنية» في العام ١٩٧٦، وكان رجال هذه الفرق البالغ عددهم ٨٩ رجلاً، قد لفوا تقريباً على استخدام هذه التقنيات من ضباط الاستخبارات العسكرية، واستخدمت نتائج أبحاث علم النفس بفعالية في مجال الاستجواب. وهناك اعتقاد بأن التقنية السوفيتية في مجال التحكم في العقل تعتمد اعتماداً كبيراً على عملية الضغط النفسي المكثف، والكشف على نقاط الضعف في الإنسان. وبعد

غثرة من التعلق المستمر، وينطبق بعض الأساليب الأخرى بهذا الاستجابات، ومن المحتمل أن يتعلم الإنسان تلقائياً وبدرجة ملحوظة نتيجة التعلق والتفكير الطويل فيما يحترف به، ويصبح في حالة يأس وتعاسة، وغالباً ما يتفاد الضعف والوهن نتيجة هذه الآلام الطويلة، وما يصاحبها من ضعف فسيولوجي، حيث يصبح عقله مليداً والظهور، فلا يستطيع أن يميز أي شيء، يهبط إلى قراره نفسه، أو أي إلهاء يقدم إليه بواسطة الإجهاد أو المحبة.

يؤكد بالظرف أن الإنسان «كثير الشبه بالكلب»، ولكن كان ذلك خطوة إلى الأمام، ورغم أن الإنسان أكثر بكثير من الكلب، لكنه مثل الكلب يلح في مجال التحليل العلمي، فالإنسان آلة يدعي أنه نظام معقد يسلك طرقاً لها مبادئ وفوائده، غير أن التعقيد فيه تعقيد غير عادي (اسكندر، ١٩٨٠)، والواقع أن الجوع يلعب دوراً أساسياً في عملية تحصيل اللذ، لأن الإنسان لا يستطيع أن يستمر في حياته العادية دون إحراق بيولوجية معينة، منها الغذاء، اللازم لبقاء خلايا الجسم وتجدد بعضها، ولقد استُخدم الجوع بهذا المعنى كعنصر من عناصر تحصيل الفحاح، إذ كان يعطى السجن ما يكفيه من أطعمة ولكنه من الطعام على قيد الحياة وليس بالذكية التي تتطلبها الجسم لجعل لونه يؤدي، وعلاقته بدرجة كافية (بصلاح نفس، ١٩٨٨)، فالطعام لا يكون معززاً إلا في حالة الحرمان، ومن يحتاج شيئاً للأكل فقد يحس بالجزء، من تلك الحاجة، كوخزات الجوع مثلاً، ومن يحتاج إلى لذة، فمن الظروف أن يشعر بالبرد، ومن الممكن أيضاً الشعور بالظروف المرتبطة بالاستجابة القوية الاحتمال إلى جانب الشعور بجوانب من المناسبة الحالية الشبيهة بالجوانب التي كانت موجودة في مناسبات ماضية كان السلوك فيها معززاً، ولكن الرغبة في شيء ليست شعوراً به، وليس الشعور هو السبب الذي يجعل المرء ينصرف للحصول على ما يريد (اسكندر، ١٩٨٠)، إن النظرة البيولوجية في مجال التحكم يبدو أنها قد ظهرت أولاً صحيحاً في أمريكا وأثارت تأثيراً عميقاً في أبحاث علم النفس بالآراء، وبمجيء السلوكية، خصوصاً مساهمة اسكندر، حدث تحول في الفحاح السيكلوجي العام، وعلاقته بالتحكم بمراد من تكنولوجيا السيطرة على السلوك بواسطة السيطرة على البيئة، وهذا يمكن، فإن قدرة بالظرف البحتة الفائقة هي التي حدثت هذا التحول، أو بلغة أصح، التغيير.

وإذا كان بالظرف أعظم فسيولوجي من روسيا مساهم في تطور أبحاث التحكم، وعلاقته بالحرب الباردة، فإن اسكندر هو الأعظم سلوكي مساهم في تطور كيفية تشكيل السلوك وكيفية التحكم في

البيئة. لقد نال اسكتير الدكتوراه من جامعة هارفارد ١٩٣٦، ودافع في رسالته عن الافتراض القائل إن علم النفس يجب أن ينظر إلى الانسجام بين علاقة ارتباطية بين الفيزيولوجيا والاستجابة. وتبعاً لذلك تجاهل اسكتير وجود أي رابط فيسيولوجي دقيق، كما عهد بالفلوف. وفي عام ١٩٣٨، ألف اسكتير *سلوك الكائنات*، والذي يحتوي على مجموع أبحاثه واعتقاداته في تلك الفترة. يقول كورستلر (١٩٦٧): «إن أهم تجربة في التنبؤ بالسلوك، والتحكم فيه تتمثل في تدريب الحمام بواسطة التكييف الاختياري على السور في زهو واختلال مزاج مرفوعة عالية بشكل طبيعي». وهو يعيد صياغة نظرية التعلم بالشكل التالي: «تبعاً للنظرية السلوكية يحدث التعلم كآلة بطريقة التجزية والمطاد، أو الضرب وعدم إصافة الهدف». ويتم العثور على رد الفعل (الاستجابة) الصحيح على مشر معين بطريق الصدفة، ويكون رد الفعل الصحيح تكرر متتابع، أو معزز. كما تتطلب الرقابة الميكولوجية أن تقول: «إذا كان التعزيز فيها أو متكرراً بدرجة كافية، فلن رد الفعل» ينطبع في الفعل». وتتكون *رابطة بين الفيزيولوجيا والفعل* (اسكتير، ١٩٤٠)، واقتبس اسكتير قول جالبرت سلتز (١٩٦٨): «بالإمكان فهم أين الظروف والتدويرات يحدث ثلاثون طفلاً من الهولنديين (شعب في جنوب أفريقيا)، وثلاثون طفلاً من أرسنولوجي الإيجليون، فيصبح الأرسنولوجيون هولنديون من كل النواحي العنصرية، ويصبح الهولنديون مسافرين صغاراً». ويحسب تعبير اسكتير فإن التحليل التجريبي يظل مسؤولية تحديد السلوك من الإنسان المنقل إلى البيئة. وتصبح البيئة هي المسؤولة عن تطور الجنس البشري، وعن الشخصية التي يشكلها كل عضو. ويقول اسكتير بأن قولنا هي العلم والتكنولوجيا، وأننا بحاجة إلى إعداد تغييرات واسعة في السلوك الإنساني، وأن يقلل لنا ذلك بمساعدة الفيزياء أو البيولوجيا فقط، وما يحتاجه هو تكنولوجيا السلوك. ولقد ثبت أنه يمكن التأثير على البيئة والتلاعب بها.

إن التشكلات السلوكية المراد حلها في العالم اليوم هي بلا شك أكثر تعقيداً من الاستعدادات العلمي للاتصال التوحي. فإن العالم السلوكي لا يهتم نفسه في جداول التعزيز التي تحدث بالصدفة في الطبيعة، بل هو يبنى تشكيلة كبيرة من الجداول التي قد لا تظهر بعضها مصادفة فقط. ومن الممكن الوصول إلى الظروف والظواهر، ونحن نفهم العلاقة ما بين السلوك والبيئة، فإننا نكتشف طريقة جديدة لتغيير السلوك. ولقد انضمت الآن الخطوط العريضة للتكنولوجيا، وتوصف المهمة بأنها سلوك يراعى إنتاجه أو تعديله، ومن ثم ترتيب الظروف والظواهر، العلامة، وقد

تدعو الحاجة إلى اتباع مبرمج للظروف. لقد نجحت التكنولوجيا نجاحاً كبيراً، حيث أمكن تحديد السلوك بسهولة نسبية، وحيث أمكن بناء الظروف والظواهر المناسبة مثلاً: في رعاية الطفل، والدارس، وإدارة العاملين، ويدر للجائدين لكن البادئ، نفسها تطبق الآن في إعداد المواد التعليمية على كل المستويات التعليمية، وفي العلاج النفسي الذي يتجاوز أمور الإدارة، وفي إعادة التأهيل، وفي الإدارة الصناعية، وفي تخطيط المدن، وفي موادين أخريين كثيرة من السلوك البشري. وهناك الكثير من أنواع تعديل السلوك المخططة، والكثير من الصيغ المخططة، ولكنها تطلق على النقطه الأساسية التالية: السلوك يمكن تغييره بتغيير الظروف التي يكون هذا السلوك من صنعها. مثل هذه التكنولوجيا تعطينا من الناحية الأخلاقية مساعدة ويمكن استخدامها من جانب الجيدين أو القسرين، وليس في أي مناح شئ، يقرر القيم التي نحدد استعماله.

إن طرق تغيير السلوك بواسطة تغيير العمل فلما **العقل فقط** حينما تكون فعالة بشكل واضح، حتى حين يكون من الواضح أن التغيير موجه إلى **العقل فقط**، إننا لا نصدح عن تغيير العقول حينما يكون المصممون غير متأكدين، لذلك أنشأوا **أمر ضروري**، الكلمة لا تفسح عن تغيير العقل خفية، فإذا كان الشخص لا يستطيع رؤية ما يعمله الشخص الآخر في تغيير عقله، فإنه لن يستطيع النتيجة منه، أو القيام بهجوم مضاد عليه، إنه يتعرض لتأثير «الدعاية» وأن الذين يخاضعون عن تغيير العقول حسب تغيير استكثرو يحرمون عقلية «توصيل الدماغ»، ولذلك سبب بسيط، هو أن السيطرة هنا واضحة، ومن الوسائل الفعالة في «توصيل الدماغ» حالة بغيضة قوية (مثل الجوع أو فقدان النوم) تم تخفيضها لتعزيز ودعم أي سلوك «فيه موقف إيجابي» تدور نظام ما سياسي أو ديني، وبين «الرأي» القوي فقط عن طريق تعزيز ودعم البيانات المؤيدة للرؤية. وقد لا يكون هذا الإجراء واضعاً للذين يستخدم عليهم، ولكنه واضح جداً للآخرين، بحيث لا يمكنهم ثقله بطريقة مسموح بها لتغيير العقول. إن الطرق المتعددة لتغيير السلوك بتغيير العقول ليست مباحة فحسب، ولكنها تمارس بقوة من جانب بعض حماة الحرية والكرامة. هناك الكثير مما يمكن أن يقال مدافعاً عن تقليل التحكم الذي يمارسه الناس الآخرون، ولكن هناك إجراءات أخرى لا تزال تتم، والشخص الذي يستعيب بطرق مثقولة لأشكال التحكم الضعيفة ربما كان قد تغير بواسطة طوارئ، وظروف لم تعد فعالة. ونحن نرفض حماة الحرية والكرامة الاعتراف بتلك الإجراءات وهذه الظروف، فإنهم يشجعون إساءة استعمال الممارسات التحكمية، ويسعون لتقديم تدو تكنولوجيا

السلوك (أجدي، وأكثر فعالية) (أسكنر، ١٩٨٠). وعندما كان أسكنر يتربص على عرش السلوكية، ومع بلورة أفكاره في التحكم في السلوك عبر التحكم في البيئة، تزامن ذلك مع تكوين المخابرات الأمريكية لجمعية البيئة الإنسانية، لدعم أبحاث علم النفس، ويمكن أن نتأمل في «بيئة» أسكنر، وتشكيل السلوك، و«بيئة» المخابرات لأغراض دعم أبحاث علم النفس لتعزيز الحرب الباردة.

إن الهدف النظري لعلم النفس هو عملية التمييز والتحكم في السلوك. وهناك اعتقاد بأن القوانين والبادئ، التي اكتشفها علماء النفس يمكن أن تستخدم في العلاج بالإنسان، ولقد تبلور اهتمام كبير في الخمسينيات والستينيات بتطوير الأبحاث والتقنيات السيكولوجية بالجملة في مجال التحكم في السلوك، وكان ذلك لخدمة أهداف الحرب الباردة. وكانت الحرب العالمية الثانية مؤشرا لنهاية الحركة الأمريكية، ووجدت الولايات المتحدة أن هناك فجوة كبيرة بينها وبين أعدائها تتمثل في تطبيقات تكتيكات الحرب، والعمليات الخفية، واستخدمت بريطانيا المعلومات السرية لقاتل الصنوبر لربط الامبراطورية، أما الألمان والفرنسيون والروس فلم يستخدمات واسعة لهذه التقنية السرية، ولكن ليس هناك من يوجهها مثل البريطانيين وتكونت الفكرة في حشد وتعميد العلم لخدمة الدفاع، ونتيجة لذلك تم تشكيل شبكة المبعث تهتم بمناهات واسعة من تطوير الذرة، إلى منع الانهيار العقلي أثناء المعركة (سركيس، ١٩٧٩). وللاستخبارات البريطانية مور عريق في «العمليات المستتورة» بل ربما كان الأقرب بين أجهزة الاستخبارات الأميركية والاستعمارية الأخرى كافة، وإن كان هذا الدور قد تراجع في السنوات الأخيرة. بعد أن لعلل نور الاستخبارات الأمريكية، وتضخم حجم عملياتها المستتورة إلى حدود شبه خيالية، وأصبحت عمليات الاستخبارات البريطانية هي التي رعت وآلت وترعرع الاستخبارات الأمريكية في مرحلة ما بعد نهاية الحرب العالمية الثانية مباشرة، ومن بين أعمال أجهزة المخابرات الإنمروالية جمع المعلومات وتنسيقها وتحليلها والفرض عليها باستنتاجات محددة نسبيا كبيرا في رسم السياسات العليا، الداخلية والخارجية للملاد، تجاه التحركات الداخلية، وتجاه البلدان الأخرى (طيف الرزان، ١٩٨٧). ويستنتج مما سبق بأن هناك شرا كبيرا من القنخي بين الاستخبارات في بريطانيا وأمريكا في تطبيقات علم النفس في مجال التحكم، ومن طريق المعلومات الخفية أو المستتورة.

وقد بدأت المخابرات الأمريكية ببعض الأبحاث الميدانية في مجال العقاقير والتخويم بعد تكوين المخابرات مباشرة عام ١٩١٧. وفي صيف عام ١٩١٩، قام رئيس المخابرات الطبية بزيارة خاصة إلى غرب أوروبا للبحث عن المعلومات التي يقوم بها السوفييت أثناء الاستجواب. وكان هناك خوف بأن السوفييت ربما استخدموا العقاقير والتخويم بالنسبة للمجنّدين. ولقد استخدمت المخابرات الأمريكية التقنية نفسها بالنسبة للاجنّدين والمجنّدين القاطنين من شرق أوروبا. وبعد برنامج العصفور الأزرق للتحكم في العقل عندما كان ستالين حيا في سجنه، وعندما كانت تنكرى هتلر حيا، والخوف من الحرب النووية قاتما، وعندما قام السوفييت بإخضاع معظم دول شرق أوروبا، وقام الحزب الشيوعي بالتحكم في الصين، بدأت الحرب في كوريا، واتصف الزواج بجنون الياراتويا في السياسة الخارجية والداخلية (ماركس، ١٩٧٩). وقامت الأتمار الصناعية وأجهزة التجسس الإلكترونية بجمع كافة المعلومات الحربية الضرورية من كل من الاتحاد السوفييتي والصين، وهما الدولتان الوحيدتان اللتان تشكلان تهديدا للولايات المتحدة. وفي الوقت ذاته أجريت الدراسات السيكلولوجية السرية عن الممنّين في أوروبا والفاصمين في آسيا. ويبدو ذلك كمنافرة للتاريخية بالنسبة للحرب الباردة (روفلر، ١٩٧٦). كما أجري العديد من أبحاث علم النفس في كثير من الدول غير الغربية لتعزّز نتائج الدراسات السيكلولوجية الأخرى.

### المقاييس النفسية

تطور علم النفس كثيرا في الحرب العالمية الأولى والثانية من خلال حركة القياس النفسي. ولقد صمم اختبار الفا ١٩١٧ - ١٩١٨، وأعطيه اختبار التصنيف العام، الذي اعتمد على قدرات فريستون الأولية الأربع، والتي يوقع أن تقيس النجاح العسكري. ويقر كل من الجيش والبحرية نسخة منفصلة من اختبار التصنيف العام، وأصبحت الخدمات الأخرى تحتاج لقياس القدرات والاستعداد. وبعده الحرب المتأجّلت الصناعة للاختبارات التي أخذتها من علماء النفس، كذلك احتاج لها علماء النفس الأكاديميون، وصمم المهندسون للاختبارات لكي تتناسب مع متطلباتها من الميكانيكيين. ويتطلب ذلك اختبارهم لمعرفة ماذا يناسبهم، ويقوم أصحاب العمل باختيار الشغلين وذلك بقصد تدريبهم لاستخدام الآلات (برونج، ١٩٦٧). ولقد أدرج علماء النفس في استخدام مهاراتهم في حل المشكلات العملية الملحة التي أخذتها الحرب العالمية الثانية. فإن تعبئة المدنيين في قوة مدارية على درجة عالية من الكفاءة الآلية قد تضمن مهام اختبار الأفراد لما يصلحون له.



على نحو لم يسبق لاستخدامه مثيل، وطلب من الأعضاء الذين التزموا اختيار قرارات المجتدين وتعدد آراءهم لاجمع أنواع المهام ابتداءً من تحليل الماتلاب إلى الطاعة. كذلك فإن التطورات الهندسية الحديثة، كتحليل عصر السفر في الفضاء، والأساليب الجديدة في استكشاف قيعان البحار، إنما تتطلب اختبارات القياس الاستجابية للتغيرات في قوة الجاذبية والانحرال العصي والتغيرات الأخرى غير المألوفة (فلوجل، ١٩٨٨).

وكانت المفاهيم النفسية أكثر الأدوات استخداماً في مجال المخابرات والتحكم. واستخدمت قياسات وكسلف للتكاثر القرائيين بفعالية لخدمة الأغراض المخابراتية في الداخل والخارج، ويعتبر أحد العضلات التحية التي لم استعراضها بقوة وفعالية في جميع المعلومات المخابراتية من جهة ومن جهة أخرى، جميع المعلومات من الطرفين أنفسهم بصورة مستمرة. وعندما يتم تجديد بعض العمال، الأجانب لعملات التجسس لصالح المخابرات عادة ما يجلس التعديل أداء قياسات وكسلف الكامل، ويلوم مكتب ولتندون بتأجيل نتائج التعديل في القياس، وتقارن نتائج وكسلف بمكتشف الكذب ونتائج اختبار الشخصية. ولقد اهتمت الدراسات الارتباطية بين نتائج مقاييس التكاثر ونتائج مقاييس الشخصية بالنسبة لاختبار استبطان وعمل المخابرات والتجدين في الجيش. وقد ساعد علماء النفس الأمريكيين في عملية اختبار الطباط في كثير من الدول غير الغربية. ولقد عمل مجموعة من علماء النفس في خدمة المخابرات الأمريكية، مثلاً عمل جيفر، عالم النفس بالمخابرات، على خلق نظام لروية القياس الشخصية والتنبؤ بالسلوك المستقبلي، وسمي ذلك «نظام قياس الشخصية»، والشهور مغايراتها بمصطلح «الباطن». وكان هذا النظام يعطي نتائج ممتازة عندما يقارن بنتائج قياسات وكسلف للتكاثر. وتم اعتبار ذلك مفتاحاً مهماً لكل أعمال المخابرات السرية. وعندما نشبت أزمة الصواريخ الكوبية تم استدعاء عالم النفس جيفر للبيت الأبيض لكي يقدم استشارة عن كيفية التنبؤ برد فعل خرويلوف للضغط الأمريكي. وتكمن أهمية نظام «الباطن» بأنه يتوجه لطيف طبيعة العلاقة بين ضابط المخابرات الأمريكي والتعديل الأجنبي، وهذا ما يقع في قلب عملية التجسس. ولقد استخدم نظام الباطن كذلك لمعرفة استجابة الأفراد بعد تناول الكحول. وتم التوصل إلى أنه في حالة معرفة أداء الفرد في اختبار رهون الأرقام في مقياس وكسلف يمكن التنبؤ بربود الأعمال في حالة تناول الكحول (ماركس، ١٩٧٩). ولقد ازدهرت أبحاث مقاييس وكسلف للتكاثر، دون هوانة، وكذلك كلف علاقتها الارتباطية مع بعض المفاهيم الأخرى، خصوصاً التي طورتها المخابرات لأغراض الحرب الباردة.

وتعاونت المخابرات الأمريكية مع الحكومة الكورية لتأسيس وكالة المخابرات الكورية، وطلبت محطة سيول من رئاسة المخابرات في أمريكا إرسال خبراء، فقامت نفسى لاختبار كافر جديد من ضباط الشرطة والعربية (ماركس، ١٩٦٩) واستخدم مقياس وكسلر الكوري المعدل على ٢٥ - ٣٠ ضابطاً، وتمت كتابة تقرير في نصف صفحة عن كل فرد يتضمن نقاط القوة والضعف والفترة على اتباع النظام، والإبداع، والاضطرابات النفسية، والدافعية، قدمت نتائج الاختبارات للسلطات الكورية التي اختارت المجموعة المناسبة بناءً على توصية الطبيب النفسي. وفي العام ١٩٦٦ عمل ضباط المخابرات مع أحد علماء النفس في اختبار ضباط وحدة الشرطة في أرجواي وفي قسم مكافحة الإرهاب الذي يحارب عصابة حركة تورميادو، وخلق مقياس وكسلر على ٢٠ مرشحاً، وأوصت الدراسة بتقديم توجيه صارم للمجموعة، ويبدو أن مساعدة علماء النفس في عملية اختبار ضباط الشرطة الصوريين في كل من كوريا وأرجواي التي يمكن التحدث عنه هو مجرد اختبار رجال المباحث والمستجوبين المتنازعين في هاتين المواقف ولم يكن الهدف هو مجرد المساعدة في الاختبار، وإنما المقصود منه تحديد أهمية الأنشطة التي يمكن أن يستسلموا في المستقبل للمخابرات الأمريكية، وتوضح عملية التعرف هذه نوعية التفاعل والاستجابات بين علماء النفس في المركز الأمريكي وفي الخارج، وقد يتم التنازل هنا إذا كانت هناك علاقة بين علماء النفس في أمريكا وعلماء النفس في العالم العربي، وحقاً أكبر من غير نحفظ بين سيكولوجي المخابرات الأمريكية وسيكولوجي المخابرات العربية؟

ومن المجالات التي اهتمت بها جمعية البيئة الإنسانية (ماركس، ١٩٦٩) أبحاث خط اليد، وتم توظيف نتائج تلك الأبحاث كملحق بالنسبة لنتائج الباس، وتم دعم بحث عن المظبوطات الألمانية في هذا المجال. وهناك اهتمام بهذا الموضوع في ألمانيا أكثر من الاعتماد به في الولايات المتحدة، وتم توظيف نتائج دراسات خط اليد مع نتائج الباس ونتائج مقياس وكسلر، وليس من السهولة إجراء مقياس وكسلر على ديبلوماسي، ووسى في أمريكا أو أي فرد آخر كان هدفًا للمخابرات، وفي الحرب العالمية الثانية واجهت المخابرات الأمريكية مشكلة في دراسة شخصية هتلر، وطلب من أحد العلماء عمل صفحة نفسية عن القائد الألماني، ولقد تم كذلك توظيف تقنيات التحليل النفسي لغرض شخصية هتلر، ومعرفه نقاط ضعفه التي يمكن استغلالها، وبرزت لدى علماء النفس فكرة بأن هتلر ربما تكون له ميول أنثوية، وتم اقتراح محاولة لوضع هرمونات أنثوية في طعامه، ولقد تم

بالتفعل عمل تحليل لكل المعلومات المتبعة من هنتر بواسطة المحررين مع هيئة من خط يده وسطوكة وندراج تفكيره التي تنطبق مع الخصائص الموجعة للنتائج هيئة من ٢٩٠٠٠ أجروا اختبار وكسلف. يسمى ذلك والقياس غير القياس. بالإضافة لذلك فقد تم دعم دراسة أخرى تتعلق بمقارنة نتائج طط اليد. ونتائج مقياس وكسلف الذكاء على هيئة من المرضى النفسيين، والمجرمين، وهاربين من الأزياء، والوطنيين والسحاقيات. ولقد قام أحد علماء النفس الثقاعدين من القابرات بتطبيق مقياس وكسلف للذكاء على معرضة أمريكية نشرت جسدها لطعمة دولتها، وكانت القابرات تريد منها أن تنام مع أحد الروس لفترة من الزمن، فإذا أن يقع هذا الدبلوماسي في حبها ويتم استماتته أو ابتزاز، بغضبة جنسية، واستخدم الجنس - ويستخدم بفعالية- في عمل الاستطيرات. ومن طريقة يمكن لتجيب وإبزاز العملاء أنفسهم لحد الاتيهار النفسي، وكما عبر فونهورت (١٩٦٠، استكر - ١٩٨٠) «يستطيع المرء أن ينجح شعبا كما ينجح الأسود بالاستعانة».

وإن علاقة الجنس بعلم النفس، أو بصورة معكوسة، علاقة علم النفس بالجنس، وعلاقة الجنس بالقابرات علاقة لا يفتتها التحديش الدليل-أراحتي الملاحظة الجارية. ويبرز علم النفس الغربي بولود ذكرى قد يكون ناديا لا يجد طيفة تحيلا إلا في الترة-ماروكية، وحينها تتجانب القطاب الغناطيس المتشجرة في نوع من المتأكمة السيكلوجية، التي تتولد فيها عناصر التضاد والطباق والمقاومة المتكامل بعضها للبعض الآخر. قد تقوم بعض المستنات أو المومسات اللاتي تدربن بتكنولوجيا السلوك أو اللاتي رزقن بمواهب عظيمة في الخوابة المستمثلة وعلاقتها بالغة التعقيد بالمعرفة، وتؤدي إلى متأكمة وعضية باطنية يستخدم فيها الحيوان النفسي الضاري، والحيوان الجسدي التروع في بعض الأحيان بصورة مطرسة وغالية. وقد يتم التساؤل كيف تعمل هؤلاء المستنات العائقات في حفظ التوازن المزوج والديق ما بين العاطفة والمهنة، وفي ظل الاستطيرات قد يتساءل أحد بصورة غير مستورة، كم من حسناء المانية أو إنجليزية أو روسية أو أمريكية أو إسرائيلية نشرت جسدها وأظهرت شبطها لتقديم خدمات جليلة لبعض العرب في الأماكن أو المناطق الحساسة؟

ولقد اقتضى ترتيب الجسديات تبعاً لتطور التراكيب، في تطور علم النفس وعلاقته بالحرب الباردة، وإن «المتأكمة السيكلوجية للظومانية» تقع في قلب عملية التجسس والحرب الباردة، وقد أدت هذه المتأكمة العشرية الانشائية، أمشلاً صار ضحيتها يحيى الشمد، العالم المصري

والعقلية الغدة، الذي كان يعمل في المفاعل النووي العراقي. والذي سافر لفرنسا لاستلام بعض المواد المشعة، وفي إحدى فترات باريس العاصفة باستخباراتها زهقت روحه بهند، وبمرافقة مع حسدا، فرنسية، أو مومس فاضلة، قد يكون العنوان عنوانا متراجعا بصورة إيجابية فائقة من غيبوبة الشعور، فالتصا في اتصال اللاشعور، حيث نذهب بعدها الروح مع الروح بصورة مفاتيحية.

### التنويم

واستخدم التنويم في الاستخبارات عند بعض الدول على نطاق واسع، وإن احسن الأسرار في بعض الأحيان تستحضر عن طريق تنويم شخص والطب إلى الإيمان بالجواب. وليس هناك تقنية في مجال التحكم العقلي حين الانقياد العام أكثر من التنويم (عام الجواسيس، ١٩٩١). وكان أول من توصل إلى إيجاد حالة النوم الهادئ، «الغيبوبة»، وهي الحالة التي تعتبر جانباً أساسياً في التنويم هو المركيز بيسجور أحد تلاميذ مسمر، فبينما كان يحاول إحداث الحالة الغيبوبة العصبية التجسرية العادية لشاب، وأمر قبله ببعض فيكتور باستخدام طريقة التنويم، اكتشف المركيز أن فيكتور راح في نوم هادئ، لم يستيقظ منه إلا بعد وقت طويل، ولم يستطع فيكتور أن يتذكره بعد أن اتفق لنفسه وحالات فقدان الذاكرة في حالات شائعة من حالات الغيبوبة العميقة، وهي حالات لا يستقرم الإيجاد بها للشخص النوم، ولكنها حالات تعتبر نتيجة لثلاثية لحالات الغيبوبة العميقة. فإذا لم تكن حالة الغيبوبة عميقة بالدرجة الكافية، يجب على النوم أن يوصي إلى الشخص النوم بضرورة إسيان كل ما حدث، وخاصة ما تفاع مع هذه الأنوار بسهولة. ولذلك فإن هناك استمرراً بين اللحظة الأخيرة قبل أن يروح الشخص النوم في غيبوبة، وبين اللحظة الأولى عندما يستيقظ وهو لا يذكر تماماً أي شيء، حدث بين الممثلين (صلاح نصر، ١٩٩٨).

وفي أوائل الحرب العالمية الثانية في أثناء علاج حالات الأمراض العصبية الحادة الناجمة عن ثورات الحرب، أصبحت قيمة بعض العقاقير المعينة والخدعة في مساعدة المرضى على التخلص من الانفعالات التي عطلت بأنفسهم نتيجة المدن الخفيفة التي تسببت في انهيارهم العصبي. وكان قد سبق أن اقترح وإيم براون أن التفرغ الانفعالي غالباً ما يكون وسيلة أكثر فعالية بكثير في شفاء نورسافانيا الحرب عن مجروح الإجهاد تحت تأثير التنويم، فالإجهاد يزيل الأعراض ولكن

التخلص من الانفعالات يزيل أسباب الأعراض، إذ تعددت إعادة الارتباطات المسماحة بشكل كامل، ومع ذلك فإنه يصعب أن يكون للأبعاد دور مهم في الشفاء - بواسطة التخلص من العقد والرفيات المكتوبة بعملية التطويق الانفعالي. وفي العام ١٩١١ استخدم «الثير» بدلا من البريتوريت الأحداث عمليات التخلص من الانفعالات فلاحظ تحسن مباشر في سلوك المريض. ويصف سارجنت ذلك بقوله: «في أغلب الحالات أعدد «الثير» انفجارا انفعاليا بدرجة أكبر مما يحل محلها سبيل ملاحظته باستخدام العقاقير الأخرى، وكان من نتيجة ذلك أن اتخط المريض في سريره للمخاض شكلا دراميا أو مجزئا». وكانت هناك ملاحظة أخرى تثير الانتباه وهي أن حالات الانهيار المفاجيء بعد الانفجارات الانفعالية يتكرر حدوثها ويستمر أكثر مما يحدث من استخدام التنويم أو البريتوريت (علاج نصير، ١٩٨٨). وفي أواخر الأربعينات، اشتهرت وكافة الممارسات الركونية التنويم وجرت اجتماع مطربين مثل الجوكوبل ونيوتال الصوريوم ونيومها امفاسين قوي، مثل مكسين ارميزوكسين، وكانت **الفكرة** الملاحظة على عالم مثاقيل من الشعور واللاشعور. ولقد تم تطبيق نهج جانج الحثوي على مخدرات التبول عن طريق الأوردة، لها ساعد ومساهمات للتحكم بالتقبل بحيث يمكن الحفاظ على التلخيص في الحالة الرقوية والمطوية. وأدى هذا البحث في التحكم بالسلوك إلى اشتهار الهورين والبرفين والتيلاندون والتوكوكابين وحاضن السيرجنت. وتم بحث مخدر الحقيقة وهو الخمر الذي يوصل إلى الحقيقة أو إلى اعتراف صريح من قبل المستجوب. تستعمل الطفرات مع التنويم والإكراه. وعندما لن يحتفظ الشخص المستجوب بأي سر لفترة طويلة (يوست، ١٩٩٠).

ولقد تم التساؤل هل من الممكن إقناع الأشخاص تحت تأثير التنويم بأن ارتكاب الجرائم أو المملوك بما يتعارض مع أخلاقهم ومعتقداتهم وفي إحدى التجارب التي أجريت على جندي أمريكي وضع في حالة غيبوبة في حضور ضابط برقي كبيرة من الجيش، وعلق ضابط برقية عليه أمام الجندي وعلى مسافة ١٠ أقدام منه تم وضع الجندي حينئذ في حالة غيبوبة، ووجه إليه هذا الإيحاء: «سوف تفتح عينيك بعد دقيقة سوف ترى أمامك جنديا بافنيا، إنه يمسك بالسوكني، وهو يستعد لقتلك إذا لم تبدأ بقتله. عليك أن تخضع بيدك، وتفتح العيني، وبدأ يلحظ للأمام بيده. وأخيرا قلل فترة سرعة وأطلق الضابط، وبدأ يضرب رأسه ويخطف يديه. وتطلب الأمر ثلاثة

رجال لشدة وإيعاده عن الضابط، ولم يعد إلى هدفه إلا بعد أن استطاع القوم أن يرسله في سبات عميق. ولقد قال الضابط إن هجوم الجندي عليه لم يكن تعثلاً، وأنه كان من الممكن أن يقتله أو يعصبه بإصابات خطيرة لولا أن عب الآخرون لإتقانه. ولما كان ضارب ضابط في الجيش مخالفة خطيرة فإنه يتضح لنا أن القوم يستطيع بسهولة أن يؤثر على القوم، ويضعه على الأتبان بأفعال خطيرة (صلاح نصر، ١٩٨٨). يبدو أن علماء النفس بالمخابرات يبحثون عن مقدار أكثر وأوسع من التحكم وتشكيل سلوك الإنسان كسلوك الآلة. وتوضح الفجوة التالية حالات الفجوة التي يمكن أن توظف بصورة دراسية في أعمال المخابرات.

في الأيام المبكرة للحرب القارية حاولت المخابرات الأمريكية استخدام القوم، وأثناء بعض الضراء، بأن هذه التقنية سوف تقود إلى تقدم هائل في مجال التجسس. ووضح بأن الأفراد تحت ضعية القوم يمكن أن يتعرضوا لحالات من الشبهة والاضطراب والابتزاز. ولقد تم إجراء إحدى التجارب عن القوم سميت بـ «مرشح منشوريا» أو «القاتل المبرمج». ولقد قام خبير القوم في المخابرات بعملية تنويم أجنبي المكنونيات في حالة من الفجوة العفوية، وطلب منها الاستمرار في القوم حتى يلعبها بطريقة أخرى، ثم قام في الوقت نفسه بتنويم مكنونية ثانية وأوصى لها بأنها لا يجب أن تتردد في القيام بعملية قتل، وفكر مدسسا بالقرب منها كما كان من هذه إلا أن أخذت المدسوس وأطلقت النار على صديقها القاتلة. وعندما قام الخبير بإيقاظ القاتلة من نومها كانت قد أصيبت بحالة من فقدان الذاكرة وانكرت أنها قتلت أحدا. ولقد تم التنازل من قبل الخبير النفسي إلى أي حد يمكن أن يقوم القوم بنفس النتائج المذهلة والدراساتية في عمل المخابرات؟ وهل يمكن أن يحدث خبير القوم شخصية متصلة تماما بالتنمية للعامل؟ وإلى أي حد يمكن إرمال العامل في مهمة لا يتذكر عنها شيئا حتى يرجع ويروي إليه القوم بأن دوره قد انتهى؟ وإلى أي حد يمكن خلق «مرشح منشوريا» الذي يقوم بعملية قتل مبرمج في أي مكان، ثم لا يعرف من أمره بذلك في حالة انتهاء مهمته؟ ربما تعبر هذه المحاولة بدقة متناهية عن وجود علماء نفس أو أفراد يستخدمون علم النفس بصورة مذهلة، وربما بقسوة أقسى ممن يجرؤون حيل الشفقة أو قاطعي الرؤوس بالسيف. إن قدرنا كثيراً من علم النفس، هو بلا ريب، قدر من القناعة في استخدام تقنيات بصورة هائلة. ولم تكن التقنيات النفسية أو السلوكية، بلغة إنق، وبهذا التي تطورت، ولكن قد تطورت كذلك بدوراتها ثلاثة نظيفة من نوع الطر.

## تكنولوجيا التجسس

يقع عالم التجسس بين الحقيقة الصعبة والخيال الغريب. عرفناه في شخصية لورنس العرب الشهيرة وانغامسة، وكذلك في شخصيات جون فيلبي، وإيليا كوهين، وراقت الهجان. وفي هذا المجال ألفتنا روايات أغاثا كريستي إلى عالم بوليسي مليء بالأفعال الغريبة يتجلى فيها بطل خارق يكشف عن المجرمين، ويعمل كسحقق ومهيل وجاسوس في آن واحد. وجاءت روايات أرسين لوبين شخصية خيالية الص والوس جاسوسا ابتكرها الكاتب الفرنسي موريس لéal، وكذلك روايات جيمس بوند التي انتقلت إلى السينما وذاع صيتها في جميع أنحاء العالم. وبدأت المعيل رقم ٠٠٧ مثلاً قصصا والرائعين وموضوع اهتمام الكبار وأعمالهم (برست - ١٩٩٠). لقد تزامنت التطورات الكبيرة في مجال علم النفس بتطور آخر في مجال التقنيات التي تستخدم في عمل المخابرات والتجسس. وقد استخدم المليون والجواسيس الكثير من الأدوات الدقيقة والمزلة والتي نشاهدها في المسلسلات وفي الأفلام بقصد جمع المعلومات ومعرفة الأسرار، وفي الأفلام. وتبرز هذه التقنيات الإمكانيات الجديدة للعولمة الإنسانية. ويراد لهذه العولمة أن تعمل بفعالية وبصورة خارقة، وكما نرى بوضوح في عالم السمع والنظر العائيان غير كالمين، وصارت العائسان مدعومتين بالألات الدقيقة.

لقد اخترع جراهام بل الهاتف عام ١٨٦٨، وتطور الهاتف وأصبح أكثر الآلات الإلكترونية انتشارا في العالم، كما أصبح هيفا أساسيا للذين يرغبون في الانطلاق على أسرار وخصوصيات الآخرين، ويمكن الشخص على المحادثات الهاتفية التي تجري في الغرفة التي يوجد فيها الهاتف. وتستعمل كذلك تكنولوجيا الحقيبة السوداء في الواقع أقل مما يظهر في روايات وأفلام التجسس - أفلام جيمس بوند - وتستعمل أيضا في العالم الرمادي وهو العالم الذي تكون فيه الفوارق خيالية بين الزهائي والمقاتل من أجل الحرية، وبين الجاسوس والمقاتل. وتطورت تقنيات أخرى الحقيبة السوداء، ثلاثة أنواع السطو، وتدمير الممتلكات، والأفتالات. وتطورت تقنيات أخرى للتجسس، مثل زرع أدوات استراق السمع مثل الميكروفون البلوري، شرائط التسجيل، أدوات الاستراقاق الراديوية، وتعديل التردد. كما استخدم علم الأعطاء - والذي يحتوي على الشفرة والرموز - آلات الخطا، مثل التلفز والأرجوانة. ومن الأدوات القدرات للاتصالات، الحبر السري مثل الحبر العشري، والحبر الكيميائي المشع، وحبر الرصاص الغرمي، الميكرو فيلم والنقاط الصغيرة.

ويمكن وضع المسدسات في الأحذية وفي الأقلام وفي الأدوات الموسيقية والكاميرات مثلاً يمكن وضع لعبة سهام السريّة للأطفال في حقيبة صغيرة (يوست، ١٩٩٠).

بالإضافة لذلك يمكن تركيب هذه الأجهزة الصغيرة في المحيطان. وفي قطع الآلات. وحتى تحت البلاط. وفي قلب سماعة الهاتف. بل كذلك نسجها في أحد الكتب. أو حتى في الزر الذي يضاء به الصباح الكهربائي أو حتى تحت منقطة المسجاتر. والاستعمالات كثيرة جداً ولكنها يمكنها بحسب صغر حجم الجهاز ونوعه. وهناك أجهزة أصغر. وهي على شكل زر الجاكيت أو الخاتم أو مركبة في ساعة اليد أو موضوعة في كعب الحذاء. أو في القلم أو في ولاعة المسجاتر الصغيرة. وتم اختراع آلات التصوير بساعة اليد. الولاة. العنسة الكورة. كاميرات التصوير من خلف الجدران. زرع الأذن في المحيطان. الحذاء. القلنس. والمسدس الصامت. وربما كانت الطائرة للقلعة بعمامة مصغرة. هي الحرب والتمسك وسائل نقل الوثائق والعروضات وكانت تلك الطائرات صغيرة بحيث لا يلتفتها رادار ولا تراها العين المجردة. وتستعمل أحياناً بعد أن تخط على الأرض. وقد أطلق جنود فرنسيون العيرة على جدران طائر وأكلتها أن يعمل الآن لصغيرة موجهة نحو الأرض. بحيث تلتقط صورة واضحة أثناء نطق الطائر. لقد أعطت هذه الأدوات رخصة للابتداعي الشجيرة لاستخدامها بالنسبة للأعداء. وربما المصوم أو المعارضين. وبعدها النصف الثاني من القرن العشرين هو طائرات يلوها جواسيس الجو (عالم الجواسيس، ١٩٩١). كما استخدمت الشفرات الدبلوماسية. والترميز وتلقينات التصوير من ارتفاعات عالية. والتصوير الاستطلاعي. الذي يستخدم بصورة ذكية. وسهل بواسطة الحصول على معلومات دقيقة وإجراء اتصالات في غاية من السرية. وقد تستخدم أحياناً في عمليات مستورة وبصورة زمنية. كما حدث في محاولة الخيال خالد مشعل بالآرمن.

### دعم المخابرات للأبحاث

لقد ذكرت جريدة موانئ استون. في عددها الصادر يوم ١٨ يوليو ١٩٩٤. أن وكالة المخابرات الأمريكية تستخدم بعض التقنيات الخاصة للقيام بدراسات نفسية لبعض العملاء الجدد والقدامى في مجال التجسس.

ويؤكد جنتار أن شركة زملاء الفلاس النفسي التي تتخذ من واشنطن مقراً لها. تعتمد أعضائها



كلها على دعم الطائرات الأمريكية ويقوم الشركة بتقييم الأشخاص ولا تستهدف الشركة المواطنين الأمريكيين. ولا يرى جنتزر أن هناك مشكلة أخلاقية في دراسة نقاط الضعف في الناس، ولأنهما إذا كان ذلك يساعد الطائرات الأمريكية في الحصول على معلومات مهمة. ولقد اعترف جنتزر أن شركته قد قامت بإبحاث عدة لصالح وكالة المخابرات الأمريكية لتطوير بعض الاختبارات النفسية المتحررة من التحيز الثقافي. ولقد تم تطبيق هذه الاختبارات على عينة من الأجانب من غير علمهم بأن اختبارهم كان لصالح المخابرات الأمريكية. وقامت الشركة كذلك بتطوير نظام لتدريب رجال الطائرات في كيفية إجراء ملاحظات سيكولوجية مفيدة بالنسبة للأجانب. ولقد أنشأ جنتزر شركة زملاء القياس النفسي لتقديم خدمات نفسية للشركات الأمريكية في الخارج. وقام جنتزر شخصياً بافتتاح فرع للشركة في طوكيو، وانتقل تلك الفروع إلى هونغ كونغ لخدمة محطات الطائرات الأمريكية في الشرق. وصل ١٥ متخصصاً في القياس النفسي إلى إجراء عمليات القياس في بقية أنحاء العالم.

ولعبت المخابرات الأمريكية (داركس) دوراً كبيراً في تطوير بعض الأبحاث عبر الثقافية في علم النفس، مثلاً أبحاث القدرة على فهم المعاني والتعبير عن المشاعر، والخصائص الثقافية، وتلقين الاختبارات المتحيزة ثقافياً، ودراسات الذاكرة الاجتماعية والاتجاهات داخل وخارج أمريكا. ولقد لعبت عملية التطوير هذه دوراً أساسياً في تدعيم علم النفس عبر الثقافي خاصة. فهناك الافتراض القائل بعدم صلاحية علم النفس الغربي للتطبيق في الثقافات الأخرى، ما لم تجري عملية تعديل أو تكيف أو تلمين صارمة له في المجتمعات والثقافات غير الغربية. ولقد استوجب جنتزر بأن مفاهيم وكلمة الغربية هي متحيزة ثقافياً، ولقد ذلك إلى عمل نماذج معدلة من نظام القياس، لكي يتناسب الأمم المختلفة في العالم. ولقد أظهرت أبحاث القياس النفسي أن هناك علاقة ارتباطية بين النتائج العقلية واختبار رموز الأرقام، واختيار رموز الأرقام بعد الاختبارات الغربية لقياس وكسلر لذلك، (الراشدين (وكسلر، ١٩٨١). لذلك يقال بأنه من الافتراضات التي تمتنع من اختبار انقلام المخابرات. وقد اشتهر بروفيسر اسجود، عالم النفس الأمريكي الشهير ورئيس الرابطة النفسية الأمريكية بأبحاثه عن كيفية تعبير الناس عن نفس المشاعر في ثقافات مختلفة عندما يستعملون كلمات أو مفاهيم مختلفة. والأبحاث اسجود علاقة مباشرة بعمل المخابرات، ولأنهما مفهوم القدرة على فهم المعاني. ولقد كتب اسجود مباشرة للمخابرات الأمريكية طالباً

دعنا مالبا لنشروع بعثي لدة خمس سنوات. ولقد ساهده ذلك الدعم للمسفر لدول عدة وتوسع أبحاثه عبر الثقافات لكي تغطي ٢٠ ثقافة مختلفة ولقد شكر أسجود رابطة البيئة النفسية على دعما السطفي في تقديم أبحاثه والتي كانت تتواءم مع أهداف التطورات. بالإضافة لذلك فقد تم تشجيع العلماء السلوكيين للبحث عن شيء يمكن أن يثير الحساسية الثقافية لليابانيين. وقد تم الاقتراح بأنه لا يوجد شيء منقول الجفندي الياباني أكثر من حركة بطنه أثناء السير وتم إنتاج تكتيكات لخفض الروح المعنوية للفرد الياباني. ولقد قدمت رابطة البيئة النفسية متعة مالية إلى جامعة استانبول في تركيا، وذلك لدراسة أثر الختان على الأطفال الأتراك. وأظهرت نتائج الدراسة بأن الأطفال يتم ختانهم بين عمر ٥ - ٧ سنوات. وترابط عملية الختان في ذهن الأطفال بأثار نفسية مع أعراض الانسحاب. وينظر الأطفال لهذه العملية التؤلة كعملية عذابية.

ولقد قدمت الرابطة كذلك دعما مالبا إلى عالم النفس الاجتماعي اسلم مظهر شريف وزوجته لبحث سلوك العصبيات وسط الأطفال من خلال دراسة البناء الاجتماعي، والإنجابات بالنسبة للعصبيات، وكيفية تحويل السلوك الخلق- اجتماعي إلى السلوك المعادي لتجميع لسلوك بناء. ولقد استخدمت نتائج عمليات شريف في عمليات التطورات السرية. وربما كان الهدف هو كيفية تحويل المهارات والتفورات الخاصة في سلوك العصبيات لهارات أكثر فائدة لأعراض التطورات. ووجد كارل روجرز- الذي اشتهر بمنهج العلاج الموجه - دعما مالبا كبيرا من جمعية البيئة الإنسانية. ويذكر أنه ليس لديه اعتراض في خدمة التطورات. بل كان فضولا بدعم الجمعية له كاستشاري لها. واستلم بروفسر كيلمان، أساتذ علم النفس بجامعة هارفارد متعة من جمعية البيئة لنشر كتاب يسمى السلوك العالمي عام ١٩٦٠. وقدمت الجمعية كذلك متعة مالية إلى إيرلند عالم النفس البريطاني بجامعة لندن. لنشروع أبحاثه عن الدافعية. واستلم أسكر دعما مالبا من الجمعية لدعم مشروع كتابه ما بعد الحرية والكرامة والذي ترجم للعربية بعنوان «تكنولوجيا السلوك الإنساني». ولقد قام أسكر بتدريب المحام على توجيه القنابل لخدمة التفراج أثناء الحرب العالمية الثانية. ولم يقتصر دعم الجمعية للأبحاث داخل الولايات المتحدة. بل كانت هناك قاعدة بأن تقرّب وتغاثج الجمعية أي عالم أكاديمي في أي مكان في العالم. ولتأبعة التطورات الهائلة في العلوم السلوكية، فإن مثالي رابطة البيئة الإنسانية كانوا يقومون بزيارات منظمة للأفراد الذين استلموا

وصا مالبا من الجمعية. وأصبح هؤلاء العلماء المشهورون علماء جواسيس للمخابرات الأمريكية (ماركس، ١٩٧٩). بالإضافة لذلك فقد تم توجيه دعم المخابرات الأمريكي إلى بعض علماء النفس وبرفقة بعض ضباط المخابرات للقيام بعملية تفهيم سيكولوجي سرّي لبعض القادة الأجانب خارج أمريكا (بولاق سلون، ١٩٧٢). وبشكل إن زيارة جورج بوش للسودان في الأيام الأخيرة لفترة الرئيس نيكسون كانت مصحوبة بعالم نفس متخصص في سيكولوجية الشخصية لكي يقوم بعملية تحليل شامل لشخصية نيكسون. وما إذا كان يصلح للاستمرار في الحكم أو لا يصلح. كما يقال إن التقرير السيكولوجي تضمن بعض سمات عدم الاتزان في البناء النفسي لشخصية نيكسون مما يحرق استمراره في الحكم. وحياها نخب جعفر نيكسون مع امراج الروح.

### علم النفس والعلاقات العربية - الإسرائيلية

منذ عام ١٩٢٠ ظهرت مجموعة من علماء التحليل النفسي اليهود من ألتانيا النازية للاستقرار في فلسطين. ومنذ تلك المرحلة المبكرة هناك بعض الأنشطة السيكولوجية، مثلاً فقد عمل ماكس ايتلقون على إنشاء جمعية فلسطين للتحليل النفسي. ولدت أول محاولات لإشغال علم النفس في الجامعة. وكان سيمونون فرويد عضواً في مجلس الجامعة العربية بالقدس. وتم ترشيح كيرت ليفن لقيادة قسم علم النفس بالجامعة. وبحرير عام ١٩٢٦، تم تأسيس معهد التحليل النفسي بواسطة ايتلقون. وتم تأسيس كرسي فرويد للطب النفسي في الجامعة العبرية بدماركة من أتا أبة فرويد. وأصبحت القدس حينها مركزاً وتعمدية لتقديم التحليل النفسي على المستوى الفكري والبحثي. وتم تأسيس أول قسم لعلم النفس عام ١٩٤٧ في القدس. وفي عام ١٩٥٨ تم تأسيس قسم علم النفس في جامعة بار هيلان. بينما تم تأسيس القسم علم النفس في جامعتي تل أبيب وحيفا عام ١٩٦٦. وكان علماء النفس في إسرائيل منظمين منذ تأسيس الرابطة النفسية الإسرائيلية عام ١٩٤٧، وكان عدد الأعضاء حينها ١٧٠ عضواً. ومنذ عام ١٩٥٥ شارك ١٠٠ من علماء النفس في المؤتمر القومي لعلم النفس، بينما شارك ١٠٠٠ في المؤتمر العشرين عام ١٩٨٥ (بن عري، وعدير، ١٩٨٦). واتضعت الرابطة النفسية الإسرائيلية إلى الاتحاد الدولي للعلوم السيكولوجية منذ عام ١٩٥١ (روزنزوج، ١٩٨٢).

في إسرائيل تجري الأبحاث السيكولوجية في معاهد عدة عامة خارج إطار الجامعات، مثل معهد جنتان للبحث الاجتماعي التطبيقي، ومعهد جداسة للتربية المهني، ومعهد دراسات التعليم في الكيبوتز، ومعهد حرميا للبحوث في العلوم السلوكية. وخلال الثمانينيات كانت هناك تطورات كبيرة في أبحاث علم النفس منها: تأسيس برامج لعلم النفس الصناعي في معهد حيفا للتقانة، وبرنامج للدراسات العليا في جامعة بن غوريون، ولقدوم برامج الماجستير والدكتوراه في كل من جامعة تل أبيب، وجامعة حيفا، وجامعة بار غلان، والجامعة العبرية، وتشمل كل أبحاث علم النفس في إسرائيل من المبررات العامة. وتعتبر أقسام علم النفس في إسرائيل من الكبر الاقسام في الجامعات الاسرائيلية، ولا يقل في هذه الاقسام إلا هؤلاء الذين لهم إنجاز دراسي عالٍ، وقدرات عقلية عالية، ويكون معدل الرغوض في بعض أقسام علم النفس ٦٥ من ١٥ مرشحاً، ولغة اخرى، يقل طالب واحد بين كل ١٥ مرشحاً. إن الحاجة الكبيرة لخدمات علم النفس في المجتمع، والتي توجبها الحاجة الملحة لدراسة علم النفس، والتي تسمح باختيار الطلاب من ذوي القدرات العالية لبرامج البكالوريوس في الجامعة، والتي يشهد إقبال الطلاب من ذوي القدرات العالية لبرامج الدراسات العليا، مما ساعد على إنتاج مهندسين على من المتوسط في علم النفس، مما أدى لتطور إنتاج سيكولوجي عال من جانبية التطبيقي والعلمي، ويعمل كل ذلك على استقرار المستوى الرفيع لعلم النفس في المجتمع، وربما يعمل على زيادته. في الوقت الراهن أصبح علم النفس واحداً من أكثر المهن الرغوبة في إسرائيل، ولفترة طويلة من الزمن كانت تفضل الأم الاسرائيلية ان يكون ابنها طبيباً أو على الأقل محامياً، ولكن حالياً انضم علم النفس لهذا النادي الرفيع (بن حري، وعصر، ١٩٩٦).

يعمل علماء النفس الصناعيون في قوات الدفاع الإسرائيلية، وفي المؤسسات الخاصة ببناء معايير للاختيار المهني، وتطوير إجراءات التدريب والتفويض، وهناك وحدتان لعلم النفس في قوات الدفاع الإسرائيلية تهتم بإعدادها بعلم النفس الصناعي، وتهتم الأخرى بالصحة النفسية للجنود. ومنذ تأسيس قوات الدفاع هناك تأكيد على الجوانب الخاصة بالحاجة الملحة للخدمات المهنية لعلماء النفس. وكان أول هذه الخدمات هو ترقية نوعية الأفراد، وترقية المؤسسة العسكرية، وذلك نتيجة للقلة العددية للجيش الإسرائيلي مقارنة بجيش الجيران (العرب) وشهدا لذلك فقد تم اعتبار الخدمات المهنية والتوجيه النفسي القديم بواسطة علماء النفس ضرورية، ويزعم على أهميته

كعامل خطير بالنسبة لقوات الدفاع الإسرائيلية. وكانت هذه الخدمات السيكولوجية محط تقدير واحترام من قبل القادة، والتي لم استغلها أقصى حد ممكن وتضمنت وظائف الخدمات السيكولوجية القياس والاختيار العام، والتشخيص التحدد للوحدات الخاصة، وتطوير وتطبيق التقنيات الفريدة للتدريب والتي تضمنت تدريب القادة، وقياس الروح المعنوية، وتوفير المناخ العام للمؤسسة العسكرية، وتطوير تقنيات التدخل في أوقات الأزمات. إن أحد الظواهر الفريدة للقوات الدفاع الإسرائيلية هو توظيف علماء النفس كاختصاصيين ومستشارين في كل المستويات القيادية. وهناك قسم خاص للأبحاث السيكولوجية في قوات الدفاع الإسرائيلية، قام بإجراء أبحاث واسعة عن كثير من الجوانب السيكولوجية للجيش. وتشبه هذه الوحدة في أنشطتها للمؤسسات المماثلة للقوات المسلحة في الولايات المتحدة الأمريكية. والأسباب والعسمة ليس من الممكن توضيح نوعية الأبحاث السيكولوجية التي تجري في هذه الوحدة (بن عري، وعمير، ١٩٨٦).

## الحرب النفسية

ساعدت عوامل عدة على تطور أبحاث علم النفس في إسرائيل، ومن بين ذلك أن الروابط السياسية والتاريخية الوثيقة بين إسرائيل والولايات المتحدة، وكذلك بالنسبة للعمل الغربية الأخرى، جعلت إسرائيل من نواح عدة امتداداً للغرب (الوتر، ١٩٨٠) وهناك علاقات متداخلة بين علم النفس في إسرائيل، وبين التاريخ السياسي والاجتماعي لليهود. وكانت مجموعة المهاجرين لإسرائيل من ألمانيا النازية مجموعة مشردة جسدياً، وثقافة للهوية عثلية، وثقافة باقراط ولم يتقبل في قلوبها اعتقاد في الإنسانية، مع قليل من الأمل للمستقبل (عمير، وبن عري، ١٩٨٦). في تدريبي، هذه الشخصيات الجسدية، والعقلية، والعاطفية، والمستقبلية، التي تمت إعاقتها بفعل قنطرة تتطلب إيجاد نوعية محددة من علم النفس يستجوب لمساعدة هؤلاء الأفراد والجماعات. ولقد عمل علم النفس المناسب لهذه الفئة من دون شك على تطور العلم من ناحية نظرية وتطبيقية، يستخدم بفعالية في بناء الذات المشردة، والثقافة للهوية، والثقافة للاعتقاد في الإنسانية من جهة، ومن جهة ثانية يستخدم بفعالية في صياغة أدوات مناسبة البقاء في محيط عدائي. ونتيجة لذلك تمت صياغة الكثير من أدوات الحرب النفسية الفعالة مع الأعداء، والتي تعمل بدورها على تهديم ذات الآخرين. ومن ناحية سيكولوجية، يمكن القول إن اليهود كانوا ضحية لإسقاط التعذيب المبع

عليهم بغاطية من قبل الخارجية الألمانية، واستطعت إسرائيل عملية البشاعة تفعلها في حربها النفسية مع العرب.

إذا تحريدا الدقة، يبدو انه ليس هناك من يستخدم بغاطية العرب النفسية كما تستخدمها إسرائيل في حربها ضد العرب. فهي تشن حربا نفسية ضروسا، لا تلي ولا تلي ولا تلي. وإن إسرائيل كما يقال، إحدى الولايات الأمريكية، فهناك علاقة دافئة بين التطبيقات الأمريكية والتطبيقات الإسرائيلية لعلم النفس. وقد يستعمل الجانبان تحديد ما هو أمريكي وما هو إسرائيلي. يقول فيصل علاف: إن الحرب النفسية الإسرائيلية هي الشكل العملي للعناية الصهيونية بالوجهة ضد الشعب العربي والقوات المسلحة العربية، وذلك بغية التخل من الشعب والجيش، وتحطيم إرادة القتال والصمود عند الجيش. فتمتلك إسرائيل بذلك من حسم الصراع لصالحها (نوفل، ١٩٨٦) ويضيف غازي وباعه: إن إسرائيل توالي جهاز الحرب النفسية عدوة كبيرة، لأنها وقت الحرب ضد الجيوش العربية، ينفذ التأثير على معنويات هذه الجيوش من خلال مختلف وسائل الإعلام والنشر (نوفل، ١٩٨٦). وقد أعطت إسرائيل على وسائل الحرب النفسية التي تشنها على العرب الكثير من الشجرات والوسائل الفنية. وأعلنت على منصات علم النفس لتأثير في عقول الناس ونفسياتهم، وتحطيم معنويات القتال العربي من خلال زرع اليأس والفنوط عنده، وتصوير استحالة تمكنه من تحقيق أي تقدم أو نصر على الجندي الإسرائيلي. ومن أجل ذلك دأبت الأوساط الحاكمة في المؤسسة العسكرية الصهيونية على طرح الفولوات وشج الأساطير حول قواتها المسلحة، فبجيشها لا يقهر، والعسكري عندها لا يعرف الشدة أو التراجع (نوفل، ١٩٨٦). ويعرض نزار عمار محاولة إسرائيل لاستغلال الخلافات والشائعات العربية، حيث تسعى الاستخبارات الإسرائيلية للحصول على معلومات دقيقة تساعد على وضع خطط تعرضية، تهدف إلى تحقيق التجارة والنفرة داخل الدول العربية، وشل الصف بين الدول العربية، وذلك بتعذية الأفكار الإقليمية، وتعرض الفئات الانفصالية، واستثمار المناقضات المتعددة لذلك فهي تجمع معلومات حول شخصيات الزعماء، ورؤساء الحكومات وزعماء المعارضة وقادة العمل السياسي، وكل ما يتعلق بالهيئات والتنظيمات السياسية ونظم الحكم والأحزاب السياسية وتكوينها، ومدى الدور الذي تلعبه الأقليات (نوفل، ١٩٨٦). وينتقل الحلف النفسي للخطاب وفي رسم صورة العرب في المطال الغربي، وحتى في المفاوضات، وفي المعلوماتية.

يقول أنيان أركند، في خطاب الفاء سنة ١٩٦٧ في نيويورك: إنه بواسطة وكالات الأنباء العالمية يفسل اليهود استعدادكم، ويعرضون عليكم رؤية العالم وأحداث كما يريدون هي، لا كما هي الحقيقة. وبواسطة الأفلام السينمائية، فخلال ساعتين من الزمن، وهي مدة عرض فيلم سينمائي، يسمو اليهود من حقول شجائنا وإجرائنا الطامعة ما نفسى العلم والمدرسة والبيت والمربي ستة أشهر في تعليمهم وتلقينهم وتربيتهم (توفال، ١٩٨٦).

ولقد نشرت الاستخبارات الإسرائيلية عددا من الكتب، وطلعت عددا من الكتاب الإسرائيليين، وأصدرتهم ببعض الروايات والعلوم حول نشاط الاستخبارات، ليتقروا حياضها بالأسلوب الذي تهدف إليه، وهو إظهار الفرق العسكري الإسرائيلي ومقدرة وهيمة جهاز الاستخبارات. ومن هذه الكتب «تطهنت الطائرات عند النجزة» و«الهراج عند الفلج» و«عين تل أبيب» و«الهيمنة الشرفية» و«حرب الطفل» و«ليتمان في القدس» و«قروها من الكتب التي تعاقب التأثير على أفكار القارئ العربي» و«دعاة بفترة الاستخبارات الإسرائيلية وتلقوها» وليس أقل على ذلك من استغلال الاستخبارات الإسرائيلية لخدمة الجيوش إيلي كوهين، فقد أصدرت الاستخبارات الإسرائيلية العديد من الكتب حول المسألة، حتى إذا الماثل العربي بقضى من وجود الفزود من استأله في أكثر المراكز السياسية في القطر. وقد تأملت الاستخبارات الإسرائيلية بقمية هذا الطوف وتعديته، وإعادة طبع الكثير من الكتب، وأعتبرت قضية كوهين التالام الفكري، والسلاح السيكيولوجي الفعال لإقناع العرب بأن الجواسيس الإسرائيليين مثليون بينهم ويعرفون أسرار أقطارهم أكثر مما يعرفون هم عنها (توفال، ١٩٨٦).

يكشف نزار عمار في كتابه «الاستخبارات الإسرائيلية» بأن دراسة خاصة كشفت أن الاستخبارات الإسرائيلية تقوم بعملات خطف الأولات تتراوح أعمارهم بين ١٢ - ١٥ سنة، ولتحقق بمراكز خاصة تابعة لها، تشرف عليها مجموعات من الطيار، الفلسطينيين، مهمتها تنمية جميع مواقع والشكل الاعتراف لدى هذه المجموعات، وأهمها الاعتراف الخلقي، فتدفعهم إلى تعاطي المخدرات، والإيمان على الخير والجنس في من مكررة، وتضعهم على الشكوى، ويضع ذلك تلقين فكري ومؤثرات تنمية تستهدف دفعهم مستقبلا للانضباط في قواعد الدعاتيين ليتقروا ميوز الاستخبارات الإسرائيلية داخل جسم الثورة (توفال، ١٩٨٦). وربما تستخدم هذه المجموعات للثورة في أصال التطريب خارج إسرائيل، خصوصا في بعض الدول العربية عندما يدان مصدر

مرحلة جديدة. ثلث خروج القوات البريطانية من منطقة القناة، والمواجهة الباشوية مع إسرائيل. جند الإسرائيليون الذين كانوا يحشون قيام علاقات حسنة بين عبد الناصر والعرب مجموعات لتخريب من اليهود الفيلدين بمصر لتهاجم المنشآت البريطانية والأمريكية في القاهرة والاسكندرية. وكان الإسرائيليون يملكون من هذا تحميل المسؤولية لعبد الناصر. ولكن انكشاف هذه المخططات في منتصف العام ١٩٥٥ تسبب في سقوط حكومة شاريت. (بلوش وجيرالد، ١٩٨٧).

ويبدو ان ثمة تعاوناً كبيراً بين الشايربات الأمريكية والإسرائيلية في رسم صورة بشعة للعرب في الشمال الأمريكي. وفي العام ١٩٤٠، استولطت أمريكا على واحدة من الفضائح الكبيرة. وكانت القضية تحمل اسم «إيسكان». وهذه هي التسمية التي أطلقها مكتب التحقيقات الفيدرالي على العملية التي دبرها عدد من أعضاء الكونغرس لإثبات قبولهم رشاري من اجانب. وكان الاجانب شيوخا تغطي من العرب. لكنهم كانوا من يمين. أي افراد تابعون للباحث لعباءة على عدد من الأعضاء الكونغرس دور شيوخ الشرق، والعمل وفق بعضهم في الشرق. وخروجت البياض لتهال ليرافتها. إيسكان هذه في أحد جوانبها، على علاقة وثيقة بالحرب النفسية الأمريكية ضد العرب. وقد تساءل بعض الأمريكيين العرب في مجال «الشرق» ماذا كان يمكن ان يكون التأثير لو ان العملية اطلق عليها «إيسكان» أي القضية اليهودية بدلا من «الشرق العربية»؟ هل كانت ستتعلق صرخات متوهية، وتلطمس الثيورات الكاملة. إن قصة إيسكان موجه كامل لقصة العرب النفسية على العرب. فقد اعتبر المسؤولون عنها أن الاختيار الطبيعي لشخصية الرجل الذي يحاول ان يشتري مسؤولا أمريكا بالنفوذ. والذي لابد أن يلقي إشباع رد فعل ممكن من الرأي العام الأمريكي عندما تعلق القضية هو الشيخ العربي. وهذا الاختيار ما كان ليتم لولا ان هناك خلفية كاشفة، سياسية وثقافية واجتماعية ونفسية، تخدم كراهية صورة الإنسان العربي في الولايات المتحدة. (نوفل، ١٩٨٦).

وقد ذكر هيكل انه ليس هناك انفصال بين الدبلوماسية والقوة المسلحة، لأن الدبلوماسية ليست جوارا على طاولة المفاوضات بين رجال مهنيين، وإنما هي حوار بين مصالح متعارضة تستند كل منها إلى رادع حقيقي يحميها ويوضح طريقها، ولابد من التوفيق بينهما، وقد عبر عن ذلك كيسنجر بقوله: هناك زواج بين الدبلوماسية والقوة المسلحة، وليس بينهما طلاق (أنظر نوفل، ١٩٨٦). ويوضح هذا لسلافا، يتعامل في كيف تكون من ناحية سيكولوجية، دبلوماسية وعسكرية في الوقت ذاته كيف تحفظ سيكولوجيا التوازن بين العرب والمسلم.



ومكلمات أخرى، كيف تكون ملاكا وإيليسا في الوقت ذاته وكيف يتم التعامل مع ديبلوماسية والمقاتلات ومفاوضات متحالفة في علم النفس الاستعماري، والانتصاري، والاستخباراتي، وكيف يمكن فهم واستيعاب الكيفية التي تتم بها إدارة الحوار وكيف تفهم الطريقة التي تجري بها المشاورات المنظمة، والملاحظات الدقيقة، إن الملاحظة هي نقطة البداية في علم النفس. وقد تكون المقابلات والمفاوضات نوعا من المازلة العاطفية، تعطيها معركة نفسية حامية الوطيس، تكون الغلبة والانتصار لن يفهم لتقنيات واستراتيجيات الحوار والتفاوض، وخلق التوازن العظمى والعظمى.

يستخدم علم النفس بصورة تطبيقية، في دراسة العلاقات بين العرب واليهود (بن عري، وعصير، ١٩٨٦) لقد تعرض فؤاد المغربي، (١٩٨٦، رفعت سيد أحمد - ١٩٩٠)، للدراسات التي تعتمد على علم النفس الاجتماعي كإداة أساسية في التحليل، ويعد المنهج الذي يعرف باسم تحليل الشخصية القومية مفاد تلك الأبحاث. وقد نظمت موضوعاته عددا كبيرا من المجالات، الإسلام، الطفل الإسلامي، العقل العربي، تاريخ العرب، الثقافة، الحضارة، انماط تنضج الأطفال، والمواقف إزاء السلطة، والتوجهات التي أسفرت عنها تلك الأبحاث نشرت في صورة مطبوعة من العرب. وقد تأسس على هذا الكم من الدراسات شخصيات ونظريات وحسابات استراتيجيات ويرصد فؤاد المغربي أنه منذ ١٩٢٠ وما تلاه، ظهر في الولايات المتحدة الكثير من الأعمال في مجال علم النفس الاجتماعي، ويستخدم على نحو مكثف في لقاءات مع عرب وإسرائيليين. وتركز هذه الدراسات على التغيير المواقف والسلوك والفهم، وإساءة الفهم، والإمكانات الجديدة للحوار. ويذكر المغربي أنه، فيما يتعلق بنظرة الإدارة الأمريكية للنزاع العربي - الإسرائيلي، يمكن للمرء أن يصف تلك السمعيات كعقد، علم النفس السياسي، فقد وضع كلا من العرب والإسرائيليين على الأريكة، في محاولة لاكتشاف طريق إدارة نزاع بينو عسيرا، ويربط الكاتب بين ما ظهر في الخطاب السياسي الأمريكي نحو تأكيد الأبعاد السيكولوجية في النزاع كتحفيز لتغيير في المواقف مع بدايات العقد، ويرى اقتراح في الوطن العربي للمبادرات الأمريكية الخاصة باحتراف العرب بحلق إسرائيل في الوجود، في نطاق حدود عام ١٩٤٧.

لقد أصبحت دراسات «سيكولوجية الشعوب» كما يقول فوري حلفي (١٩٨٨)، سلاحا حريما مهما وحاسما، وتعني بالعرب هنا العرب المسلحة لا ما يطلق عليه - اصطلاحا - العرب النفسية، ولقد استخدم حلفي هذا السلاح، وعلى هذا المستوى بالتحديد، في مواجهتنا مع

إسرائيل عام ١٩٦٧، وهو استخدام يستحق أن تنعم فيه النظر. ولم يكن ذلك الاستخدام سرا عسكريا استطاعت مخبرات العدو أن تنظر به مناد، ولم يكن صادرا ولا خاطئا ولا قبيحا. ولم يكن سوى «سمة سلوكية» يكن جذورها السيكولوجية في أصق اصقاص تصرفاتنا اليومية البسيطة، المعنى سمة التسلؤم والتغافل. لقد اعتدنا أن نكره من يلقي إلينا بظفر مسموم، وأن نشتداه وتلعجه، ونشيع عنه بوجههنا. ومن الناحية الأخرى، لقد اعتدنا أن نكره أن نعمل نحن خيرا سينا، وأن نرصد الثراء منا كثيرا في أن يكون «ثاور شذو» وسمة سلوكية أخرى، تبدو أيضا وكأن لا خطر لها، بل لعل البعض قد يعتبرها مدعاة للفاخر، المعنى الطوف المفرط من الوقوع في الخطأ. الطوف من المحاولة. ولكن فلننظر إلى قول مورخناي هو قائد الطوران الإمبراطوري وهو يتحدث منسرا إحداه على «الغارة» بإرصاد الطائرات الإمبراطورية -كلها تقريبا- لهجمة الطوران المصري تاركا إسرائيل دون خطا، جوي- يقول: «لقد كان رأي خبرتنا أن الصورة لن تكتل أمام من يملك حق التصرف من القادة العسكريين في مصر قبل نصف ساعة، وله سيمضي نصف ساعة آخر قبل أن يقرر هؤلاء القادة العسكريين ماذا سيعطون، وهذه الساعة كانت كل أمنا، وعلى أساسها تم ترتيب كل ترتيبات خططنا». لقد انغمسوا في الغارة، على حسب قول حني، وأمامه هائلان السلوكيات: التغافل في الإبلاغ أثناء السينة، والتفرد حبال المرافق الجديدة.

## سيكولوجيا الإرهاب

في السنوات الأخيرة، أصبح الاتهام بـ «الإرهاب» هو المبرر الذي تلجأ إليه الدول الإمبراطورية الصناعية الغربية بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية لقمع أي حركة تحررية، وطنية كانت أم اجتماعية. لا تماشى أهدافها مع الخطط المعلنه والتشايكة التي تستند إليها الإمبراطورية العالمية في استنزافها لثروات وقدرات ومخازن العالم الثالث من النماء إلى اقتصاد (عطيف البرزان، ١٩٨٧). وفي كتابه عن الإرهاب الدولي الأسطورة والواقع، تناول تاسو مسمكني (١٩٩٠) هذا الموضوع بالعرض والتحليل الزافع مبتدرا دراسته بقصة الفريسان والأكسندر الأكبر. والتي تعبر بدقة عن أهداف علم النفس الكبرى والصغرى الخاصة بالتحكم والإرهاب الدولي. يمكن القديس (فلسطين قصة فريسان أسره الأكسندر الأكبر، وسأله: «كيف تجرؤ على الاعتداء على الناس في البحار؟» فلجأ الفريسان: «وكيف تجرؤ أنت على العالم بأسره؟» إني ألوم بذلك بسطة صغيرة

فمحمّد - قادسي لصاد. أما أنت، وأنت، تقوم بالشيء نفسه باستغلال كبير، فهدوءك امبراطورياً ويطلق القديس اوسمطين على يد القومسان بأنه «رائع ودقيق». وهذا الفرد برصد بشي، من المقاتلات الرامنة بين الولايات المتحدة والكثير من القاتمين بالأموار القانونية على مسرح الإرهاب الدولي. ويوجه عام، تلقى قصة القديس اوسمطين الضوء على معنى الإرهاب الدولي في الاستخدام الغربي المعاصر، كما تنفذ إلى لب ثورة الغضب إزاء أحداث إرهاب متتالية. وهي الثورة التي يهري توجهها الآن بمنتهى العيش كسائر للعنف الذي يمارسه الغرب. إن كلمة «إرهاب» تستخدمها الجيوش الأجنبية في إشارة إلى الأعمال التي توجه ضد من من جانب السكان المحليين الذين يرتفع كثرات احتلال تصال فترض تنوية سياسية كبرية، تستند إلى الغزو الأجنبي. وهي في هذه الحالة «النظام الجديد» الذي تسعى إسرائيل لفرضه (تشومسكي، ١٩٩٠).

لقد أوضح بنيامين نتانياهو (نيت، ١٩٨٦)، في مؤلّفه الدولي للإرهاب عام ١٩٨٦، بأن العامل المميز للإرهاب هو «القتل والتخويف المتعمد والمخطط للمكثف» والذي يستهدف إشاعة الرعب. ويلاحظ تشومسكي أن هذا المفهوم ينطبق على تونس. وعلى النطاق الأوسع الذي ارتكبتها إسرائيل على مدى أعوام، على الرغم من أنه لا ينطبق على معظم أعمال الإرهاب الدولي. ومن بينها معظم الهجمات الإرهابية العنيفة الموجهة ضد إسرائيل (مثل معالوت، وبمذبة سيونغ، وعدم الطريق الساحلي الذي وقع عام ١٩٧٨، واستقل كثرية لغزو لبنان). لقد ألف نتانياهو (١٩٩٧) كتاباً بعنوان «معاربة الإرهاب» وترجمه عمر السيد وأمين حماد العربية. وتقول جريدة «الشرق الأوسط» الصادرة في يوم الأحد ٢٧ يوليو ١٩٩٧ في عرضها للكتاب إنه يتخفى تحت مظلة المناقشة الحالية لفضية الإرهاب. وي طرح نتانياهو قضية الإرهاب عالمياً، ثم يفرق بين الإرهاب والجريمة المنظمة. حيث الإرهاب يعمل في طياته أهدافاً استراتيجيّة سياسية معضّة، بينما تظل الجريمة المنظمة مدفوعة بتحقيق للكاسب المادية والثراء السريع غير المشروع، لذلك يتشابه حجم الغزو والرعب الذي تنسب الجريمة المنظمة ذات المواقع الفردية مقارنة بالإرهاب الذي يهدد المجتمع بأسره. وي طرح نتانياهو في نهاية الكتاب وصفاه العشر التي يتخفى من خلالها الطغماء على الإرهاب العربي الإسلامي على المستوى الإقليمي والدولي، منها: فرض عقوبات على الدول المصدرة للتكنولوجيا النووية للدول الإرهابية، وفرض عقوبات دبلوماسية

واقتصادية وعسكرية على الدول الإرهابية نفسها، إيداع البؤر الإرهابية الموجودة في الشرق الأوسط، تجسيد المنظمات الخاصة بالدول والمنظمات الإرهابية الموجودة في الغرب، والتعاون في مجال الاستخبارات لمحاصرة الإرهاب، وإحداث تغييرات تشريعية بحيث تتبع تعذيب المنظمات المعرضة على العنف، ومن عمليات أكثر شديدا، وملاحظة فعالية للإرهابيين، وعدم إطلاق سراح الإرهابيين المسجونين، وتعريب قوات خاصة لمكافحة الإرهاب، وتوقيف الجماعات.

إن الأعمال البربرية والوحشية التي تقوم بها إسرائيل لا تشمل ضمن مفهوم الإرهاب، بينما الأعمال الدفاعية القليلة التي يقوم بها الأفراد الفلسطينيون تدخل في صميم الإرهاب، وتتطلب رداً انتقامياً من إسرائيل. وقد تكون هذه الأعمال الانتقامية في أي مكان في العالم، وفي أي وقت، ولأي مجموعة عربية، ويقصد بذلك سياسة التعذيب الجماعي والقمع والتعزيب سيكولوجيا، وفي الوقت ذاته الحرب للجميع بلا حدود. وبينما استخدمت النفس في الحرب النفسية بين العرب والإسرائيليين، وظف جزء آخر من علم النفس في عمليات التعذيب، والردع النفسي من خلال التحكم وتغيير الاتجاهات. لقد تم استخدام جزء كبير من التقنيات السيكولوجية بواسطة المخابرات الإسرائيلية في تعذيب المسجونين الفلسطينيين. فقد استشهد أكثر من عشرين فلسطينياً في السجون الإسرائيلية منذ ١٩٨٦، وفي يوم الخميس التاسع من مايو ١٩٩٧ دافعت إسرائيل عن استخدامها للقوة بالنسبة للإرهابيين الفلسطينيين، وأدعت أن هذه الممارسة لها ما يبررها من قبل جهاز الأمن لكي يتعامل مع أعمال التخريب والاضطراب التي يقوم بها الفلسطينيون وفي يوم ٨ مايو ١٩٩٧ رفعت لجنة الأمم المتحدة ضد التعذيب ببحث سجل إسرائيل في تقنيات التعذيب التي تستخدمها في الاستجواب مثل الرجز الشديد، وتعريض المسجونين الموسيقى الصاخبة لفترة طويلة، والتهديد بالرد مع ربههم في أوضاع مؤلمة (إرولكر، ١٩٩٧).

إن سيكولوجيا التحكم في الأفكار بواسطة الإعلام الأمريكي والإسرائيلي قلّص العالم تماماً بأن الشخصية الفلسطينية هو إرهابي بالدرجة الأولى، بينما الإرهابي الإسرائيلي بالجملة هو براء، يدافع عن نفسه، ويقول تشويشياً: تستخدم النقطة في الأوساط الإعلامية حول ما إذا كان من اللائق السماح للمراسنة والمصورين بالتعبير عن مطالبهم وتصوراتهم، على سبيل المثال تعرضت شبكة «إن بي سي» لانتقادات عنيفة لإجرائها حديثاً مع المتهم بالتخطيط لعملية اختطاف السفينة «الكيلي لاوود» وبالتالي فإنها تكون قد خدمت مصالح الإرهابيين، عن طريق السماح لهم

بالتعبير الحر دون الرقابة عليهم، وهو ما يعد طريقاً مؤسفاً للنظام الطوبى في المجتمع الحر، الذي يعمل بشكل منضبط... إن الرقابة الحرفية لا تكاد توجد في الولايات المتحدة، ومع ذلك فإن صناعة التحكم في الأفكار صناعة مزدهرة جداً، بل إنها صناعة لا غنى عنها حقاً في مجتمع يعتمد على مبدأ القرار للتخبة والإقرار أو السلبية للعامة (تشومسكي، ١٩٩٠). وعلم النفس الأمريكي به مساحة كبيرة جداً من التفكير السيكولوجي الحر، من حيث المفاهيم والنظريات والأدوات والمناهج بالنسبة لعلماء النفس في الغرب، ولكن في الوقت ذاته ينظر بدرجة كبيرة جداً في التحكم، وفي درجة الحرية السيكولوجية المتاحة للآخرين. وبصفة أخرى، هناك تشكيل للأفكار وصياغة للأفكار في ظل حدود الحرية المتاحة. وقد انعكس آراء المدرسة السلوكية في علم النفس هذه المقاربة المزججة، ويعتبر التحكم في الأفكار المطروحة في علم النفس ضمنياً، فالمهندسة السيكولوجية الغربية تعمل بدقة في عملية اختيار وتطوير المفاهيم والأفكار وتصويرها للعالم، ومن ضمن ما صدر واختير الطريقة التي تمثل أو تحسم بها صورة الآخر.

فكما ذكرنا سابقاً، فإن إسرائيل قصة دولة أمريكية، وسجلته اليهود أو الصهيونية العالمية على مجموعة كبيرة من المستعمرات القومية، والصناعات، وبشكل الإعلام الأخرى فيها. ومن طبيعة الفراع الإسرائيلية ودور الإعلام الغربي في تشكيل الأمر في ظل الحرية السيكولوجية القليلة، والعلاقات الطولية بين أجهزة الإعلام يروي الزوار سعد (١٩٩٧) بأنه قد حدث عام ١٩٨٦، خلال البيت والمظاهرات اللاحقة لبرنامج وثائقي عنوانه الانفارقة، كانت آ. (بي. بي. سي) أصلاً قد كلفت بإعداد، وقدمت معظم ترويجه. وقد كتب السلسلة وسرعاناً بصوته وأحدث مشهور وأستاد للمعلوم السياسية في جامعة ميتشيجن هو طي مزروعي، وهو كويتي وعلماء تسمى كلياته ونصداقوته كواسمي لغة من الدرجة الأولى على كل صناعة وريسة، وكانت لسلسلة مزروعي مقدمتان منطقيتان: الأولى، أنه للمرة الأولى في تاريخ توحيد طلبة تشيلات الغرب لأفريقيا، يقوم أفريقي بتشكيل نفسه وتشكيل أفريقيا أمام جمهور غربي، هو بالسيطرة الجمهور الذي قامت مجتمعاته، ليضع مئات من المليون، بذهب أفريقيا، واستعمارها واستعبادها. والقائمة المنطقية الثانية هي أن تاريخ أفريقيا مكون من ثلاثة عناصر، أو بلغة مزروعي ثلاث دوائر متحدة المركز: الهجرة الأصلية الأفريقية، وتجربة الإسلام، وتجربة الامبريالية. وكرد فعل للبرنامج الوثائقي الذي سريده مزروعي يقول سعيد بداية سحب «الصندوق الطوري للإنسانيات» دعه اتالي لبيت

هذه السلسلة الوثائقية، رغم أن السلسلة بدأت على قناة الـ (إم. بي. سي.) على أي حال، ثم إن الـ (نيويورك تايمز)، وهي الصحيفة الأمريكية الأولى، نشرت مقالات متوالية تهاجم السلسلة (في ١٤ أيلول، وفي ٩ و ٢٦ تشرين الأول، ١٩٨٦) كتبها المرسل التلفزيوني (يوجين) جون كوري، ولقد وصف إدوارد سعيد مقطوعات كوري، بأنها حقائق عديمة الإثبات أو شبه هستيرية، وأغلب ما فعله كوري هو أنه اتهم مزوحي شخصياً بأنه يمارس الإقصاءات والتكديرات العقلية مثلاً، أنه لم يذكر إسرائيل في أي مكان من عمله (في برنامج عن التاريخ الأفريقي قد تكون إسرائيل بدت لزوحي غير ذات علاقة بالفرس)، وأنه يبالغ مبالغة فسطحة في شروخ الاستعمار الغربي، وقد افرد كوري في هجومه بشكل خاص «إحداثيات مزوحي الأخلاقية والسياسية» في استبداله لبقعة ملطخة بحرية للفلسطين أن مزوحي ليس إلا دعائها ميت الضمير.

### الجمعيات السيكولوجية

قال إبراهيم إبراهيم إن الصهيونية العالمية قوة ذات نفوذ ضخم، وهيبة كبيرة داخل الولايات المتحدة، فموضوعها موجود في أروقة الكونغرس والبيت الأبيض، وفي دعايات مكاتب الحزبين الديمقراطي والجمهوري، وشكلت السيكولوجية من إقدام أهم المؤسسات الأمريكية، والتأثير عليها خلال العقود الأربعة الماضية، دون مجابهة جادة مع أي طرف عربي، أي من طرف الجاهلية العربية - الأمريكية، أو السفارات العربية والفتات الأمريكية المتعاطفة معها. ومن هنا جاءت السياسة الأمريكية منذ قيام إسرائيل عام ١٩٤٨ حتى اليوم مفعلة عن آمال وأحلام الصهيونية دون أي اعتبار لوجهات النظر العربية حول قضية فلسطين بشكل خاص (توفل، ١٩٨٦). ولم تكف الصهيونية بهذه المؤسسات، بل تغلقت في جميع الجمعيات والروابط العلمية والأكاديمية، ومن بينها عدد كبير من الجمعيات العالمية الناشطة في مجال علم النفس، والتي تهتم بالسياسة الداخلية للعلم والسياسة الخارجية له، وأهل الرابطة النفسية الأمريكية، والرابطة العالمية لعلم النفس غير الثقافي من أهم الروابط، إذا نظرنا للرابطة السيكولوجية لتوزيع علماء النفس العرب منذ كان عدد التنسبين للرابطة النفسية الأمريكية من الدول العربية لعام ١٩٩٧، هو ٦٦ من إحدى عشرة دولة (مصر (٧٧)، السعودية (٩٢)، الإمارات العربية (١١)، البحرين (٥)، الأردن (٥)، قطر (١)، سوريا (٢)، الجزائر (٣)، الكويت (٢)، اليمن (٢)، لبنان (١)).

والجدير بالذكر أن عدد الإسرائيليين في الرابطة هو ١٦٦ عضواً أي أن نسبة عضوية علماء النفس العرب لعلماء النفس الإسرائيليين هي ٢٨.٤ و ٧٩.٦ بالتتالي (علم النفس العالي، ١٩٩٧). ويمكن أن نلاحظ الفرق الكبير بين عضوية أمة سكانها ٦٥٠ مليون نسمة تقريباً تمثل ربع مشاركة أمة سكانها ٨ ملايين نسمة.

ولقد اتاحته الثورة الجنسية الهائلة في الغرب حرية الاختيار والتفضيل الجنسي بالنسبة للأفراد والجماعات. وظهرت جماعات الضغط من المواطنين والصحافيات، واعتمد علماء النفس، خصوصاً القواطين منهم، بهذه الجماعات. وتحت عضوية الرابطة النفسية الأمريكية إلى مدى واسع من الثقافات والجماعات المختلفة. ويشكل علماء النفس في الرابطة أصحابة جديدة لكي تكون صوتاً معبراً بالنسبة لهم، وتتوخ هذه الأقسام الفرصة للأعضاء لطرح القضايا الثقافية والاجتماعية بصورة موسعة. ومن بين هذه الأقسام القسم رقم ٤٤ الخاص بالقواطين والصحافيات وثقاني الجنس. والذي تأسس عام ١٩٨٥. وعندما قامت رابطة الطب النفسي الأمريكية عام ١٩٧٢ بعدم تصنيف الشذوذ الجنسي -الجنس الثالث- كمرض عقلي، فإن العلاج النفسي الأنثوي لطويها، أصبح أكثر قبولاً إذ يساعد الأفراد لتقبل هوياتهم الجنسية دون تغييرها. لذلك كان القسم رقم ٤٤ بمثابة دافعاً للنسبة إلى القواطين والصحافيات وثقاني الجنس في الرابطة النفسية الأمريكية (بيرند، ١٩٩٧). وقد أعلنت الرابطة النفسية الأمريكية في صحتها الشهيرة يوم ١٩٩٧ عن الترشيدات للجنة القواطين والصحافيات، وثقاني الجنس. ويجب أن يكون المرشح خبيراً في الثقافات المجتمعية، السكان، والرؤوسات الاجتماعية. ومن واجبات اللجنة دراسة وتقديم كيفية طرح قضايا عالقات النفس الصحافيات، وعلماء النفس القواطين من الذكور وثقاني الجنس. ولشجيع البحث في المجالات المذكورة أعلاه. وللجنة ستة أعضاء، ثلاث نساء وثلاثة رجال. ومن يأس في نفسه الكفاءة عليه ترشيح نفسه على أن يرسل خطاباً يتضمن اقتراحاته ومؤهلاته مع سيرته الذاتية إلى لجنة ترشيحات القواطين والصحافيات وثقاني الجنس بالرابطة النفسية الأمريكية (APA Resolution 1997).

ولقد عملت الرابطة النفسية الأمريكية في دليل سياسة مجلسها كل التصريحات والقرارات والبيانات التي تتعلق بالقضايا العلمية وتتم الرابطة وتنعكس هذه السياسة لتؤيد كل ما يخص موضوع حقوق الإنسان في العالم. وأبعد اللجنة الخاصة بالعلاقات الدولية دوراً كبيراً في تطوير

السياسة العالمية للرابطة النفسية الأمريكية. وفي العام ١٩٧٥ و العام ١٩٧٦، تبنى مجلس الرابطة النفسية الأمريكية القرارات التي تعين منظمة اليونسكو التي وصلت على عدم مساعدة إسرائيل وإبعادها عن المشاركة في التجمعات الإقليمية. وجاهل مجلس الرابطة في أن هذا القرار «التحرف بطور من أهداف اليونسكو الأساسية، التي يتوقع منها تشجيع المشاركة والتعاون بين الأمم عبر التربية والعلم والثقافة». وفي العام ١٩٧٧ قدم مجلس الرابطة إدانة ثانية لليونسكو في سياساتها الرامية إلى مساواة الصهيونية بالعنصرية (إنمارك، ١٩٩٧) ما غير موقف علماء النفس العرب من أعضاء الرابطة النفسية الأمريكية حول هذه القرارات. فهو الرافض أم الموافقة إذا كان الرافض. فمن الذي وقف هذا الموقف؟ يبدو أنه لم يرفع أحد من علماء النفس العرب حاجب عينيه لقول كلمة عن هذه القرارات، بينما ارتفعت أجنحة علماء نفس آخرين بطلاء وكبرياء وتبعاً للأجناد تكون هناك رؤوس منكمدة مطابقة ورؤوس مرفوعة مزعومة. وبواصل التساؤل: من يتابع تحريك علماء النفس الإسرائيليين لهذه القرارات من يكافح لكي يكون للفصائل العربية مكان في نهاليز وأروقة هذه الجمعيات أم أن حظيرة علماء النفس العرب في هذه الجمعية وغيرها من الجمعيات هي العضوية الصامتة أو الصناديق

خلال عشر السنوات بين ١٩٧٠ - ١٩٨٠ ساهم ٦٢ من علماء النفس الإسرائيليين في أبحاث عبر ثقافية نشرت في المجلة العالمية لعلم النفس عبر الثقافي. بينما ساهم فقط ٨ من علماء النفس العرب في تلك الفترة نفسها. ولقد تمت دراسة ١٢ مجموعة ثقافية في كل الدول العربية، بينما تمت دراسة ٢٩ مجموعة ثقافية داخل إسرائيل منها ١٢ مجموعة عربية. وتؤكد الألة المنشورة في الدوريات العالمية إنتاج علماء النفس الإسرائيليين لمجموعة هائلة من أبحاث علم النفس عبر الثقافي. وتعتبر إسرائيل الثانية في هذه الأبحاث على مستوى العالم بعد الولايات المتحدة. وذلك من حيث كمية الأبحاث. بينما تعتبر إسرائيل الأولى في هذه الأبحاث من حيث نسبة عدد علماء النفس في كل دولة (الوتر، ١٩٨٠). وتعتبر الرابطة العالمية لعلم النفس عبر الثقافي من أنشط الروابط في العالم، ولها أهمية بالغة الخطورة والتصدية لتطوير علم النفس عبر الثقافات المشتتة لقد قسمت هذه الرابطة العالم لمناطق جغرافية أو ثقافية مختلفة. فالعلماء المسؤولون عن العالم العربي



هو إسرائيلي مشلول شوارتز» من الجامعة العبرية بالقدس. ويرجع السبب في ذلك إلى نشاط الإسرائيليين في مجال الأبحاث غير الثقافية ولقدونهم على التجمع، وتوجيه المؤتمرات والجمعيات الأهداف الصهيونية بالجملة برؤوس عالية.

وأصبحت إسرائيل مركزاً للمؤتمرات العالمية، منها: مؤتمرات عن علم النفس الإكلينيكي، وعلم النفس المدرسي، وعلم نفس الطفل، والصحة النفسية، وفي بعض الموضوعات المتعددة مثل العلاج، تقنيات العلاج، والتكيف مع التوتر (إين هزي، وهنري، ١٩٨٦). عقدت الجمعية الدولية لعلماء النفس اجتماعها السنوي عام ١٩٧٥ في تل أبيب (حفظي، ١٩٩١)، وكان الموضوع الرئيسي لهذا الاجتماع هو الضغوط النفسية، والتوافق النفسي في الحرب والسلام. وكان من بين المتحدثين الرئيسيين في هذا المؤتمر عالم النفس الاجتماعي الشهير لازاراس الذي اختار موضوعها لخطابه إلى المؤتمرات «سببولوجية التوافق العصبية ومواجهتها مع إشارة خاصة إلى إسرائيل». ويحدد لازاراس موقعه منذ البداية قائلاً: «إنني أخطئكم جميعاً من موقعي: أولاً، كواحد من علماء النفس تركّزت بحثي وإسهاماتي النظرية في مجال دراسة التوافق العصبية والتصرف حيالها، وثانياً، كأمريكي يهودي في أواسط العمر يشعر - شأنه شأن غالبية أمثاله - بتواجد كامن مع تضال إسرائيل القومي من أجل خلق وتأمين مكان لليهود العالم في مجتمع إنساني متسامح». ثم عرض لازاراس لروايته السببولوجية للإسرائيليين مقررًا أن الإسرائيليين ككافة يواجهون ما يواجهه البشر عامة من أضرار ومخاطر، ولكن الإسرائيليين - بالإضافة إلى ذلك - يعيشون في ظل توقع القتل، أو فقدان الأحبة أو الأصدقاء، نتيجة للحرب أو للاعمال الإرهابية. وثمًا خطر مستمر لهجوم سفار قد يسببه تاجر ولد يكون مغالطاً. ويعاني الإسرائيليون أيضًا إحساساً مستمراً بالوحدة في عالم كله أو غير مبالٍ - ولابد أن هذا الإحساس قد تزايد بحدة في الحريف الثقافي حين تراجعت إحدى الحكومات عن مواقفها المؤيدة السابقة نتيجة القدرة الجديدة للدول العربية الفتية للقبول على التحكم في أسعار وكميات تلك المادة الحيوية بالنسبة للعالم الصناعي، هذا بالإضافة إلى ما آتاه ياسر عرفات من ترهيب عار في الأمم المتحدة، وما تقور بشأن طرد إسرائيل من اليونسكو، وكلا الأمرين نتيجة لسيطرة العالم الثالث على التصويت في هذه المؤسسات.

يعبر القنطط السابق بقلة متناعية عن طبيعة العلاقة بين منظمات علم النفس الأمريكية والمنظمات العالمة والصهيونية أو إسرائيل. لقد انطارت الجمعية الدولية لعلماء النفس - منظمة إسرائيل لطرح أحد الموضوعات التي لها علاقة مباشرة بهذه الدولة. ويمكن أن نقول أن علماء النفس العرب الذين ينتمون إلى أمة تعدادها ٢٥ مليون نسمة تقريباً، وهم لا يؤثرون في قرارات هذه الجمعية، بينما علماء النفس الإسرائيليون ينتمون إلى دولة تعدادها حوالي خمسة ملايين نسمة استطاعوا تحديدهم مقر انعقاد الجمعية في إسرائيل، وتحديد الموضوع المطروح، وتحديد علماء النفس الدافعين عن القضايا الإسرائيلية. وقد يتساءل الفرد هل حشر أحد علماء النفس العرب من أعضاء هذه الجمعية هذا المؤتمر في إسرائيل أو وجهت له الدعوة بالمشاركة؟ أو قدم ورقة من غير مشاركة؟ أو هجر عن رفضه للمشاركة؟ وقد يطرح السؤال بصورة أخرى: هل بالإمكان عقد الجمعية الدولية لعلماء النفس اجتماعها في إحدى الدول العربية؟ يبدو أن ذلك يثير حفيظة علماء النفس الإسرائيليين. ويمكنهم الفزع بصعوبة حضورهم هذا المؤتمر في بيئة عدائية لإسرائيل إن الإسرائيليين، على حد تعبير كزاراس، يعيشون في ظل توقع الطفل، وعاداً بالنسبة للعلمانيين قد يكون متخيلاً أن أحد أعضاء الجمعية هذه القسالة أن نخطي، إذا قلنا إن كزاراس يوظف بصورة سليمة البساطة، وإنما بصورة استراتيجيّة، لعلها موفّقون في الوقت نفسه موقفه كعالم نفس، وموقفه كيهودي المريكي. فما هو موقف علماء النفس العرب من توظيف علم النفس؟

نخلص في هذا الجزء من الدراسة إلى أنه قد تم تأسيس علم النفس الشعبي بواسطة فونيد، وعلم نفس الأعراف بواسطة ثرنيدك، وأيضاً مع وظيفة الاستعمار، واستخدم العلمان لفهم عقلية سكان المستعمرات، ودراسة الشعوب البدائية وصليّة التحكم فيها. بعداً استطاع بافلوف إدخال الكتب في المعدل دارساً بذلك الاستجابات الشرطية، وظهر بذلك نظرية التعلم الكلاسيكي. وقال بعداً جائزة نوبل في الفسيولوجيا، استطاع اسكندر إدمال الحماصة في صندوقه الشهير ثم درس السلوك الإجرائي في المختبر، واشتهر بذلك كأعظم سلوكي في تاريخ علم النفس، كما استطاع كوهلر إدخال سلطان الذكر أنواع الشمبانزي في القفص، وظهر بذلك نظرية الاستقصاء، وأدخل تولان الفكرة في متاهته الشهيرة، وظهر نظرية التعلم الإشعاري. وبعد إكمال صليّة التعلم والتدريب أم تخلق هذه الحيوانات الانقراض، والمعايل، والغرف، والتعاملات الجديدة لها فطرت إلى

رحاب أوسع. وقد يصعب وربما يستحيل إرجاع الفرد والكتب والمعاملة والشار إلى اقتصادها. وأصبحت تطبيقات علم النفس من أهم الأسلحة المستخدمة عالميا. فلم تتربص المعاملة لتربحيه التفاعل لطبعة الخرافات المتداخلة في الحرب العالمية الثانية بواسطة أسكتير الذي طالب بعلم تكنولوجيا السلوك كعلم موضوعي تماما كالعلوم البيولوجية والفيزيائية. وقام السوفييت بعملية غسل الدماغ بكمية التشريط نفسها التي قام بها بالفلوف في تجاربه على الكلاب. كما أجريت تجربة الفئال المبرمج من خلال عملية الترويض. واستخدم مقياس وكسلر بفعالية في اختبار اقلام التخبرات. وإن القسم المالي والعلمي والطبي من جانب التخبرات قد طوّر علم النفس من دون شك. فنال لباطرة علم النفس في مختلف التخصصات نضجا سقيا من التخبرات بعلم ومن غير علم للقيام بالأبحاث. ولخصور المؤامرات ونشر الطوعاد. وكتابة التقارير حول علم النفس والقادة في العالم.

ولقد لاحظ أحد علماء النفس المتفاهرين من التخبرات الأمريكية أن علمي التخبرات ليس لديهم معايير وقواعد لممارسة علم النفس. لكنهم يهزون تجارتهم بالجملة على الجانب وليس على الأمريكيين. وقام علماء النفس وأجراء التخبرات حول كيفية تغير المفاهيم على الأفراد وكيف تؤثر الصدمة الكهربائية الكبيرة على الذاكرة. وكيف يؤثر المزاج الجنسي الطول على اضطراب العقل. وتجارب أبحاث التحكم قد تخطت الكثير من الحدود التقليدية. والنهاية القصوى لهذه التجارب هي الموت. فإذا ما وصلت التجارب الجراحة بعد الموت حسب رأي الفيزياء الأكاديميين والأطباء عامة ما يتم العمل خارج أمريكا بصورة سرية تامة (ماركس، ١٩٧٩). إن اختلاطات علم النفس كما تجدها في الواقع الجمعيات والروابط السيكلوجية. وفي كتب علم النفس مثل: الخصوصية والسرية وحفظ السجلات. والمقاس النفسي. والعلاج النفسي. والعلاقة مع الموضوعين. وأخلاقيات الأبحاث (سبيغال وكوشنر، ١٩٨٥) يتم لتجارها وتجاوز كل الخطوط الحمراء الخاصة بالإنسان. إن ترك عملية التلاعب والتحكم في العقل للجبراسيس هي مسألة خطيرة. وكذلك يجب الانتباه كناية بالنفسية لطماء السلوك الذين خلفوا سببا للشك فيهم. ولقد تساق أسكتير نفسه من يستخدم تكنولوجيا السلوك؟ ويذكر بيرمران ويومر (١٩٦١) أنه في السنوات الأخيرة تباينت بعض الاتجاهات في الأدب الأكاديمي العام عن خطورة التطور العلمي الواتل في تكنولوجيا التحكم في سلوك وحقل الإنسان. ويمكن مصدر الخوف في أن تقنيات التحكم قد تطورت بدرجة عالية تهدد اليوم الأساسية للحضارة.

## علماء النفس العرب والتحكم بالقطاعي

تؤكد كتب علم النفس في المكتبة العربية أن لعلم النفس ثلاثة أهداف رئيسية هي: الفهم، والتنشيط (العرض)، والسيطرة (الجبر). (١٩٧٦). وإن رؤية الأعلام الركزية لعلم النفس في كل من مجالتي البحث والتطبيق السيكولوجي هي سلوك والنشطة النفس (نعمية أحمد، ١٩٩٢). ويساعد علم النفس بصفا عامة على دراسة وفهم وحل الكثير من الأزمات والمشكلات والصعوبات والانحرافات التي يعانيها الإنسان (الطويل وعلي، ١٩٩١). وإن الغرض الأساسي للبحث العلمي (فاخر علال، بلا تاريخ) ليس مجرد وصف الظواهر، بل نشط ذلك (إن تصورها). ولا يفتح العلماء بمجرد تفسيرات الظواهر، بل يريدون أن يتنبؤوا بالطريقة التي يعمل التصميم وفقها في المستقبل. والعالم الحق لا يكتفي بالتفسير والتنبؤ كهدفين للعلم، بل يتجاوزهما إلى محاولة الضبط وهو التحكم في العوامل الأساسية التي تسبب حادثا ما لكي نحصل على النتائج أو نتجنب وقوعه. كما يقول أحمد عبد الخالق (١٩٩١) فإن لعلم النفس أربعة أهداف هي: الوصف، والتفسير، والتنشيط، والسيطرة. والوصف هو تقرير عن الظواهر القابلة للعلاظة وبيان علاقاتها ببعض. أما فيما يخص ضبط السلوك أو التحكم فيه فإن عالم النفس يرمي لتعديل السلوك الذي يحتاج إلى تعديل. ولطس حمزة (١٩٨٢) أهداف علم النفس بأنها فهم السلوك وتفسيره، والتنبؤ بما سيكون عليه السلوك، وضبط السلوك والتحكم فيه بتدريبه وتحسينه. وأعلى ملايين للضبط هما: «محرمان الطفل من صفات الوالدين» واستعداد الطالب للدراسة الأدبية وعدم استعداده للدراسة العلمية. بينما أعطى عبد الزهار (١٩٩١) مثالا للتحكم في ظاهرة النجاح في الدراسة على أساس التوجيه التعليمي والتكيف على استعداد الفرد للنجاح في دراسة معينة. ومن أمثلة الضبط عند نجاتي (١٩٨٠) أثر التسميع في الحفظ، وعند عبد الستار (١٩٨٥) دراسة للتأثير المعن على انقباض

العين. ويعني الضبط بالنسبة لاسميان والفلسفي وبحوي (١٩٩٤) تحديد الظروف، واللازمات التي تحدث والتحكم في حدوث الظاهرة التي نحن بصدد دراستها. ويمكن على سبيل المثال التحكم في التفوق الرياضي في لعبة معينة عن طريق عمليات التوجيه والاختيار الضبط.

إن عالم النفس يروم تعديل السلوك الذي يحتاج إلى تعديل كتعديل سلوك المريض النفسي بعلاجه، وضبط (تعديل) سلوك المراهق الذي يذاب على قسم أفعاره (عبد الخالق، وبودار، ١٩٩٢). وإن فهم الظاهرة ومعرفه أسبابها ومصلحتها يمدن على التنبؤ بحدوثها وعلى ضبطها والتحكم فيها. وهذان هدفان مملوآن من أهداف العلم، كل علم، وإذا عرفنا استعداد فرد لتهمة أو دراسة معينة وعدم استعداده لتهمة أخرى، نستطيع لنا أن نتجنبه الفضل في إقصائه في مهنة أو دراسة ليس مؤهلاً لها (إبراهيم، ١٩٨٧). وإذا كانت الروح الطيبة للمسيكولوجيا الغربية الحالية هي روح تطبيقية بالدرجة الأولى، حيث صار من الضروري توظيف نتائج أبحاثها في شتى المجالات التنموية، وبشكل خاص في مجالات التوجيه التربوي والاختيار المهني والتشخيص العيادي، فمن حقلنا أن نتساءل عن الاهتمام التطبيقية لنا بتداول عندما من أبحاث ودراسات سيكولوجية، ومن واجبتنا أيضاً أن نتساءل عن الأبعاد التطبيقية لنتائج هذه الأبحاث. وعن امتدادات استشرافها في مجال خدمة القطاعات التنموية الحيوية وأجل المجتمع العربي (الحرشان، ١٩٩٤). وفي دراسته المؤدية عن الصورة الشاملة عن علم النفس الحديث، وجد سموف (١٩٧٨) أن بعض أفراد مهنة دراستهذكروا موضوع الإفادة العملية من تطبيقات علم النفس، إلا أنها اقتسرت على ذكر ميدان واحد من ميادين التطبيق وهو ميدان العلاج من الاضطرابات النفسية. وذكر أربعة الشواخص من ٥٠٠ فقط ميدان الصلابة، وأربعة آخرون أشاروا إلى التطبيقات في ميدان الجريمة، وشأنية أوردوا ذكر ميدان التربية.

وسوف نذكر القول بأن كتب علم النفس في المكتبة العربية تنطق على أن هناك ثلاثة أهداف رئيسة لعلم النفس هي الفهم والتنبؤ والضبط. ومن أسئلة الضبط والتحكم المذكورة في الكتابات العربية السابقة الاستعداد الدراسي والذهني، والتحكم في ظاهرة النجاح في الدراسة، وتعديل سلوك المريض، وضبط سلوك المراهق والمجانح، والتحكم في التفوق الرياضي، والتحكم في الجريمة. إن الهدف النهائي للعلم هو هدف تطبيقي. هل نجح علم النفس في تحقيق هذه الأهداف الخاصة بالتحكم الفعال؟ وهذا نتساءل، من غير نهكم، هل هدف علم النفس فقط هو الضبط للممكن في المدرسة أو المريض المشتغل على حاله في العيادة النفسية أو الأصم والأبكم

والكثيف والمتنظف عقليا أو حركيا في معاهد الرعاية الخاصة، إنها نظرة تقليدية تميزت بها على أي حال. وقد تكون الكتب العربية التي تعالج علم النفس بهذا المنظر هي مجرد اقتباس أو ترجمة للكتب الغربية. ولكنها القليلة أو ترجمة «ميكروية» تركز على جوانب محددة من علم النفس أي ما أسميه «علم النفس بالقطعي». هل حتى في حالة التحكم بالقطعي استطعنا حقيقة وفعلنا أن نتحكم في التلمذ والتربص والعامل؟ وهل يشعر علماء النفس العرب أن علم النفس الذي يدرسونه في قاعات الجامعات له ارتباط حقيقي بقضايا المجتمع الواقعية؟ أم أن علماء النفس العرب لا يسألون أنفسهم هذه العينة من الأسئلة المرجحة، وماذا يحدث لو انحلت أقسام علم النفس في كل الجامعات العربية؟ وإن جزءا كبيرا من حقيقة علم النفس الغربي، أو الأوروبي، واليوري - أمريكي هي حقيقة استيعابية، واستيعابية، واستيعابية. ويحل ذلك الأهداف الكبرى لعلم النفس كما وضعنا سابقا. ولكن عندما يستجيب علماء النفس العرب لعلم النفس، فإنهم يتركبون بصورة تميزت بها الأهداف الصغيرة لعلم النفس، أو علم النفس بالقطعي كما يفضل أن أسميه. وربما تكون هناك غفلة في متابعة التطبيقات الكبرى لعلم النفس التكتيقي والمستقر منها، ونفظة أخرى في مولاة الاستيعاب العالي لعلم النفس من الغرب. وكيفية استيعاب علماء النفس فيه لهم ألة القلائع. التمكن في علم النفس، لقد فرغ بعض علماء النفس من اللغز وأقام في علم النفس العالي. وتركوا علامات مميزة، أو بصمات بارزة مثلا كجيتسيافسكي من تركيا، ولزوما من اليابان، وكيم من كوريا، وسنوا من الهند، ولا فني من الفلبين، ومقدم من إيران. وكان هؤلاء العلماء موضع احترام عام في الغرب. لأنهم استوعبوا جيدا كيف يفكرون ويعيدون قراءة علم النفس. والسؤال أين علماء النفس العرب من هذا السياق العالمي لعلم النفس؟ وماذا لا يوجد علماء نفس عرب عظام يعبرون عن الحقيقة السيكلولوجية في مكانها وكيف يمكن قراءة علم النفس بصورة نكية والسؤال الأهم لماذا توجد أهداف سطحية لعلم النفس في الكتب العربية لتساق قما فخرست في التحكم؟ ولكن لماذا يبدو أن محاولة التسلسل هذه لم تتجاوز خطوات سطحية كسيحة في قاعدة الجبل؟

ويبدو أننا في العالم العربي عندما ندرس نظرية بافلوف الشهيرة نتحدث عنها كعمل مذهل وتشويق. ولكن عندما نعتمد بها المصوغات والأمريكيون نظروا على أنها أداة فصل الأمعاء والتحكم في الآخرين بالكيفية ذاتها التي درب بها بافلوف كلابه عندما بحث في كيفية استيعابها الفسيولوجية. وعندما ندرس نظرية اسكندر العملاقة في التعلم الإجرائي نتحدث عنها كعملاقة بين

## عالم الفكر

مثير واستجابة. ولكن عندما اهتم بها الأمريكيون وظهروا في كتابهم جيا السلوكة. وتصديق الثقافة وبمحاولة تدريب العماد لتوجيه القضايا. وعندما ندرس القابلة كمنهج لجميع المعلومات في علم النفس نهتم بها في إطار القطاعي في مقابلة التلميذ. أو المريض. أو العامل. ولكن عندما نطبق في الغرب وفي إدارة الصراع العربي - الإسرائيلي نستخدم بالجملة في الحرب النفسية والاستجواب. ومقابلة الأسرى. والتعامل مع السجناء. وفي كل المحاولات التي تحتاج لقدرة عالية من الذكاء الاجتماعي كاللغات الدبلوماسية والفاوضات. وعندما ندرس التفوق في أروقة الجامعات ربما نستمتع بمشاهدة التعبير النفسي بتلاعب بالأفكار على خشبة المسرح. بينما نستخدم في الغرب استخداما استراتيجيا في تجارب القاتل البرمج. وفي محاولة خلق إنسان مثورياء الذي يقوم بعملية الفشل في أي ركن في العالم. وعندما ننتهي من بحثه لا يعرف من أمره بذلك.

إن النظرة الفاحصة لا تخطئ. إذا قلنا بتأثير علماء النفس العرب. من هم في كليات التربية ومن هم في كليات الآداب. ويمكن التساؤل. هل قال علماء النفس في الآداب خلاف ما قاله علماء النفس في التربية أريد أن أسأل نفسي وأسال علماء النفس العرب. لماذا يشعرون من التحكم. هل استطاعوا إضلال الفرد. أو الكلب. أو السمكة. أو حتى الطائرة في العمل حتى نتحدث عن الفهم والتفسير. والتنبؤ. والتحكم. ربما تكون الإجابة بنعم بعد الرجوع. أو العودة أو التمسك أو الارتداد للتقارب. فنامم التكسار النفسي. كما يقول فليمن (١٩٩٠). يصبح الإنسان بالتصحر التاريخي تعريضا من الهزيمة. يقول بروفيسر يدري (١٩٩٩) إن مدرسي الصفوف من علماء العرب استكبريون آلاف السنوات قبل أن يولد السكندر. يمكن أن نقول أن العرب قاموا بتدوير الصفوف. بينما قام اسكندر بتدوير العماد. فكان تدوير الصفوف لتابعة السيد. بينما تدريب العماد للتوجيه القنابل لأغراض الدفاع أثناء الحرب العالمية الثانية. ويمكن أن نعيد النظر مجددا ما بين النظر والنظر وطول النظر. وما بين التفكير في البطان والتفكير في التحكم. ما بين التحكم بالقطاعي. والتحكم بالجملة. وهذه القابلة المعينة قد توضح طبيعة المارق الذي يجابه علم النفس في العالم العربي. وبكلمات أبق المارقي الذي يجابه علماء النفس العرب في فهم مغزى قصة علم النفس المعقدة.

إن قصة علم النفس في حقيقها كعقوبة وجهي العملة. يمكن أحد وجهيها قصة الاستعلاء والامبريالية. والخيالات. وأنها قصة الأوهام. والطمع. والتخسوع. والانتسلاخ. وأنها قصة

الترويج، والبلع، والتمويه، والراوية، والنداح، والتعذيب، والخلل، وحق كل ذلك قصة النفس والجسم. بالإضافة إلى ذلك هي القصة المراسية للعمليات الاستثنائية التي تطبق فيها تقنيات علم النفس بمهارة فائقة في العمليات متعددة المصطلحات كالأحداث في السلام، والعمليات الوظيفية، والعمليات المتطورة، والعمليات السرية، والعمليات التحتية، والعمليات المبهمة، والعمليات الغامضة، والعمليات الباطنة، والعمليات الخفية، وربما العمليات الأليسية. إن أصل السطر الأكثر شيوعاً بالنسبة لعلماء النفس هي أرولة الجاسبات، ومطبرات علم النفس، وقاعات المؤتمرات، وأنشطة الجمعيات والروابط المسكونولوجية. وقصة علم النفس هي قصة وجود أفراد مقيدين بالخطأ، أو كما غير المثلون بوجود «أشخاص خارقين القدرة في العمل في السلام». وقصة علم النفس هي الوجه الآخر من العملة هي قصة النكاح، والفترات، والواجب، والمهارات. وهي قصة المفارقة، والمخاطرة، والمجازلة. كما هي قصة المصائب، والمعدلات، والثقة المتناهية، والتزيق الذي يهيج علماء النفس العرب هو كيفية التعامل أو الجمع بين خطئ التكاليف، أو الضلالت، أو الطباقات، وهي التي تعني، وتسمى علم النفس. وبصفة أخرى كيف يمكن التعامل مع علم النفس بهذه الصورة المعقدة وكيف يمكن ذلك. ومن العمليات المزيجية وكيف يمكن لعلماء النفس العرب التفكير بزيئة جديدة في التزاوج أو التلاقح أو قبول التعامل مع بعض الحطة الصورية والتكاليف أو أداء الفرائض والواجبات في الوقت نفسه.

<http://Archivebeta.Sakhi>

لقد حكينا قصة علم النفس، فكيف تكون الاستجابة المناسبة لها؟ ويوسع الرد أن يطرح بعض التساؤلات عن كيفية التعامل مع قصة علم النفس التي فعلت فعلتها، الحسن منها والشر. والتي طلق علم النفس من أجلها، والتي خلقها عندما شق قدره بنفسه. التحكم على علم النفس بأنه علم جاسوس وعلمي! أم أنه علم كافر أو ملحد كما غير أحد علماء النفس العرب! يمكن اعتبارهم من «الزوايا والاشكالات والكوارث» حسب تعبير أير ديب. وإن علينا بآراء كما يثير العامة من جسم الإنسان! ومن ثم يجب علينا أن نتعلم، ونترجم، بل نفضل، ونشعر منه! أم نعامل علاجه بغير الإمكان! ونشاول مصلاً وأقرباً منه في حالة هذه المعالجة هل نداول النفاق، أو التعيش، أو التكيف معه كما نلغضي الضرورة التطورية أو التنشوية! في تقديرنا، أن عينة الأحكام المتسقة السابقة تحتاج لإعادة الملاحظة. والملاحظة هي نقطة البداية في علم النفس. ولكن ما أصبح حب الاستطلاع بالنسبة للدارس! ما هو الموقف المناسب من علم النفس من وجهة نظر الباحث!

ويمكننا أن نجد طرق التساؤلات السابقة بصورة أكثر إيجابية، كيف يمكن فهمه؟ وعندها واستعماله؟ ومن ثم تعبير الروح الطلاقة الكاسية فيه من مفاهيم ونظريات ومذاهب ونظائر؟ وكيف



يمكن تجاوز النظرة التقليدية المايكروية لعلم النفس إلى نظرة استراتيجيه عملاقة وحكيمة، كيف يمكن لعلماء النفس تدعيم علم نفس يمكن بواسطته أن يصاغوا به، ويصاغوا به الآخريين في حلقة من التكرار والتكرار، الحقيقية لا الزائفة أو الوهمية، وكيف يمكن أن ينطبق على علماء النفس قول جورج لورول بأنهم داخل جوف الموت وخارجه في آن واحد، إن إمكانية التطول والظهور تغير بدقة متناهية من علاقة علم النفس بالحرب البارزة خاصة بالأسس العسكرية التي رعت هذه الحرب بحثاً عن تقنيات الحرب غير تقليدية، أو غير القتالية

الأسس العسكرية مؤسسية أساسية في تطور علم النفس، لذلك سوف نجازف بطرح بعض الأسس الأساسية، والتي تلورت من خلال هذه الدراسة، وربما تكون هذه الأسس غير مطروحة ولكنها أسس استراتيجية على أي حال. وقد يتصل أحدكم من علماء النفس العرب في المخابرات العسكرية العربية كم عدد المشتغلين في أطياف الحرب النفسية، وكم عدد المشتغلين منهم في الحرب النفسية، وكم عملاً لعلم النفس العربي في العالم العربي، وما طبيعة الأزمات والتحديات المستفحلة في هذه المجالات من هناك قد لايس مطروحة للقاء، والشخصية والفردات والمهارات، وكم متخصصاً في القياس النفسي في مجال الاستخبارات أو في التنوير، أو في تحليل الدماغ سواء على الطريقة الباثولوجية أو الاستكشافية، وكيف يفكر علماء النفس العرب بصورة استراتيجية في علم النفس، وكم من علماء النفس يشاركون في المفاوضات الدولية التي تخص العالم العربي، هل هناك من مؤيدي الحرب من علماء النفس العرب من يتابع تطور علم النفس في إسرائيل أو في أمريكا، من يواجه القرارات العالية التي تخص العالم العربي في أروقة الجمعيات والمنظمات السيكلولوجية، كيف يتشاق علماء النفس في حالة إحساسهم بفجوة في التفكير السيكلولوجي الاستخباراتي في العالم العربي، قد لا نجد إجابة صريحة لهذه الأسئلة وذلك لأن طبيعة الموضوع وحساسيته تحول دون ذلك. ومن المناسب أن نذكر مقالته واسمائه عندما رفض إجراء مقابلة مع جون هاركيس (١٩٧٩) بخصوص كتابه المثير «البحث عن موشح سنشوريا: الـ سي. آي. في والتحكم في العقل» ذاكرة، أنا مهني وذلك لا أصدق من هذه الأشياء. هناك أشياء كثيرة لا تتناسب مع العامة وليس لهذا علاقة بالديمقراطية، إنما لها علاقة بالبيئة العامة، أو كما عبر كل من بن عربي، وهجر (١٩٨٦) عندما أجريا دراسة عن علم النفس في إسرائيل توقفاً عن ذكر الأبحاث الواسعة التي يجريها قسم الأبحاث السيكلولوجية في قوات الدفاع

الإسرائيلية فالتقن، ولأسباب واضحة، ليس من الممكن توضيح نوعية الإبداعات التكنولوجية التي تجرى في هذه الوحدة. ولكن ربما يمكن مجرد التفكير في هذه الأسطة أو المشابهة لها من قبل علماء النفس، أو من قبل المفكرين الاستراتيجيين في الدول العربية، إن الإجابة عن هذه الأسئلة قد تساعد في شرح الطريق لطبيعة علم النفس أو طريقة التفكير الاستراتيجي الذي نحتاج إليه في العالم العربي. أحر علم نفس بالجملة على الطريقة الألمانية والروسية والبريطانية والأمريكية والإسرائيلية، أم علم نفس بالقطاعي على حسب الطريقة العربية؟ إنطلق علماء النفس مع سياسة حكوماتهم؟ أم هم من المعارضين لهذه السياسات؟ أم هم مع الاثنين معاً؟ أم لا مع هذا ولاذاك. بل يهتدون بتقديم علمهم لمصنف؟

ويبدو أن علماء النفس سيكولوجيون في وضع مماثل للعلماء الألمان المتخصصين في الفئات الوجهية، أولاً قد عملوا بإخلاص مع هتلر لتدمير الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة، وأخيراً يعتمد الأمر على من ألقى القبض عليهم، لقد عملوا بإخلاص مع الاتحاد السوفييتي لتدمير الولايات المتحدة، أو عملوا بإخلاص مع الولايات المتحدة لتدمير الاتحاد السوفييتي، وإذا كان علماء النفس مهتمين كلية بتقديم علومهم فيمثل أن يقدموا أي مجموعة تلك السلطة (روجرز، ١٩٦٦). إن علماء النفس مطالبون بالتقدم في أبحاثهم واكتشافات الجديد، وكلما زادت فرجة التحكم في نوعية التكنولوجيا المنتجة فإن قرار استخدامها سيكون خارج يد علماء النفس. ومن الصعب الآن وضع تكنولوجيا التحكم في صفتونها (ماركس، ١٩٧٩). ولقد انتشرت هذه التكنولوجيا في رئاسة ومؤسسات الاستخبارات في العالم، وفي المؤسسات العسكرية والقسام الحرب النفسية، وفي البعثات الدبلوماسية، وفي الفرق الإعلامية، وفي السجون والمعتقلات، وفي محطات البوليصة، وفي المستشفيات العسكرية، خاصة أقسام العلاج النفسي، وفي تدريبي، إن السلاح النفسي في الوقت الراهن ربما يكون أهم من السلاح النووي، أو البيولوجي، أو الكيميائي. فقد انهار الاتحاد السوفييتي والعسكر الشرقي بتكنولوجيا الحرب الباردة، وهي حرب نفسية في النقام الأول. وبانتهاء هذه الحرب الباردة كما يقول إدوارد سعيد (١٩٩٧)، «برزت الولايات المتحدة بوصفها آخر القوة العظمى». وبحلول هذه الفترة العظمى بفشل الحرب النفسية جزاً كبيراً من العالم من عالم ثانٍ إلى عالم ثالث، وأصبحت السيطرة ألقية متمكنة بالجملة، وأخيرة ملاحظة متكومة لا يسمح لها بالتعبير وإلا بالقطاعي، ويمكننا التكون بأن عملية التخطيط

المفاهيم مستمرة، والبرمجة المنظمة بصورة استراتيجيه لزيادة تقنيات السيطرة في علم النفس مستمرة. وفي إطار ما يسمى بالعملاء الخاصة، سوف تكتمل تلك الحلقة بين علم النفس الذي يستهدف التحكم، وهدف ما يسمى بالنظام العالمي الجديد في التحكم بالجملة.

وفي الخبيري، انه في ظل الاستخدامات الهائلة، والمرعبة لمجالات، اعلم النفس من جهة، وفي ظل تجاهل، أو إهمال، أو إغفال الجذور التاريخية، والاستعمارية، والأميريالية، والمخابراتية لعلم النفس، سوف يفتتح علماء النفس العرب أنفسهم لمزيد من التهميش، ومزيد من السيطرة البغيضة من جانب عملية التلاعب التحكمي بعلم النفس نفسه وبغير تطبيقاته بالجملة. ربما يرى أحد أن الحديث عن علم النفس بهذه الصورة المضمخمة نوع من الدعاية لعلم النفس، أو نوع من الهستيريا بالقوى العقلية التي تتحكم في العالم، أو هو نوع من الهوس، وأن من يشغف عن علم النفس بهذه الكيفية إنما هو انغماسي بالدرجة الأولى **لأنه** يدافع في تعزيز نوع من جلون العظمة لعلم النفس وتطبيقاته بالجملة. أو ربما **يرى آخر أن** منطاري كالج، أو رؤيتي تشاؤمية للتطبيقات الهامشية لعلم النفس في العالم العربي ومع كل ذلك يجب أن ندرك أن هناك إلا بأن القوى التي يريها السيطرة العالمية لن تكون مسيطرة لأبد، وربما تستمر سلسلة السيطرة البغيضة لفترة من الزمن، وحينما ستكون هناك إمكانية مطروحة للاعتناق من هذه السيطرة، ولكن هذه الإمكانية مسروقة بحالة الوعي، واليقظة، والإنهاية، وبوجود علماء للنفس يلاحظون علمهم بالغة الكفاءة للجهل الحساس، وأن تكون ملاحظاتهم لنا يجري حوارهم، وعليهم ملاحظة دقيقة بعينين حداثتين. وبمرأها هذه الثقة المطلوبة لتكون بأن تكون هناك بداية لتقدم دال في اتجاه جديد. فكيف ستكون الاستجابة المناسبة من قبل علماء النفس، ومن قبل الممثلين الاستراتيجيين في تطبيقات علم النفس؟ وفي أي حال، وبهما تكن نوعية الاستجابة، هناك أهمية بالغة لتعلم بعض الدروس والعبر من تطبيقات علم النفس الهائلة في المجال الاستراتيجي، ربما في بادئ الأمر بقصد حماية الذات من مزيد من حالة القبيو، أو من مزيد من حالة الانكسار النفسي أمام الأغربين الذين يطبقون علم النفس بالجملة.